تصدر عن البجلس الوطنم, الثقافة والغنون والإداب. دولة الكويت

المجلد الثامن والعشرون- العدد الثالث- يناير/ مارس ٢٠٠٠

إثكالية اللفة العربية

- فرضية الحتمية اللغوية واللغة العربية
 - اللغة ودلالاتها
- مفهوم الحجاج عند «بيراان» وتطوره في البلاغة المعاصرة
 - المصطلح الأذبي: بين غناه بالمعرفة وغناه بالتاريخ
 - المأثور القولي في تنمية لغة الطفل
 - تعريب التعليم الجامعي
 - في طور التنفيذ : معجم جديد للترجمة

أفاق نقدية

- العولمة: الآثار البشرية (عرض كتاب)
 - بين التذوق والنقد المسرحي
- علم النفس والتحكم؛ نظرة للحرب الباردة



عالمالفكر

مجلة دورية مُسحَكِّمة تصدر أربع مرات في السنة المجلد الثامن والعشرون العدد الثالث - يناير/ مارس ٢٠٠٠

رئيس التحرير: د. محمد الرميحي

مستشار التحرير: د.عبدالمالك التميمي

هيئة التحرير: د. خلدون النقــــيب

د. رشاحمود الصباح د. مصطفی مصفرفی

د. عـــــــدالله العــــــرـي

د. بدر مـــال الله

مديرة التحرير: نوال المستروك سكرتير التحرير: عبدالعزيز سعود المرزوق

عالمالفكر

تصدر عن المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ـ دولة الكويت

عِلة فكرية محكمة ، تهتم بنشر الدراسات والبحوث المتسمة بالأصالة النظرية والإسهام النقدي ف عِالات الفكر المختلفة .

قواعد النشر بالمجلة:

ترحب المجلسة بمشاركة الكتباب المتخصصيين وتقبيل للنشر المدراسات ـ والبحوث المتعمقة وفقا للقواعد التالية :

- ١- أن يكون البحث مبتكرا أصيلا ولم يسبق نشره.
- ل يتبع البحث الأصول العلمية المتعارف عليها وبخاصة فيا يتعلق بالتوثيق والمصادر مع إلحاق
 كشف المصادر والمراجع في نهاية البحث وتزويده بالصور والخزائط والرسوم اللازمة.
 - ٣ ـ يتراوح طول البحث أو الدراسة مابين ٢٠٠٠ ألف كلمة و ١٦,٠٠٠ ألف كلمة.
- ع. تقبل المواد المقدمة للنشر من نسختين على الآلة الطابعة ولا ترد الأصول إلى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر.
 - ٥ تخضع المواد المقدمة للنشر للتحكيم العلمي على نحو سري.
- ٦ ـ البحوث والمدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات أو إضافات إليها تعاد إلى أصحابها الإجراء التعديلات المطلوبة قبل نشرها.
- ب تقدم المجلة مكافأة مالية عن البحوث والدراسات التي تقبل للنشر، وذلك وفقا لقواعد المكافآت
 الخاصة بالمحلة .

الدراسات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء أصحابها وحدهم.

ترسل البحوث والدراسات باسم : الأمين العام للمجلس الوطني للنقافة والفنون والأداب ص . ت ٢٨٦٢٣ - الصفاة - الرمز المريدي 13147 دولة الكويت

المحتويات

صفحة	إعمالية اللله القربية
٩	فرضية الحتمية اللغوية واللغة العربية
44	اللغة ودلالاتها: تقريب تداولي للمصطلح البلاغي
٥٣	مفهوم الحجاج عند دبيرانان، وتطوره في البلاغة المعاصرة محمد سالم ولد محمد الامين
	المصطلح الادبي: بين غناه بالمعرفة وغناه بالتاريخ
11	بعض مصطلحات الشعر العربي لدى القدامى – نعوذجا د. صالح غرم الله زيّاد
177	توظيف الماثور القولي في تنمية لغة الطفل المنصور
197	تعريب التعليم الجامعي «أضواء على تجرية» تحقيق: د. تغريد نصر أصفر
**	في طور التنفيذ: معجم جديد للترجمة من العربية إلى الإنجليزية محمد محمد حلمي هليل
Yo1	آفاق نقدية
707	العولة: الآثار البشرية
	عرض وتقويم: ١. شغيقة بسنكي
774	بين التذوق والنقد المسرهي درراسة تحليلية لجماليات التلقي المسرهي، د. أحمد صفر
440	علم النفس والتحكم: نظرة للحرب الباردة

تقديم

إن اللغة العربية تتصل مباشرة بهوية وثقافة وحضارة الأمة، كما أن تقدما هائلا في علم اللغة بشكل عام نتيجة للتطور العلمي المعاصر قد تم ويبدو اننا بعيدون عنه عقودا كاملة، فلا تعليمنا للغة العربية قد تطور في مدارسنا وجامعاتنا، ولافي إعلامنا وكتبنا، بل إننا نشهد العكس من ذلك حيث تواجه اللغة العربية -وعلى جميع المستويات - تراجعا ملحوظا هو في حقيقة الأمر جزء من وضع حضاري عام يعيش أزمة خانقة في النصف الثاني من القرن العشرين. إنن هناك إشكالية في اللغة العربية وفي مدى استخدام التقنيات تدريس اللغة، وعلاقتها باللهجات المحلية، وفي مدى استخدام التقنيات المعاصرة في علم اللغة، واللغة والثقافة وغيرها من الموضوعات.

وعلى سبيل المثال فإن أزمة اللغة واللهجة العربيتين قد أنتجت مصطلح اللغة الثالثة، أو ما يسمى باللغة الوسيطة، وهي لغة المثقفين العرب عموما، كما أن سؤالا يثار بين الحين والأخر: ما دور مجامع اللغة العربية في ترقية وتحديث العملية اللغوية، وما دورها في ربط المفردة اللغوية بحركة الحياة؛ ثم ما دور المؤسسات التربوية والتعليمية والثقافية والإعلامية بالارتقاء باللغة العربية قولا وكتابة؛

وعندما يتعرض البحث الأول في هذا العدد لفرضية الحتمية اللغوية واللغة العربية فإن الباحث هنا يعتقد بان هناك دورا اساسيا للغة في تشكيل الفكر، أي أنها الوعاء الذي يتشكل فيه الفكر، ولذلك هناك حتمية للعلاقة بين الفكر واللغة. وينتقل بنا البحث الثاني إلى موضوع اللغة ودلالاتها، ويغوص بنا الباحث في البلاغة اللغوية وطرح قضية مهمة اهتم بها النحاة والبلاغيون وغيرهم، وهي ممارسة المنهج التداولي في اللغة فهو رؤية ومنهج للبلاغة والنحو والمنطق النقدي، تقوم جدليته بين الواقع والاعتقاد.

وتتتابع الدراسات في هذا المحور لتشمل: مفهوم الحجاج عند «بيرلمان» وتطوره في البلاغة المعاصرة، والمصطلح الأدبي بين غناه بالمعرفة وغناه بالتاريخ، والماثور القولي في تنمية لغة الطفل، وتعريب التعليم الجامعي، ومعجم جديد للترجمة، يضاف إلى تلك الدراسات عرض لكتاب العولة: الآثار البشرية، ودراستان تتناولان التذوق والنقد المسرحي، وعلم النفس والتحكم.

إن مجلة «عالم الفكر» تحرص على طرح الموضوعات الجديدة والمهمة في حياتنا العربية، وهي تقوم بإعادة إنتاج الماضي من أجل التجديد والإضافة الفكرية والتراكم المعرفي.

نتمنى أن تكون موضوعات هذا العدد مقدمة لفتح حوار بناء، وكتابة متطورة حول هذه القضية التي أسميناها إشكالية اللغة العربية، فاللغة العربية أساس فكرنا العربي، وأهم مقومات ثقافتنا.

رئيس التعرير mrumaihi@kems.net

إشكالية للفة العدب

- فرضية الحتمية اللغوية واللغة العربية
 - اللغة ودلالاتها
- مفهوم الحجاج عند «بيرلسان» وتطوره
 في البلاغة المعاصرة
 - المصطلح الأدبي: بين غناه بالمعرفة وغناه بالتاريخ
 - الماثور القولي في تنمية لغة الطفل
 - تعريب التعليم الجامعي
 - في طور التنفيذ : معجم جديد للترجمة

فرضية الحتمية اللفوية واللفة العربية

د. مبد الله عابد عبد "

أولاً: المقدمة

تعتبر فرضية الحتمية اللغوية Linguistic Determinism إحدى القضايا الفكرية المثيرة للجدل في علم اللغة والعلوم الأخرى التي تحتل فيها اللغة دوراً مهما مثل الفلسفة وعلم النفس وخاصة نوعه المعرفي ومها مثل الفلسفة وعلم النفس وخاصة نوعه المعرفي Cognitive وعلم الانثروبولوجيا Anthropology والإيستمولوجي أو علم المعرفة Epistomology. فالعلاقة بن اللغة والفكر، والتي تشكل محور دراسة هذه الفرضية، كانت وما زالت تستقطب الكثير من الباحثين والدارسين منذ عشرات السنين. ينصب البحث عادة عند تناول هذه العلاقة تحديداً على دور اللغة في تشكيل الفكر Thought أو في عملية التفكير. أي هل هناك فكر أو تفكير من دون اللغة؟ أو هل اللغة هي التي تحدد إطار الفكر؟ هذا ولقد تباينت الأراء حول هذه المسالة، ونلك تبعاً للمنهج المتبع في معالجة هذه المسالة، وكذلك تبعاً للدليل الموظف في المعالجة نفسها.

^{*} جامعة أم القرى - قسم اللغة الإنجليزية - مكة المكرمة - الملكة العرب السعودية

أحد التيارات اللغوية والفلسفية الذي تناول مناقشة هذه المسائة، والذي يعود بجذوره إلى الدوائر اللغوية الفاسفية الألمانية التي ظهرت في القرنين السابع والثامن عشر، ثم الدوائر اللغوية الامريكية التي ظهرت في هذا القرن، يدعي أن الفكر غير متيسر من دون اللغة، وأن اللغة هي الوعاء الذي يتشكل فيه الفكر، وعليه فإنه لا يوجد فكر من دون لغة وقد ترتب على هذا الأمر حتمية العلاقة بين اللغة والفكر، والادعاء بأن اللغة هي التي تحدد طريقة التفكير لدى الناطقين باللغة الإنسانية، فتركيبة اللغة ونظامها، ولاسيما المكونين النحوي والمعنوي/الدلالي، يفرضان نمطأ معيناً من طريقة التفكير على الناطقين باللغة. أي بعبارة آخرى، إن الشخص هو أسير لغته، ولا يقدر على الانفكاك منها.

تلقف عدد من الباحثين عجماً وعرباً هذه الفرضية، أي الصتمية اللغوية، تحت غطاء البحث العلمي وموضوعيته للهجوم على اللغة العربية، واتهامها بالقصور والفقر اللغوي، لأن نظامها اللغوي- وحسب رعمهم- يخلو من الفئات التركيبية النحوية Grammatical Categories اللغوي- وحسب رعمهم- يخلو من الفئات التركيبية النحوية الاتهام بطبيعة الحال- وهم ما الهوودة في اللغات الأخرى، ولاسيما الأوروبية منها، ويتبع هذا الاتهام بطبيعة الحال- وهم ما الرد على دعاة هذه الفرضية بشكل عام، وتبيان الأسس الهشة والضعيفة التي تقوم عليها هذه الدر على دعاة هذه الفرضية بشكل عام، وتبيان الأسس الهشة والضعيفة التي تقوم عليها هذه الفرضية، ورسم حقيقة أن ما اراده البعض من دراساتهم المتعلقة باللغة العربية لا يعدو أن يكن حلقة أخرى من الحلقات المتتابعة التي تؤلف بين فترة وأخرى، والتي تستهدف التشكيك الفكري والحضاري في مقومات هذه الأمة العربية الإسلامية. إن محور هذه الدراسة ينطلق ابتداء، ليس من دفع تهمة في المقام الأول، بل بتسليط الضوء أولاً وأخيراً على مدى صحة هذه الفرضية، والكشف عن قدرتها على الصمود أمام التطورات الفكرية الحديثة الكاسحة لغوية كانت او مامونية.

ثانياً: فرضية الحتمية اللغوية

تمثل فرضية الحتمية اللغوية الجانب المتطرف لفرضية النسبية اللغوية الجانب المتطرف لفرضية النسبية اللغوية Relativity Hypothesis. أما الجانب المعتدل لهذه الفرضية فيقوم على أساس أن اللغة في عملية التفكير أو المعرفة (١)، أما الجانب المتطرف عكما أسلفنا – فيقوم على أساس أن اللغة في عملية التفكير فيه الفكر، وأن هناك علاقة عضوية بين اللغة والفكر. وهذا الجانب الأخير

هو الذي يلاحظ في كتابات دعاة هذه الفرضية. أي أنهم دعاة الجانب المتطرف للنسبية اللغوية أي الحتمية اللغوية حتى وإن اتصفت بعض عباراتهم بنوع من الاعتدال أحياناً.

يرجع تاريخ فرضية الحتمية اللغوية بشكل عام إلى كتابات المفكرين الألمان وتحديداً كتابات كل من هيردر Herder في القرن الثامن عشر، ثم كل من هيردر Herder في القرن الثامن عشر، ثم كتابات المفكرين الأمريكيين في هذا القرن أمثال سابير Sapir، ووورف Whorf. إن ما يجدر نكره بهذه المناسبة هو أن البحث في العلاقة بين اللغة والفكر يرجع إلى زمن الحضارة اليونانية القديمة وكتابات الفلاسفة اليونان من أمثال أفلاطون وأرسطو وغيرهم. على أي حال فإن الفرضية، والتي تتوسف بأنها جديدة -قديمة، قد أعيد طرحها من جديد في النصف الأول لهذا القرن من خلال كتابات سابير و وورف حتى إن الفرضية ذاتها غدت تعرف بفرضية سابير و وورف

يرى همبولدت أن اللغة هي التي تحدد الفكر وأن الاثنين متلازمان، بل إنه يذهب إلى حد الادعاء بان اللغة هي الفكر، يقول همبولدت بهذا الشأن، وإن اللغة هي العضو الاساسي للفكر... فالفكر واللغة هما شيء واحد وغير قابلين للانفصال، (٢٠) وفي مناسبة أخرى يقول "نحن أدميون ليس بسبب أننا نمك اللغة، ولكن بسبب أننا نحن اللغة، (٢٠) يرى سابير من جهته شيئاً مماثلاً إلى حد كبير مدعياً أن الناطقين باللغة هم في الحقيقة وأهمون تحت رحمة تلك اللغة (أ. ويقول في مناسبة أخرى. إن تشكيل الفكر من دون اللغة أمر مستحيل مضيفاً أن «الشعور الذي يساور الكثيرين والقاضي بأنه يمكن التفكير أو التعليل من دون اللغة هو أمر وهمي (١٠). ثم يأتي وورف ويطرح وجهة نظره في موضوع العلاقة بين اللغة والفكر، أو بمعنى أخر سلطة اللغة على الفكر على النحو التالي: «إن النظام اللغوي (بعبارة أخرى النحو) لكل لغة ليس مجرد اداة تستخدم على النحو التالي: «إن النظام اللغوي (بعبارة أخرى النجو) لكل لغة ليس مجرد اداة تستخدم ولتحليل انطباعاته ولتركيب المخزون النهني... إن صياغة الأفكار ليست عملية مستقلة، هي عملية ولتحليل انطباعاته ولتركيب المخزون النهني... إن صياغة الأفكار ليست عملية مستقلة، هي عملية عقلية بالمعنى القديم، بل إنها جزء من نحو معين، وتتباين بصورة بسيطة أو كبيرة بين الأنحاء المغتلفة. نحن نضرح الطبيعة بينه المنطوعة، نحد نضرح الطبيعة إلى انماط طبقا لما تحدده لفاتنا الأم. نقسم الطبيعة وينظمها إلى المظاهيم، ونثبت لها المعاني بصورة كبيرة، لاننا أطراف في اتفاق يرمي إلى تنظيم الطبيعة وينظمها إلى الطرية. هو اتفاق منتشر في المهتم الطبوي ومرمّز في انماط لغتناء (١٠). فالملاحظ أن وورف قد الطرية. هو اتفاق منتشر في المهتمع اللغوي ومرمّز في انماط لغتناء (١٠). فالملاحظ أن وورف قد

أضاف إلى فرضية العلاقة بين اللغة والفكر بعداً معرفياً جديداً يعرف بعلم المعرفة التجريبي Empiricist Epistomology⁽⁾.

على ضوء عدد من الدراسات الميدانية التي نقذها كل من سابير و وورف على اللغات الهندية الأمريكية خلصا إلى نتائج قادتهما إلى طرح فرضية الحتمية اللغوية. فقد لاحظ وورف على سبيل المثال- أن لغة الهوبي Hopi لا تفرق ظاهرياً بخصوص الزمن بين الفعلين الماضي والمضارع على الرغم من وجود صيغة الأفعال الثلاثة، الماضي والمضارع والسنتيل، في هذه اللغة الفيار عن الزمن في هذه اللغة يختلف عن مثيله فيما أسماه «المستوى المتوسط للنظام اللغةي الأوروبي» Standard Average European حيث يعبر عن الزمن في هذا النظام بدقة، حسب رعمه هذه لحة موجزة عن تاريخ فرضية الحتمية اللغوية ومبادئها

ثالثاً: اتهام اللغة العربية بنظامها

في هذا الجزء من الدراسة نتوقف عند بعض التهم التي قذفت بها اللغة العربية ونظامها من فقر وقصور. سيتضمن هذا الجزء عرضاً لبعض التهم، ثم رداً أولياً ومبدئياً على هذه التهم نقر وقصور. السيتضمن هذا الجزء عرضاً لبعض الدراسة حيث سيتم العمل على إيراد أدلة نرجو أن تكون كافية وشافية للرد على اتهام اللغة العربية وغيرها من اللغات بشكل عام. إلا اننا نود القول سلفاً إن الدراسات التي حوت هذه التهم والمزاعم بخصوص اللغة العربية وغيرها من اللغات قد اتسمت هي ذاتها بالقصور المنهجي والفقر الفكري، نظراً لاعتمادها مرجعياً على فرضية مخلخلة نظرياً وتطبيقياً، وبعدها عن النهج الموضوعي في البحث والتقصي كما سيتبين الاحقا.

في هجومه على اللغة العربية يرى شوبي (Shouby) أن اللغة العربية غير قادرة على استيعاب الافكار المجردة، وإن هي فعلت ذلك نظراً استيعاب الافكار المجردة، وإن هي فعلت ذلك نظراً للطبيعة الصارمة للنحو العربي. فوجود منات المترادفات، ومستوين لغويين، والغموض، يؤدي إلى الطبيعة الصارمة للنحو العربي. فلجود منات المترادفات، وعملياغة. أما ردنا فهو كالتالي: هم درا المرونة أو الليونة اللغوية، ثم الفكرية في عملية التعبير والصبياغة. أما ردنا فهو كالتالي: هم قرأ هذا الباحث تاريخ العربية، وما حملته من عقيدة وأنب وفكر وفلسفة وكذلك من نقاشات وشروحات ومراجعات ومناظرات وغيرها؛ ألم تصلنا الثقافة العربية والإسلامية، ومما أخذته من

غيرها من الثقافات، وهذا المخزون العظيم من المعرفة التي هي بين أيدينا هذه الأيام عبر هذه اللغة؛ فمعالجة هذا الباحث لهذه المسالة تكشف كما يرى إدوارد سعيد Said عن «سذاجة عقلية مردها على الأغلب إلى عدم وجود فكرة واضحة حول طبيعة اللغة وكيفية عملها» (١٠٠ فهذا الباحث لم يأت بدليل واحد مقنع من الأدب العربي للتدليل على صحة مزاعمه، وأخيراً يجيب سعيد ساخراً حول سؤال قد يطرح عن مكان وجود تأثير اللغة العربية على العقل العربي قائلا «إنه ينحصر بالتأكيد في العالم الخرافي الذي نسجه الاستشراق» (١٠٠).

أما باتاي Patai) الذي يركز على بعض الصفات البلاغية والتي يعدها قبيحة هي في الواقع موجودة في اللغات الأوروبية كذلك(١٣). على أي حال فإن هذا الباحث يعطى أهمية أكثر لموضوع الزمن في اللغة العربية، وذلك بادعائه أن اللغة العربية تفتقر إلى نظام تفصيلي للزمن في الفعل العربي مغاير للزمن في اللغات الأوروبية. وهذا بدوره يؤدي إلى نتائج فكرية سلبية كالافتقار إلى الدقة والوضوح في الكلام العربي. إننا نرى أن هذا الباحث جهل وتجاهل حقيقة أن لكل لغة نظامها الخاص من حيث التركيب والتعبير، وهذا الأمر لا ينفى بطبيعة المال وجود الكليات اللغوية. على أي حال فإن موضوع الزمن في اللغة العربية واللغات السامية الأخرى قد استحوذ على اهتمام المستشرقين الذين انتقدوا واقع الزمن في هذه اللغات(١٤). فالعالم اللغوى إبراهيم السامرائي يرفض ما يزعمه المستشرقون بخصوص الزمن قائلاً: «إنه ليس صحيحاً ما يقوله جماعة من الباحثين الأعاجم من أن الزمان ليس شيئاً أصيالاً، وأن اقتران الفعل العربي به حديث النشاة»(١٥). فنظرة متأنية إلى نتائج أبحاث الستشرقين تكشف عن أن نظرتهم كانت متأثرة بخلطهم الوصيفين(١٦) التزامني Synchronic والتعاقبي Diachronic . فإنه من الثابت أن الزمن في اللغة العربية على علاقة وثبقة بالسياق، وأن هناك وسائل متنوعة وطرقاً مختلفة للتعبير عن الزمن في اللغة العربية(١٧). إن ما يراه باتاي من نقص في اللغة هو في الواقع نقص في التشخيص والاطلاع عند هذا الباحث. فاللغات البشرية جميعها ينظر إليها على أنها لغات كاملة فهل يعنى أن الإنجليزية، على سبيل المثال، التي تستعمل مفردة واحدة هي Uncle، للدلالة على مصطلحي القرابة «عم وخال» ناقصة لعدم وجود مفردتين، كما هو موجود في اللغة العربية ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن مفردة niece. هل يجوز أن ننفى صفة صيغة المجهول عن الجمل الإنجليزية التي تحوى الفاعل Agent. عند قولنا... by لأن هذا يتناقض تماماً مع مفهوم صيغة

المجهولية كما هي في اللغة العربية التي تحتم حذف الفاعل في مثل هذه الحالة؟ ولقد أصاب مالك المطلبي كبد الحقيقة عندما أكد أن: «وجود نقص في اللغة هو منطق غير صائب، إذ لايوجد أبداً نقص لغري أو تفوق لغوي». بل تنظيم لغوي». (١٨) هذه واحدة من الحقائق التي يقررها علم اللغة الحدث.

وأخيراً فإن لافين الكه المنطقة التفكيد في قدرة اللغة العربية في أن تكون أداة لإقامة التفكير المنطقي نظراً - على حد زعمه - إلى طبيعة نظامها اللغوي. ثم يذهب هذا الباحث إلى اتهام اللغة العربية بعدم قدرتها على استغدام النظام العربية بعدم قدرتها على استغدام النظام المصرفي العربية بعدم قدرتها على استغدام النظام المصرفي العربية المسموع والمقروء يفند هذا الزعم. فاللغة العربية وسعت الكثير من المصطلحات الاجنبية قديماً وحديثاً بعربنتها أو إيجاد المصطلحات المرادفة للمصطلحات الاجنبية. فالنظام الصرفي العربي بعد مصدراً مهماً من مصادر إثراء اللغة العربية إذا استخدم بطريقة فاعلة وتوليدية، وهذا ما يقوم به ويدعو له عدد من البحاثة من خلال الدعوة إلى تفجير اللغة من الداخل عن طريق التوليد والاشتقاق والتعرب المقنف الألمي بفائل بخصوص حديثه عن النطق العربي فإن الباحث لم يأت بدليل واحد لإثبات زعمه وهو- في هذه الصالة- لا يعدو أن يكون من قبيل الهراء ليس إلا. فلو كان هذا الزعم صحيحاً لرمي بأثاره السابية على حياة الأمة، وللمسنا ذلك من خلال فوضي فكرية، وتعثر معرفي يفترض أن يكون قد تفجر في القرون الماضية، ومعاناة من القبيل نفسه يتوقع أن ضياها في هذا الزمان.

وهناك المفكرون والفلاسفة العرب الذين تاثروا كثيراً بفرضية الحتمية اللغوية كما طرحها الغربيون سنتناول هنا أراء اثنين من المفكرين البارزين وهما محمد عابد الجابري وزكي نجيب محمود. يرى الجابري^(۲۲) أن اللغة العربية تتصف بصفتين اثنتين وهما لا تاريخيتها وطبيعتها الحسية. فهي برأيه «محنطة» منذ العصور الأولى، وجامدة لا تواكب الجديد في العصور التالية ماللغة العربية عملت على تصوير ونقل حياة أهل البادية والصحراء، وبهذه المناسبة يطرح سؤالاً كالاتني كيف يصدق هذا القول على لغة عالمية تبوأت مركزاً مهماً ومرموقاً في الماضي والحاضر، وحملت فكراً وراباً وعلماً وفلسفة على مدى قرون طويلة؟ هذا من ناحية، أما من ناحية الخرى فهل اللغة العربية التي نستعملها اليوم هي نفسها التي كانت في الجاهلية؟ قارن تلك اللغة بالمراحل التريخية التي استعملها اليوم هي نفسها التي كانت في الجاهلية؟ قارن تلك اللغة بالمراحل التريخية التي استجملها المجاهلية وحتى اليوم. فالأصوات والقواعد النحوية لم يطرا عليهما

شيء، ولكن ماذا عن المفردات وأساليب التعبير؟ إنها ويلاشك واكبت كل عصر عاشته اللغة العربية ووسعته بنظامها ووسعها بكل مميزاته وتفرده عن غيره. هذا هو الأمر الطبيعي الذي يتوقع أن تسلكه كل لغة إنسانية سواء كانت موجودة في الأدغال حيث الحياة البدائية أو في المجتمعات الصناعية المتقدمة حيث الحياة العصرية التي تميزها ثورة الكمبيوتر والمعلوماتية. أما عن العلاقة بين اللغة والفكر بشكل عام فيقول الجابري إن اللغة: «لا تعكس الظروف الطبيعية وحسب، بل تحمل معها هذا الانعكاس نفسه لتنشره على أمكنة وازمنة مختلفة، فتكون بذلك عاملاً أساسياً، واحياناً حاسماً في تحديد وتأطير نظرة أصحابها إلى الإشهاء، (٢٧)

أما راي محمود (⁷⁷⁾ والذي وقع تحت تأثير آراء المفكرين الفرنسيين فملخصه أن اللغة هي الفكر، وأن التغيير في أي فكر لابد أن يسبقه تغيير مهم في طبيعة اللغة التي يستعملها أهل ذلك المجتمع حيث يوجد الفكر، فإيجاد ثورة فكرية يستلزم إيجاد ثورة لغوية أولاً. أما الرد على هذه الدعوة المتسرعة فيكون بتذكير صاحبها حول واقع اللغة العربية قبيل الثورة الفكرية الإسلامية التي عمت جزيرة العرب مع ظهور الإسلام، وكذلك واقع اللغة الروسية قبيل تفجير الثورة الشيوعية في روسيا، وكذلك غيرها من اللغات والثورات الفكرية. فهل فجر العرب والروس هاتين اللغتين أولاً لإيجاد التحولات الفكرية المعروفة؟

رابعاً : تقويم فرضية الحتمية اللغوية

هذا الجزء من الدراسة سيتناول النظر في جوانب فرضية الحتمية اللغوية بهدف تبيان وتحديد مواطن الضعف في هذه الفرضية. فإذا تبيّن أن هذه الفرضية مختلة الأساس والزعم، فإن ذلك كاف للرد على الاتهامات السالفة الذكر للغة العربية وغيرها، وكذلك الاتهامات الأخرى التي قد تبرز مستقبلاً

١- حقيقة ونص الفرضية

من أهم الأمور المتعلقة بالفرضية هي النص أو النصوص التي تحدد وتعبر عن حقيقة الفرضية. فلا يوجد نص محدد وبقيق وصريع يمكن أن يرجع إليه على أنه يحدد واقع الفرضية سواء في كتابات سابير أو وورف. فالعبارات الصادرة من هنا وهناك حول الفرضية ليست جميعها دقيقة وقطعية الدلالة، بل إنها فضفاضة أحياناً وحتى غامضة فهناك بعض العبارات

الواضحة كتك التي استشهدنا بها سابقاً، وهناك أخرى تتسم بالعمومية. تقول بن Penn بهذا الصحد إنه «ليس من المدهش أن المصادر الحديثة للفرضية تشير إلى اختلاف بخصوص ماهية فرضية وورف. «^(۱۲) أما ولز Wells فيصرح بأن الفرضية هي في الواقع «وهم» (^(۱۲)، وأخيراً واسن وشريكه جونسون – ليرد Wason and Johnson-Laird يريان أن الفرضية يكتنفها «الغموض» (^(۱۲)).

٧- أهمية وشمولية دليل الفرضية

من الواضح أن سابير و وورف قد اعتمدا بشكل أساسي على أدلة محدودة مأخوذة من لغة الهنود، وهو النظر في بعض الفئات النحوية ومحاولة مقارنتها بما يعرف بالمستوى المتوسط اللغوي الأوروبي، فوجوه الاختلاف التي بدت عميقة في بعض اللغات قد ينظر إليها على أنها أدلة بسيطة وغير كافية الإقامة نظرية كاملة وإطلاق مزاعم كبيرة. صحيح أن البحث العلمي يقوم بالدرجة الأولى على إقامة الدليل، إلا أن طبيعة الدليل وقوته هي الاخرى مهمة، وخاصة إذا كان الأمر يتعلق بمعالجة قضية حساسة ذات أبعاد كبيرة ومتشابكة، وتتعدى حدود أكثر من علم كقضية علاقة اللغكو.

فمن الثابت أن وورف نفسه قد اخفق في إقامة وصف سليم للمستوى المتوسط للنظام اللغوي والأوروبي فصيفة المستقبل تختلف عن صيفتي الماضي والمضارع باستخدامها أحد الأفعال المساعدة (٢٧). هذا من جهة، أما من جهة أخرى فإن دراسات وورف وحتى سابير قد انحصرت في النطاق النظري. فمقارنة نظام لغة الهوبي مثلاً مع النظام اللغوي الأوروبي على المستوى الشكلي Formal وحده لايكشف عن طريقة اختلاف في التفكير واللغة بشكل حاسم. (٢٨)

بالإضافة إلى ذلك فإن الدراسات التي إقامها عدد من الباحثين على مصطلحات الآلوان في اللغات المختلفة للتدليل على صحة الفرضية ليست كافية بل على العكس تم تفسير نتائج هذه اللداسات أحياناً بما يخدم فرضية مفايرة وهي فرضية الفكر وتأثيره على اللغة، وأن هناك عوامل بيولوجية مهمة في هذا المجال. يرى هارلي Harley أن القراءة الصحيحة لنتائج هذه الدراسات المتطقة بالألوان بينت كيف أن «الفهم مرتبط بعوامل بيولوجية وليس بعوامل لغوية».(٢٠).

وهذا ما أشار إليه في وقت سابق كل من كي وماكدانيال Kay and McDaniel من أن

القضية يجب أن تفسر على مستوى «عصبي» Neurological كنتاج لتمثيل تشري بماغي . (۲۰)Cortical (۲۰).

أما موضوع الزمن والذي أثار زويعة كبيرة حجبت الرؤية الصحيحة عن دقائق الأمور المتعلقة بهذه القضية فإن دعاة فرضية الحتمية اللغوية جهلوا حقيقة مهمة، وهي أن هناك مايسمي بالزمن اللغوى Linguistic Time والزمن الثقافي Cultural Time وهما ليسا سواء. وعن علاقة الزمن والفعل في لغة الهوبي يؤكد فرولي Frawley «أن النظرة غير الأكاديمية- العادية- للغة الهوبي تظهر أن هذه اللغة تفتقر إلى فكرة الصيغة الفعلية Tensless وكذلك إلى فكرة الزمن Timeless ... فهذه الأفكار صحيحة فيما يتعلق بعالم الهوبيين، إلا أنه ليس لها صلة بالطرق التركيبية لإيصال الزمن في لغة الهوبي (٢١). هذه هي إحدى نقاط الضعف الأساسية في فرضية الحتمية اللغوية، وهي خلط عناصر الثقافة وعناصر اللغة وعدم التفريق بين ما هو ثقافي وبين ما هو لغوى(٢٢). أما مالوتكي Malotki، والذي أجرى دراسة على نظام صيغة الفعل في لغة الهوبى فأفاد أن بها نظاماً تقليدياً للتعبير عن صيغة الفعل ويمكن القول إنها الصيغة المستخدمة للتعبير عن الزون، ولا تختلف عن ياقي اللغات الإنسانية. إن صبعوبة توفير يليل معقول لا يتعلق بالجانب المتطرف لفرضية النسبية اللغوية، بل إن الأمر يشمل كذلك الجانب المعتدل من الفرضية حيث من الصبعب توفير دليل منتظم ومنسق لدعمه، وذلك لأن مثل هذا الدليل حسب ما يعتقد كود Code «يجب أن يؤخذ تدريجياً من التركيبة الخارجية لجميع اللغات الإنسانية، واللهجات، واللغات التي هي من ضمن اللغات التي تستعمل في جميع الأماكن والأزمان،(٣٤). وأخيراً وعلى الرغم مما كتب عن هذه الفرضية قديماً وحديثاً، ومحاولات اختيار صحتها فإنه من الغريب أن يصرح أحد الباحثين زاعماً أنه لم يتم حتى الأن اختبار الفرضية الأصلية بصورة شاملة(٢٥).

٣- عالم واحد

طبقاً لمزاعم فرضية الحتمية اللغوية، فإن الإنسان يعيش في اكثر من عالم مادي أو فيزيائي نظراً لوجود لغات عدة منتشرة في العالم، فكل لغة تعطي صمورة معينة لهذا العالم تبعاً لنظامها للغوي. فهناك عالم حسب ما تصيغه اللغات السامية، وعالم آخر حسب ما تشكله اللغات الاوروبية، وعالم ثالث حسب ما تصوره اللغات الإفريقية وهناك عوالم أخرى ضمن هذه المجموعات اللغوية في يعين واحدة في نظامها اللغوي وهكذا، وهذا في واقع الأمر لا ينسجم مع ما يقرره العلم من أن هناك عالماً واحداً (الك.).

٤- رؤية واحدة

إن الفرد الذي يتقن اكثر من لغة يمتلك عدة انظمة لغوية، وهذه الأنظمة تعمل – وحسب العاءات فرضية الحتمية اللغوية – على تحديد الإطار الفكري لذلك الفرد. فمن المتوقع أن يكون لذلك الفرد عدة رؤى للعالم الواحد المحيط به، وذلك أن اللغات تزود الفرد بفئات نحوية متعددة. فلو افترضنا أن هناك شخصاً عربياً يتقن بالإضافة إلى لفته الأم اللغات الإنجليزية والصينية فإنه من المتوقع أن يكون لدى ذلك الشخص انظمة فكرية متعددة نظراً لسلطة هذه اللغات عليه. وعليه فإنه سيتعامل مع العالم المحيط به على اكثر من مستوى، فالزمن – على سبيل المثال في هذه اللغات ليس متشابها، ولكل لغة نظامها الزمني. إنه من المتوقع أيضاً أن يحصل تشوش وارتباك سلوكي عند هذا الشخص، الواقع يشير إلى أنه لا يوجد هناك أي دليل يؤيد مزاعم هذه الفرضية حول وجود اكثر من رؤية لمتعدد اللغات (٣).

ولنا هنا وقفة حول السبب الحقيقي وراء عدم وجود خلط وتشوش لدى هذا النوع من الأشخاص فنقول: إنه العقل البشري، وتركيبته وقدرته على التعامل مع الواقع بقدرة عجيبة وفائقة. وهو امر يبدو أن دعاة فرضية الحتمية اللغوية، وعلى راسهم منظروها الأوائل لم يعطوه حقة في هذه المسألة وانصرفوا للنظر في الشكليات اللغوية فقط.

٥-- الصم يفكرون من دون لغة

من المعروف أن الصم الذين لا يقدرون على استعمال اللغة المنطوقة يستطيعون القيام بمهمات ذهنية كثيرة تتطلب انواعاً مختلفة من العمليات الذهنية البسيطة منها والمعقدة، وهم في هذه الحالة لا يختلفون عن الأفراد العاديين الذين يستعملون اللغة المنطوقة في التواصل، فحالة هيلن كيلر Helen Keller المعروفة تعد مثالا صارحاً على أنه ريما لا حاجة للغة في عملية التفكير (٢٨).

من جهة أخرى فإنه من المتوقع عند تعطل الجانب الأدائي Performance للغة تعطيلاً جزئياً أن كاملاً بسبب الحبسة اللغوية Aphasia أن ينعكس ذلك سلبا، وحسب مزاعم فرضية الحتمية اللغوية على طريقة التفكير لدى المريض الذي يعاني من هذا المرض، إلا أن الواقع لا يستند إلى هذا التوقع، وأن الدراسات أثبتت أن هناك استقلالية إلى حد كبير بين اللغة والفهم أن المعرفة(٢٠١).

٦- تغير اللغة

هل يترتب على تغير اللغة تغير في الفكر؟ الواضح من مضمون فرضية الحتمية اللغوية أن ذلك أمر وارد، ماذا لو فقدت صيغة معينة كانت تستخدم للتعبير عن فكرة معينة، واستعملت بدلاً من ذلك صيغة آخرى لذلك الغرض؟ فكما يورد فرولي Frawley (1) فإن صيغة الشرطية الافتراضية Subjunctive mood في اللغة الإنجليزية المستخدمة في الولايات المتحدة يعبر عنها هذه الأيام بمسيغة الخبرية Modicative Mood. فبدلاً من أن يستخدم الأمريكيون صيغة الفقال (16 fthis be the بمسيغة الخبرية كما في Indicative Mood في التعبير عن الشرطية الافتراضية فإنهم يستخدمون صيغة الخبرية كما في Sase. ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: هل سيفشل الأمريكيون في التفكير بطريقة الشرطية الافتراضية بسبب فقدان هذه الصيغة من اللغة؟ فالمشكلة كما يصورها فرولي تكمن في التحديد ماهية الشكل اللغوى من زاوية معرفية وثقافية.

٧- الترجمة بين اللغات ممكنة

يعتبر هذا الدليل داحضاً وقوياً لمزاعم فرضية الحتمية اللغوية، بل إنه كفيل بأن ينسفها بالكامل من أساسها. فطبقاً لمزاعم هذه الفرضية فإن الترجمة من لغة إلى أخرى غير ممكنة بل هي مستحيلة، وذلك لأن الأفكار مرتبطة ارتباطاً عضوياً مع التراكيب اللغوية. فالفكرة المشكلة بتركيبة اللغة الإنجليزية، مثلاً، هي جزء من تلك التركيبة. وعليه لايمكن إعادة تشكيل الفكرة في تركيبة لغة أخرى، لأن التركيبتين مختلفتان، وإنه إن تم ذلك فإنه سيقضي على الفكرة المراد ترجمتها، وكما أشار فيور Feuer) فإن هذه الفرضية أي الحتمية هي في الواقع «فكرة عدم القدرة على الترجمة بقناع عصري».

ولكن كما هو واضح وجلي فإن الترجمة من لغة إلى أخرى هي أمر متيسر أمس واليوم وغداً. فالمعاني التي تشكل فحوى الترجمة بمكن أن تمثل بهذا التركيب أو ذاك. انظر إلى اللغة العربية ماضياً وحاضراً. فقد استطاعت هذه اللغة وعبر تاريخها الطويل، ومن خلال احتكاكها وتغاعلها مع اللغات الأخرى المجاورة وغير المجاورة أن تقترض الكثير من المصطلحات والمعاني، وتستوعب نظامها اللغوي. فقد ترجمت كتب كثيرة من اللغات الفارسية واليونانية واللاتينية والهندية والتبطية، وكذلك من اللغات الاوروبية الحديثة كالإنجليزية والفرنسية وغيرها إلى العربية. لقد

حفظت اللغة العربية المعارف الكثيرة في الفلك والرياضيات والفلسفة وغيرها. وبالمقابل ترجم الكثير من علوم العرب والمسلمين التي سطرت في اللغة العربية إلى اللغات الأخرى. انظر إلى الفكر الإسلامي الذي نقل بدقة وشمولية إلى لغات عدة وأمم شتى ولم ينقص منه شيء.

بيد أنه وفي الوقت ذاته لا يمكن إغفال حقيقة مهمة متعلقة بالترجمة وهي أنه ليس من اليسير ترجمة كل شيء من لغة إلى أخرى بالدرجة نفسها من السهولة. أي أن هناك أموراً يمكن ترجمتها بسهولة كالأمور الثقافية. فهناك لغات تحوي عدداً كبيراً من المغردات للدلالة على شيء واحد وانواعه وصفاته كما في لغة الإسكيمو التي تحوي العدد الكبير من أسماء الثلج واللغة العربية التي تحوي عدداً كبيراً من المفردات التي تدل على اسم الجمل من أسماء الثلج واللغة العربية التي تحوي عدداً كبيراً من المفردات التي تدل على اسم الجمل وحياة البادية. بالمقابل فإن اللغات الإفريقية التي تستخدم في منطقة خط الاستواء لا تحوي كلمة عن حياة البدو والصحراء. إذن المسألة نسبية بالدرجة الأولى. لقد أصاب هوكيت Hockett عن عن على هذه أكد على حقيقة: «أن اللغات تختلف كثيراً فيما بينها ليس حول ما يمكن أن يعبر عنه في هذه الكات، بل حول ما هو سهل نسبياً للتعبير في هذه اللغات. (٢٠٪). وفي هذا الصدد يذكر ووردهو اللغات، بل حول ما هو سهل نسبياً للتعبير في هذه اللغات. (٢٠٪). وفي هذا الصدد يذكر ووردهو مستعداً لاستخدام درجة من الإطناب (٢٠٪). وأخيراً ألم ينجح وورف في نقل وجهة نظر الهوبي مستعداً لاستخدام درجة من الإطناب (٢٠٪). وأخيراً ألم ينجح وورف في نقل وجهة نظر الهوبي بالهوبي على الوجه الصحيح؟ إن هذا دليل كاف على مرونة اللغات الإنسانية وقدرتها على التعبير على الوجه الصحيح؟ إن هذا دليل كاف على مرونة اللغات الإنسانية وقدرتها على التعبير عن وحهات النظر المنتلفة.

٨- الجراماطيقا الكلية متشابهة

يعتبر هذا النوع من الجراماطيقا، أي الجراماطيقا الكلية Universal Gramma احد الإنجازات المهمّة التي توصل إليها علم اللغة الحديث. فقد أصبح محط اهتمام الكثير من اللغويين، وتركز معظم الدراسات اللغوية حالياً على الكشف عن مبادئه وطبيعته. فقد استطاع نوم تشومسكي Noam Chomsky أن يشد انتباه الكثيرين من الباحثين والدارسين منذ أن فجر ثورة في علم اللغة، وطرح فكرة الكليات اللغوية Linguistic Universals في مؤلفه «مظاهر

النظرية النحوية Aspects of The Theory of Syntax ،، ثم طرح فكرة المبادى، والبارميترات Principles and Parameters كمكونين للجراماطيقا الكلية.

طبقاً لنظرية تشرمسكي اللغوية فإن اللغات متشابهة في التركيبة الداخلية على مستوى الكون حيث تحتوي على القواعد التوليدية والقواعد التصويلية. وهي كذلك متشابهة على مستوى المكون الساسي Base Component. أما التركيبة الخارجية Surface Structure فهي مختلفة ومتنوعة، وهي غالباً لاتعكس حقيقة التركيبة الداخلية، وهناك أمثلة كثيرة استشهد بها تشومسكي وغيره، ولا مجال لتوضيح بديهية في علم اللغة هنا.

فعند حديثه عن التركيبة الخارجية اكد تشومسكي أنها لا تقود إلى حقيقة المعنى، وهي غير معلمة عن فحواه (د^{د)}. على ضوء هذه الحقيقة وطبيعة الجراماطيقا الكلية بشكل عام فإنه يمكن القول إن التشابه في التركيبة الداخلية للغات الإنسانية يجعل بالإمكان التعبير عن أي فكرة في أي لفة أمراً متيسراً. أما دعاة فرضية الحتمية اللغوية فقد خدعوا بطبيعة التركيبة الخارجية ذات التنوع الكبير، واتخذوها اساساً لفرضيتهم وانتهوا إلى ماانتهوا إليه من مغالطات.

٩- الفكر أولاً

تمغضت النقاشات والساجلات حول فرضية الحتمية اللغوية عن أمر مثير وهو قلب ومبادلة حيثيات محور النقاش، فغدا الحديث حول دور الفكر في تشكيل اللغة، هذا مايراه واسن وشريكه جونسون طيرد من أن الفكر يحدد اللغة، وهذه الفرضية برايهما أكثر معقولية (12) فاللغة تلعب دور المرأة العاكسة للخبرة والتجرية، وليست حرة في تأسيس أو إقامة المسنفات أو الفنات المعرفية حسب ما يراه براون Brown/ (29). يقول فوس وهيكس Foss and Hakes بهذا الصدد. «إن هناك دليلاً مهما على أن النظام اللغوي لاي لغة لا يملك حرية تقسيم نظام الألوان بأي طريقة متوجود حدود مرنة بين مناطق الألوان الأساسية، فإن متكلمي جميع اللغات يتفقون على ماهية الألوان الأساسية، ألى متنافجه في ثقافات متنوعة وخلصنا إلى نتيجة مفادها أنه الأبحاث التي أجرياها على الألوان الموجودة في ثقافات متنوعة وخلصنا إلى نتيجة مفادها أنه «بدلاً من القول إن اللغة هي التي تحدد الفهم فيجدر القول إن الفهم هو الذي يحدد اللغة، (14).

لقد كان لدراسات العالم النفسي المعرفي جان بياجيه Jean Piaget أثر كبير في ترسيخ فكرة

الفكر أو المعرفة أولاً، وبالتالي إقامة ما يعرف بالكليات المعرفية Cognitive universals هذه النظر عن نوعية اللغات التي الكليات تفيد بأن الأفراد يستخدمون عمليات ذهنية متشابهة بغض النظر عن نوعية اللغات التي يتكلمها هؤلاء الأفراد. يرى بياجيه ((*) أن المعرفة أو الإدراك يسبق تشكيل اللغة، وهذا ما تبناه وطوره لاحقاً عدد من الباحثين في هذا المجال أمثال ماكنمارا Macnamara وسلوبين Slobin وسلوبين المفافل وغيرهما لقد قام بياجيه بتتبع العلاقة بن اللغة والفكر من خلال تقسيم النمو المعرفي لدى الطفل إلى أربع مراحل (**). ففي المرحلة الأولى تكون اللغة نتاجاً للنمو المعرفي، ثم تقوم اللغة بلعب دور الى محدد في المراحل التالية منها مرحلة ما قبل العمليات، ثم تلعب دوراً ضرورياً في مرحلة العمليات المنافقية والفرضية والدن عيث تلعب اللغة دوراً حاسماً ومهمًا، ولكنه ليس دوراً تشكيكياً أو العمليات المنطقية والفرضية حيث تلعب اللغة دوراً حاسماً ومهمًا، ولكنه ليس دوراً تشكيكياً أن تأطيرياً للفكر أيضاً. فالملاحظ طبقاً لنظرية بياجيه أن اللغة لاتحدد ولا تفرض نمطاً معيناً من التفكير. فهي أداة تستخدم في العمليات الذهنية وليست هي المتحكمة والمهمنة على طريق التفكير. فاللغة شيء، والفكر شيء أخر. إن ما تطرحه نظرية بياجيه بعد حقاً تشخيصاً دقيقاً التفكر. ما قلكر.

خامساً: فرضية الحتمية اللغوية على ضوء النظريتين الحديثتين اللغوية والمعرفية

من الملفت للنظر أن فرضية الحتمية اللغوية اكتسبت زحفاً كبيراً خلال النصف الأول من القرن
Structural الحاوف أن هذه الفترة هي فترة نمو وازدهار علم اللغة البنيوي Structural الحاصر فمن المعروف أن هذه الفقرة هي فترة نمو وازدهار علم اللغة البنيوي Linguistics والدي عمل على تأسيسه العالم اللغوي المعروف دوسوسيو Linguistics واكتسب زخماً كبيراً خلال كتابات كل من سابير وبلومفيلد Bloomfield في دوسف النخير السلوكية Behaviourism في دراسة ووصف اللغة. فقد استعان بلومفيلد بهذه النظرية ليحول دراسة اللغة إلى دراسة مستقلة ويعتقها من نطاق الفلسفة والفكر التقليدي الموروث. فغدت لدراسة اللغة واقعة تحت تأثير علم النفس السلوكي الذي هيمن على البحث النفسي والمعرفي حتى فترة قريبة، أي إلى بداية الستبنيات من هذا القرن.

يقرر علم اللغة البنيوي أن اللغات الإنسانية مختلفة اختلافاً كبيراً، وهذا واضح من خلال مقارنة اللغات بعضها ببعض. فالانظمة الصوتية والصرفية والتركيبية والمعنوية/ الدلاة مختلفة من لغة إلى أخرى، وعليه فلا توجد متشابهات بين اللغات. وإن وجدت مثل هذه المتشابهات فهي براي البنيويين محدودة وغير جديرة بالدراسة والتحليل والوصف بل إنها في الواقع لم تسترع المتمام اللغويين ومن ثم أهملت. هذا التنوع في اللغات له صلة مباشرة بالتنوع الثقافي في المجتمعات الإنسانية، وتزامن استخدام البنيوية في وصف الإنسانية مع استخدامها في وصف الثقافات الإنسانية كما يتضع ذلك من خلال الدراسات الانثروبولوجية، وبروز علم الانثروبولوجيا البنيوية كالمراسات الإنسانية على هذا النقافل البنيوية وللدراسات الإنسانية على هذا النقافل البنيوي في الدراسات الإنسانية على هذا النوو إلى إعادة طرح فرضية الحتمية اللغوية بثوب جديد من خلال كتابات سابير ووورف.

فالواضع أن فرضية العتمية اللغوية الحديثة قد نمت وترعرعت في ظل هذه الظروف الفكرية من بنيوية وسلوكية، بالإضافة إلى ذلك فإن العملية الفكرية نفسها أي طريقة التفكير في علم النفس كان ينظر إليها على أنها ذات طبيعة موحدة في العقل البشري⁽²⁰⁾. هذا المناخ الفكري والمعرفي واللغوي شكل المرجع الاساسي لكثير من المعارف الإنسانية إلى فترة ليست قصيرة.

بدأت الغيوم المعتمة تتلبد في السماء الصافية لهذا المناخ الفكري مع نهاية الخمسينيات (^(*) ويداية الستينيات من هذا القرن ويدات اركانه تهتز على أثر كتابات تشومسكي التي فجرت ثورة ويداية السنينيات الى تقويض النظرية البنيوية اللغوية فحصلت تحولات مهمة في هذا العلم شملت موضوع دراسته ومنهجه وإطاره الفكري. فقد أصبح علم اللغة فرعاً من علم النفس المعرفي Cognitive Psychology بوحلت فكرة العقلانية Rationalism محل فكرة التجريبية في المواتنات المو

ترافقت هذه التطورات في دراسة اللغة الإنسانية مع تطورات مشابهة في علم النفس، فأصبح هذا التحول هذا الله الذي سيطرت عليه السلوكية لفترة طويلة علماً معرفياً Cognitive. حصل هذا التحول تحت تأثير كتابات بياجيه وانهلدر inhelder وغيرهما ممن نادوا بهذا التوجه الجديد آمثال أوزيل Ausubel ومن تبعه (^(م)) ومن ثم لم يعد علم النفس واقعاً تحت تأثير النظرية السلوكية وقصورها الفكري.

فنحن أمام ثورتين فكريتين واحدة في علم اللغة إذ تمخضت عنها أفكار ومفاهيم جديدة عن اللغة فيما يتعلق بتعريفها وتنظيم مكوناتها واكتسابها ومعرفتها ودور العوامل الفطرية في نلك، وعلاقات اللغات ببعضها البعض. وثورة أخرى في علم النفس تمخض عنها هجر أفكار ومفاهيم قديمة وطرحت أخرى جديدة متعلقة بالمعرفة Cognition ، وكذلك دور العوامل الذهنية الداخلية

__ عالمالفکر _

والخارجية في عملية التفكير. هاتان الثورتان هزتا أركان فرضية الحتمية اللغوية. فاللغة التي تحدث عنها ويرف ذات المفهوم الضيق والسطحي لم تعد هكذا اليوم. فهناك اليوم ما يعرف باللغة الداخلية Internalized* بالإضافة إلى ذلك فإن التفكير بتعريفه التقليدي والسلوكي لم يعد قائماً. بل ما تؤكده الدراسات اللغوية والمعرفية هو أن العقل البشري مقسم إلى وحدات مستقلة ... Modules or Faculties.

وكل وحدة متخصصة بعمليات ذهنية معينة. فعلى سبيل المثال يرى فودر Fodor، وهو احد الداعين لهذه النظرية، أن جوهر العملية الفكرية يتسم بصفات كلية Universal متجسدة بلغة داخلية، وهي واحدة عند جميع الناس ولا علاقة لها بالتنوع الحاصل في اللغات نفسها. ليس هذا داخلية، وهي واحدة عند جميع الناس ولا علاقة لها بالتنوع الحاصل في اللغات نفسها. ليس هذا فقط فبالإضافة إلى الكليات اللغوية والكليات المعرفية فإن هناك اتجاهاً فكرياً مماثلاً بدا منذ فترة ليست بالقصيرة في علم الانثروبولوجيا لإقامة مايعرف بالكليات الثقافية Cultural المناطقة أو السنوحاة من فرضية الحتمية اللغوية حول علاقة اللغة والفكر؟ واختم بعبارة رسمها فرولي في المستوحاة من فرضية الحديدة حتى تصبح فيها فرضية سابير ووورف صحيحة هي الا تكون صحيحة «إن الطريقة الوحيدة حتى تصبح فيها فرضية سابير ووورف صحيحة هي الا تكون صحيحة «إن

سادساً: الخاتمة

يتضع من العرض السابق كيف أن فرضية المقتمية اللغوية لا تقوم على أسس معقولة وقوية، بل تتخذ من الاختلافات التركيبية الظاهرية بين اللغات الإنسانية مبرراً لمزاعم حول دور اللغة في تحديد الفكر أو عملية التفكير. إن سقوط النموذج البنيوي اللغوي، والذي ترعرعت فيه هذه الفرضية وطرح فكرة الكليات اللغوية كاف لأن يلقي كثيراً من الشكوك حول صحة الفرضية بالإضافة إلى ذلك فإن التحول نحو النموذج المعرفي بدلاً من السلوكي في علم النفس، وبرون الكليات المعرفية كان هو الآخر عاملاً مهماً في خلخلة أسس هذه الفرضية. وهناك عامل أخر يساهم في التشكيك في صحة هذه الفرضية وهو بروز الكليات الثقافية. وعليه فإن اتخاذ هذه الفرضية إطاراً ومرجعاً للهجوم على اللغات الإنسانية ومنها اللغة العربية واتهام هذه اللغات في بالقصور والفقر التركيبي يكشف عن سذاجة عقلية وسطحية فكرية ومعوفية. إنه ومما لاشك فيه إن اللغة تلعب أحياناً دوراً ما في صياغة الفكر، إلا أن هذا الدور لا يعدو أن يكون دور الاداة في الصياغة وليس الإطار أو المرجع الذي على ضوئه يصاغ الفكر.

الهو امش

- Penn.J. (1972). Linguistic Relativity Versus Innate Ideas P.14. (1)
- Humboldt, W. (1988). On Language: The Diversity of Human Language: Structure and its influence on the Mental (*) Development of Mankind (1830) P 54.
 - (٢) استشهدت روث أنشن Ruth Anshen بهذه السارة في مقدمتها لكتاب Language and Thought. P.12 بهذه السارة في مقدمتها لكتاب (٢)
 - Sapir, E. (1929), "The Status of Linguistics as a Science". Languages 5: 207 214 (£)
 - Sapir, E (1921) Language P 15 (a)
 - Whorf, B (1956) Language, Thoght, and Reality Selected Writings of Benjamin Lee whorf PP 212 214 (%)
- Gumperz, J. and Levinson, S. (1996). "Introduction to Part I", In Gumperz, J. and Levinson, S. (Eds.) Rethinking (Y)
 - Linguistic Relativity P 21 Whorf B. op cit (A)
- Shouby, E (1951) "The Influence of the Arabic Language on the psychology of the Arabic . The Middle East Journal (%) 5.284,302
 - Said, E. (1978). Orientalism. P. 320 (1-1)
 - Said, E. op. cit P.320 (11)
 - Patai, R (1973) The Arab Mind (11) Justice, D (1987). The Semantics of Form in Arabic in the Mirror of European Languages, (17)
 - (١٤) المطلبي، مالك الرمن واللعة، ص ٢٤
 - (١٥) السامراتي، إبراهيم. القعل زمانه وابنيته، ص٢٢
 - (١٦) الطلبي، مألك، مرجع سابق، ص١٩
 - (١٧) انيس، إبراهيم. من أسرار اللغة، ص١٦٦
 - حسان، تمام، اللغة العربية معياها وميناها، ص٠٤٢
 - (۱۸) للطلبي، مالك، مرجع سابق، ص۸۷
 - Laffin, J. (1975). The Arab Mind.P 75 (15)
- (٢٠) هذا ما يدعو إليه، على سبيل المثال، كمال أبو ديب في مقدمته لترجعة كتاب إدوارد سعيد ،الثقافة والإمبريالية، Cultrure and Imperialism، صر ۲
 - (۲۱) الحابري، معمد عابد تكوين العقل العربي، ص١٦)
 - (۲۲) للصدر نفسه، ص ۸۸
 - (٢٣) محمود، زكي نجيب، تحديد الفكر العربي، ص٥٠٠
 - Penn, J., Op. Cit. P.14. (71)
 - Wells, R (1962) "What Has Linguistics Done for Philosophy?" J. Of Philosophy, 59, 701 713 P.703 (Ye) Wason, P. and johnson - Laird, P. (Eds.) 1977, Thinking, P.411 (Y7)
 - Chomsky, N (1973) "Introduction" In Cohen, R (Ed.) Adam Schaff: Language and Cognition (YV)
 - Ibd.P.2 (YA)

 - Harley, T. (1995) The Psychology of Language P 346 (YA)
 - Kay, P and McDamel, C. (1978) "The Significance of the Meanings of Basic Color Terms" Language 54 610-646 (T+) Frawley, W (1992) Linguistic Semantics, P.339 (Y1)

 - Fitouri, C (1983) Biculturalisme. Bilinguisme et education P.274. (TT)
 - Malotki, E. (1983) Hopi Time.P.77. (TT)
 - Code, L. (1980) "Language and Knowledge", Word 31,245-258 (TE)
- Lucy, J. (1992) Linguistic Diversity and Thought. A Reformulation of the Linguistic Relativility Hypothesis.P 65 (70) Gellner, E. (1988). "Relativism and Universals". In Hollis, M. and Lukes, S. (Eds.) Rationality and Relativism P 122. (TN)
 - Stemberg, D. (1982) Psycholinguistics.P. 110. (YV) Ibd. (TA)
 - وهذا الضاً ما ترصل الله كذلك لينسرج Lennberg (١٩٦٧)، ص٣٤٦)

_ عالمالفک

- Blumstein, S. (1988) "Neurolinguistics: An Overview of Language Relations in Aphasia" P 230. (*4)
 - Frawley, W., op Cit.,P.45 (£-)
 " Philosophy of Science, (£1)
 20:85 100.P.95.
- Feuer, L. (1953). "Sociological Aspects of the Relation between Language and Philosophy". Philosophy of Science, (11)
 - Hockett, C. (1968). "Chinese Versus English: An Exploration of the Whorfian Theses". P. 132. (£Y)
 - Wardhaugh, R (1976) The Context of Language P.74. (£7)
 - Chomsky, N. (1965). Aspects of the Theory of Syntax. (11)
 - Chomsky, N. (1972) Language and Mind. P.37. (£¢)
 - Wason and Johnson Laurd., op. cit.P.411. (£7)
 - Brown, R. (1976) "Reference: In Memorial Tribute to E. Lennberg". Cognition 4: 125-153. (EV)
 - Foss, D. and Hakes, D. (1978) Psycholinguistics P. 392. (£A)
 - Kay, P and Mc Daniel, C., op. cit., P. 610. (19)
 - Sinclair de Zwart, H. (1973). "Language and Cognitive Development" P 12. (0.)
 - Praget, J (1926). The Language and Thought of the Child.P.159. (01)
 - Piaget, J (1963). The Psychology of Intelligence
 - Piaget, J. (1964). "Development and Learning". P.7. (*Y)
 - De Saussure, F. (1959). Course in General Linguistics. (97)
 - Bloomfield, L. (1933), Language (01)
 - Gumperz and Levinson., op. cit.,P.31. (00)
- (*a) بدات هذه التحولات العكرية بعد ظهور عملي من تأليف العالم اللغوي موم تشومسكي وهما كتابه الوسوم بـ «التركيب التحوية Synacic Structures (المراكبة على عام ۱۹۷۷، ويطالقة المهم النبي راجع هيها كتاب سكينر Synacic Structures و السلوك اللغظي Enguage منظرت في يورية Language عمل ۱۹۹۸ والتي فقد نميا وحية النبيط السلوك المحال المائية
 - Praget, P. and Inhhelder, B. (1966). The Psychology of the Child. (aV)
 - Ausubel, D. et al (1978) Educational Psychology. : A Cognitive View (*A)
 - Chomsky, N. (1986) Knowledge of Language: Its Nature, Origin, and Use. P.21. (0%)
 - Fodor, J. (1983), The Modularity of Mind. (%)
 - Penn, J., op. cit., P.55.(31)
 - Frawley, W., op. cit., P. 50. (3Y)

المصادر والمراجع

أولاً: العربية

- أنيس إبراهيم. من أسوار اللغة، مكتبة الانطو المسرية، القاهرة، ١٩٧٠ .
- الجابري، محمد عابد، تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٤ .
 - حسان، تمام، اللغة العربية معناها وميناها، الهيئة المسرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٢
 - كالمال، تعام، الله العربية معالما ومباها، الهيئة المصرية العامة للطاب، العامرة،
 - السامراني، إبراهيم، الفعل. زمانه وأبنيته، مؤسسة الرسالة، بيرون، ١٩٨٢
 - سعيد، إدرارد، الثقافة والإمبريالية، ترجمة كمال أبو ديب، دار الأنب، بيروت، ۱۹۹۷
 محمود، زكي نجيب، تحنيد الفكر العربي، دار الشروق، بيروت، ۱۹۷۲
 - المطلبي، مالك، الزمن واللغة، الهيئة المسرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦.



ثانياً: الأجنبية

- Anshen, R. (1993) "Preface" In Chomsky, N. Language and Thought. London: Moyer Bell. PP. 9-12
- Ausubel, D. et al (1978) Educational psychology: A Cognitive view. Second Edition
- N. Y: Holt, Rinehart and Winston.
- Bloomfied, L. (1933), Language N. Y. Holt, Rinehart and Winston
- Blumstein, S. (1988) "Neurolinguistics: An Overview of Language-Brain Relations in Aphania". In Newmeyer, F. (Ed.), Linguistics: The Cambridge Survey III., Language: Psychological and Biological Aspects. Cambridge: Londonder University Press Ps. 210-236.
- Brown, R. (1976). Reference: In Memorial Tribute to E. Lennberg. Cognition. 4: 125-153
- Chomsky, N (1957), Syntactic Structures, The Hague Mouton (1959) Review of B.F.Skanner's Verbal Behaviour. Language 35 26-28, (1965). Aspects of the Theory of Syntax MA: MII Press, (1972). Language and Mind N.Y. Harcourt, Brace and Jovanovich. (1973). "Introduction" in Cohen, R. (Ed.) Adam Schaff, Languague and Cognition. N.Y. Mc Graw-Hill Book Company. PP. V-X. (1986). Knowledge of Language: Its Nature, Origin and Use, N. Y. Praceer.
- Code, L (1980). Language and Knowledge Word 31 245-258.
- De saussure, F (1959) Course in General Linguistics. Translated by Wade Baskin, N. Y. Philosophical Library.
- Feuer, L. (1953) "Sociological Aspects of the Relation between Language and Philosophy" of Science, 20: 85-100.
- Fitouri, C. (1983) Biculturalisme, Blinguisme et education. Paris. Delachaux et Niestle
- Fodor, J (1983). The Modularity of Mind M A MIT Press
- Foss, D. and Hakes, D. (1978). Psycholinguistics, N. J. Prentice Hall, Inc.
- Frawley, W. (1992). Linguistic Semantics. N. J. Lawrence Erlbaum Associates, Publishers
- Gellner, E. (1988) Relativism and Universals In hollis, M and Lukes, S (Eds.) Rationality and Relativism Oxford:
 Basil Blackwell, PP 181-221
- Gumperz, J and Levinson, S. (1996) "Introduction to Part I". In Gumperz, J. and Levinson, S. (Eds.) Rethinking Languistic Relativity, Cambridge University Press. PP.21-36.
- Harley, T. (1995) The Psychology of Language London: Eribaum (UK) Taylor and Francis
- Hockett, C. (1968) "Chinese Versus English. An Exploration of the Whorfain Theses". In Gleeson, P. and Wakefield,
 N. (Eds.) Language and Culture. Columbus., OH: Charles E. Merrill Publishing Company, PP. 120-134.
- Humoldt, W (1988) On Language. The Diversity of Human Language structure and its influence on the Mental Development of Mankund (1836). Cambridge. Cambridge University Press.
- Justice, D (1987) The Semantics of Form in Arabic in The Mirror of European Languages. Amsterdam, John Benjamins.
- Kay, P. and McDaniel, C (1978) "The Linguistic Significance of the Meanings of Basic Color" Terms Language. 54:610-646
- Laffin, J. (1975) The Arab Mind London, Cassell.
- Lennberg, E. (1967) Biological Foundations of Language, N.Y. Wiley.
- Lucy, J. (1992) Language Diversity and Thought A Reformulation of the Linguistic Relativity Hypothesis.
 Cambridge Cambridge University Press
- Malotki, E. (1983). Hopi Time Berlin : Mouton.
- Patai, R (1973) The Arab Mind. N. Y: Charles Scribner's Sons.
- Penn, J. (1966). Languistic Relativity Versus Innate Ideas. The Hague. Mouton.
- Piaget, J. (1926). The Language and Thought of the Child NY Harcourt Brace (1963) The Psychology of Intel Ingence N J Luttlefield, Adams and Co (1964) "Development and Learning" in Ripple, R. and Rockcastle, V. (Eds.) Piaget Roducoverd. Hunca, N Y: Cornell University Press, PP. 7-20.
- Piaget, J and Inhelder, B (1966) The Pschology of the Child. London: Routledge and Kegan Paul.
- Said, E. (1978), Orientalism. London: Routledge and Kegan Paul.



- Sapir, E. (1921). Language. N. Y. Harcourt, Brace and Co. (1929) "The Status of Linguistics as a Science" Language, 5:207-214.
- Shouby, E. (1951) "The Influence of the Arabic Language on the Psychology of the Arabis". The Middle East Journal, 5:284-302
- Sinclair de Zwart, H (1973). "Language Acquisition and Cognitive Development". In Moore, T. (Ed.) Cognitive Development and The Acquisition of Language. N. Y: Academic Press. PP.9-25
- Stemberg, D. (1982). Psycholinguistics London. Longman.
- Wardhaugh, R. (1976). The Context of Language M A: Newbury House Publishers.
- Wason, P. And Johnson Laird, P. (Eds.) (1977) Thinking. Cambridge: Cambridge University Press
- Wells, R. (1962) "What Has Linguistics Done for Philosophy?" Journal of philosophy, 59: 701-713.
- Whorf, B. (1956). Language, Thought and Reality: Selected Writings of Benjamin Lee Whorf. J. Carroll (Ed.) MA:
 MIT Press.

اللغة ودلالاتها : تقريب تداولي للمصطلح البلاغي

بعبد سؤپر آبي "

انصب الاهتمام في دراسة اللغة (الكلمات، العبارات، الجمل، النصوص الادبية وغيرها، الانواع الادبية) على التركيبية (La syntaxique) التي تعنى بالعلاقة الوظيفية والتحويلية والتوليدية الحاصلة بين مفردات اللغة في العبارة أو الجملة المعبرة تعبيرا منطقيا. ولان هذا التعبير خاضع للشروط والضوابط والقوانين والمعايير فضلا عن المقاييس والقواعد والمواثيق العرفية التي أطلق عليها ما عرف بعلم النحو، فينبغي للمعبر أن يكون قادرا وماهرا، عارفا وممارسا. كما انصب الاهتمام على الدليلي (مصطلح ابدعه سيبويه"، وذكره صاحب لسان العرب(") فجعلناه مقابلا للمصطلح الفرنسي (La sémantique). فالدليلي (علم الدلالة) يدرس علاقة الدلالة بمرجعها، والباعث على العناية بالتداولية رؤية ومنهجا هو إغناء وإثراء وتخصيب التركيبية والدليلي. فقد «تمت

صباغة المشروع التداولي حبث لم بعد الأمر متعلقا البتة بفهم اللغة تصفتها موضوعا مستقلا عن الممارسة، اللغة التي يمكن أن نعترف لها بخصائص دون الإشارة إلى كونها صالحة لإنجاز عدد معن من المعاملات، يل لتمييزها وفقا لتحديدات الاستعمال اللساني»(؟). بقول فرانسوا لإترافيرس (François Latraverse). واستعمال اللغة – من منظور التداولية- غائي. فالتكلم يتم لتحقيق غاية ما، أو هدف معان، أو إشباع جاجة محددة، أو الحصول على فائدة. فلذا تستعمل اللغة للأغراض والمقاصد والمارب ذاتها بصفة فعلية وعملية في سياقات مختلفة ومقامات متباينة. ويضفي المتجاورون -بصفة مباشرة وغير مباشرة- على دلالات الملفوظات والمقامات دلالات أخرى. ولم تغفل البلاغة العربية مستعملي اللغة وسياقات الاستعمال. فتحت عنوان فرعي هو «لكل مقام مقال»، يقول السكاكي: «لا يخفي عليك أن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التشكر بيابن مقام الشكاية، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقام الذم، ومقام الترغيب بناين مقام الترهيب، ومقام الحد في حميم ذلك بناين مقام الهزل، وكذا مقام الكلام القداء لغاير مقام الكلام بناء على الإستخبار أو الإنكار، ومقام البناء على السؤال يغاير مقام البناء على الإنكار، وجميع ذلك معلوم لكل لبيب، وكذا مقام الكلام مع الذكي بغاير مقام الكلام مع الغبي، ولكل من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر»(٤). (التاكيد مني).

يدل هذا على أن النحاة والبلاغيين والمفكرين والفلاسفة الإسلاميين قد مارسوا المنهج التداولي قبل أن ينيع صيته بصفته فلسفة وعلما، رؤية واتجاها أمريكيا وأوروبيا، فقد وظف النهج التداولي بوعي في تحليل الظواهر والعلامات المتنوعة (الايقونات والرموز التصويرية والمعمارية والتشكيلية واللغوية.). فإذا كان «اللسانيون التداوليون العرب» قد درسوا «الدلالات التضمنية والانزامية» التي عرفت عند اللسانيين التداوليين الغربيين بدالدلالات المفترضة والمضمرة» المنقرعة عما عرف عند علماننا بددلاة المطابقة» التي عرفت عند العلماء الغربيين بدالدلالة المطروحة»، فقد

أغفل بعض اللغويين العرب الدلالات البلاغية التداولية، ولم يلامسوها إلا لماما. فعلى نظرية البلاغة ونظرية النحو والمنطق النقدي تنهض التداولية، وعليه فسيكون محور تقريبنا للدلالات اللغوية التداولية من خلال المصطلح البلاغي نفسه، فالبلاغة تشكل – إلى جانب النحو والاسلوبية والشعوية- سيعيائية اللغة، والسيعيائية تعنى التداولية.

وسيتم هذا التقريب الذي نحن بصدده بالتطرق إلى المواضيع التالية:

- 1- المصطلح البلاغي الخاص بعالمفردة».
- ب- المصطلح البلاغي المحدد للعبارة أو الجملة.
 - ج- المصطلح البلاغي الذي اطلق على النص،
 - د- المصطلح البلاغي المتعلق بالنوع الأدبي.

أ- المصطلح البلاغي الخاص بالمقردة

١- المجاز ودلالته التداولية

قبل الحديث عن المصطلح البلاغي الذي عرف بدالمباز، لابد من التحدث عما اعتبره البلاغيون نقيضا له، الا وهو مصطلح «الحقيقة». فإذا رجعنا إلى كتاب السكاكي نجد فيه البلاغيون نقيضا له، الا وهو مصطلح «الحقيقة». فإذا رجعنا إلى كتاب السكاكي نجد فيه التعريف التالي: «الحقيقة مي الكلمة المستعملة فيما تدل عليه بنفسها دلالة ظاهرة (...) ولك أن تقول: الحقيقة هي الكلمة المستعملة في معناها بالتحقيق، والحقيقة تنقسم عند العلماء ولك أن تقول: «الحقيقة هي الكلمة المستعملة في معناها بالتحقيق، والحقيقة تنقسم عند العلماء على مسمى من غير وضع، فمتى رايتها دالة لم تشك في أن لها وضعا، وأن لوضعها صاحبا. على مسمى من غير وضع، فمتى رايتها دالة لم تشك في أن لها وضعا، وأن لوضعها صاحبا. فالحقيقة، لدلالتها على معنى، تستدعي صاحب وضعها إليه، فقلت: شرعية، إن كان صاحب وضعها واضع اللغة. وقلت: شرعية، إن كان صاحب وضعها الشارع، ومتى لم يتمين قلت عرفية. وهذا المأخذ يعرفك أن انقسام الحقيقة إلى أكثر مما هي منقسمة إليه غير ممتنع في الأمر نفسه» أك فلفظ «الحقيقة» يعني الحق أو كنه الشيء وجوهره، أو منقسمة إليه غير ممتنع في الأمر نفسه» أك فلفظ «الحقيقة» يعني الحق أو كنه الشيء وجوهره، أو شوت الشيء يقينا وتحققه.

برغم صيرورة لفظ «الحقيقة» مصطلحا بلاغيا، أي مجازا أولا، فهو لا يقابل ولا يناقض في الواقع، حتى ولو استبدل بلفظ «التحقيق» لفظ «المجاز» لغة واصطلاحا. فمعنى الحقيقة مرتبط بصغة منطقية وبيقية ومبهمة بمرجع الكلمة لا بدلالتها. فما الحق؟ ومن أحاط منا بكنه وجوهر وثبوت وتحقق أي شيء؟ فيإمكان الشيء أن يكون واقعيا أو خياليا. ومادام أن الحقيقة تقابل الكنب، فكيف فات جل البلاغيين أن لا معنى للكلمة إلا في السياق الذي استعملت فيه، وأنها تحتمل الصدق والكذب كلما وردت في سياق إخبار أو إنشاء؟ وكيف تصير دلالتها ظاهرة وتحقيقية بغير تأويل، وهي تتغير من سياق إلى سياق و«دلالتها التضمنية ودلالاتها الالتزامية» تزول «دلالتها المطابقة» المرجع المحال عليه في سياق معين؟

المعاين عادة أن تكون دلالة المصطلح متصلة بالمعنى اللغوي للكلمة. فبأي كلمة يتصل مصطلح «الحقيقة» أيتصل ب«الحقيقة» الدالة على ما يفهم منها عند ذكرها، أي ما نجمع على إدراكه كلنا، أم بدالحقيقة» التي تعني الراية أو العلّم الذي كان يدل هو كذلك على الجبل؟ وإننا لنميل إلى كلنا، أم بدالحقيقة» التي تعني الراية أو العلّم الذي كان يدل هو كذلك على الجبل؟ وإننا لنميل إلى معنى خبر الراه الناس. وبما أن معنى كلمة يصير إلى معنى أخرى للعلاقة الوجوبية والتواجدية بين مرجعيهما حيث تدل كلمة واحدة على معنيين أو أكثر، فإن الكلمة— وخصوصا إذا اعتبرت علامة كما تفعل ذلك بها السيميائية أو التداولية— تقع على العلّم كما يقع العلم على الجبل. وأما حقيقة الشيء، فهي أدعى الصيابات واحدة على معني بن أو أكثر، فإن الكلمة— وخصوصا إذا اعتبرت علامة كما تفعل ذلك بها إلى الاختلاف حولها لاسباب ذاتية وموضوعية فالذات المدركة ناقصة، وتخدعها حواسها إلى الاختلاف ولي المنافقة ولا تدرك سوى مظاهرها وبعض نسبها رغم تقدم العلم والفلسفة. فهإن جدادة موقفنا الفلسفي هي اقتناع مجهول من طرف جميع العصور السالفة: اقتناع بعدم امتلاك الحقيقة»(أ) يقول نيتشه (Nietzsche) مؤكدا. وحتى حينما تحيل العلامة حقا إلى شيء، فهي مغايرة لذاك الشيء ذاته فدلالة «الحقيقة» غامضة وعرضة للاختلاف. فلذا لا يمكن الاستمرار في القسمك بهالحقيقة» عصططا بلاغيا في عصر وعرضة للاختلاف الفظء الحقيقة، عاملة المعنى ومنوف دلالة لفظ «الحقيقة» بالاقسام التداولية الأربعة المتناقضة التي وضعها لها المراغي ومنها: غموض دلالة لفظ «الحقيقة» بالاقسام التداولية الأربعة المتناقضة التي وضعها لها المراغي ومنها:

١- ما يطابق الواقع والاعتقاد.

٢- ما بطابق الواقع دون الاعتقاد.

٣- ما يطابق الاعتقاد دون الواقع.

٤- ما لا يطابق الواقع والاعتقاد.(٧)

تقوم الجدلية أولا بين الواقع والاعتقاد، وبين ما يطابق ولايطابق الواقع والاعتقاد ثانيا، وبين ما يطابق أحدهما دون الآخر. والجدلية أو التداولية تؤكد نسبية الحقيقة. فلا وجود لحقيقة مطابقة أو غير مطابقة للواقع والاعتقاد. فالاعتقاد نفسه واقعي، والواقع اعتقادي بصفة نسبية. ذلك أن الاعتقاد يحتاج إلى كثير من الفلسفة ليفهم الواقع المتغير دوما. ويتغير كلاهما بتغير الآخر، وإذا لم يطابق الاعتقاد الواقع، بات مجرد أيديولوجيا. والايديولوجيا نافية للجدلية بكتمانها المنقيض، لم يطابق الاعدلية بكتمانها المنقيض، ووينغي الجدلي الايديولوجي ذلك أن الايديولوجيا. والايديولوجيا في ويتطور الواقعي جدلي ويداولي. ويصير الايديولوجي تداوليا وجدليا كلما طابق الواقعي، ويتطور الواقعي بتطور وتداولي، ويصير الايديولوجي تداوليا وجدليا كلما طابق الواقعي، ويتطور الواقعي بتطور ومتعارض العناصر كاللغة. فدوال اللغة حسية ومتعارضة، بينما دلالات دوالها نهنية ومتخالفة. وإذا كان الدال اجتماعيا، فالدلالة فردية. وتبقى الحقيقة نسبية رغم الجدلية التي تحكم الاجتماعي والفردي، الدال والدلالة. بيد أن التمسك أو الاحتفاظ بمصطلح «الحقيقة» لا يفسح المجال لبلوغ ما يناقض مصطلح «المجاز» الذي يعد عدولا عن مصطلح «الكذب». وسيتم العدول عن «المجاز» ما يناقض مصطلح «الجاز» الذي يعد عدولا عن مصطلح «الكذبة، مع الواقع.

«المجاز» لغة من جاز، أي سار فيه وسلكه. والمجاز كذلك الموضع الاصمعي: جزت الموضع سرت فيه، واجزته خلفته وقطعته (أما، بمعنى العبور من هذا الموضع إلى موضع مغاير. فكانه القنطرة أو الجسر. وبالإضافة إلى ذلك، فالمجاز مصدر جاز. وأما من حيث الدلالة الاصطلاحية، فيقول عنها يحيى بن حمزة: «اعلم أن إطلاق لفظ المجاز على ما يفيده، ليس على جهة الحقيقة، وإنما يظلق على جهة المجاز، لأمرين: أولا فلان الحقيقة في هذا اللفظ، إنما هو التعدي والعبور، وحقيقة ذلك إنما تحصل في انتقال الجسم من حيز إلى حيز أخر، فأما في الالفاظ فلا يجوز ذلك في حقها، وإنما تكون على جهة التشبيه، وهذا هو فائدة المجاز ومعناه، ثانيا فلان المجاز إلى مقرد ومركب. فها هو عبد القاهر الجرجاني يضيف إلى ثنائية (مفعل)...، (أ. وينقسم المجاز إلى مقرد ومركب. فها هو عبد القاهر الجرجاني يضيف إلى ثنائية المقلق قالم واللغوي، فكان المقلي غير لغوي واللغوي غير عقلي. ذلك أنه يجعل المجاز العقلي في الإثبات والمجاز اللغوي في المثبت. فبالنسبة إلى

_ عالمالفکر

الجرجاني، فالمجاز متلقى من العقل إذا وقع في الإثبات من اللغة إذا ورد في المثبت وعلة ذلك انه إذا كان من شرط الإثبات أن يقيد مرتين كقولنا إثبات شيء لشيء، ولزم من ذلك عدم حصوله إلا بالجملة، أي تأليف بين حديث ومحدث عنه، ومسند ومسند إليه، فمأخذه العقل وهو القاضي فيه دون اللغة ذلك أنه لا حكم ولا إثبات ولا نفي ولا نقض ولا تبرير للغة، في هذه الحال^(١١)، وأيا كان الأمر، فبلاغتنا توجد اليوم، إذا كنا نريد تطورها حقا، بين خيارين فإما أن تتمسك بمصطلح «الحقيقة» فتكن -إذ ذلك مجبرة على إيجاد مصطلح يقابلها غير مصطلح «المجاز»، وإما أن تحقظ بمصطلح «المجاز» وإما أن تحقظ بمصطلح عناقضه فيشكل بذلك نقيضه الجدلى لغة واصطلاحا.

تستقل كل لغة بتاريخها العربق والبعيد الأصول. فلذا يتعذر على فقه اللغة في معظم الأحيان معرفة مصادر الألفاظ ولئن اختلف اللغويون والنحاة في أصول الكلمات، فإن البلاغيين لم يتفقوا على مفهوم واحد للحقيقة. فلذا استعصى عليهم العثور على ما يناقضها فالفيناهم يستعملون عبارات «المعنى الأول»، أو «المعنى الوضيعي»، أو «المعنى الحقيقي» وكأن ما يغايره معنى ثان أو غير وضعى أو زائف. ولما استشعر البلاغيون مجانبتهم الصواب المتجلى في أن للكلمة الواحدة معانى عدة وللمرجم الواحد أسماء عدة، تجاوزوا المفردات الدالة على الزيف والبهتان والكذب إلى لفظ «المحاز»، ومثاله، «شوه تعلب سمعتى لدى قيدوم الكلية»، فتعلب، وإن استعمل استعمالا محازيا، فهو يتضمن نسبة ما من الحقيقة (حيوانية الإنسان، جشعه، خيثه، كيده...). ولا يعتبر ابن حزم المجاز كذبا في قوله احتج من منع المجاز بأن قال: «إن المجاز كذب»، والله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ببعدان عن الكذب (١١). فإذا كان «المجاز» لا يشكل - من وجهة نظر حدلية - نقيض «الحقيقة»، كما لا تشكل «الحقيقة» نقيض «المجاز»، فما يمكن أن بعد نقيضا للهمجاز» للإجابة على هذا السؤال، نقترح مصطلح المُؤخل. فهو «مصدر» من رُحَلَ، يُجِل أو يَوْحَل، أي وقع في الوحل فلم يستطع السير والتقدم وتجاوز المُؤجل وهو مكان الوحل. هذا لغة، وآما اصطلاحا، فهو استعمال الكلمة لتحيل على مرجعها الذي سمى بها فصارت اسما له بصفة مباشرة. ولا يجرد هذا التحديد دلالتها السياقية المطابقة من دلالتها التضمنية ودلالاتها الالتزامية التي يعتبرها ج ل. أوستان (J.L.Austin) بيانية، ويعدها. أ. ديكرو (O.Ducrot) بالغية. ففي حين يدل مصطلح «المجاز» على التجاوز والالتفات والتحول والتغيير فضلا عن التجديد والإبداع

والتحديث، يدل الموحل على التقليد والمحاكاة والثبات. فلا تأثير للمعنى الموحلي إلا بدلالاته التضمنية والالتزامية. فبهذا التأثير الأولي أضحت هذه الدلالات تداولية. والسبب في ذلك أنها نثار في ذهن السامع. فهي مماثلة في ذلك لدلالات «المجاز» و «التورية».

٧- التورية ودلالتها التداولية

لا تختلف «التورية» عن «المجاز» من حيث الغاية من استعمالها، فالغاية هي التأثير في السامع ليبدع بدوره ما يترك اثرا مشابها أو مغايرا في سامع آخر. فالتورية لغة من ورى الخبر تورية، أي أراده فأخفاه وستره وأظهر غيره، ومنه الحديث دكان إذا أراد سفرا ورى بغيره» بعنى أنه كنى عنه موهما إرادة غيره (١٧). فإذا ورى المتكلم معنى بغيره، فيترجب على السامع اكتشاف أو استشفاف المعنى المورى، واصطلاحا، تعني التورية ذكر كلمة مفردة بمعنيين أحدهما ظاهر وغير (قريب) يحيل على مرجع الكلمة الباشر وأيس بالمراد، والكلمة الواحدة بمعنيين أحدهما عادي تداولي لأن استنباطه خاص بالسامع إذ هو المطالب بفهمه. والفهم بداية الحوار يقول باختين: وإن يكن مع الذات الفاهمة، ولا يكتمل الفهم إلا في السياق الذي أدى إلى التلفظ بالعبارة أو الجملة التي تضمن التورية. والسياق أنواع ثلاثة: السياق اللفظي التركيبي، والسياق غير اللفظي التركيبي، والسياق غير اللفظي التركيبي، والسياق غير اللفظي الترفيبي، والسياق غير اللفظي الظرفي، والسياق الحياتي العام. والمتكلم باللغة الحياتية ظاهر وباطن، باد ومتوار. ومثال التورية نشوقه على شكل حوار ذي دورين فقط.

- -- ألواش يد على غيره؟
- ولا راحة من وشايته!

إن كلمة ديد، في السؤال مجاز، بينما كلمة دراحة، تورية. فلو تكررت كلمة ديد، في عبارة واحدة بحيث يصير لها معنيان (معنى يدل على المرجع المباشر كالمعنى الموجلي، أي عضو الإنسان، ومعنى مجازي، أي النعمة) لكنا إزاء الشاكلة.

٣- الشباكلة ودلالتها التداولية

المشاكلة لغة المماثلة والمشابهة. فالشكل الشبه والمثل. ومن المكن أن يتشاكل الشيئان فيشاكل الحديد المكن أن يتشاكل المشاكل المشاكل وشاكل واشكلة وشاكل

ومشاكلة. والمشاكلة الموافقة. (¹⁴⁾ ولكن البلاغيين قد اختلفوا في شأن المشاكلة فرغم قولهم في تحديد مصطلحها، أي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه معه أو بصحبته، فمنهم من يعتبرها مجازا، ومنهم من لا يعتبرها مجازا ولا موجلا، ومنهم من يعدها واسطة بين الموجل والمجاز⁽¹⁴⁾، وحجة الفنة الثانية غياب العلاقة بين المعنين. ولكن للمشاكلة أنواعا عدة. (⁽¹⁾) ويجمع أحد أنواعها بين المعنى الموجلي والمعنى المجازي كان يقول بعضهم مثلا: «مد إلي يده بعد ما كانت له علي يده. فلهذه الأخيرة دلالات تداولية كثيرة (الخير، الإحسان، النعمة...).

تقتضي التداولية من المشاكلة أن يكون قائلها السامع وسامعها القائل على دراية كبيرة بخصائص اللغة ومميزات الفاظها ولطائف معانيها وبقائق دلالاتها، كما تقتضي منهما خبرة واسعة بتشكلات أساليبها وتغيرات صبغها وتلون تعابيرها التي تتكون من الفاظها المختلفة والمتنوعة والمتجانسة والمتعددة، ويمكن أن تتعدد دلالات أحدها فيتحول إلى رمز.

٤- الرمز ودلالته التداولية

الرمز أصلا قسم من أقسام الكناية، وهذه الأقسام الأخرى هي التعريض والتلويح والإيماء والإشارة. ويعني الرمز لغة الإشارة إلى قريب خفية بطرف عين أو حركة معبرة. . واصطلاحا هو عبارة يرد فيها مفرد يفهم منه السامع معنى مغايرا لمعناها المالوف. وهذا المعنى هو ما يكسب الرمز تداوليته. ولما كان الرمز مقاربا لباقي أقسام الكناية، فإننا نتخذه نموذجا لها في تقريب دلالاتها التداولية. وإذا كان هذا مدلول الرمز في البلاغة القديمة، فما هي مداليله الانثروبولوجية الراهنة في البلاغة الحديثة»

«الرمز شيء او موضوع (ملموس)، او كائن حي يعتبر بسبب شكله وطبيعته وطابعه تعثيلا لشيء مجرد. وفي اللسانيات يقيم الرمز، ككل علامة، علاقة بين أي شكل (صورة، رسم، إلخ.) ومرجع(...) فبهذا المعنى، تنتمي العلامة اللسانية إلى فئة الرموز. ومع ذلك، يوظف مصطلح الرمز أيضا (...) للتمييز، داخل العلامات الاصطلاحية، بين ما يحتفظ منها برابط طبيعي بين الدال والمدلول، وما هو غير مبرر بصفة كلية، ويختص اولها بمصطلح الرمز (مثل: الميزان رمز العدالة). والرمز علامة، اختصار يدل بصفة اصطلاحية على مفهرم أو شيء, (١٠٠٠).

هل الرمز، عند الغربيين، كلمة أو مصطلح بالغي كنائي كما هو الشأن لدينا؟

لا يبدو على أنه مصطلح بلاغي كناني من التحديد الانف الذكر. ومع ذلك، يقدم توبوروف (Todorov) للرمز الذي يقارن بينه وبين الامثولة تعاريف يمتصها من كتابات الرومانسيين والمحدثين الإيداعية مثل: غوته، وشيلير (Schiller)، وشليجيل (Schiller)، وشيلينغ (Schiller)، وكروزر (Kant)، وهينريك ميير (H.Meyer)، وهامبولد (Humboldt)، وكروزر (Solger)، وسولجير (Solger)، وعليه، يحدد تودوروف الرمز بقوله: إن دلالته غير مباشرة وثانوية، وأنه يوجد لذاته ولا تكتشف دلالته إلا في زمن ثان، فإشارته تأتى في المرتبة الثانية، وتعربا ممكن وإشارته احتمالية. ويكون لطبيعة العلاقة في حالة وجود الرمز طابع أدق. ويعد ذلك عبورا من الخاص إلى العام، من الواقعي إلى المثالي وبالضرورة، فإن الدلالة الرمزية من نوع عبورا من لخلاك تتم، بصفة خاصة وبشفافية تقريبا، رؤية قانون عام عنه بصدر. فما هو رمزي نمونجي ونعطي. (١٨)

تكمن تداولية الرمز فيما يحدثه من آثار بالغة في متلقيه الذي يخلد إلى النجوى أو التحاور مع الغير. فدلالته الرمزية اسرع إلى الفهم من قبل الجميع، ذلك أنه ينتج آثرا أو دلالة من خلال ذاته الغير. فدلالته الرمزية أسرع إلى الفهم من قبل الجميع، ذلك أنه لازم. ففي حالة الرمز، تسيير اللازمية جنبا إلى جنب مع التركيبة (La synthése). والمرضوع الرمزي مؤتلف ومختلف مع/عن ذاته في الوقت نفسه. فهو صورة ويصدر عن الطبيعي، ويتم اكتشاف طبيعته الحدسية كلما كانت له علاقة غير انعكاسية مع الذهن. فالرمز دو طابع مقتضب ومكثف (^^).

يتجلى الاتجاه التداولي في قول تودوروف بإيجاز معلقا على دلالة الرمز التي تفضي بالمتلقي إلى ممارسة التناويل: وفي الرمز، لاتشير الصورة بذاتها إلى أن لها معنى أخر، فليس إلا (فيما بعنى مارسة التناويل: وفي الرمز، لاتشير الصورة بذاتها إلى أن لها معنى أخر، فليس إلا (فيما بعد) أو بصفة لا واعية يتم الانقياد إلى عملية إعادة التأويل. وها نحن نمر من سيرورة الإنتاج، بواسطة العمل الادبي نفسه، إلى سيرورة التلقي، الله. ويقوم تلقي الرمز على التأويل لانه يحول الظاهرة إلى صورة غير قابلة للقول للانهائية الدلالات الرمزية التي لا ينضب معينها. فالرمز حي ونشيط دوما، وما لبحر تأويله سواحل. فما يعبر عنه الرمز دائم الانفلات من قيد العقل، وأنّى له الانقياد وهو صاهر الأضداد (العام والخاص، الفكري والمادي، الكينونة والدلالة)؟ (١٦٠). فالرمز، كالاسطورة، موجود ودال، ففيه يصير المدلول دالا، وهذا يذكر بسيميائية بورس (Peirce). فبالنسبة لمؤسس السيميائية يكون للعلامة في ذهن متلقيها مؤول

(Interprétant) يصير بدوره علامة قابلة للتأويل، فإن كان الرمز فرعا من فروع الكناية، فإن كروزر يجعل من الاستعارة أحد فروع الرمز^(۲۲). ولا تخفى العلاقة القائمة بين الاستعارة والكناية في بلاغتنا. ومصطلح «الاستعارة المكنية» دليل على هذه العلاقة. كما هو واضح، فإن للمجاز والرمز الكنائي والتورية والمشاكلة علاقة بباقي الكلمات التي تسبقها أو تلحق بها في سياق العبارة أو الجملة.

ب- المصطلح البلاغي المحدد للعبارة أو الجملة

١- الخبر ودلالاته التداولية

الخبر عند البلاغيين نبأ يحتمل الصدق والكنب باستثناء أخبار الله ورسوله. ولابد للخبر من مخبر ومخبّر به. والعنصران الأولان من عناصره التداولية هما الخبر به والمغبّر به، وإما العنصر مخبر ومخبّر به. والمناسبات الثالث فهو مطابقته للواقع أو صدقه، بينما عنصره التداولي الرابع هو كون الخبر غانيا. فثمة غايات تتصل بالمخبر واخرى بالمخبر. ويتغير الخبر حسب أحوال وظروف وأغراض ومواقف كل منهما. فهو علامة على وجهة نظر المغير ومقصده الذي يتكيف أو لا يتكيف مع موقف الخبر ومدف، ودلالاته التداولية (التضمنية والالتزامية) مندمجة بدلالته المطابقة ومدركة من قبل المخبر به. وهذه مي الدلالات التي ذكرها كلها المفكرون والفلاسفة والبلاغيون العرب مثل محمد بن عبد الله بن العربي، وأبو حامد الغزالي، وعلي بن أبي علي بن محمد الأمدي، ويقسم هذا الأخير الدلالة إلى قسمين وهما: الدلالة اللفظية وغير اللفظية، وتعتبر اللفظية بالنسبة إلى كلية المعنى الذي وضع اللفظ له أو إلى بعضه: «فالأول: دلالة المطابقة كدلالة لفظ الإنسان على معناه، والثاني: دلالة اللفظ له أو إلى بعضه: «فالأول: دلالة المطابقة كدلالة لفظ الإنسان على معناه، والتضمن دلالة المطابقة أم من التضمن كدلالة لفظ الإنسان على معناه، والثاني: دلالة الجواز أن يكون المدلول بسيطا لا جزء له.

وأما غير اللفظية، فهي دلالة الالتزام، وهي أن يكون اللفظ له معنى، وذلك المعنى له لازم من خارج، فعند فهم مدلول اللفظ من اللفظ، ينتقل الذهن من مدلول اللفظ إلى لازمه، ولو قدر عدم هذا. الانتقال الذهني، لما كان ذلك اللازم مفهوما، (٣٠٠).

إن دلالة المطابقة سواء في الخبر أو الإنشاء أقل تداولية من دلالة التضمن ودلالات الالتزام. ذلك أن الأولى تصدر عن ملق ما لغرض معين لابد لتحققه من متلق يستشفه من خلال ما يثار في

نهنه من دلالة تضمنية ودلالات التزامية في سياق مصاحب للكلام. فبمثارها في ذهن المتلقى اعتبرت تداولية. وترقى هذه التداولية إلى أعلى مستوياتها كلما أثر الملقى في المتلقى تأثيرا يحول ويبدل موقعيهما. وبذا يصير المتلقى ملقيا والملقى متلقيا، ويشرعان في التفاعل، ويتبادلان الكلام ويتناوبان عليه، أي يتحاوران. وهذا يعني أنهما يحترمان الأدوار ومبادى، التواصل والتحاور أو ما عرف في الفقه أو الفكر الإسلامي أو الفلسفة الإسلامية بالجدل والمناظرة والحجاج. وقد شباع ذلك في الفكر العربي المعاصر بالتداولية/الحوارية، أو التداولية/الجدلية. وفي انعدام تداول الآراء، تبقى الدلالة المطروحة (posée) بغير ما يدمج بها من دلالة مفترضة (présupposée) ودلالات مضمرة (sous-entendues). فالتداولية لا تهتم بفهم الملقى في غياب فهم المتلقى ورد فعله اللفظي و/أو غير اللفظي. فبفهم المتلقى تبتدىء النجوى أو المناجاة والاستعداد للتحاور مع الغير. فغير خاف أن الدلالة المطابقة أو المطروحة «دلالة وضبعية»، بينما دلالة التضمن أو المفترضة ودلالات الالتزام أو المضمرة عقلية في نظر بعض البلاغيين. وسواء اعتبرت «الدلالة الوضعية» احتماعية والدلالة العقلية فردية، فقد انهار صرح هذه الثنائية بجدلية الفردي والاجتماعي والنتيجة هي أن كل دلالة وضعية وعقلية. فابن حزم يقول: «إن الاصطلاح على وضع لغة لا يكون ضرورة إلا بكلام متقدم بين المصطلحين على وضعها، أو إشارات قد اتفقوا على فهمها وذلك الاتفاق على فهم تلك الإشارات لا يكون إلا بكلام ضرورة. ومعرفة حدود الأشياء وطبائعها التي عبر عنها بالفاظ اللغات لا تكون إلا بكلام وتفهيم. لابد من ذلك. فقد بطل الاصطلاح على ابتداء (...) الكلام(...)

إلا أننا لا ننكر اصطلاح الناس على إحداث لغات شتى بعد أن كانت لغة واحدة وقفوا عليها، بها علموا ماهية الأشياء وكيفياتها وحدودها.. ولا ندري أي لغة هي التي وقف أدم عليه السلام عليها اولاء،(٢٤)

حتى إن اريد بالوضع النطق أو الإلقاء أو الطرح أو الأصل الأول، فهذا مجهول كما يتضح ذلك من قول ابن حزم، وجهلنا إياه لا يسلبه أبداً مزية صدوره عن عقل ومنطق ونسق وسياق من قول ابن حزم، وجهلنا إياه لا يسلبه أبداً مزية صدوره عن عقل ومنطق ونسق وسياق فاللاعقلي عديم الفائدة، وهي أحد شروط التداولية. ويشترط الجرجاني حصول الفائدة بمراعاة العرف اللغوي والمنطق أثناء التحدث، وذلك بقوله عن الكلام المفيد. «إن الكثير منه تراه في عداد من يشترك فيه أجيال الناس ويجري به العرف» (٥٠٠)، ومع ذلك، يميز الجرجاني بين الاستعارات الخاصة (٢٠٠) التي تعتبر تداولية لأن المبدع يتجاوز بها ما هو عامي ووضعي

وعرفي واجتماعي، أي ما هو متداول ومآلوف ومبتذل بابتكاره للجديد والحديث، العجيب والغريب، الخارق والمدهش فالمبتكر ينفعل بالأوجه البلاغية ويفعلها سواء أكانت مجازا أو استعارة أو كناية، فالبلاغة نفسها مقوم من مقومات التداولية.

٧- الكناية ودلالاتها التداولية

تختبي، دوما الدلالات التداولية خلف الدلالة الحروفية للعبارة أو الجملة، وخصوصا إذا تضمنت مجازا أو تورية أو مشاكلة أو كناية. فاللقي الذي يتفادى التصريح ويقبل على التلميح يبتدع الكناية ويراهن في الآن ذاته على ذكاء وفطنة ويقظة المتلقي وحدة ذهنه وسرعة فهمه لدلالات الكناية الباطنية المختفية وراء دلالتها الظاهرة. فالكناية لفة أن تتكلم بشيء وأنت تريد به غيره أو أن تتكلم بلشيء وأنت تريد به غيره أو الكناية البلاغية التداولية بدلالاتها البيانية التداولية، وذلك ليس لكون البيان فرعاً من فروع البلاغة فحسب، بل لأن دلالات الكناية كدلالات أي عبارة مع اختلاف من أجله ابتدع مصطلح الكناية، فهي للكناية الذي يذكر بتحديده لاقسام الدلالة : وإنها، إذا أطلقت، فالمعنيان، أعني الحقيقة والمجاز، مفهومان معا عند إطلاقها، ومثالها قولنا فلان كثير رماد القدر، فإنك قد استعملت هذه الالفاظ في معانيها الأصلية، وغرضك إفادة كونه كثير رماد القدر إفادة معني آخر يلزمه، وهو الكرم، (٢٠٠٠).

نتراءى التداولية من خلال دمج ابن حمزة الدلالة الالتزامية (المعاني الملازمة) بالدلالة المطابقة (المعاني الاصلية) وبرغم عدم ذكره للمتلقي الذي تقع على عاتقه مسؤولية فهم المعنى الملازم للمعنى الحرفي، فقد ذكر صفة «مفهومان» ولفظ «إفادة» مرتين. والفهم والاستفادة يرجعان سوية إلى المتلقى، فالمتلقى لاغيره هو من سيفهم ويستفيد، من المعنى السطحي الذي يطرحه الملقي، المعاني العميقة. فالكتابة غائبة، أي تكمن غائبتها في قصديتها وفائدتها. وكل تحبير غائي تداولي. وتتحقق تداولية الكتابة بواسطة التعريض والتلويح والإيماء والرمز. ومثالها: «هذا افعوان ارقط» كتابة عمن بيث السموم بلسانه ممارسا النمية، وللكتابة علاقة بالاستعارة كما سبقت الإشارة.

٣- الاستعارة ودلالاتها التداولية

الاستعارة من حيث اللغة من اعار فلان الشيء من فلان وأعاره أحدهما من الآخر وأعاره

ثانيهما إياه، ومنه المعاورة والتعاور كالمداولة. ويكون التداول في الشيء بين اثنين. وتكون الاستعارة من تعور واستعار. واستعار الشيء أو استعاره منه طلب منه إعارته، أي أن يعيره إياه(٢٩).

تنطلق فئة من البلاغيين في تعريف الاستعارة من المصطلع نفسه فتقول إن الاستعارة من استعار فلان الشيء من غيره، أي اقترضه واستلفه منه فصار الشيء عارية لابد أن ترد يوما ما إلى صاحبها. فكان الملقي يستعير من كلام غيره عبارة كانت تعبر عن معنى عادي تقريري للتعبير عن دلالات تخييلية جديدة. فالملقي يغترف من نخيرته اللغوية ليبدع عبارة تتحقق فيها الاستعارة بضم كلمة تنتمي إلى نسق مغاير لا على سبيل تحقيق التجاور المالوف والتشكيل المنطقي أوالعقلي المتداول، بل على سبيل خرق هذا التجاور المعتاد والتشكيل المتداول. وأما الفئة الأخرى، فتنطلق في تحديد الاستعارة من أصلها، أي من التشبيه والمجاز والجرجاني من هذه الفئة. فهو يقول عن هذا الوجه البلاغي الذي يعد علامة من علامات الإبداع التداولي:

«اعلم أن الاستعارة في الجملة أن يكون لفظ الأصل (أي الشبه به) في الوضع اللغوي معروفا (أي في معنى بعينه)، تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل، وينقله إليه نقلا غير لازم (فلو نقله نقلا لازما صار حقيقة عرفية لا استعارة) فيكون هناك كالعارية،(٢٠٠٠. (أخذ ما بين الاقواس من هامش الصفحة نفسها)

إن العناصر التداولية للاستعارة شبيهة بالعناصر التداولية للكناية ومثال الاستعارة: «تخدع الصياة كل أناني». وأنواع الاستعارة هي: الاستعارة العنادية والوفاقية، الداخلية والخارجية، العامية والخاصية، المصرحة(التحقيقية والتخييلية) والمكنية، الاصلية والتبعية، المرشحة والمجردة والمطلقة، الحسنة والقبيحة، ولن تتعرض في هذا المجال الضيق لجميع أنواع الاستعارة بقدر ما سنفرد للاستعارة التمثيلية حيزاً خاصاً للاسباب التالية:

- كونها نمونجا لباقي أنواع الاستعارة.
- ترجحها بين كونها عبارة أو جملة، وكونها نصا قصيرا أو طويلاً.
 - كونها تمهيداً للحديث عن المثل والتمثيل والأمثولة.

تكتسب الاستعارة تداوليتها من التأثير الذي تحدثه في التلقي في سياق معين. حتى وإن

صدرت عن موقف الملقى وموقعه ووضعه الاجتماعي وانتمائه الأيديواوجي، فهي تفضى بالمتلقى إلى الوعى، والحصول على التجرية المعدلة للسلوك، والمحولة من الانفعال إلى الفعل، ومواصلة السيرورة التطورية. فبإحداث الاستعارات الفذة والمتميزة والمبتكرة تتطور اللغة ودلالاتها التداولية المترائبة من خلال أساليب الاستعارة وأنواعها. وتطور اللغة علامة على تطور الحياة والتطور مبدأ من مباديء التداولية. والحياة المتطورة قائمة على التكالم والتحاور والتحادث والتواصل بالتعبير أو التأويل. فأحد معانى التأويل هو الإبداع والتغيير والتحوير والتحويل، وكذا الانزياح والخرق والانتهاك والخلق. وابتداع الاستعارات تداولي ومن مهام التخيل والتمثل والتصور. وينبع التصور الاستعاري من التجرية التي تتفاعل مع اللغة وهذا التفاعل نفسه تداولي. وتبرز تداولية دلالات الاستعارة في قول جورج لايكوف (Georges Lakoff) ومارك جونسن (-Mark John) son): «انتبهنا إلى أن الاستعارة حاضرة في كل مجالات حياتنا اليومية. إنها ليست مقتصرة على اللغة، بل توجد في تفكيرنا، وفي الأعمال التي نقوم بها أيضًا. إن النسق التصوري العادي الذي يُسمّير تفكيرنا وسلوكنا(لذو)(٢١) طبيعة استعارية بالأساس»(٢٢). وتتبدى التداولية في تفاعل التفكير الاستعاري والعمل. ويعبارة أخرى، يتفاعل النظر الاستعاري بالمارسة الفعلية، كما تتمثل التداولية في تاكيد المؤلفين نفسيهما على أهمية السياق في فهم الدلالات التداولية للاستعارة. ويتضبح ذلك من قولهما: «في عدد كبير من الحالات يكون السياق مهما»(٢٣). وفي احد فصول كتابهما القيم الجامل لعنوان «الاستعارة والصدق والعمل» يربط المؤلفان الاستعارة بالتجربة الإنسانية والحقيقة الاجتماعية والعمل والمستقبل. وهذا لا يدع مجالا للشك في أن تداولية دلالات الاستعارة ناجمة عن ظروف معينة وأحوال محددة مثل الأزمات، مما يفضى إلى البحث عن منافذ للخروج منها. ويمكن أن يعترض أحدهم علينا بقوله إن هذا الإجراء خاص باللغة كلها لا بالاستعارة وجدها. ونرد على هذا الاعتراض بأن للاستعارة تأثيراً قويا يفتقده التعبير التقريري العادي. ذلك أنها تشخيصية وتأويلية. وتأويلية الاستعارة أوسع مجالا من تأويلية المجاز. فإذا كان الماز يتحقق في الاسم فقط فإن الاستعارة تتحقق في الاسم والفعل والحرف. وهذا سبب تعدد أنواعها كما أنه إذا كان المجاز كلمة في عبارة، فإن الاستعارة عبارة في جملة، أو جملة في نص، أو نص (ثلاث جمل بسيطة أو مركبة) في نص مثل الاستعارة التمثيلية.

تبدو تداولية دلالات الاستعارة- مثلا- من «الافتراضات» التي وضعها لايكوف وجونسن

وقسماها إلى أربعة أقسام نذكر منها ثلاثة لأن الافتراض الأول تكرار للثاني. وتبدو هذه الأقسام الثلاثة على الشكل التالي:

«- يمكن أن تكون استعارة معينة الوسيلة الوحيدة لتسليط الضوء على بعض مظاهر تجربتنا
 وتنظيمها بشكل منسجم.

- قد تبدع الاستعارات بعض حقائقنا، وخصوصا الحقائق الاجتماعية.

- ويهذا قد ترشدنا استعارة معينة في عمل مقبل. وهذه الأعمال المقبلة ستتقق- طبعا- مع هذه الاستعارة. وهذا يدعم قوة الاستعارة في جعل التجرية منسجمة ويهذا المعنى يمكن للاستعارات أن تكون (نبوءات) تضمن تحققها بنفسها «^(۲۲).

إن قولنا: «لنحارب النظر إلى الأشخاص لنحمي النظر إلى الأعمال» يتضمن استعارتين تشير الوقعال، يتضمن استعارتين تشير الوقعا إلى ما هو كائن (النظر إلى الأشخاص)، بينما تشير ثانيتهما إلى ما ينبغي أن يكون (النظر إلى الأعمال). فإيجابية أو سلبية المارسة المجسدة لضمون الاستعارة أولى بالعناية من صواب الاستعارة أو باطلها. والعبرة- من منظور تداولي- بما بعد الاستعارة من غايات وأغراض ومقاصد، فضلا عن الأفعال والأعمال والمكاسب. فإذا أدت الاستعارة ألى تصورات واستراتيجيات وطرائق ومواثيق، فإنها تفضي- لامحالة- إلى الإنجاز والتطبيق والمارسة لتحقيق ما تم تصوره ورسمه والاتفاق عليه بواسطة هذه الاستعارة في مساقات مختلفة. وفي هذا السياق يقول المؤلفان: ففي أغلب الحالات، ما فيه نظر ليس هو صدق الاستعارة أو كذبها، بل الإدراكات والاستناجات التي تستتبع الاستعارة، والأعمال التي تقرها. ففي كل تفاصيل حياتنا اليومية، بصرف النظر عن السياسة والحب، نحدد الحقيقة من خلال الاستعارات، ونتصرف بموجبها، إننا نرسم استنتاجات، ونرمي إلى أهداف، ونقوم بتعهدات، وننفذ مخططات، ونرمي إلى أهداف، ونقوم بتعهدات، وننفذ مخططات، (٢٥٠).

سنرصد الآن ووفق الخطة المرسومة في المقدمة الدلالات التداولية للاستعارة التمثيلية، وهي جملة قابلة لأن تصير مثلا، أو هي نص يطمح إلى أن يغدو أمثولة. ومثال الاستعارة التمثيلية «لا تمشي السيارة في البحر». ودلالاتها التداولية التي يستنتجها المثلق هي أنه لا يمكن ركوب المصال للوصول إلى المبتقى، بل لابد من العبور من الطريق الممكنة. ويمكن لهذه الاستعارة التمثيلية أن تصير مثلا. ولكننا سندرس تداولية أسلوب الالتفات قبل دراسة الدلالات التداولية للمثل.

٤- الالتفات ودلالاته التداولية

كانت الاستعارة تتنوع بتنوع اساليبها، وتكتسب تداوليتها من تواجد اللقي والمتلقي والسياق، بينما يكتسب الالتفات تداوليته من تغيير الأساليب والصيغ الزمنية والكانية والكلمات. أضف إلى نلك التجنيس في الكلمات والتلوين في الألفاظ والحروف لمباغتة المتلقي والتأثير فيه بنقله من تفسية إلى قضية والالتفات في اللغة أن تنظر إلى الجهة المغايرة للجهة التي كنت تنظر إليها، أي قضية إلى قضية إليها وبلله وتنظر إليها التفاقا. وفي حديث الرسول صلى الله عليه وسلم يصف الاتفاتات فإذا التفت، التفت جميعا، بمعنى لا تسارق النظر أو لا تلري عنقك يمنة ووسرة كلما نظرت إلى الشيء (٢٦٠). كما يعني أن تصرف الفرد أو الجماعة عن وضع أو طرف أو تقليد أو حالة أو حضارة أو ثقافة إلى غيرها. ففي القرآن الكريم، نجد هذه الآية الدالة على التحويل والنقل من اعتقاد إلى أخر وقد وردت على لسان الكفار الذين سألوا موسى عليه السلام مستنكرين الحق الذي جاء به من عند الله: «أجنتنا لتلقتنا عما وجدنا عليه أبامنا ..» (سورة يونس، الآية رقم ١٨٧). أسلوب إلى أسلوب، ومن موضوع إلى موضوع، ومن صيغة إلى آخرى .. وبهذا الصدد يقول أسلوب إلى أسلوب، ومن موضوع إلى موضوع، ومن صيغة إلى آخرى .. وبهذا الصدد يقول أما شك فيه، أو ظن بأن رادا يرد عليه قوله، أو سائلا يساله عن سببه، فيعود راجعا على ماقدمه فإما أن يؤكده أو يذكر سببه أو يوحل الشك فيه، إ\").

تكمن تداولية الاتنفات، كما يتجلى ذلك من هذا التعريف، في مناجاة الملقي نفسه متسائلا ومجيبا. ومن المعلوم أن لامناجاة لاتشبه الحوار. فهي، قبل أن تصير ما هي عليه، حوار مع الغير كما تكمن تداولية الاتنفات في مراعاة الملقي للمتلقي. فهذا الأخير هو السبب الأول في لجوء الملقي إلى إحداث الالتفات في الأساليب والصديغ والضمائر والمعجم... وكما سبقت الإشارة، فإن الاتنفات وجه بلاغي نامع من تجارينا الكلامية، ومعارفنا حول أنفسنا التي ترفض التكرار المل، وتجنح نحو التبديل والتغيير والتلوين في اساليب الكلام وصيغه وأشكاله. كما تنفر نفوسنا وأنواقنا وأحاسيسنا الجمالية المتطورة دوما من النبرة ذاتها، والنغمة نفسها، والإيقاع عينه، والقول المعاد، عنا من الطرائق والاشكال والدلالات التي نحس حونحن نتلقاها- بالرتابة المضجرة، والمتلقى هو الباعث الأول على ابتكار الملقى للالتفات، وذلك للاستجابة لأفق

انتظار المتلقي أو لتغييره، أو لإيماشه أو مفاجاته بالانتقال من حال إلى حال، أو من معنى إلى لخر، أو من طريقة إلى أخرى، والانتقال أو التغيير أساس من أسس التداولية مثل تكييف أفعال الخر، أو من طريقة إلى أخرى، والانتقال أو التغيير أساس من أسس التداولية مثل تكييف أفعال الكلام بحسب المتلقي ومقامه. وفي هذا السياق، يقول الزمخشري: «إن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى اسلوب، كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظا للإصفاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد، وتختص مواقعه بفوائده الأمام الزمخشري، فهي تعني التأثير المفضى إلى التجديد والتحديث والتطوير في فنون القول وضروب الكلام وأنماط الحديث وأنواع الادب القائمة على التمثيل زيادة على التقدم في الأفعال والأعمال والمارسات والمنجزات الفكرية والمادية.

يتفاعل المادي والفكري، الواقعي والادبي مثلما تتفاعل التجرية والبلاغة. فإذا كان بعض البلاغيين يعتبرون الاتفات هو الوجه البلاغي المجسد لمشجاعة العربية»، فإنهم يقصدون بذلك شجاعة الملقي الذي يبدع في التعبير بما يحدثه فيه من تشكيلات رائعة من زاوية المثلقي. وجلي أن الملقي مثلق والمثلقي ملق. وعليه، فإن تلقي الاتفات يلتقي بتلقي الفصل والوصل فابن جني لا يدرج هذا الوجه البلاغي ضمن الأوجه البلاغية الأخرى التي أدت به إلى أن يتبوا مكانة الريادة في وضع مبحث في كتابه سماه: «باب في شجاعة العربية» يقول فيه: «اعلم أن معظم ذلك إنما هو الحذف، والزيادة، والتقديم، والتأخير، والحمل على المعنى، والتحريف، (") فلا انحراف في القول بأن «الفصل والوصل» أقرب إلى الاتفات. أو ليست إحدى أحوال الفصل أن تختلف جملتان متصلتان - مثلا - غيرا وإنشاء؟

٥- المُثَل ودلالاته التداولية

لا مربة أن المثل من الاستعارة التمثيلية. ويوكل استنباط معناه الضغي من معناه الجلي إلى المثلقي، والمُثلّ عبارة أو جملة قصيرة مبتنلة لكثرة ما رددها الناس. وصيفتها لا تتغير ابدا رغم تغير السياقات التي يرد فيها باعتباره حجة وبليلا وبرهانا. فتداولية المثل اضيق مجالا كلما بدا في صورة اطريحة لا نقيض لها. فالنقيض تداولي لأنه يحقق التركيب الجدلي، والجدلية تداولية والتداولية جدلية. ويتحقق الجدلي الدينامي بالتغير الجزئي، أي بالقلب، أو بالتغيير النسبي، أي بالنقض. فالمثل السائر: «إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب» يتبح تحقيق تداوليته بالقلب فنقول: «إذا كان الصمت حكمة» أولا

_ عالمالفکر _

في كن قائله نفسه لم يلتزم الصمت. فلو التزم به لما عرفت هذه الحكمة ذاتها. وبالتغيير النسبي لهذا المثل، يصير متضمنا التركيب الجدلي. وهكذا يبدو على النحو التالي: «إن في الكلام والصمت لحكمة»، فالعلاقة جدلية بين الكلام والصمت. كما أن الكلام يوجد على حدود الصمت، ويقع الصمت على تخرم الكلام. وكلاهما يتضمن نقيضه. وبناء على ذلك، فكلما كان المثل جدليا، أي تركيبا جدليا للاطروحة والنقيض، كلما كانت تداوليته أرحب. بمعنى أن المثل الجدلي ابلغ برمنة وحجية واستدلالا، وأقنع للمتلقي، وأوقع في نفسه، وأشفى لغليله. ويمكن أن يوسع بذلك دائرة التمثيل (La représentation) الذي يشمل:

- المثل الجدلي وغير الجدلي.
- التمثيل البلاغي الذي يأتي على شكل نص سردى، أو سرد حوارى.
- الأمثولة التي تتخذ شكل أسطورة أو حكاية أو قصة أو رواية حوارية.

«المثل يطلق على نوعين: أحدهما ما قصد به المبالغة بلفظة أشعل، كقولهم: «أسفل من ذات النحيين»، والثناني كل كلام وجيز منثور أو منظوم قيل في واقعة مخصوصة تضمن معنى وحكمة، وقد تهيأ بتضمنه ذلك لأن يستشهد به في نظائر تلك الواقعة (ألماني بقول أبن الأثير: والأثير عند البداغيين، القدامى والمحدثين منهم على السواء، الجمع بين الاستمارة التمثيلية وللمثل والتمثيل، فمع أن المثل من الاستعارة التمثيلية، فإنها تتميز عنه بقابليتها للتغيير. وأما المثل، إذا لم يجد له مذا الاتجاه يقول أحمد الهاشمي: «إذا فشت وشاعت الاستعارة التمثيلية وكثر استعمالها، تكون مذا الاتجاه يقول أحمد الهاشمي: «إذا فشت وشاعت الاستعارة التمثيلية وكثر استعمالها، تكون مثلا لا يغير مطلقاً (ألماني فحكم أحمد الهاشمي لا تحده النسبية لأنه ترجد أمثال قابلة للتغيير. فلفي لا تداولية لكل حكم مطلق، وتكون التداولية التي يحرم منها ما لا يتغير، للوعي بعدم تغيره. ففي حين يثبت المثل أحيانا على حال واحدة، فإن الاستعارة التمثيلية قابلة للتغيير في معظم الأحوال الجرجاني: «لو كان مرادنا بالاستعارة وهو المراد بالتمثيل لوجب أن يصمح إطلاقها في كل شيء الجرجاني: «لو كان مرادنا بالاستعارة والجملة المثيلية والتمثيل هو كون حدها شبيها بعد يقال فيه تمثيل ومثل، "تحباوز العبارة والجملة المثية والتمثيلية التي لا تتحول إلى نص متعدد الدلات وقابل للتغيير والتاريل. فالجرجاني يعرف التمثيل بقوله: «الأصل في كونه مثلا وتمثيلا الدلالات وقابل للتغيير والتاريل. فالجرجاني يعرف التمثيل بقوله: «الأصل في كونه مثلا وتمثيلا

هو التشبيه المنتزع من مجموع أمور، والذي لا يحصل لك إلا جملة من الكلام أو اكثر، ^(٢٦). ويمكن للتمثيل المزيد والملول أن يصبير أمثولة. فما الأمثولة؟

٦- الأمثولة ودلالاتها التداولية

تدل الأمثولة بصفة مباشرة دلالة أولى. وتبدو تداولية دلالاتها الثانية والالتزامية من كونها. ملقاة أو متلقاة ووظيفية ونفعية ومتعدية. فهي تتجه نحو المعرفة أو الثقافة، وهي اصطلاحية واعتباطية وغير معللة وبلا قيمة معينة كما أنها عقلانية، أي مصدرها العقل فهي تتضمن فكرا، بمعنى أنها توظف الخاص للتعبير عن العام و/أو العكس فبذلك تفرض التأويل والتأويل أساسى في التداولية طالما أن المتلقى هو من يتكفل بإنجازه. فهو الذي يستنتج دلالاتها التداولية وتبلغ دلالتها الظاهرة، باكتمالها، حد التلاشي. ومن خلال الظاهرة يتلقى المتلقى المفهوم، وعبر هدا المفهوم بستقيل الصورة. فالأمثولة تعير عن فكر بواسطة الصور الواقعية والمادية، كما تعير عما يغايرها الكامن وراء ما تعنيه. ولا يتلقى منها المتلقى سوى مايمكن تداوله قولا وفعلا ذلك أنها غائية لا بنصها الأمثولي فحسب، بل بقراعها الأمثولية كنلك فالقراءة الأمثولية مغايرة للأمثولة ذاتها ويصفة تأويلية، فالأمثولة تعبر بالمموس عما هو مجرد وتستعمل الصور للتعبير عن واقعة معينة أو حدث محدد، أي أنها تستخدم المرئي للتعبير عن اللامرئي فهي تتضمن أسطورة وتبلور صورة، أي مجازا أو استعارة. وهي استعارة مزيدة ومطولة وموسعة وملتحمة، كما أنها تتخذ شكل تركيب جدلي يجسد نفى النفى فالأمثولة في صيرورة دائمة. (٤٤) فإن كان الرمز شاملا للاستعارة وكلمة في سرد، فإن الأمثولة نص قابل للتمديد إلى حد تشكيل نوع أدبى سردى أو حواري يشبه «المثل الضرافي» (La prosopopée). فعبر الأمثولة التي توظف اللغة الدالة على الكائنات غير الإنسانية يدرك المتلقى القضايا الإنسانية (المواقف المتصارعة، الشاعر المتضاربة، الآراء المتناقضة، وجهات النظر المتعارضة) ويتخذ- من ثم - موقفه التداولي الناتج عن موقفه التأويلي. فابن حزم يحدد التأويل بقوله عنه بأنه «نقل اللفظ عما اقتضاه ظاهره () إلى معنى أخر» (٤٥) والتأويل أنماط تتنوع بتنوع الأقوال والنصوص، وتتعدد بتعدد الأنواع الأدبية ومن بين هذه الأنماط التأويلية نذكر:

التأويل اللفظي/ المعنوي الذي يتم به تطوير الكلام باستعمال الكلمة نفسها بمعنى، وإعادتها
 بالمعنى ذاته لتعبر عن دلالات مغايرة للمعنى المتداول ويتجلى ذلك بوضوح في المصطلحات
 الدلاغنة الخاصة بمفردة التعبير.

_ عالمالفکر

 التاويل التعبيري/ الدلاي الذي يتحقق فيه الانتقال من معنى العبارة المطابق لها إلى دلالات تداولية لتعابير مغايرة للعبارة نفسها ومعناها المطابق لها. وهو تأويل عباري أو جملي، مثلي وتمثيلي.

التاويل النصبي/الدلالي الذي فيه يقع الانتقال من دلالات النص إلى دلالات نصوص أخرى مختلفة وعميقة توجي بها الدلالات المطابقة للنص الأول. فهو تاويل تمثيلي أو امثولي، أي اسطوري أو خرافي أو حكائي أو قصصي أو روائي أو روائي حواري.

تتعدى هذه الأنماط التأويلية الذاكرة إلى التفكير والتخييل وتجاوز الانساق التعبيرية التي تقف
دون العقل والخيال وممارسة التأويل وتحرير تصورنا الاستعاري والتمثيلي والامثولي، وإكسابه
تداولية (درائعية) أرحب. فإذا كانت التداولية تنحو نحو تفعيل التأثير الذاتج عن تلقي اللغة
البلاغية الموسعة وغيرها، فإنها لا تغفل التفعيل المتجلي في إبداع أوجه بلاغية جديدة. وبما أن
المتخيل مبدع الأوجه البلاغية، فإن جيلبير دوراند (Gilbert Durand) يقول عن هذه الملكة
المتنامية الابتكارية. «بعيداً عن كرن الخيال من رواسب عجز ذرائعي، فإنه قد بدا لنا(...) كطابع
للنزعة الأونطولوجية. وبعيدا عن كرنه ظاهرة عارضة وسلبية تمثل عدمية ماض بعيد أو تاملا عبثيا
له، فلقد ظهر التخيل ليس فقط كفعل يغير العالم، كخيال مبدع، بل، على الأخص، كتعبير تلطيفي
للعالم، كجزاء ذهني، كتنسيق للكائن ضمن أنظمة الأفضله. (11)

الحصيلة

من فضائل التداولية المدمجة في التركيبية والدليلي أنها تلفت نظرنا- بعد الملقي ومعنى
ما يلقيه من الكلام- إلى المتلقي والدلالات التداولية (المفترضة والمضمرة) التي تحصل في ذهنه
ما يلقيه من الكلام- إلى المتلقي والدلالات التداولية (المفترضة والمضمرة) التي تحصل في الجدل
وفي سياق معين، وإلى الفاية العلمية والفائدة العملية والنتيجة الفعلية من إلقاء الكلام في الجدل
الفوري أو الدوري، ولما تعذر علينا تناول اللغة بجميع مكوناتها، ارتأينا تقريب دلالتها التداولية من
خلال بعض المصطلحات البلاغية ومعانيها اللغوية وحسب، وماذلك إلا لتجنب البحث- الضيق
المقام- في كل المعاجم والكتب النحوية والنصوص المختلفة التي لا تحصى. وهكذا تعذر علينا ذكر
التشبيه ومباحثه الذي يكون فيه وجه الشبه تداوليا، أي مرتبطا بفهم المتلقي. كما تعذر ذكر بعض
المحسنات البديعية التي يتعلق فهمها كذلك بالمتلقي. ويعتبر ما ذكرنا، مثل المجاز والمشاكلة

والتورية والرمز فضلا عن الكناية والاستعارة والمثل فالتمثيل ثم الامثولة، نمونجا لما لم يتأت نكره. فالدلالات التداولية لهذه المصطلحات البلاغية تختبي، وراء معانيها الظاهرة. ولابد لها من مثلق يفهمها في سياقها، ويتصرف وفق هذا الفهم.

في هذا المساق، اقترحنا ونحن نتحدث عن المجاز، ما يناقضه حق الناقضة. وذلك للاختلاف الحاميل بين البلاغيين حول مفهوم الحقيقة الذي حصل فيه تطور فالحقيقة في نظر الفلسفة الحديثة متمنعة، ولا يمكن القبض سوى على بعض نسبها. ذلك أن الحقيقة تعقد صلة جدلية مع الباطل. وعليه، فقد اقترحنا مصطلح المُوْحَل كمقابل للمجاز الذي لا يعني الكذب أو الباطل. وقل مثل ذلك على المشاكلة التي يكون احد أجزاء عبارتها موحلا والثاني مجازا. فلذا تكون الدلالات المجازية دلالات تداولية. فالمتلقى هو المكلف بفهم هذه الدلالات الإيحاثية. وكذا الأمر في التورية التي «يقال لها الإيهام والتوجيه والتخيير. والتورية أولى في التسمية لقربها من مطابقة المسمى، لأنه مصدر وريت الخبر تورية إذا سترته وأظهرت غيره، كأن التكلم يجعله وراءه بحيث لايظهر. وهي في الاصطلاح، أن يذكر المتكلم لفظا مفرداً له معنيان حقيقيان، أو حقيقة ومجازا، أحدهما قريب ودلالة اللفظ عليه ظاهرة، والآخر بعيد ودلالة اللفظ عليه خفية، فيريد المتكلم المعنى البعيد ويوري عنه بالمعنى القريب، فيتوهم السامم أول وهلة، أنه يريد القريب وليس كذلك، ولأجل هذا سمى هذا النوع إيهاما «(٤٧). يقول ابن حجة الحموى: صحيح أن هذا التعريف شبيه بالتعاريف الموجودة في الكتب البلاغية، ولكن وراء الاستشهاد به غاية تداولية. فقد ذكر صاحبه الملقى (المتكلم)، والملقى من الكلام المتضمن للتورية، والمتلقى (السامع) المتوهم. ويمكن أن يكون المتلقى فطنا وغير متوهم لأن المعنى القريب يوجهه نحو «المعنى البعيد» فديختاره» لحسنه وسحره وجماله. فهو يتبع للمثلقي التوغل إلى أبعد مدى في التأويل. وقس على ذلك الرمز الذي ينفرد بدلالات عميقة وجوهرية وشديدة الوقع على المتلقى. وبهذا الصدد يقول جيلبير دوراند: «إن الرمز لا ينتمي لميدان الأعراض، بل لميدان دلالة من نوع خاص، اي أنه يملك أكثر من معنى اصطناعي، ولكنه يمسك بقدرة أساسية وفورية على الدوى والتميز (٤٨).

بعد تقديم الدلالات التداولية المتميزة للمفردة التي ترد في سياقات التعبير، والتي تم تحديدها بمصطلحات خاصمة بها، انتقلنا تدريجيا إلى الدلالات التداولية التي تخص العبارة أو الجملة كلها. ونقصد الخبر (لم نذكر الإنشاء الذي تظهر دلالاته التداولية بجلاء في النداء والسوال والطلب...)، والكناية التي ترتبط بالرمز والاستعارة سواء في بلاغتنا العربية أو البلاغة الغربية. فإذا كنا قد استعملنا عبارة «الرمز الكنائي»، فإن الغربيين يستعملون عبارة «الكناية الرمزية». فلايكوف وجونسن يقولان: الكنابات الرمزية تعد روابط حاسمة بين التجرية البومية والأنساق الاستعارية المنسجمة التي تسم الديانات والثقافات (٤٩٩). ويبدو المظهر التداولي في ربط المؤلفين بين هذه الأوجه البلاغية المتلاحمة والخبرة العادية. كما أبرزنا الدلالات التداولية للاستعارة التمثيلية التي تحتم على المتلقى التأويل مثل المثل والتمثيل والأمثولة. ويتم التأويل قولا أوفعلا. فلئن كان القول فعلا، فالمراد بالفعل الذي يليه، العمل اليدوي كالكتابة على الورق أو بإحداث تغيير في الأشياء بأدوات معينة. وتتضح تداولية الاستعارة من ربط المؤلفين الذكورين إياها بالعمل والزمن في قولهما: «إن ما تخفيه استعارتا المادة في العمل والزمن هو كيف يؤثر تصورا الزمن والعمل في تصورنا لوقت الفراغ فيحولانه إلى شيء يشبه كثيراً العمل»(٥٠). وبالإضافة إلى ذلك، عملنا على إبراز تداولية الالتفات الذي يشمل معجمه كل الألفاظ الدالة على التحويل والتغيير والتحديث. فإذا كانت العناية بالمتلقى قليلة في الأوجه البلاغية الأخرى، فإنها في الالتفات كثيرة. ولا نغفل الجدلية القائمة بين القلة والكثرة. فمن أجل المتلقى تتغير الأساليب والصيغ وطرائق التعبير، وكذا الضمائر ومفردات اللغة وأبنيتها إذا كان الملقى جريئا وجسورا. فالمتلقى في الالتفات ناطق صامت، بينما يستحضر اللقي سؤال هذا المتلقى فيجيب عنه. وبذا يتحقق الحجاج الذي يكون فيه المتلقى حاضرا بالقوة والملقى حاضرا بالفعل. فمراعاة لنفسية المتلقى وذوقه، تحدث التنويعات والتلوينات والتحويرات في أشكال التعبير وبناه ودلالاته. والمثل وحده هو ما لا يتغير إلا إذا قيض له متلق ذو رؤية تداولية/ جدلية للعالم بها يمارس النقد مثلا. وأما التمثيل أو الأمثولة، فهما قابلان للتمديد من قبل الملقى، بل المتلقى الذي من أجله قبل أحدهما، والذى يتكفل بفهم دلالاته التداولية وتأويلها. فبالتأويل بأنماطه اللفظية والجملية والنصبية يصبير التمثيل والأمثولة نوعين أدبيين قابلين بدورهما التأويل اللانهائي واللاتانقي. ذلك أن المتلقى بفهم من الكلام ما لا يفهمه الملقى. فلذا يختلف الفهم من فرد إلى فرد. وليست الأمثولة - كالتمثيل-اعتباطية ما دامت تبتدع من أجل تحقيق غاية. وفي النهاية تختلف التمثيلات والأمثولات باختلاف الغايات الفردية والجماعية.

الهوامش

- (١) «كتاب سببويه» عالم الكتب، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، لبنان- بيروب، ط٢، ج٤، ص٤١
 - (٢) ابن منظور دلسان العرب، دار صادر، ثبنان– بیروت، ج١١، ص٢٤٩، مادة دلل،
- François Latraverse "La pragmatique- histoire et critique" Pierre Mardaga éditeur, Bruxelles, 1987, p.254. (*)
- (٤) أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن على السكاكي «مفتاح العلوم» ش.وش. الاستاذ بعيم زرزور، دار الكتب العلمية، لينان --بيروت، ۱۹۸۲، ص ۱۲۸
 - (٥) السكاكي، مرجع سابق، ص ٢٥٨–٣٥٩
 - Nietzsche "La volonté de puissance" tel Gallimard, 1995, t.II. p.211. (1)
 - (٧) احمد مصطفى المراغى معلوم البلاغة-البيان والمعنى والبديع، دار الظلم، لبنان- بيروب، ١٩٨٠، ص٢٢٩،
- (٨) ابن منظور، مرجع سابق، ج٥، ص ٣٢٦ مادة عجوزه (٩) يحيى بن حمزة «كتاب الطراز» دار الكتب الطبية، لبنان- بيروت، أشرعت على مراجعته وضبطه وتنقيقه جماعة من الطماء بإشراف
- الناشر، ج۱، مر۱۸ (١٠) عبد القاهر الجرحاس واسترار الملاغة، دار الجيل، بيروت - ليمان، ١٩٩١، ش وتدوت د محمد عبد المعم هفاجي، ويد عبد العزيز
- شرف، ص ۲۲۰ (١١) على بن أحمد بن سعيد من حرم «الأحكام في اصبول الأحكام» دار الكتب الطمية، لينان– بيروت، ١٩٨٥، م١، ج٤، هر٤٤٤
- (١٣) محمد مرتضى الحسيس الواسطى الزبيدي الصفى دتاج العروس من جواهر القاموس، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،
- بيروت- لينان، ١٩٩٤. ج٠٢، ص ٢٨٨ مادة دوراهه
- (١٣) أسامة بن مرشد بن على بن منقذ دالبديع في البديع في نقد الشعوء دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ١٩٨٧، حقة وقدم له عبد ا على مينا، ص٧٠
- (۱٤) ابن منظور، مرجع سابق، ح١١، ص٥٥٥-٣٥٧ مادة دشكل، (١٥) أحمد مصطفى الطرودي الترسسي «كتاب جامع العبارات في تحقيق الاستعارات» د ودد. محمد رمضان الجزيي، الدار
- الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، أيبيا- مصراتة، ١٩٨٦، ص٢٤٩-٢٥٠
- (١٦) انظر أبو القاسم السجلماسي «المنزع النديم في تجبيس اساليب البديع» شور: علال الفازي، مكتبة المعارف، المغرب، الرياط،
 - Axis, Dictionnaire encyclopédique-Hachette, Paris, 1985, t.6, p.2964-2965.(\V)
 - Tzvetan Todorov "Théories du symbole" Semi/points, 1977, p.238 (\A)
 - Tzvetan Todorov, ouvrage cité, p.239-240. (11)
 - Tzvetan Todorov, ouvrage cité, p.241. (Y-)
 - Tzvetan Todorov, ouvrage cité, p.242-243. (Y1)
 - Tzvetan Todorov, ouvrage cité, p.254. (YY)
- (٢٣) على بن أبي على بن محمد الأمدي «الإحكام في أصول الأحكام» دارالفكر، بيروت- لبنان، ١٩٩٦، بإشراف مكتبة البحوث والدراسات، ج١، ص١٧
 - (٢٤) علي بن احمد بن سعيد بن حزم، مرجع سابق، ص٢٦-٢٣
 - (٢٥) عبد القاهر الجرجاني «أسرار البلاغة»، ص٤٧. (٢٦) عبد القاهر الجرجاني «دلائل الإعجاز» قروع محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، مصر، القاهرة، ١٩٨٩، ص٧١

 - (۲۷) مرتضى الزبيدي، معجم ملكور، ج٠٦، ص١٣٤-١٣٥، مادة «كني»
 - (۲۸) یعیی بن حمزة، مرجم سابق، ص۲۷۷-۲۷۷ (٢٩) مرتضى الزبيدي، مرجع سابق، ج٧، ص٥٢٥-٢٧٦. مادة «العارية».

 - (٣٠) عبد القاهر الجرجاني داسرار البلاغة،، ص33
- (٣١) مله في النسخة (٣٧) جورج ألا يكوف ومارك جونسن «الاستعارات التي نصيا بها» ترجمة عبد المجيد جحفة، دار تويقال للنشور الدار البيضاء، ١٩٩٦،
 - صل ۲۱ (٣٣) الصدر نقسه، ص-٣
 - (٣٤) المندر تقيبه، ص١٥٩.

عالمالفک

- (۲۰) الصدر نفسه، ص١٦١
- (٣٦) ابن منظور، مرجع سابق، ج٢، ص٨٤، مادة دلفت،
- (٣٧) قدامة بن جعفر دنقد الشعره، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٦٣، ص١٦٧
- (٣٨) محمود بن عمر الزمضتري «الكشاف ..» الدار العلمية للطباعة والنشير والتوزيع، د ت ج١، ص٦٤
- (٣٩) أبو الفتح عثمان بن جنى «الخصائص» دار الهدي للطباعة والنشر، لبنان، بيروت، تحقيق محمد على النجار، ج٢، هن-٣٦-٤٤١
- (E) ضياء الدين بن الأثير «للتل السائر في أدب الكاتب والشاعر» ق وحدوع د احمد العوفي ود بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة- المحالة، د ت ق٤، ص٥٣
- أما معنى المثل فهو أن ينشغل المرء أو المراة بشيء عن شيء أخر والمناسبة التي قيل فيها، عقد ورد في هامش الصفحة نفسها على الشكل الأتي «كانت امرأة من بني تيم الله بن تُعلبة تبيع السمن في الجاهلية، فاتاها خوات بن جبير الانصاري يبتاع منها سمنا، فلم ير أحدا عندها، وساومها، فحلب محيا- وعاء لبن- فنظر إليه، ثم قال امسكيه حتى أنطر إلى غيره، فلما حلب أخر قال أريد غير هذا فامسكيه، فلما شغل يديها ساورها فلم تقدر على دهمه، حتى نضى ما أراد وهرب (محمع الأمثال للميداني ١٥٥/١)
 - (٤١) احمد الهاشمي حجواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، دار إحياء التراث العربي، لبنان، بيروت، دت، ص ٣٣٦-٣٣٧
 - (٤٢) عبد القاهر المرجاني «أسرار البلاغة»، ص٢٢٤ (٤٣) للصدر نفسه
 - Tzvetan Todorov, ouvrage cité, p.235-259 (££)
 - (٤٥) ابن جزم، مرجع سابق، ص٤٦
- (٤٦) جيلبير بوران ، الانتروبولوجيا- رموزها- اساطيرها- انصاقهاء ترجمة د مصباح الصعد، للرسسة الجامعية للدراسات والنشر والترزيع، لبنان – بيروت، ١٩٩١، ص٣٦١
 - (٤٧) ابن حجة الحمري مخرانة الأدب وغاية الأرب، دار ومكتبة الهلال، بيروت- لبنان، ١٩٨٧، شرح عصام شعيتو، ج٢، ص٣٩ (٤٨) جيلبير دوران، مرجع سابق، ص١٤
 - (٤٩) جورج لايكوف ومارك جونسن، مرجم سابق، ص٨٥
 - (٥٠) الصدر نفسه، عرالاً

مفهوم الحجاج عند «بير لان» وتطوره في البلاغة المعاصرة

ه. معبد عالم ولد معبد الأمين"

تمهيد

يتناول هذا المقال مبحثا من مباحث البلاغة المعاصرة هو الحجاج المتناول هذا المقال مبحثا من منظور صدرسة «البلاغة المبرهانية» ممثلة في احد روادها البارزين هو «شارل بيرلمان». لكن قبل أن نتناول الموضوع لابد من الإشارة إلى التطور الذي عرفته البحوث البلاغية في كل الثورة اللسانية الحديثة. صحيح أن البلاغة -وحتى عهد قريب-كان ينظر إليها على انها علم قديم مرتبط بالإفراط من جهة، وبالكتب المدرسية من جهة أخرى، ولهذا التشويه سببان احدهما سياسي والآخر تربوي.

ه باحث موريتاني

_ عالمالفکر .

يتمثل السياسي في ارتباط البلاغة بجمهور محدد، الهدف إقناعه ببعض البرامج السياسية لا غير، ومن هذا بدات « .. تفقد وظيفتها بوصفها فنا خطابيا لتتحول إلى فن للفصاحة، أي ان وظيفتها غدت أكثر دخولا في اللغة نفسها. وهكذا إنن فقدت معناها النصي- العام وصارت فنا للموامة بين الموضوع والشكل، أو بين المضمون والتعبير، (().

أما السبب التربوي فيتمثل في التبسيط الذي مورس على المادة البلاغية كي تلائم الطرح المدرسي وأفهام التلاميذ الذين يزيدون يوما بعد يوم. وقد أدى هذا التردي إلى أن أصبحت البلاغة جزءا من علوم تحسبن الخط والنطق.

هذا إضافة إلى مفهومي «القاعدة والتقعيد» اللذين ارتبطا بالبلاغة، وحددا حركتها وتوظيفها.
ومن هنا صارت البلاغة في نظر العديدين «معرفة متجاوزة»، وظل هذا الشعور يتوارث، حتى في
أوساط الادباء والنقاد الذين غاب عن تصورهم أنهم يستهلكون البلاغة بنهم في الوقت نفسه الذي
يهجمون فيه عليها.

هذا الحضور الكثيف للبلاغة في عصرنا بمختلف وسائله التعبيرية: المكتوبة- المرئية-المسموعة... لفت النظر إلى ضرورة مراجعة التصورات القديمة عنها (أي البلاغة).

حتى إن بعض الدارسين عرف الإنسان بأنه (حيوان بلاغي) في إشارة إلى الأبعاد الاجتماعية الجديدة للبلاغة. وإذا كان تراجع البلاغة يعود في الأساس إلى اختزالها في «نظرية الصياغة» التي حصرتها في البحث عن الصور والوجوه البلاغية والزخارف والصنعة، وإجمالا في «الأسلوب»، فإن تجدد الاهتمام بالجوانب التداولية المرتبطة بدنظرية الصجاج» اللغوي، كشف عن جوانب عميقة من البلاغة بوصفها «تاملا في اللغة والفكر، وإنها لسانيات (ذهنية) عامة، فهي تتعلق (بكل اللغة) كما أنها (لغة الكل). «١٦، بالتالي فإن ما يحصل للبلاغة اليوم هو نوع من تجديد الجلد، وتوسيع الدائرة وفتحها كذلك، لتستوعب عديداً من العلوم المجاورة إلى درجة صارت معها عند البعض افضل تعبير عن الحداثة.

ومن نتائج هذا التطور: «١- تحول البلاغة إلى علم مستقبلي، حيث صارت تنزع إلى أن تصبح علما واسعا للمجتمع، فهي لم تعد علما خاصا بدالخطاب»، وإنما صارت علما عاما (للخطابات) كافة، وهو ما يعبر عنه مصطلح البلاغة (العامة) اوالبلاغة (المعممة) كما سميت اول مرة. ٢- الانتقال من الرغبة في إنتاج الخطاب إلى دراسة خصوصياته، أي أنها قد تخلت عن نزعتها

المعيارية المتعلقة في فرض القواعد لتهتم برصد الوقائع فقط، فهي تتحول من لغة موضوع إلى لغة وأصفح إلى لغة وأصفح المحلطات الحديثة لتحليل الخطاب، والاسلوبية، والقراءة. (**)، هذا التحول عن المعيارية في المفهج البلاغي المعاصر كان من أسبابه التغير العام والقراءة. (**)، هذا التحول عن المعيارية في المفهج البلاغي المعاصر كان من أسبابه التغير العام الذي محصل في منامج العلوم الإنسانية بصفة عامة، والبحوث اللغوية والاسلوبية بصفة خاصة، والمو التحول الذي رافقه انقلاب جذري في العديد من الاسس المعرفية المتصلة بالنصين الفني والادبي، حيث حلت الاختبارية محل الحتبة، والفلسفة الوجودية محل فلسفة الماهية. من هنا كان انتقال البلاغة من المعيارية إلى الوصفية، ومن القاعدة إلى الظاهرة، لا يتبع النموذج العلمي المعترف به في الدراسات الإنسانية كلها فحسب، وإنما يتبع أيضا نوعا من الضرورة المعرفية التحول الحضاري في العصر الحديث «فلم يعد بوسع احد أن يفرض قانونا يعتمد على ايديولوجية طبقية أو تاريخية تنتهي إلى أي سلطة خارجية، وأصبح المدعون هم المشرعون لمبادئهم المجربون لقوانينهم، وكان حتما على البلاغة المعيارية أن تحتضر حينئذه. (أ).

لقد تبين للدارسين العاصرين أن إعادة قراءة البلاغة الكلاسيكية تعتبر خيارا إنسانيا أضحى ملحا نظرا إلى ما تحمله هذه البلاغة داخل طبقاتها من ثراء وفكر. وقد تبين أن تطعيمهما بالمستجدات المنهجية في المجال اللساني خصوصاء من شاته أن يطور الدرس البلاغي بصفة عامة، ويكشف عن العديد من خصوصياته الكلاسيكية.

ولعل من أهم التصورات التي قدمتها المنهجية اللسانية التأكيد على ضرورة اللجوء إلى «اللغة»، والإصفاء إليها، ومحاولة تفجيرها لمعرفة أبعادها وكرامنها. فيهذه الطريقة وحدها تم تجاوز مناهج الدائرة التاريخية في البحث اللغوي، والاستعاضة عنها بمناهج الدائرتين البنيوية . وما بعد البنيوية.

هذه المناهج المعاصرة جعلت من اللغة الأداة والغاية في أن، دون أن تعطل هذه الثنائية الغلسفية أيا من أدوار اللغة خاصة التراصلي والتحليلي.

وقد رافق هذا التطور في الدرس اللغوي سعي حثيث إلى مراجعة جميع الأدبيات البلاغية، ومحاولة رسم خريطة جديدة للبلاغة الكلاسيكية. من هنا اعتبرت قراءة الموروث البلاغي على أنها تمثل مولد اتجاه إنساني جديد من شانه أن يعيد ترميم أزمة الثقافة الكلاسيكية بصفة عامة، والبلاغية خاصة. ولكن هذا القِبَمُ كما يقول بارت «لا يعني أنه توجد اليوم بلاغة جديدة، فالبلاغة القديمة تقابل بالأحرى هذا الجديد الذي لم ينجز بعد: إن العالم ملى، وبشكل عجيب، بالبلاغة القديمة أهُ!. أضف إلى ذلك أن البلاغة القديمة قد قدمت للنظرية الأدبية المعاصرة منظورات جديدة لدراسة الخطابين الفني والأدبي، الأمر الذي أنجب بلاغة (عامة) خاصة بالنص، ولدت في الثمانينات مرتبطة بأسباب يلخصها خم.ب. إيفا نكوس (١) في أربعة:

أ- نظرا لأن البلاغة، في نشاتها ذاتها، كانت تعني وجود مركب من علوم الجدل والأخلاق والشعر... إلغ، فإن البعض راى ضرورة الإسراع في استعادة الجانب الإنساني والعالمي والشامل الذي تمثل البلاغة بالنسبة إليه (حلقة وصل مركزية) بوصفها «علما للخطابات» يهتم بإعادة قراءة المروث البلاغي على اساس أن ذلك يمثل مولد اتجاه إنساني جديد سيبعث على الاهتمام باللغة وتركيب الخطاب.

ب- تطور الدراسات اللغوية والانتقال من لغويات اللسان إلى لغويات الكلام، وإبراز ظواهر العلاقة بين الرسل والمستقبل في إطار بحوث التداولية الجديدة.

ج- ازمة الإنتاج الرفيع في النقد والكتابة. إذ تبن أن تطور البحوث البلاغية سيحقق شمولية
 نقدية، بديلا عن المذاهب ذات الطابع الخاص التي سادت النقد في السبعينات.

د- نجاح البلاغة الحالي يرجع إلى الاهتمام بوسائل الإقناع التي فرضتها طبيعة المجتمع الإعلامي المعاصر. وسيتوسل هذا الترميم حتما بعديد من العلوم الإنسانية الحافة، وذلك على اعتبار أن اللغة قادرة على استيعاب الحاف بها، ثم الاستيلاء على خصائصه ليتم تحويلها إلى مكون جديد يستدعيه المقام المعين النجب.

هذه الثورة البلاغية المعاصرة لا تزال متواصلة، لأنها تمد جذورها– كما قلنا– إلى العديد من المحالات المعرفية الحافة مها مستلهمة منها الحديد على الدواء.

فقد ارتبطت البلاغة المعاصرة، وخصوصا منها نظرية الحجاج -THÉORIE DE L'ARGU وما تعلق بها من بحوث، بمختلف الميادين الإعلامية المعاصرة سواء منها MENTATION السمعى او البصرى او هما معا.

لذا أصبح مفهوم الإقناع مطلبا أساسيا في كل عملية فكرية معينة، سواء كانت هذه العملية

«فكرة أن مقالة أو حركة...» وهذا ما جعل هذه النظرية في استثراء متواصل، مسئلهمة الجديد من كل الحقول المجاورة لها، على اعتبار أن المجتمع المعاصر أصبح «مجتمع صورة»، وبالتالي فلابد من تغيير الشكل والأسلوب والخطط الحجاجية في كل مرة تبعا لنوع المقام وطبيعة المخاطين.

إن الدور الذي أصبحت نظرية الحجاج تلعبه، أو من المفروض أن تلعبه جعل «بيرانان» يعتبر أن البلاغة مطابقة لنظرية الصجاج» فقد حصر الأولى في الأخيرة. وسنوضح لاحقا معنى هذا الحصر اعتمادا على كتابه الذي الفه بالتعاون مع زميله OLBRECHTS. TYLECA ، وهو المصنف الذي سيكون محور دراستنا هذه . وذلك لأنه يعتبر في نظرنا أهم ممثل لبلاغة البرهان (الحجاج) ونحن إذ نتخذ هذا الكتاب محوراً للدراسة فإن هدفنا ليس عرضه أو ترجمته، بل إن هدفنا هو قراءة أهم أفكار هذه المدرسة البلاغية التي سبقت تاريضيا المدرستين اللاحقتين. (البنيوية والتداولية).

إن إسهام هذه النظرية الحجاجية لا يقتصر فقط على المجالات الإعلامية، وما يتعلق بها من إن إسهام هذه النظرية الحجاجية لا يقتصر فقط على المجالات التي لا يكون فيها إشهار ودعاية وتحريض وترويج ... إلنه، وإنما يتجاوز ذلك كله إلى المجالات التي لا يكون فيها المتكلم حاضرا بنفسه أو بصورته أمام مخاطبه، كما هو الحال في الكتابة مثلا، إذ أثبتت التحليلات إمكانية أن يقوم الكاتب بتشكيل عناصر وصور معينة انطلاقا من وعيه بافاق انتظار المعنون وهي عناصر يتم تشكلها من إمكانات المقام لتقوم في الرسالة المكتوبة مقام الحضور العياني للمتكلم.

هذا التصور يمكن أن يفسر لنا جزئيا المطابقة السالفة الذكر بين البلاغة والحجاج، لأن كل خطاب معاصر يسعى إلى تغيير وضع معين، أو تدعيم أخر، أو اتخاذ موقف تجاه قضية ما. وكل هذه الاعتبارات تتطلب خطوات خاصة من الموجه إليهم الخطاب، أي أن المتكلم ينتظر منهم حركة تنسجم مم المقاصد القولية التي أنجبها المقام.

الحجاج إنن في مفهومه العام وثيق الارتباط «بالفعل». وقد الحت على هذا التلازم الادبيات البلاغية الكلاسيكية. لكن البلاغة المعاصرة عمقت هذا التلازم الحتمي بين نفاذ الخطاب وحدوث التغيير بوصف هذا الأخير الدليل على حصول الاقتناع الفعلي لدى المعنيين بالخيار المقدم، فالحجاج بحث من أجل ترجيح خيار من بين خيارات قائمة وممكنة، بهدف دفع فاعلين معينين في مقام خاص إلى القيام بأعمال إزاء الوضع الذي كان قائما.

___ عالمالفکر

وتعد نظرية افعال الكلام العامة التي صاغها الفيلسوف (جون أوستن)، وتطورت على يد (جون سيرل) من أهم الطروحات التي تناولت علاقة «الفعل بالكلام». وقد انتهى أوستن في كتابه «كيف تنجز أفعالا بالألفاظ» الصادر سنة ١٩٦٧ إلى مجموعة من التمييزات سنعرض لأهمها عندما نتناول «العلاغة التداولية».

المهم أنه اعتبر كلا من بنية اللغة وبنية الغكر عبارة عن بنية واحدة. ومن ثم فاللغة عنده ليست
اداة للتواصل والتخاطب فحسب «وإنما اللغة وسيلتنا للتأثير في العالم وتغيير السلوك الإنساني
من خلال مواقف كلية الأمام كما اقترح أن ينظر إلى الفعل اللغوي من ثلاث زوايا «التلفظ والنطق
والخطابة. إذ يختص فعل التلفظ بمخارج الحروف المادية، ويتعلق فعل النطق بمقاصد العبارة. أما
فعل الخطاب فيهتم بمقاصد المتكلم الخارجة عن العبارة، والمفهومة من السياق . وعلى ذلك
فاوستن يرجع أفعال الكلام إلى ثلاثة أنواع فعل الكلام، وقوة فعل الكلام، ولازم فعل الكلام، (أ).
وقد كان الهدف من هذا التقسيم توضيح الفرق بين الشيء كما هو، وكما يدرك، وكما يعبر عنه.

وعلى الرغم من اندراج هذه النظرية في حقل التداولية. إلا انها انبثقت اولا من حقل البلاغة الفلسفية التي كانت تتخذ من التراث البلاغي الغربي موضوعا لقرامتها.

بهذا المفهوم تنطلق البلاغة المعاصرة في تأسيسها لهذه النظرية من تعاضد فكرتين اساسيتين: أولاهما وجودية ظاهراتية في آن، وعمادها مقولة هيدجر التي اعتبر فيها اللغة هي الوجود، وإنها هي الماضي والحاضر والمستقبل، ففي طبقاتها يثوى كل شيء، وفي رحمها نتصارع عوامل التاثر والتأثير معاً.

اما الفكرة الثانية فهي هرمنيوطيقية تأويلية مفادها ضرورة الانطلاق من هذه اللغة الرسلة في مقام معين، ثم تفكيكها والغوص في باطنها بهدف الوصول إلى الانساق الجامعة المؤسسة للانسجة الداخلية للمقول من جهة، ثم التعرف على طبيعة الخيارات الاخرى التي كان من المكن تبنيها على اعتبار الاسلوب هو ذاته ليس سوى خيار (عدول) لغوي من بين خيارات لغوية آخرى عديدة من جهة ثانية، ثم أخيرا بهدف دراسة انبناء الخطاب في علاقة مكوناته النصية العديدة بالأهداف المرسومة من قبل المتكلم (الخطيب، الكاتب..)، وعلاقة هذه الأهداف بأوضاع المعنين بالخماب، وبهذه الخطوة الهرمنيوطيقية الأخيرة أبعاد وروافد سيكولوجية تتلخص في السؤال عن: الكيفية التي تدفع بها الكلمات الخاطين إلى الفعل والتغيير؟

وهذا البعد النفسي وثيق الارتباط بأبعاد أخرى اجتماعية واقتصادية وأيديولوجية وحضارية شاملة لابد من معرفتها معرفة دقيقة في أبعادها الزمنية الثلاثة سواء بالنسبة للخطيب (الكاتب)، أو بالنسبة للمحلل النقدى.

ونحن في هذا الجزء من ألبحث سنقتصر على تناول «البلاغة الحجاجية» (١٠) متطرقين إلى معالمها التي شكلتها المدرسة البلجيكية أما في الجزء الثاني فسنتناول كلا من البلاغة البنيوية والبلاغة التداولية لنرى الإضافات التي قدمتها كل منهما إلى نظرية الحجاج وأطره الحافة متناولين أخيرا إفادة البلاغة العربية المعاصرة وبحوث النص من هذه التيارات الثلاثة. ولما كانت مساحة البحث الحالية لا تسمح بتناول المدرستين الأخيرتين فإننا سنشير إلى أهم ملامحهما في هذه الدراسة متطرقين إلى أهم ما يمكن أن تستفيده بلاغتنا العربية من هذه التصورات على أمل أن نقوم بتوسيم ذلك لاحقا.

I - البلاغة الحجاجية Rhetorique Argumentative

تمهيد: تعتبر نظرية الحجاج التي طورها «بيرلمان» مع زميله «تيليكا» من أهم الطروح المنبثقة من ما يعرف اليوم ببحوث البلاغة المعاصرة، وهي بحوث تهتم أساسا بأساليب إجراء اللغة، وتنويهات الخطاب ومقاماته، وطبائع الناس المعنيين بكل مقول معين وقد فرض هذا الاهتمام المتنوع على أصحاب نظرية الحجاج التوسل في بحوثهم النظرية والتطبيقية بعديد من الآليات المستعدة من حقول معرفية مجاورة للبلاغة واللغة، أذا كان لفهوم «التداخل المعرفي» -inter دور أساسي في هذه النظرية، لأن أي إقناع يتوسل حتما باليات متعددة يتفاوت المتفاوية المغذين، بل قد يستعين التكلم بعناصر يعلمها المخاطبون لكنهم إبراكها والوعي بها من قبل المعنين، بل قد يستعين التكلم بعناصر يعلمها المخاطبون لكنهم إلى لا يتوقعون حضورها في مقامهم الخاص، من هنا كان نفاذ الخطاب مرتبطا بتوصل المتكلم إلى إقامة علاقات عميقة ورهيفة بين آليات وعناصر لم يكن من المتوقع حصول تلك العلاقات بينها، وبالتالي فعناصر المفاجأة الطريفة تعد من أبرز الخطط الحجاجية في مجالي اللفوظ والمكتوب على السواء. فالحذق في توظيف الأليات التواصلية واستغلالها بالطرق التي لم تكن معهودة يعد أمرأ السواء. فالحذق في توظيف الأليات التواصلية واستغلالها بالطرق التي لم تكن معهودة يعد أمرأ

كل هذه التقنيات الجديدة في علاقة المتكلمين بالمخاطبين وبالمقام تعد من نتائج توسل البلاغة

___ عالمالفکر _

بالبحوث اللسانية التي اثبتت أن اللغة ليست اداة للتواصل فحسب إذ فيها تثوى أبعاد الوجود وحقائقه. كما أنها أقدر على استيعاب المناهج الإمبيريقية والاستفادة من بحوثها التقنية في التعبير عن الراهن وربطه بالسالف واللاحق في أن. فلقد أثبت لنا تاريخ اللغة أنها الاداة الأولى في تغيير العالم وتحوير السلوك البشري، كما أكد التطور البلاغي المعاصر هذه الرؤية، عندما أصبحت «بلاغة الخطاب» هي تأشيرة المرور إلى دوائر القراءة المثلى مهما كان نوع النص أو جنسه

لكن قبل التطرق إلى ملامح الحجاج لابد من الإشارة ولو قليلا إلى تعريف البلاغة في الدوائر النقدية المعاصرة، على اعتبار ان ذلك يعد ترطئة منهجية لابد منها.

قنحن إن نظرنا إلى البلاغة من وجهة النظر الكلاسيكية وجدنا أن لها سبعة ملامح أساسية هي «١- الإقناع، أي إبداء الاتفاق. ٢- الإعجاب، الإغراء، أو القلاعب والتبرير (تبرير وقلاعب بالأفكار قصد تمريرها مهما كان الثمن). ٢- تمرير الرأي أو ما هو رأي معتمل بحجج متينة ٤- الأفكار قصد تمريرها مهما كان الثمن). ٢- تمرير الرأي أو ما هو رأي معتمل بحجج متينة ٤- المتعمال اللغة المجازي على المعنى الظاهري ٦- المتشاف نوايا المتكلم أو الكاتب ومنحها حجمها اللائق بها «(١١) لكن التطور الذي حصل في مناهج الدرس اللغوي، وما أسفر عنه من انتشار للبلاغة في مختلف أوجه حياتنا، جعل الدارسين يراجعون جميع الملامح المذكورة للبلاغة ويطورونها بما يلائم راهن الخطاب والتقنيات الإقناع والتلاعب بالنوات. ولتحقيق هذه الدراسات الاغراض لابد لها من حجاج. نلك أن الاقسام الأربعة للبلاغة هي الخطوات الاساسية في تحقيق نذك النا الاقسام الأربعة للبلاغة هي الخطوات الاساسية في تحقيق ذلك الناجاح. فالقسم الأول يتعلق بمعالجة السؤال Invention، والثمل أو الحركات وتتمفصل الثالث ببسطه وعرضه عبر الكلام والحديث Elocution، وخياراً الفعل أو الحركات وتتمفصل هذه الاقسام على: طرح السؤال، سرده، بنائه، حججه، ومطابقتها مم السؤال، (١٤).

أضف إلى ذلك أن شه تعريفات أخرى تنطق من حقول نوعية معينة، كأن تهمل علاقة البلاغة بالإقناع وبالحجاج معا، أو أن تعتبرها دراسة للعناصر الأدبية والشعرية في الخطاب، أو كامنة في الآليات الفنية التي يتوسل بها المتكام (خطيبا، كاتبا) إلى تمرير خطابه، وإكسابه النفاذية المرجوة والفعل، التوقير. لكن أصحاب هذا الطرح يواجهون في النهاية مشكلا كبيرا يتمثل في طغيان الجوانب البراجماتية بالمعنى النفعي لا التداولي - السلبية على الخطاب. الشيء الذي يجعل لزاما على المتبني لهذه الرؤية التضحية ببعض أهدافه القولية على حساب الفهم والاستيعاب، وهو أمر سينجم عنه حتما تشويه للرسالة المراد توصيلها.

أما الأستاذ بيرنان فإنه يطابق بين البلاغة والحجاج، معتبرا أن كل المكونات الأسلوبية الموجودة في رسالة ما (مكتوبة أو مقروحة، أو مشاهدة أو حتى إشارية) هي عبارة عن مستويات معينة من مستويات الحجاج، بما في ذلك التضمين والشواهد والأمثلة، حتى السخرية والمفارقة فهي عبارة عن « . حجة في ذاتها وكذلك الاستعارة، إنها استدلال قائم على المقايسة المكثفة . وبالمثل فالبلاغة لم تعد لباسا خارجيا للحجاج، بل إنها لتنتمي إلى بنيته الخاصة، (١٦)

أولا: ملامح الحجاج والياته عند بيرلمان

يتميز الحجاج في تصور بيرلمان بخمسة ملامح رئيسية. ١٠- أن يتوجه إلى مستمع. ٢- أن يعبر عنه بلغة طبيعية. ٣-مسلماته لا تعدو أن تكون احتمالية. ٤- لا يفتقر تقدم- تتاميه- إلى ضرورة منطقية بمعنى الكلمة. ٥- ليست نتائجه ملزمة، (١١).

فهر إذن عبارة عن تصور معين لقراءة الواقع اعتمادا على بعض المعطيات الخاصة بكل من المحاجج والمقام الذي ينجب هذا الخطاب، بالتالي فالحجاج عرضة للتغير والتحوير في بنائه وانساقه التي يقوم عليها، وذلك تبعا لتغير المقام وتغير ظروف المحاجج حتى وإن ظل موضوع النقاش هو ذاته.

إن مجال الحجاج في نظر بيرلمان يتعلق أساسا «بالبحث في المماثل والمقول والمحتمل، وذلك في حال ما إذا كان هذا الأخير يفلت من كل الحسابات الحتمية، (١٠٠)، أو على الأصبح من كل التوقعات الراجحة.

لذا فإن إقامة نظرية فلسفية للحجاج مرتهنة بكون المراضيع المطروقة والدروسة غير بديهية، أي تتطلب إقامة الدليل عليها جهدا عقليا، ومن ناحية ثانية على المعني بهذا الحجاج أن يكون مؤهلا لاستيماب هذا الطرح ثم تنميته، لأن هذا السامع هو السبب الفعلي الذي لولاه لما كان دحجاج، أصلا. فهو يساهم بصفة فعلية في تشكيل المعالم الكبرى للمادة الحجاجية المقدمة من

قبل الخطيب (أو أي متكلم يحمل رسالة بتوقف إنجازها على الأخرين). وتعد هذه النقطة بالذات من بين النقاط الجوهرية التي لفتت البلاغة المعاصرة إليها النظر، حيث تلقفتها عنها نظريات القراءة والتاويل، ثم طورتها كل مدرسة بعد نلك بما يلائم فروضها النظرية. فالاهتمام بالسامع (المعني بالخطاب) في البلاغتين الكلاسيكية والمعاصرة قد لفت مناهج النقد المعاصرة إلى ضرورة الاهتمام بدور «القارى»، في إعادة كل من الكتابة والإنتاج، مما جعله يصير محور النظرية النقدية المعاصرة.

ومن أهم من لفت النظر إلى الدور الحضوري للقارئ، في النص قبل الإنجاز وبعده نذكر (إيكو) الذي رأى أن النص- الملقى والمكتوب -«إن هو إلا نتاج برتبط مصيره التأويلي (أوالتعبيري) بالية تكوينه ارتباطا لازما. فأن يكون المره نصا يعني أن يضع حيز الفعل استراتيجية ناجزة تأخذ في اعتبارها توقعات حركة الأخر... وبالتألي فإن النص إذ يحيل إلى قراء(أو سامعين) لم يكن يفترض وجودهم ولا ساهم في إنتاجهم، يصير عصيا على القراءة (أكثر مما هو عليه) أو يصير نصا آخر مختلفا، (الأ.

وسنوضح هذه النقطة أكثر عند تناولنا لدور «المتلقي» من منظور البلاغة التداولية.

إن التكلم (وكذا الكاتب) مطالب بأن يعي مقامات مخاطبيه ومستوياتهم الختلفة، الاجتماعي منها والفكري والسياسي... لكن «بيرلمان» يؤكد في بداية طرحه أن دراسته تهتم اساسا «ببنية الحجاج» وأنها لا تركز على الطريقة التي يتم بها التواصل مع المجتمع» (١٠٠٠). من هنا كانت هذه النظرية الفلسفية الحجاجية التي يهتم بها كتاب «مبحث في الحجاج» تصوراً ينظر الأنواع البراهين والحجج المتنوعة بحسب المقامات والسامعين المعنيين، كما أنها تقدم تصورا عميقا البراهين والحجج المتنوعة بحسب المقامات والسامعين المعنوين، كما أنها تقدم تصورا عميقا مضاطب آخر ليس حاضرا بالفعل لحظة الكتابة، لكن جميع أبعاده متصورة من لدن المؤلف، أو هكذا ينبغي أن تكون. وبالتالي فهذا الكتاب يعمق فكرة «المستمعين» الواردة في البلاغة الكلاسيكية، لكنه يركز على (غيابهم) المادي فقط، لأن هذا الغياب سيعمل على تمحيص الخطاب لتنمية الحجاج بعيدا عن وسائل الضغط والمسالح الآنية والتحريض.

بهذا التوجه يؤكد بيرلمان أن تصوره نابع من «المعاصرة». فهو يحاول دراسة كل أنواع البراهين والحجج التي يمكن إقامتها سواء أمام المعنين (الشاهدين) مهما كانت طبيعة هؤلاء (حزب معارضة - هيئة قضائية - حملة دعائية - مناصرين - إشهار تلفزي - جماعة دينية ...) أو بالدرجة الأولى أمام القراء، أي في المصنفات الكتابية (الروايات، المسرحيات، الخطب المرسلة ...). ومن هنا يكمن ثراء النظرية خصوصا إذا ما تم تطعيمها ببعض المعطيات السيميولوجية والمهرمنيوطيقية المعاصرة. فمن شأن ذلك أن ينير لنا سبلا عدة من أنواع استغلال الفضاء والكبري وتوظيف الآليات اللغوية في التعبير عن جدليتي الحضور والغياب (الخفاء والتجلي).

وإن أمرا كهذا لكفيل بإمدادنا بمناهج للتعامل مع نصوصنا للعاصرة التي لاتزال التقاليد الشفوية راسخة فيها رغم تقدمنا اشواطا في عصور الكتابة، هذا فضلا عما سيمدنا به من أليات لدراسة تراثنا الأدبي القديم، ولاسيما الرسائل الشعوية التي كان من أهم عوامل خلق الدلالة فيها توظيف جميع عناصر الحضور والغياب، وإعادة قراءة المكتويات المرسلة، وتحليل جل شفراتها النصية، على اعتبار أن تلك المكونات والوحدات هي التي ستشكل سدى النص الجديد

لكن لابد من التنبيه إلى أن نظرية «بيرلمان» أو على الأصبح التصبور الذي حاول تقديمه في كتابه هذا لا يولي اهتماماً كبيراً لآليات التواصل اللغوي المباشر والمالوف، أي ذلك التواصل الذي يدور في إطار البديهي والمعتاد، ولكنه يهتم بالأحرى بمظاهر جديدة من التواصل والتجاوب (في المكتوب والمنطوق والإشاري)، يكون فيها الهدف تأسيس بناء فكري عميق تندمج فيه أبعاد المتكام والسامح والمقام معا بحيث يحمل المنتج الجديد الخصائص الجوهرية لهذه المكونات الثلاثة.

وبالتالي فعلى العملية النقدية اللاحقة في تعاملها مع هذه النصوص المنجبة أن تصغي جيداً إلى حوار هذه الأبعاد الثلاثة ثم تحاول ترجمته، وتكميلها، أي النصوص، انطلاقا من أبعادها الجديدة هي الأخرى

ولنن كان لبلاغة المكتوب وجود فعلي في هذا الطرح البيرلماني، إلا أن الاهتمام الفعلي ظل مركزا على ما يمكن أن نسميه «نفائية الخطاب»، أي التقنيات المعرفية الفكرية، وكذا الاجتماعية التي يسعى من خلالها إلى تمرير الخطاب واجتيازه الأطر القولية والسمعية إلى الفعل والحدث والتغيير. ولأن بلاغة المكتوب نتطلب استثمارا وتحليلا للاليات الجوهرية والعناصر البنيوية الرئيسية في النص المحاور، وحوارا من خلاله يتم تعويض الغياب ومل، المقام بمكونات المقام الأول «المحدّز» الذي تحمل النصوص للبعوثة في الغالب أهم مكوناته وخصائصه. لكن أيضا ننبه إلى نا الاهتداء إلى تلك «النصية» التي منها تتناسل الدلالة يتطلب معرفة معمقة بأليات التأويل من

___ عالمالفکر

جهة، وبأدبيات النوع من جهة ثانية. فإن نفائية الخطاب المتحدث عنها إنما تتأكد بحصول الفعل المنجز الذي هو لازم فعل الكلام.

ونشير إلى أن مفهوم «لازم فعل الكلام» Perlocution مستحدث من قبل «أوستن» في تصوره الذي قدمة تحت عنوان «نظرية أفعال الكلام العامة»(١٠٨). حيث اعتبر هذا المفهوم دالا على مقاصد المتكلم الخارجة عن «العبارة» والمفهومة من السياق. بيد أننا هنا سنستخدم «الفعل» و «لازمه» بمعناهما «اللفوي»، على اعتبار أن معنى «الفعل» في اللغة العربية ليس اعتباطيا، بل يؤكد دور اللغة في تغيير العالم وتحوير السلوك.

أما هذه الأفعال المطلوب إنجازها من المعنيين بالخطاب فلابد أن يتم التعبير عنها بطرق حجاجية تراعى فيها خصائص مقامية معينة، لعل أهمها وعي المتكلم بأحوال مخاطبيه ومقاماتهم الفعلية والمتوقعة. وهذه أمور سبق أن أكدت عليها أدبيات البلاغة الكلاسيكية العربية في مواطن متعددة، حيث إنهم صنفوا أنواع المخاطبين، وخصصوا لكل منهم مستوى خطابيا معينا: فما يحق في خطاب الصديق أو النديم غير لاتق بخطاب الملك، أو المطموع فيه، أو المتخوف منه، وخطاب السلم غير خطاب الحرب... إلخ، هذا فضلا عن حديثهم المفصل حول مقامات الكلام وظروفه المحكّزة لكل قسم من أقسامه. وقد عبر عن ذلك صراحة الساكي بقوله: «لا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام الشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية، كذا مقام الكلام أبتداء يباين مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار... وكذا مقام الكلام مع الذكي يباين مقام الكلام مع الغبي، ولكل من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر» (١١).

وبيرلمان نفسه لم تفته هذه الملاحظة: فعلى الخطيب، في نظره، إذا آراد أن يكون خطابه منسجما مع مستوى مخاطبه أن يفهم أولا المقام المتكلم فيه، ثم أحوال السامعين ومستوياتهم المعرفية والإدراكية، لأن بناء الحجاج مرتبط أساسا بتنوع المعنيين به، فهم المقصودون بفحواه، المطالبون بإنجاز محمولاته، المشاركين في صياغته وإخراجه؛ وبالتالي وفلكي يستمد هذا الخطاب نضاذه المطلوب عليه أن يضمع في الحسبان مستوى العقول التي يهدف إلى إقناعها، ثم نوعيتهاه (٢٠). الاهتمام هنا إذن مركز على الجوانب الاستدلالية البرهائية التي تعمل على انسجام العقول وتعاضدها مع الطرح المقدم بعد استجابتها له. ومعلوم أن هذه الاستجابة المرجوة إنما يتم البحث عنها في الأمور غير الجلية التي يتطلب الإفصاح عنها جهدا فكريا وثراء معرفيا متنوعا.

لذا فالايركز في الحجاج (إلقاء وتحليلا وكتابة...) إلا على الأمور الداخلة في بنيته الموصلة إلى الإقتاع: فالأمثلة الجاهزة والجمل الوعظية أو الإرشادية وغيرها لا يتم التطرق إليها إلا إذا كانت داخلة في بنية قولية خطابية، وتؤدى هدفا في خطة حجاجية معينة.

وإضافة إلى البنى القولية الداخلة في صعيم الحجاج ثمة أمور آخرى غير لغوية، لكنها داخلة هي الأخرى في نسقه وينيته، من أهمها ما عرف عند المنظرين القدماء «بشكل الهيئة» التي يكون عليها المتكلم. أي كل الأمور الداخلة في تحديد مظهوه الخارجي، وهي أمور يسميها بيرلمان (تكييف المخاطب) Le conditionnement de l'oditoire أي «توضييه» بصفة غير مباشرة بفعل الشكل، وما يلحقه من متعلقات، على الخطيب الحرص والمهارة في تشكيلها وإعدادها على نمط مدروس ملائم للمقام.

وقد أدى اهتمام نظرية الحجاج بهذه الأمور الخارجية إلى فتح النظرية على الجوانب النفسية لما لها من أدوار فاعلة في إيصال الفرضيات، وفي التهيئة للاقتناع بها، والدفع إلى تطبيقها عمليا. فصياغة الحجة، والطريقة التي تطرح بها، ثم علاقاتها بنظيراتها من الحجج الداخلة معها في الحوار- على سبيل الانسجام أو الصراح- كل ذلك إنما يتم تحضيره انطلاقا من وعي نفسي باحوال المعنيين من جهة، وبمجموع الشروط الخارجية المؤطرة لعملية إنتاج الخطاب من جهة ثانية. سواء كانت هذه الشروط خاصة بالمخاطب وظروفه في لحظة محددة معروفة من لدن الخطيب (أو الكاتب)، أو كانت خاصة بالإطار السوسيوثقافي المشترك بين الجموعة البشرية الواحدة على اعتبار أن هذا الإطار هو المعني بتحليل «.. طبيعة العلاقة الموجودة بين أنماط الإنتاج الفكري، ومعطيات البنية الاجتماعية، وتحديد وظائف هذا الإنتاج، (١٣)، الشروط الاولى داخلة فيما يسمى بالمقام الخطابي أو الخاص، أما الشروط الثانية فتسمى «مقاما عاما»، وذلك بوصفها مشتركة من الخطابة والشعو.

ولعل هذا التعاضد الازدواجي هو سر «وجود بلاغتين متمايزتين ومتكاملتين في تراثنا العربي هما: بلاغة الخطابة ويلاغة الشعر» (٢٧) حيث بلاغة الخطابة قائمة على البيان الذي سعى الجاحظ إلى تحديد معالمه في بيانه وتبيينه، اما بلاغة الشعر فقائمة على تفنيق البديع اساسا، وإعطاء الصنعة والتنميق دورهما على حساب العديد من الآليات القولية. وستضاف إليهما لاحقا بلاغة «مقاصدية» يمكن أن نسميها (تداولية)، وأساسها «المعاني».

_ عالمالفکر .

ونحن إن نظرنا إلى الغروق بين هذه المستويات الثلاثة من بلاغة الخطاب في تراثنا العربي سنجد أن كلا منهم كان له خصائصه المقامية والمنهجية، وظروف نشاته الذاتية.

فبلاغة الخطابة قائمة على «علم البيان» الذي أرسى الجاحظ دعائمه في فترة كانت فيها الجدالات الكلامية، والبحث عن «الدليل» من القران والسنة والمحاورات والنقاشات، محتدمة بين الفرق الإسلامية، التي يسعى كل منها إلى إنتاج (خطاب) تكون «بلاغته» كفيلة بكسب أكبر عدد من المؤيدين. لذا فلا غرو أن نجد الجاحظ يطابق بين المعنين «الخطابي والبلاغي» (تماما مثل مطابقة بيرلمان بين البلاغة والحجاج)، ويهتم بوسائل الإقناع الشكلية والمضمونية (على مستويي الهيئة والخطاب). لذلك اهتم بالمقام وبمحدداته وإمكاناته، هذا علاوة على تركيزه على الجوانب البراجماتية «فالمعنى ليس يشمن بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضح بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضح بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب، وإحراز المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكل

أما بلاغة الشعر فتقوم على «علم البديع». وذلك ما أبان عنه ابن ألمعتز، الذي لم يهتم بالمقام، ولا بأقدار السامعين هذا إضافة على تأكيده أنه لم يجد في النثر أمثلة بديعية، لأنها من شأن لغة الشعر القائمة على الخرق والانزياح وعدم مراعاة «الخطية» في الفهم. وبالتألي فإن البلاغة الأولى تكرس النظرية الحوارية التي تسعى إلى كسب الأخر، في حين ترتبط البلاغة الشعرية بالصراع بين القدماء والمحدثين حول الإيداع وتوظيف اللغة. هذا في حين تقوم بلاغة «المقاصد» على علم «المعاني» الذي بلوره السكاكي في مفتاحه. وبهذه البلاغة أعيد الاعتبار للبيان على حساب البديم، والمثلم «بالمقام» وإمكاناته ومكوناته. وقد قدم السكاكي في تلك الفترة تصوراً عميقاً لما سيسمى لاحقاً «التدليغ» وذلك من خلال اهتمامه بشروط التواصل. ومن مظاهر ذلك تقسيمه للخبر بحسب مقامات المعنيين بالكلام، وهي التقسيمات التي كانت محورا أساسيا من نظرية أفعال الكلام مقاصرة عند (اوستين) وزملائه.

ونحن هنا إذ نشير إلى البلاغة العربية الكلاسيكية فإنما نلك بقصد الإلماع إلى أن تراثنا البلاغي قد اشار في دقة وطرافة إلى العديد من التقنيات الخطابية والنصية الجديرة بالدراسة والتحليل، قبل أن ننظر في ضرورة تجاوزها أو توسيعها. ولأن اشار الدرسان اللساني والبلاغي المعاصران إلى العديد من هذه الآليات المذكورة قديما فإن مدار التعيز كان في ربط الطرح الجديد

بالفروع المعرفية المعاصرة الحافة باللغة خاصة فيما يتعلق ببلاغة الصورة، لأن التداخل المعرفي المسحة اللازمة للمعرفة الراهنة بعد أن أصبح العالم يعيش مفهوم «القرية الكونية» المتداخلة إعلاميا وثقافيا وتقنيا.

هذا التداخل الرهيب والتواشيج أثرا بصفة بالغة على مفهوم المقام، حيث إن الخطيب صار ملزما بأن يكون أكثر دراية من غيره بالعديد من الآليات والمعارف وطرق إجراء القول في مختلف الظروف وأمام تغير المخاطبين، هذا علاوة على ما يلزمه من ذكاء وفطئة.

ثانيا: التهيئة للإقناع من خلال الشكل والموقع (الخطاب- المتكلم)

هذه الأفاق التي فتحتها البلاغة العاصرة ساعدت على تناول العديد من الأسئلة الكلاسيكية المتعلقة بالإقناع ووسائله الخارجية، وبيرلمان إذ يتناول هذه الأسئلة يربطها بعديد من الحقول المعرفية: القانونية والأدبية واللسانية والتاريخية.

ولكي يحدد حقل دراسته في مبحث الحجاج يقوم بالتعييز بين طبقتين كبيرتين من الخطابات أولهما الخطاب الفلسفي الذي يفترض مخاطبا كونيا، وبالتالي فهو خطاب يركز على الحس المشترك والحدس والوضوح والبداهة بوصفها قيما اساسية لبلورة هذا النوع من المقول، لذا كان الهشترك والحدس والوضوح والبداهة بوصفها قيما اساسية لبلورة هذا النوع من المقول، لذا كان فهوالخطاب العلمي الخاص، بوصفه يفترض مجموعة من المبادى، والأمور المشتركة بين مختصين في حقل ممين أو مجموعة تشترك في العديد من القواسم المتحدة، وبالتالي كان الهدف من هذا الضماب هو الإقناع Persuasion، وقد اعتمدنا في هذا التدييز بين المفهومين على ما اقترحه استاذنا محمد العمري في مقاله المحال إليه انفا في مجلة سيميائيات.

من هنا يكون الإقناع هو مجال البحث الحجاجي نظرا إلى كونه محدد المقام والمخاطب والإطار القولي. أما أهم وظيفة حجاجية في هذا المجال، بعد الإعداد لقبول الأطروحة أو الفرضية فهي الدهم إلى الفعل: وهي خطوة تتطلب وعيا محكما بالوسائل والآليات التي من شانها، إذا ما أدرجت باعتدال في الخطاب، أن تحرك المعنيين بالكلام صوب الفعل والتغيير، بما ينسجم مع المقام، وتتطلبه مقاصد النص وطعوحات الخطيب (المتكلم أو الكاتب...) بوصفه مفكراً حاملاً لرؤية معينة يسعى إلى إرسائها، أو جعلها راجحة في واجهة حجج أخرى مناوئة. هذا الهدف يتطلب قدراً من الوضوح في الاسلوب، ومستوى ملموسا من التواضع والاحترام الشخص الخاطب،

ــــ عالمالفکر ـ

فالغموض والإكراء (القسر) من أشد الأمور تنفيرا للمخاطبين، وبالتالي فهي تعوق كل السبل للبذولة لنفاذ الخطاب ووصوله. من هنا يربط بيرلمان البنية الحجاجية -Structure ar ومن أهمها L'exécution du discours بعض الأمور اللازمة لنفاذ الخطاب L'exécution du discours الرضوح غير المسف، وعدم التكبر والتحلق، ثم التمكن من ناصية اللغة، وهذق ثقافة المخاطبين، والوعي بأهم ما يعتمل في مختلف الأصعدة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية من أمور ملحة وجديرة بالمعرفة. كما أن على الخطيب أن يكون على علم بطرق إجراء المعنين للهجتهم، وأساليبهم في تكوين الصور، وتمثل الأمور شديدة المساس بمختلف جوانب حياتهم. إلى آخر ذلك من العوامل الاجتماعية المساعدة على نفاذ الخطاب.

إننا عندما نتقدم في «مبحث الحجاج» نجد أنه يولي اهتماما خاصا لعلاقة البرهنة بالأطر النفسية عندسيات، وما يحف بهسا، ثم أساليب الدفع إلى الفعل، كلها في جوهرها أمور نفسية، منها ما يتعلق بعلم النفس الفردي، ومنها ما يدخل ضمن ما يسمى بعلم النفس الجماعي، أي الأطر النفسية العامة الداخلة في صميم سلوك مجموعة بشرية معينة تشترك في جل المقومات الوجودية. جغرافيا وحضاريا وتاريخيا

وبالتالي «فليس الحجاج في النهاية سوى دراسة لطبيعة العقول، ثم اختيار أحسن السبل لمحاررتها، والإصغاء إليها، ثم محاولة حيازة انسجامها الإيجابي L'adhésion Positive والتحامها مع الطرح المقدم. فإذا لم توضع هذه الأمور النفسية والاجتماعية في الحسبان فإن الحجاج يكون بلا غاية وبلا تأثير (٢٠٠).

إن حصول الإقناع في النهاية ليس سوى انبثاق لضوء فكري معين من بين ركام الفرضيات المطروحة، وهذا النقاش قد يكون صريحا عند اتخاذ مواقف علنية معينة، وقد يكون ضمنيا عندما يجرد المتكلم (خطيبا أو كاتبا) من نفسه محاججا (محاورا) خاصا يتناول معه هموم المخاطبين، ويساعده على تدين هفوات الطرح، وأماكن الضعف فيه، كي لا يقع في بعض العيوب الخطابية أو الكتابية التي تدخل التناقض والتفكك إلى النصوص.

فالمخاطب المتخيل هو دائما بالنسبة لن يحاجج عبارة عن «بنية ممنهِجة» ^(٣٥) نوعا ما، أي أنه يزطر القول، ويجعله ملائما لظروفه الوارد فيها. والمتكلم البارع هو الذي يستحوذ - هذفا وطواعية - على مدارك المعنين بخطابه أو بنصه طيلة فترة الاستماع في حالة الإلقاء (أو النظر التحليلي حالة القراءة).

ونعني بالمخاطب هنا الغالبية العظمى من الجمهور، لأن التوصل إلى خطاب يتقاطع الجميع في كل محتوياته أمر بالغ الصعوبة، إذ لابد من بعض الحالات الخارجة على النسق العام والتوجهات الاساسية للمجموعة، وبالتالي فالنتائج في هذا الحقل- وغيره من العلوم الإنسانية- إنما تبني انطلاقاً من الغالب لاالمطلق.

ويؤكد هذا بناء الحجاج ذاته، فالمتكلم لا يعرض أمورا مسلما بها، أو أمورا بديهية لا تستدعي نقاشا، وإنما يقدم أموراً احتمالية متوارية خلف سدف معينة، عليه هو اعتمادا على بلاغته الخاصة أن يحيلها فرضيات راجحة على غيرها.

هذا المحاور المتوهّم الذي قلنا إن على الخطيب تجريده من نفسه، أو من القام، بعد خطة منهجية ضرورية من صنع الخطيب ذاته، وبالتالي يمكننا القول إنه داخل في إطار العلاقة بين الحوانب النفسية البحتة بالأطر الحجاجية

والمتكلم (خطيبا أو كاتبا) لا يستطيع تخيل هذا المخاطب مالم يكن على دراية عميقة بأحوال المخاطبين الراهنة، وبموروثهم الثقافي والحضاري، ويهموم مستقبلهم.

ثم إن على المتكلم الحذر في تخيل هذا المخاطب، لأن الخطأ في التقدير قد تنجم عنه ردة فعل عكسية تودي بمسار البناء الحجاجي بكامله.

فهذا المخاطب هو العامل للخصائص الجماعية الكبرى التي يتقاطع فيها السواد الأعظم، إنه بعبارة اخرى: الثقافة والحضارة والمجتمع والنصوص الخلفية الثاوية في اللاوعي الجماعي الموجهة للوعي وللفهم وللتعامل داخل الزمرة الاجتماعية الخاصة. وبالتالي يكون الخطأ في رسم صورته الفعلية مؤديا حتما إلى نتائج عكسية تماما.

وكما هوالحال بالنسبة لمنجبي النص والخطاب فإن المحلل النقدي لهما أو لاحدهما مطالب هو الآخر بتمثل عميق لهذا المخاطب، ثم محاولة تحديد موقعه لحظة الكتابة أو الإلقاء، وكذلك ملامحه الفاعلة وغير الفاعلة، مثلما أن عليه السعي إلى تمثل المقام المنجب، وإبراز أبعاده ومكوناته وروافده، واثرها كلها على شكل الخطاب، في علاقته بزمن النص من جهة، وبغيره من النصوص

___ عالمالفکر _

النضوية معه تحت جنس معين من جهة ثانية، هذا إذا أراد هذا الناقد أن يكون استنطاقه وقراعته بعثا وإثراء وخلقا الأنساق فكرية جديدة تحدث قطيعة معرفية مع النصوص المنجبة، وتفتح التحليل على آفاق قرائية أخرى متعددة.

يضاف إلى هذا أن الإلم بأبرز ملامح هذا المخاطب ومقاماته، يعد دلالة على الوصول من طرف الحلل النقدي إلى مستوى معرفي معين حول حقبة بذاتها أو حول جنس أدبي معين. وهو أمر من شأنه أن يسمح لهذا الدارس بإكمال أبعاد النص وربطه بأطر فكرية جديدة تزيده فعالية وترتفع به، خاصة إذا كان هذا النص داخلا في زمرة الأدب الشفوي، لأن جل نصوص هذا الأدب قد عرفت عبر المديرة الطويلة التي قطعتها إلينا تغيرات جمة في مكوناتها، تمثلت في الزيادة والنقص (في ومن) صلب النص الأصلي.

وبالتالي فإن وعي المحلل النقدي بالمقامات المنجبة لنصوص معينة، أو بالمقام الفني الذي داب مبدع معين على استلهام إمكاناته، لكفيل بأن يكشف لهذا الناقد عن العديد من أسرار تلك المبدعات الأدبية والفنية على السواء، علاوة على أنه (أي هذا الوعي) يمكن أن يوفر سبلا جيدة للتحقق من نسبة تلك النصوص إلى المنسوبة إليهم، وأيضا من صحة وضع المبدع ذاته. ولكن مهما كانت المحددات الفنية لهذا للخاطب المتخيل فإن «بيريان» يدرجه ضمن البنى النفسية الداخلة في إنجاب النص أو الخطاب، «إذ هو عبارة عن كائن ينجزه المتكلم،(٦٠١). إنه بعبارة اخرى الجلى مظهر من مظاهر أفق انتظار المبدع، هذا الأفق الذي ينبغى أن تنصهر فيه أفاق انتظار المخاب، المناطنين النفسية المخاب، المناسبة المناطنين النفسية المناسبة المناسبة

إن الخاطب المتخيل الذي يحتويه المتكلم فعليا، يؤدي أساسا وظيفتين: إحداهما حجاجية والاخرى حوارية. وأولاهما منبثقة من الثانية. لأنه انطلاقا من الأجوية المتخيلة، التي يفترض أن تكون مطروحة في المقام، يكون مسار الكلام وطبيعة مكوناته البلاغية واللغوية. ويظهر ذلك بصفة جلية في الخطاب الشفوي- البلاغي منه- فعامل الحضور العياني فيه بعد مصدر إلهام الصور، واساس التفاعل مع المقام، ذلك التفاعل الذي يعمل على تشكيل الحوار الذي ينبغي أن تسفر عنه لوازم افعال الكلام.

ونشير هنا إلى أن قضية التفاعل مع المقام تعد مسألة بالأغية مهمة، منها يتحدد الشكل النهائي للملفوظ، لذلك فعلى المتكلم مراعاتها «والتحكم» فيها لأنها في الحقيقة مسألة نفسية بحتة داخلة في إطار «الحماس» L'enthousiame سواء كان هذا الحماس من أجل الفرضيات للقدمة، أو كان مبعثه تفاعل المخاطبين، وبالتالي فعلى المتكلم أن يحترس من الاندفاع الزائد على القدر للعتاد (الوسط) لأن الحماس الزائد على المالوف يعد أمرا سلبيا على وضع المتكلم في المقام إزاء للخاطبين وإزاء ما ينوى توصيله.

ثالثًا: المظاهر الحوارية في الحجاج

تعد عُقلنة الطرح ومنطقته من أهم الإضافات التي الحقها «بيرلان» بنظرية الحجاج، ومبعث فلك المكانة التي راى أن المنطق قد تبوأها حديثا والتي مكنته من العدول عن «تكرار الاشكال القديمة والآخذ في تحليل أدوات البرهان التي يستخدمها الرياضيون بالفعل، فالمنطق الشكلي الحديث قد تأسس باعتباره دراسة وسائل البرهان الرياضي، ولكن مجاله ظل محدودا مما دفع المناطقة إلى استكمائه بنظرية برهانية. وهذا ما نهدف إلى وضعه عبر تحليل أدوات الاستدلال الملائمة للعلوم الإنسانية (۱۳۷)، وهو في ذلك يستأنس بمنهج «تشومسكي» الرياضي التحويلي الذي أقصح عنه في بداية مشواره.

هذا الميل إلى نظرية حجاجية تتوسل بالآليات الرياضية المنطقية والنفسية من شانه أن يسيم التحليل البلاغي المعاصد بطابع أمبيريقي، وذلك على غرار المناهج اللسائية التي تشكل رافدا أساسيا لهذه البلاغة.

وعلى الرغم مما يمكن أن ينتقد به هذا المبل الامبيريقي في المجال الإنساني اللغدي، إلا اننا لا ينبغي أن نففل عن كون هذا المبل المنهجي الجديد مساعدا على تقريب مجال التوقعات وحساب الاحتمالات في مقامي الكلام والكتابة، لأن الإصابة في توقع الإجابة (رد الفعل) من لدن المعنيين تعد عاملا فعالا في تصاعد مؤشر نفائية الخطاب ويلاغة تأثيره، فالفهم السليم لا ينضسج إلا دلخل الجواب الحائق الذي ياخذ باكبر قدر من احتمالات الإصابة، ويلم بجل جوانب الموضوع. وهذا مبعث الارتباط الجدلي الإشكالي بين الفهم والإجابة.

فالفهم الإيجابي عندما يجعل المتوقع- اي ما ينبغى أن يكون- حاضرا بالنسبة للمخاطب الذي ينوي وممارسة الفهم،، فهو في هذه الحالة على حد عبارة باختين وإنما يقيم سلسلة من العلائق المتبادلة المعقدة، ومن التناغمات والتنافرات مع ما هو مفهوم، كما يغنيه بعناصر جديدة، وعلى هذا

ب عالمالفکر پ

القهم يعول المتكام. لهذا فإن توجهه نحو محاوره هو توجه نحو المنظور الخاص لهذا الأخير وعالمه، وهو بذلك يدخل إلى خطابه عناصر جديدة تماما، لأنه يحدث عندنذ تفاعلا بين مختلف السياقات ووجهات النظر والمنظورات وأنساق التعبير والتنبير ومختلف «اللهجات» الاجتماعية، فالمتكلم يسعى إلى توجيه خطابه بوجهة نظره نحو منظور الشخص الذي يريد أن يفهم، ثم يحاول الدخول في علائق حوارية مع بعض مظاهره- أي المنظور». (١٨) والمنظور الخاص بالمخاطب ووجهة نظره وتنبير لهجته والغوص في عوالمه الخاصة هي كلها أمور داخلة في صميم العملية الحجاجية، وهي أيضا بحكم طبيعتها المعرفية أمور نفسية في أبرز جوانبها، ومن هنا لابد من اعتبارها ومراعاتها بمظاهرها الفردية والجماعية. لذا كان تصنيف المتكلم (غطيبا، كاتبا ..) لانواع مخاطبيه (المتخيلين، والفعليين) أمراً ضرورياً، من حيث طباتعهم الشكلية واتجاهاتهم الفكرية وانماطهم السلوكية والثقافية والحضارية الشاملة. وهذا التصنيف ليس عاملا تجزيئيا بقدر ما هو مساهمة في بناء إطار شامل يضمن سلامة الطرح وتأثير الخطاب، كما أنه من جهة بثانياء محوار ثقافي، ناجع، هو العلامة الثقافية المثل كل حجاج ناجح.

هذا «الحرار الثقافي» الجدلي لا يمكن تولده إلا من خلال وعي متميز لمقولة الفهم وما يحف بها من مقولات فلسفية، خاصة مقولتي السؤال الأمثل والجواب الأرجح: لأن الحجاج كما قلنا هو ترجيح من بين خيارات بواسطة أسلوب هو في ذاته «عدول» عن إمكانيات لغوية إلى آخري» يتوقع المباعدة في مقام معين. بالتالي كان حسن التصنيف والتوقع نابعين من «الفهم السليم» «لأن الفهم الصحيح وحده الذي يستطيع إدراك معنى التلفظ. وكل فهم هو فهم حواري الطابع والفهم هو أيضا بحث عن خطاب التلفظ إن الفهم هو – في النهاية – إقامة علاقة مع نصوص آخري، وإعادة تأويلها في سياق جديد (السياق الخاص بي وبحقيتي وبالمستقبل)... فالأشياء حبلي بالكلمات». (٢٩) ولا يضير الحوار كونه بين النصوص أو بين المخاطبين، فهزلاء الأخيرون ليسوا في الحقيقة سوى ذوات تتخللها الشغرات والنصوص والتراكمات الثقافية والحضارية على السواء، وإقامة حوار معهم يتطلب تمثلا لا بأس

هذا الطابع الحواري للحجاج خاصة، والبلاغة المعاصرة عامة يتقاطع في الايمان بضرورته جل مدارس ما بعد البنيوية، ونلك لانها – أى الحوارية – هى مصدر العمليات التناصية، من توظيف واستفهام ومعارضة وتحويل. حتى إن بعض الدراسين المعاصرين هو (ميشال مايير) عرف البلاغة بأنها ذلك الحوار حول المسافة بين النوات، أو هي ذلك الحوار حول المسافة بين أناس بصدد مسألة أو مشكل ما .. «هذه المنهجية البلاغية تؤسسها بنية عميقة يسميها ميشيل مايير بنية الذات Ethos والآخر Patitos وبينهما اللوغوس Logos من حيث هو كلام ولغة قبل أن يكون عقلا ، فالمعقل لا يهتم بما هو إشكالي بقدر ما ينشغل بنظام الأشياء واعتقالها، وبما هو بديهي وما هو جدلي ليتوصل إلى نتيجة اكبدة، في حين أن البنية الأساسية للبلاغة هي بنية إشكالية تعتمد سيرورة تساؤلية Questionnemen تقصي من فضائها الأجوبة الضرورية والنهائية ، (⁷⁷) من هنا كانت ضرورة دراسة الصراع الجدلي الباطني بين السند المعرفي الذي يدخل به المتكلم مقام الإلقاء أو الكتابة، وبين التصورات الحاصلة له بعد الدخول، والتي يعد عنظ طبيعة المقام، وما يعتمل فيه من تفاعلات واستجابات أو غيرها، سواء كانت متوقعة أو

وسيطرة الخطيب على أهم خيوط هذا الصراع تعد من العوامل الجوهرية- على المستويين النفسي والفكري- في تميز مايرغب في توصيله للإقناع به لاحقا

هذا إضافة إلى ما تمنحه هذه السيطرة للخطاب ذاته من انسياب وتناسق بين مكوناته، وهو ما يعد عاملا حجاجيا بالغ الأهمية خصوصا في الخطابات الملقاة آمام السامعين (مباشرة أو عبر وسائل الإعلام المسموعة والمرئية)

رابعا: حضور المعنيين في تحديد الشكل الخطابي للحجاج

إن التناسق بين الشكل والضمون في الخطابات المدونة والنصوص المكتوبة بوهلها للانفتاح على القراءات لاحقاء ويمنحها مناعة نوعية في وجه بعض التاويلات ذات النزوع النفسي الصرف. التي قد تناى بالمبدع عن سياقاته واطره الداخلية والخارجية واهدافه الأساسية هذا التناسق المنشود إذن «لا يمكن أن يتم إلا من خلال الاحتواء التام الذي يمارسه الخطيب على مخاطبه، (۲۱) ولكن هذا الاحتواء مشروط ومقيد بمحددات مقامية لابد من مراعاتها حفاظا على ميثاق التواصل بين المتكلمين والمعنين، وعلى ما سينبثق من هذا الميثاق، فلا ينبغي مثلا أن يؤسس الخطيب بناءه الحجاجي بطريقة تعسفية يساق من خلالها المعني «خاسة،(۲۳) إلى فرضيات أو مسلمات بديهية

أو مراوغة يجد في النهاية نفسه أمامها فيرفضها، ثم يتعدى نفوره منها إلى الشخصية التي وجهته إليها، وإذن فعلى مرسل الكلام أن يتخيل مخاطبا محنكا حانقا، ثم يعمد إلى بناء فرضياته وطريحاته ومناقشاته على أساس احترام وعي هذا المخاطب وتقديره من دون أي مراوغة خبيثة أو تمريض ساذج manipulation naive شالتحريض عبارة عن عملية وجدانية بعيدة عن مجالي العقل والفكر، إنه بعبارة أصح نوع من الاستجداء العاطفي للهين، لذا كان وجوده مدمرا لكل بناء حجاجي ينشد التأثير. ومما ينضاف إلى التحريض (بوصفه عيبا بلاغيا يجب تجنبه) ثلاثة عيوب أخرى: اقتبسنا ترجمتها من استأذنا محمد العمرى، وهي على الترتيب «الالتفاف apsorophe. أحرى: اقتبسنا عنص والتجسيد prosopope» والتساخر prosopope، "أ) وهي كلها خاصة ببعض مظاهر التلاعب بالخاطب بوصفه عنصرا مقاميا جوهريا، ومحددا فعالا من محددات الشكل الذي ينبغي أن يكون عليه الخطاب وكذا الفعل في النهاية.

ويعني الالتفات شكلا من التنوع المفاجى، في الخطاب، يتم العدول فيه عن موضوع ليتوجه إلى موضوع آخر ذي طبيعة خاصة، ويكون ذلك من دون استئذان المخاطب، الأمر الذي قد يحس معه هذا الأخير بأن فكره ووجهات نظره وكيانه مسرح للتلاعب والتضليل.

من هنا كان على المتكلم (خطيبا أو كاتبا...) الحرص على الأيضامر الشك مخاطبه بأنه غير أهل لكل الثقة. أما التجسيد فهو «تلاعب» يقوم على محاورة الجمادات والحيوانات والغائبين ومحاولة استنطاقهم في مقام الإلقاء، وذلك ضمن نسق حواري بين الاستحاله والغموض.

في حين أن التساخر أو التساذح يعد نوعا من استمراء تعاطف المعنيين كي يسبغوا على المتكلم صفات خاصة. وهو يقوم بذلك السلوك عن طريق تعريض نفسه للسخرية تساذجا وتلوّما فيبدو «... كمن يسخر من نفسه أو يلومها بهدف الحصول على رد إيجابي لصالحه من طرف المستمع مثل: هل أنا مغفل إلى هذا الحد؟ أو: أنا جنيت على نفسي... وبالتالي يكون كل من «الالتفاف والتشخيص والتساخر تقنيات متكاملة للتلاعب بالقام، والخروج من التوازي بين الخطاب والمستمع في الظاهر «؟؟». وتنضاف إلى هذه العيوب الخطابية قائمة طويلة جد! أسهب بلاغيونا القدامي في الحديث عنها في تنظيرهم الخاص لبلاغتي الشعر والخطابة. ولمل حديثهم عنها أدق من تناول البلاغة اليونانية لها، ولكن ليس هذا مجال الحديث عن هذه العيوب «المعروقة».

المهم في الخطاب الإقناعي ألاَّ تكون عناصره إجراءات procedes هدفها الوصول إلى أذهان

المخاطبين بأي وسيلة أو بأي ثمن، بل لابد من مراعاة الانسجام التام بين شكل الخطاب ومضامينه الفكرية والاجتماعية من جهة، وبين الاسلوب والعلامات الموحية بعفوية الطرح وبراعته من جهة ثانية.

فمن شأن ذلك أن يمنح الخطاب نفائية أكثر. أذا يحذر «بيرلمان» في هذا الصدد من الإسراف في استغلال الأشكال البلاغية الجاهزة، لأن هذا الإسراف كان يوما ما عاملا من عوامل انحطاط البلاغة والنظر إليها بوصفها الية إقناعية عابرة Ephémére، وذلك مما جعل تلك الاشكال البلاغية هدفا في حد ذاتها، وهو ما أفقد اللغة قدرتها على نقل الواقع ورسم المستقبل وإحداث الإثارة الفنية الكفيلة بخلق ثنائية: الاقتناع والفعل.

إن على المتكلم السعي إلى جعل مخاطبيه في أقوى حالات إرهافهم وانتباههم، فهو في مقام الإلقاء يجابه «عدوين قاتلين هما عدم الانتباء والنسيان، (٢٥)، ولكي يظفر بهما عليه التوسل ببعض محسنات الاسلوب الكامنة في البلاغة. لكن عليه الأيسرف في ذلك الاعتماد، إذ البلاغة فن قوامه الاعتدال، مع توفر أكبر مستويات الإبانة والإفصاح وقديما تم تحديد أجود المبدّعات بأنه الجزل المسبوك الذي يُهجم على باطنه من ظاهرة، ويسحرك بيانه مع قرب مأخذه، ومن هنا حددوه بالمتنم.

ولا يفوتنا منا أن نشير إلى أن توظيف الأشكال البلاغية في الخطابة عامة وباب الحجاج منها خاصة، قد عرف تحولات عدة وتغيراً في الاستراتيجيات.

فقديما كان يتم الإسراف - جزئيا- في توظيف هذه الآليات نظراً إلى طبيعة المخاطبين ومقاماتهم الحافة بهم، أو تلك المحترية لهم بوصفهم في الغالب مجتمعات شفرية

فلقد كان هذا المقام يفرض على المتكلمين طرقا خاصة في إجراء الكلام، لا نستطيع نحن معشر «الكتابين» اليوم تمثلها بالصورة المثلى التي كانت عليها.

فالفرد الكتابي الذي عاش في حضارة الكتابة ووسائل الإعلام المعاصرة «لا يستطيع بشكل كامل أن يسترجع الإحساس بما مثلته الكتابة للشفاهيين الخلّص،(٢٦).

لهذا كان تمثل المطلين النقديين- اليوم- للنصوص القديمة الوافدة إلينا من الأرمنة الشفوية يتطلب قدرة وتمكنا فائقين في الوعي بالسياقات المنجبة لهذه النصوص، مثلما يتطلب معرفة واسعة بثقافة تلك الحقبة وحضارتها، فبذلك فقط تستطيع العقلية الكتابية المعاصرة «أن تعيد بنا» الوعي الإنساني في نقائه الأصيل، ذلك الوعي الذي لم يكن كتابيا على الإطلاق، أو على الأقل اتعيد بنا» الوعي بدرجة معقولة إن لم يكن بشكل كامل، (فنحن لانستطيع أبدا أن نتخلى بالنسيان عن قدر من حضارتنا من أجل أن نعيد في عقولنا بنا» أي ماض في حالته الاصلية الكاملة، (٢٧٠) وعلى قدر التمثل لثقافة حقبة معينة، ولأفاق الانتظار السائدة فيها يكون ثراء التحليل وعمق القراءة. ويعد هذا من الجوانب الجيدة التي أشارت إليها، وركزت عليها نظرية القراءة والتلقي عند «هانزروبيريوس» وجماعته: حين اعتبروا أن تواريخ القراءات المقدمة لنصوص معينة في حقبة معينة يمكن أن تقدم من الجانب الأخر منهجا معينا لكتابة التاريخ الأدبي بطريقة واسلوب متميزين عن نظيريهما في الدائرة التاريخية.

فعلى سبيل المثال كانت النصوص الخطابية ويعض المراسلات الكتابية القديمة تنسج – غالبا
إن لم نقل دائما – انطلاقا من تراكب نسقي «سببي» تلاحقي لبعض «الصيغ» (⁽⁷³⁾ وذلك على نحو
«عنقودي» يترابط من خلاله الكلام وتتلاحق الصور بصفة أقرب إلى التداعي، بحيث يكون ظهور
جملة معينة أو صورة أو مثال أو تضمين – ما – مرافقا بالضرورة لظهور نمط قولي أخر يتوقعه
المخاطب، وينتظر من المتكلم الإبداع والتفن في إيراده أو الإلماع إليه.

من هنا يكون إبداع المتكلمين رهين الاستجابة لآفاق الانتظار والتوقع من جهة، ثم الإجادة في خلق علاقات معينة جديدة داخل أفاق الترقم ذاتها.

وتَمثل المحلل النقدي لهذه الآفاق والأصداء النصية عامل أساسي في مل، فراغات النص والتحاور معه وإثرائه على حد تعبير «أيزر».

وفي مقابل الاستراتيجيات الشفاهية في إجراء القول وجماليات اللغة نجد البلاغة الماصرة في مجال الحجاج تتوسل بسبل قولية آخرى بالغة التباين. فالمتكلم المعاصر مطالب بالسعي إلى امتلاك ثقافة بالغة الرحابة مثلما هو مطالب بالاقتصاد في تصدير مخزونه البلاغي وعدم التواري خلفه.

أي أن تكون لفته دالة على خططه القولية معبرة بجلاء عن أهداف النص وغاياته الراهنة والمستقبلة على السواء. هذا التصور الذي قدمته هذه البلاغة لمفهرم «الحجاج» ساهم في تقريبه من الأطر العالمة -Sa ، ومنحه خصوصية متعلقة بالمخاطب والمقام من جهة واللغة من جهة ثانية. وقد تطورت هذه vantce الفكرة عند البلاغيين الأسلوبيين الذين اهتموا بدراسة اللغة الأدبية، لا من أجل البحث عن «الأدبية»، وإنما بهيف وضع نظرية للنص تكون أقرب إلى العلمية

ومجال اهتمامهم بهذه الفكرة كامن في أن خصوصية اللغة والقام تتطلب من المطلين النقديين جهداً متميزاً من أجل الوصول إلى بعض آسرار الخطابات والنصوص.

فكما أن المعني بالخطاب أصلا محدد سلفا، فكذلك المحلل النقدي الذي سيدرسه لاحقا هو بدوره متميز، أو ينبغي أن يكون كذلك، فليس كل ناقد مؤهلاً لطرق أبواب النص، ومن هنا جات فكرة القارى، المثالي عند ريفاتير، والقارى، النموذج عند أيزر، والقارى، السيميولوجي عند أومبر توإيكو. (٢٠) ويتقاطع هؤلاء جميعا في أن القارى، مطالب بإثراء النص وفتح افاقه وخلق التناسق والحوار اللازمين بين النصوص المتصارعة في فضائه، وتلك الداخلة في نسيجه عبر مستويات التناص المتعددة، تضمينا أو استشهاداً أو تلميحا أو تمثيلا أو معارضة أو تحويلا . وهذا ما جعل العمليات التحليلية الرائدة أضحت محددة الإطار، لأن النصوص لا تكشف عن أسرارها إلا للثلة المتحدين. لذلك يرى «إيكو» أن النصوص الحقة أضحت الخالقة لقرائها فثمة أسرارها إلا للثلة المتحدين. لذلك يرى «إيكو» أن النصوص الحقة أضحت الخالقة لقرائها فثمة ميثاق علامي بين المطلبي الاكفاء والنصوص التي تستحق الدراسة، ويشارك كل منهما بقسط في تكوين هذا الميثاق والورته انطلاقا من تعاضد إمكانات مقامي التأليف الاصلي والقراءة اللاحقة تكوين هذا الميثاق العلامة العربية والقراءة الللاحقة تكوين هذا الميثاق والورته انطلاقا من تعاضد إمكانات مقامي التأليف الاصلي والقراءة اللاحقة تكوين هذا الميثاق والورته انطلاقا من تعاضد إمكانات مقامي التأليف الاصلي والقراءة اللاحقة تكوين هذا الميثاق علامي بين المطلان الطاقة امن تعاضد إمكانات مقامي التأليف الاصلي والقراءة اللاحقة تكوين هذا الميثاق علامي بين المطلان الطاقة المنات مقامي التأليف الاصلام والقراءة الملاحقة التحرين هذا الميثان المنات المقالة من تعاضد إمكانات مقامي التأليف الأصلام والقراءة المنات المتحدة الميات المتحدة المعالية المتحدة المنات المتحدة المعالية المتحدة المراحة المتحدة المعالية المتحدة الم

لكن هذا الجانب النقدي التحليلي من علاقة النص بقرائه لم يحظ بعناية كبيرة من «بيرلمان» إذ ظل اهتمامه مركزاً على علاقة النصوص بالمقام والإقناع والفعل (الحدث)، ثم على دور الأطر المعرفية الحافة باللغة في بلورة نظرية الحجاج تولي اهتماما لمجالات البرهنة في المكترب، ولطرق تعويض الغياب في مقامات الكتابة، دون أن تهمل التنظير لبلاغة الإلقاء (الخطابة). لذا يعود الفضل لبيرلمان في كونه قد لفت الأنظار إلى ما يمكن أن تلعبه البلاغة إذا ما أعيدت قراءتها في ضوء المناهج اللغوية المتطورة من جهة، وإلى ضرورة مراعاة تطور علوم الاتصال والياته في عصر «السماوات المفتوحة» من جهة ثانية. فالمقام الخطابي قد اتسع والمخاطبين (المعنيون) قد اتسعت دوائرهم وتفزعت ظروفهم وتعددت القيم الشكلة لوعيهم ولوجهات نظرهم. وكل هذه أمور لابد من مراعاتها واخذها في الاعتبار.

_ عالمالفکر .

لكن الاهتمام بجدلية القارى، والنص (او الخطاب) سيتم تداركه بصفة كبيرة في البلاغة البنيوية العامة والبلاغة التداولية، وذلك ما سنشير إليه لاحقا.

أما صاحب (مبحث الحجاج) فقد كان يهدف إلى أن يجعل من الحجاج خاصة والبلاغة عامة مجالا عالما، يُسعى من خلال شفافية اللغة إلى الاستصواد على وعي الخاطبين وتغيير تصوراتهم- بإرادتهم هم- ولا يتأتى ذلك إلا إذا استطاع المتكلم أن يخلق الشعور لدى مخاطبه بأنه طرف فعال له رأيه وتوجهه، وأن لا فعل ولا تصرف من دون مباركته. فالمخاطب عندما يستشعر هذا الإحساس يكون المتكلم- في الغالب- غير ملزم بتقديم الحلول والنتائج والتبريرات، لأن الطرح المقدم عندئذ يكون قد بلغ نروته الإقناعية، وهذا يتيح للمتكلم الانسحاب تاركا للمخاطبين تحديد الحكم على القول.

وبالتالي يكون المسعى الاساسي للحجاج المعاصر هو التهيئة للحكم لا النطق به، لأن المهم هي المقام الحجاجي ليس قناعات المتكلمين، وإنما بالاحرى قناعات للحاورين ورؤاهم، إذ هي التي عليها مدار النقاش.

والمتكلم الذي لا يتفاعل سوى مع قناعاته الخاصة بعد متكلما انفعاليا، لذا فالخطاب الانفعالي لا يعبش بعد إلقائه، وهد إن اثر في المخاطبين إلا أن تأثيره يظل عابراً لأن المعاطفة ليست من طبيعة العقل. من هنا كان الحجاج المعاصر مطالبا بالجمع بين خاصيتين أساسيتين هما: المفارقة والواقعية: الحقيقة والمجاز، فعدار الامر في ذلك كله: المخاطبون. وهذا ما جعل «ديموستين» في محاربته للديماغوجيين Demagogues «يطلب من المجتمع الأثيني أن يتحسن ثقافيا، ويطور الياته المعرفية وأنماطه الحضارية، ففي ذلك رفع لمستويات خطبائه، وعامل من عوامل إجارتهم في القول والكتابة معا. وبالتالي جعل المجتمع مساهما بصفة ما في تشكيل خطبائه وكتابه فإنه أيضا يكون مشاركا فيه، (ف) وما المجتمع مساهما بصفة ما في تشكيل خطبائه وكتابه فإنه أيضا يكون مشاركا في خلق الخطابات والنصوص الموجهة إليه، وداخلا في الانسجة الضامة لتلك المبدعات. وينتج عن هذا التناوب في «الخلق» أن النص وكذا الخطاب يخلقان بدورهما قراهما المؤهلين فكريا ومعرفيا لتناول شغراتهما وإثرائهما بالاسانيد المعرفية الحاصلة لهم من تجاريهم النقدية السابقة.

ويعد الاهتمام بفكرة «الخلق» نابعا من الفكر الظاهراتي، الذي يعتبر من الاطر المعرفية المؤسسة لنظرية الحجاج سواء عند بيرلمان أو من جاء بعده من البلاغيين البنيويين أو التداوليين على السواء. وقد أخذت هذه الفكرة تجليات عدة عند بيرلمان بالخصوص، يظهر ذلك في محاولته إعداد تصور معين لانواع المخاطبين. فمثلا قد يكون الخاطب كونيا (من دون خصائص أو معالم محددة أي عاما شاملا) وقد يكون المخاطب محدداً نابعا من مكونات مقام القول وإمكاناته التي على المتكلم- إيا كان- الإجادة في استغلالها والاعتدال في توظيفها، هذا وقد يكون نابعا من «الفاعل» أي المرسل للقول ذاته، وجزءا من تجريداته وطموحاته، ولكن في هذه الحالة الأخيرة على المتكلم المغطي الأيفرض على مخاطبيه ملامح هذا المتكلم المجرد، وإنما عليه أن يترك للمعنين مهمة تحديد ملامحه ثم مكانته. ويحدث هذا الموقف غالبا حالما يكون المرسل للخطاب قاصدا معنين، لا يستوعب بدرجة كافية المقالم الكبرى لأقاق انتظارهم إن من المسلم به تنوع الأساليب بتنوع للماطبين، لكن من التقنيات الحجاجية الفعالة في هذا المقام، ضرورة أن يتمكن المرسل للخطاب من حذق وتوقع ثم «امتصاص» جل الفرضيات والقيم والتصورات المناونة لطرحه، وخاصة منها تلك التي لها مساس كبير بوجدان المعنيين وأنماط تفكيرهم أو حياتهم العامة. فهذه الأطر والتصورات المناونة قد تكون مادية، وقد تكون تصورات مجردة نابعة من الطبيعة النصبة المعضية.

وتصرف المتكلم إزاء هذه الأطر القواية التي قد تعوق التجسيد الفعلي لفحرى فرضياته، لابد
ان يكن ذكيا، لأن من شأن هجومه أو تهجمه عليها تقويض فناة الاتصال. لذلك فإن عليه أن يقوم
بمعارضة تلك الأطر بأطر اخرى من الطبيعة نفسها، ثم يعمل على تحويل تلك المناوأة لكي تصير
داخلة في نسيجه القولي، وبالتالي تكون جزءا من الخطة الحجاجية، بدلا من أن نكون هدفا بصاغ
من اجله الحجاج، وهذه الععلية التحويلية ليست باليسيرة لانها تتطلب وعيا اجتماعها بظروف
القول والقول المضاد من جهة، وإدراكا للبطانة الايديولوجية والمنفيية لتلك الأطر «المناونة» من جهة
ثانية. فالمتكلم هدفه عزل تلك الأطر على سياقاتها الأصلية، وبالتالي زرعها في أنساق لغوية
حجاجية جديدة، على شكل تبدو معه للمستقبلين كما لو كانت جزءا أصليا من النسق القولي
الجديد، لا يمكن انبتاتها عنه، فبذلك وحده يستطيع هذا المتكلم أن يقدم فرضياته وأفكاره كبديل
مقنع الاتحريض فيه، وهذا أمر ضروري لحيازة رضا المعنين، وانخراطهم في الاقتناع بضرورة
إنجاز المضامين الفعلية للمقول.

إن هذا النمط الحجاجي بالخ الدقة لم يغب عن وعي القدماء، فقد أشاروا إليه في باب الجدل

___ عالمالفکر ـ

Vi الحجج La rhetorique من حيث الاولوية على الخطابة الجماعية La rhetorique بالقدمة إلى الفرد تتسم بالتحول والمفاجاة، وبالتالي فالحوار هو طابع العملية في هذا المقام، إذ على المتحرم وخاصة الخطيب مراعاة تصرفات مخاطبه وتقلبات مزاجه واعتراضاته مثلما أن عليه على المتكلم وخاصة الخطيب مراعاة تصرفات مخاطبه وتقلبات مزاجه واعتراضاته مثلما أن عليه الزيتوقع جل سلوكياته، وهذا ما جعل Quintelien يتبنى راي Cenon الذي راى أن «الديالكتيك (الجدل) بوصفه تقنية حوارية يشبه في طابعه الحجاجي الصارم الضيق القبضة المغلقة، في حين أن الخطابة في نظره تشبه الراحة المبسوطة نظرا إلى ما يمنحها مقامها من أتساع في القول ومجرياته وسعي حر (نوعا ما) في التحليل والبرهنة والاستنتاجات (الا) وفقا للتوقع السليم الأفاق الانتظار المهينة على المقام.

إن المتكلم في الفضاء الضطابي المعاصر، وكذا الكتاب بالدرجة الأولى، مطالبان بإعادة قراءة جل النصوص التي يمكن أن تدخل في السياق القولي الجديد، وهذه القراءة هي عملية نقيية انتقائية، الهدف منها - كما قلنا- محاولة صياغة بناء متكامل يتم فيها تحويل خصائص النصوص السالفة لتدخل في اطر قولية جديدة تتربها وتزيد من اتساعها وانفتاحها على كل من النصوص والقراءات اللاحقة، مما يسوغ لنا القول إن النظرية الحجاجية في مظهرها الآخر هي سعي إلى إعداد نماذج معينة من القراءة الاجتماعية انطلاقا مما يمليه المقام الراهن لكل من الإلقاء أو الكتابة.

وفي إطار تنوع المخاطبين وتنوع الاساليب الخاصة بهم يركز «بيربان» على أهمية أن يعي المتكلمون أن «الفعل الحجاجي» عبارة عن عمل جاد وليس نوعا من التسلية الكلامية، وأنه يتطلب قناعة ذاتية ووثوقا نفسيا وعضويا به من ممارسه، «وهذه ماجعل Isocrate يرى أن الحجج نفسها التي نقتع بها الأخرين عندما نقصدهم بالخطاب هي ذاتها التي نستخدمها عندما نفكر ونحادث أنفسنا، بالتالي فالخطباء هم القادرون على مواجهة الجمهور في حين أن أصحاب الرأي السديد هم أولئك الذين يستطيعون عند الملمات محادثة أنفسهم بالأساليب الأكثر عقلانية وحكمة». (٢٤)

من هنا كان الانسجام مع الذات، والثقة في النفس، والتحضر اللائق للمقام-خطابة وكتابة-من أهم المراحل الخاصة، المهيئة للاتفاق مع الآخرين، هذا إضافة إلى «أن تمحيصنا- بوصفنا متكلمين- لحججنا الموجهة إلى الآخرين، وتحليلنا إياها هما الكفيلان بجعلنا نعي جيدا كيفية الحوار مع نواتنا بشجاعة، وليس العكس».(١٦) هذا التصور لعلاقة البدع بذاته جعل Perelman يستخدم مفهوم «العقلنة» بوصفه الجامع لأهم الأطر النفسية الباطنية Cadres Psychologiques Profonds الحافة بعملية الحجاج. فالمتكلم مطالب بالتروي والتعقل إزاء الفرضيات التي يطرحها، والتأويلات التي يقترحها، ونلك حتى لا يجد نفسه أثناء خطابه (أو نصه) مضطرا إلى أخطاء الإلحاق Fautes dattribution كأن يقدم طرحا معينا، ثم يسترسل في عرض الخطة الحجاجية التي اعدها للمقام، ثم يقع منه سهوا أو جهلا بغمل العماس أو بقعل أخطاء الترقع إهمال لبعض المكونات أو المساعدات الداخلة في صلب الطرح المقدم من جهة، أو يقع منه تزويد لبعض الفروض ظنا منه أنها تخدم الخطة، وفي كلتا الحالتين يجد نفسه مطالبا بذكر تعليلات أو تعليلات لذلك، تكون منسجمة مع الخطة العامة، هذا في حين أن ذكر تلك التعليلات «الأجنبية» يسبب في الغالب نسفا للنسق الحجاجي الذي تم طرحه في البداية. ومن المتكلمين من إذا أدرك هذا «التهديد» عمد إلى التحايل على بعض مكونات المقينين من ذوي الأسانيد الموفية والخبرات المتواضعة، لكنها بالنسبة لغيرهم من المتمرسين أجراء وأوه.

ويحذر «بيرلمان» في هذا الإطار من خطاي الإفراط والتفريط، أو المبالغة والإهمال، فيما يتملق بالمسائل موضع النقاش والتعليل. أي أن على المتكلم تقديم تصوره في المساحة الملائمة له، ثم منحه القدر المناسب من الحجج التي لا يشكل إيرادها لدعم الموضوع مفارقة أو نشازا. لان تهويل الموضوع ومنحه مساحة أكبر من حجمه، ثم التوسل بعد ذلك بجل الأطر المعرفية السائدة في بيئة معينة من أجل دعمه وإثباته هو أمر باعث على السخرية ومؤد لتهافت الحجاج. وبالقابل فإن عرض الفرضيات والتحليلات في الهامش، أو في الظل وعدم الانتباه إلى أهميتها في مقام الإلقاء، هو بدوره دليل على عدم خبرة المتكلم وتشوش أفكاره. وهي كلها أمور يدركها جل المعنين بالخطاب، كما تدركها بوجه أفضل الأطراف المعارضة للخطاب. بل قد تعمد هذه الأطراف إلى التقاط تلك الهفوات وتوظيفها وإثرائها بما ترى أن المقام يستدعيه. وغالبا ما تكتسب بصنيعها هذا مساحات إضافية على حساب الأطراف المنافسة لها. ويتجلى هذا الجدل أساسا في كل من الخطابة والكتابة السياسيتين واليات بناء الحجاج فيها.

لكن ثمة ملاحظات لابد من الإشارة إليها فيما يتعلق بتصور المدرسة البلجيكية للحجاج.

_ عالمالفکر _

فبيران وإن أقر مبدئيا بضرورة التمييز بين أنواع الخطابات اللازمة لكل مقام فإنه يرى أن العديد من الأخطاء التي وقعت فيها البلاغة الكلاسيكية - خصوصا في تصنيفها للمضامين والأجناس الخطابية - كانت نابعة من تصور خاطيء للحجاج وأثاره، إذ تم اعتباره الية جاهزة وتصورا جزئيا يتم السعمي إليه من أجل دقسره المعنيين على تبني أراء معينة، دون أن تؤخذ في عين الاعتبار رؤاهم المستقبلية وتوجهاتهم الراهنة، وكذلك المتغيرات الداخلية (النفسية، الاجتماعية، الايديولوجية) التي تحكم نسقهم الاعتقادي وتحركاتهم الفعلية.

فليس المهم أن يبرز المتكلم أن فرضية ما هي التي يجب التحرك في ضوئها، ولكن المهم أن يتلازم الاقتناع مع الفعل، بمعنى أن تكون الفرضيات القدمة من الفاعلية بحيث تخترق الأنساق الداخلية للمعنين. وهذا ما قصده عندما قال: «إن القرار الماخوذ تجاه أمر ما يقع في مرحلة وسط بين الاستعداد للفعل والفعل ذاته، بين التأمل الخالص والتصرف الحاسم». (13) وبالتالي فإن قوة الفعل المذجز وأهميته لا تقاسان بمدى تماسك البناء الحجاجي، ولكنهما بالأجرى تقاسان بمدى جسامة الصعوبات التي تقف عقبة في سبيل إنجاز هذا الحدث، ومايتطلبه ذلك من تضحيات من جهة، ثم الخيارات والأفاق المستقبلية التي يفتحها أو يتيحها هذا الفعل بعد إنجازه من حهة ثانية.

لذلك فقد اعتبر أن «الحجاج» هو النسق القولي الذي ينوب عن «القوة المادية» في تحقيق النتائج الملموسة tengibles التي كان رفض المعنين لها سيضبطر أصبحاب «اللغة» أو القيمين على الوضم إلى اللحوء إلى القوة من أجل الإرغام على إنجازها.

من هنا كان الحجاج عنده مطابقا للبلاغة في أدق معانيها، في حين أفرد الجدل بحكم اهتمامه بالقضايا التجريدية التأملية الفكرية.

«الحجاج إذن مظهر من مظاهر القوة الباطنية، إنه الحركة التي يسعى من خلالها دائما إلى تغيير أحوال الأمور التي كانت قائمة» (فق) ومادام هذا التغيير يتم في هدو، ورصانة واقتناع به من لدن المنجز له، فإن الحجاج بوصفه التجلي الأساسي للبلاغة أضحى خير آلية يتسلح بها المبدعون والسياسيون وأصحاب النوايا للعاصرون من أجل تبرير مواقفهم وتمرير خطاباتهم في عصر «السماوات المفتوحة»، حيث أصبح المعنيون - في الغالب- غائبين عن مسرح إلقاء الرسائل اللفجة إليهم، لكن درجات حضورهم تظل مختلفة: فمنهم من يتصور حضوره في الكتابة،

ومنهم يُتخيل عبر الشاشات ورسائل الإعلام بمختلف أنواعها. لذا كان تركيز أصحاب هذه المدرسة على البدرسة على البدرسة على البدرسة على اليات تحويل الغياب إلى «حضور» من أهم النقاط التي قدمها روادها، وتبرز أهمية هذه الفكرة أساسا في مجالي الادب والأسلوبية، حيث أصبح المطل معنيا بطرق استغلال المبدعين للفضاء والفراغ على السواء، وتأويل الشفرات والصور التي تجسد الحضور.

خامسا: دور المقام في توظيف عناصر الحجاج

حظي المقام باهتمام كبير في التصور البيرلماني باعتباره البؤرة التي تلتقي فيها جميع المناصر الحجاجية من مقدرات برهانية وحقائق فعلية وقرائن بلاغية وقيم بشتى اقسامها وعلاقة هذه القيم بمراتب الكائنات والأشخاص المعنين بخطاب ما وذلك بوصف هذه العناصر المذكورة أسسا حجاجية لابد من طرحها بصيغ مختلفة في «المقام» نظرا إلى أن المفاطبين يشتركون في الإقرار بأبرز معالمها ، وإن ظل ذلك الإقرار متباينا بحسب طبيعة الشخص وتكوينه.

بالتالي فعلى الخطباء والكتاب (بوصفهم متكلمين) الحذق في توظيف هذه الستويات بوصفها منقاط انطلاق للبرهنة، Points de depart de l'argumentation، فكون هذه النقاط مسلما بها في الغالب أمر قد يؤدى إلى إهمال المتكلمين لما قد تسببه هذه النقاط من تقويض للبناء الحجاجي عن طريق الوقوع في أخطاء التحريض أو التساخر.

فالمتكلم مثلا عندما يستخدم مقدماته العقلية في بداية طرحه فهو يسعى إلى بناء اول جسور التواصل المقنع بينه وبين مضاطبيه النين يرغب في انخراطهم معه في التسليم بتلك المقدمات -Pre التواصل المقنع بينه وبين مضاطبيه النين يرغب في انخراطهم معه في التسليم بتلك المقدمات في رفض misses المكن عدم المدنق في طرحها بما ينسجم مع الموضوع والمقام معاء قد يتسبب في رفض بوصفه ثابتا، المفاطبين لذلك الميثاق د... إما لانهم لا يسلمون بما عرضه لهم الخطيب (المتكلم) بوصفه ثابتا، وإما لانهم لا يرون إلا الطابع الأحادى البعد لاختيار المقدمات، وإما لانهم فوجؤوا بالطابع المفرض في عرض تلك المقدمات، (المتكلم التركيز على معايير الاولوية فيما يتعلق المداث المغرف في عرض تلك المقامل والموضوع معا. ويدخل في هذه المقدمات ما يرد ذكره من حقائق فعلية واحداث معينة لا يشك المفاطبون في ثبوتيتها الرجعية. لكن ذكرها في الخطاب أو النص لابد أن يكون له طبع حجاجي، ولن يكون كذلك إلا إذا أحدث ذكر تلك الحقائق صراعا جدليا مع أحداث أخرى كان المخاطب يتوقع ذكرها، لكن المتكلم رغب عنها، لأجل خلق إطار منطقي للحقائق التي اختارها،

وذلك لكي تصير فعلا هي الملائمة المقام. ولا تبخل هذه الخطوة في عيوب «التحريض والقسر» بل
تندرج في عناصر المفارقة والمفاجاة الطريفتين. ولأن «الحقائق معقدة ويدخل فيها عديد
الانساق» ((12) فإن من شأن ارتباطها بملمح من ملامح المفارقة الطريفة، أن يخلق إطارا تواصليا
إقناعيا لم يكن متوقعا، وهو ما سيمنح (توفره) للمتكلم (المبدعين) مضيا في مخططه الحجاجي،
فضلا عن أنه سيهيى وللخاطبين أكثر للانخراط في الطرح، انطلاقا من القرائن Presomptions
التي أطرت تلك «الحقائق» في «المقام» «فالقرائن تحتاج بخلاف الحقائق إلى أن تدخل في
الانساق التبريرية لأن ذلك يزيد من فعاليتها، ويرسم علاقتها بالمقامات الصادرة فيها وبالمواقف
المتوخاة من ورائها». ((13)

إن تعدد المواقف والاساليب والمناطبين يصاحبه تنوع اخر في مستويات القيم Valeurs بوصفها عناصر حجاجية جاهزة من جهة، ثم بوصفها موضع اتفاق وتسليم من جهة آخرى: إذ لاخلاف غالبا حول مضمونها ومكانتها، ووالتالي «فللقيم» بمختلف اتواعها دور فعال في بناء الثقة بين المتحاورين والمبدعين والقراء، فهي إذن عنصر حجاجي اساسي في العلوم الإنسانية والاجتماعية (بخلاف المواضيع الامبيريقية، لأن براهينها تقوم على مبدأ التعليل ومن ثم الحتمية). أما القيم فتوظف في النظرية الحجاجية بوصفها «قواعد حجاجية» Arégies argumentatives «فنحن نستدعيها لكي نحمل المخاطب على القيام بافعال معينة بدل اخرى: كما أننا نستدعيها خصوصا من أجل تبرير تلك الأفعال بطريقة تجعل هذه الأفعال التي دعونا إليها مقبولة ومؤيدة من طرف الاخرين، (١١).

إن إقرار دور القيم في النظرية الحجاجية هو أول خطوة لنبذ فكرة «العنف والقسر والمصادرة» وميلاد ميثاق التواصل القائم على النقاش المثمر. ولنن كانت «الحقائق» التي يتم ذكرها في المقام الخطابي أو الكتابي تعد اساسا أوليا من أسس الإقناع وتعبيراً عن وجود فعلي أو متوقع فإن القيم هي الاخرى على اعتبار أنها من الأسس نفسها إلا أنها تعبر عن موقف تجاه الوجود والكانن على السواء.

«فبالقيم نستطيع تشكيل الحقيقة المطلوبة على الوجه الذي يريد المبدع (خطيبا أو كاتبا). هذا في الرقت الذي تظل فيه هذه القيم محافظة على نصاعتها بعد الاستخدام، مما يجعلها صالحة للاستعدال في مقامات أخرىء(١٠٠٠. ودور القيم ببرز في حسن توظيفها، حيث تأتي منسجمة مع

إطارها الثقافي من جهة، ومع المقام الإيداعي من جهة ثانية، هذا فضلا عن انها ينبغى أن تكون قيما شاملة أو مختزلة في طياتها لعديد القيم الأخرى من الجنس نفسه، لكن ذلك لا يعني أن الاستعانة بالقيم الأجنبية تصبيب الإيداع بالنشاز، بل بالعكس قد يسبب استخدام هذه القيم دفعا للمسار الحجاجي، شريطة أن يحسن المبدع استغلالها وترهينها وتهيئة المقام لها (وكذلك العكس،

وسواء كانت القيم مجردة أو وأقعية فإن دورها في الحجاج يرتبط بالطريقة التي ينظر بها المخطبون إليها، «لأن ما يميز مخاطبا عن الآخر ليس القيم التي يسلم بها بقدر ما يتميز بالطريقة التي يرتب بها تلك القيم ((٥)، فمراعاة الرتب أمر ضروري في أي بناء حجاجي، ولا تنبع تلك المراعاة إلا من تصور سليم من قبل المبدع لعلة الترتيب. كما لا يخفى ما لهذا الإمراك من دور، سواء عند أمتداح ذلك الترتيب أو نقده من أجل تقديم البديل. هذا ما لم تنتبه إليه البلاغة الكلاسيكية، وكذا جل الفلاسفة المحدثين الذين اهتموا بالجوانب المشتركة لهذه القيم التي يشترك فيها معظم المخاطبين، وأغفلوا ما تشمله من اختلافات وتباينات تؤثر على سياق المقامات التي قد تستعمل فيها.

وقد قادت هذه الفكرة صاحب «مبحث الحجاج» إلى تصور مهم في نظرية الحجاج يكمن في: عدم وجود منطق خاص للقيم، وأن استقلاليتها نسبية، (٢٠١)، تتغير بطبيعة المقام وبالمشاركين فيه.

هذا الدور الذي يلعبه المقام في تشكيل عناصر الحجاج وموقعه ومحتوياته جعل المدرسة البلجيكية توليه مكانة خاصة في التصور الذي قدمه روادها هنا.

فالمقام هو الذي يمنح الكلمة الملقاة والأخرى المكتوبة دورهما ومكانتهما بغض النظر عما تحملانه من شحنات دلالية اومعنوية قبلية. من هنا كان لزاما على المبدعين مراعاة شروط المقام والاهتمام بها، مهما كان هذا المقام مالوفا لديهم بصفة عامة، لأن الإقراط في ادعاء الآلفة مع مقام معين قد ميصرف عديد الخطباء والسامعين عما قد يكون فيها- المقامات- من أهمية بالغة وقيم حجاجية كبيرة، على كل من يروم إقناع الآخرين أن يقتبس منها عماد برهنته (٢٠).

ويقدم دبيرلمان، تصورين أساسيين للمقام: فهو تارة يعتبره الإطار الحدد للخطاب الستوعب لكل محتويات العملية الإبداعية، ولكل المشاركين فيها، وتارة ثانية يعتبره تلك المقدمات ذات النظام العام التي تساعد المبدعين في بناء الحجج وترتيب القيم.

___ عالمالفکر _

والمقام في هذا التصور الأخير تجريدي اساسه المجاز والتلميح، لذا يمكن اعتباره «قيمة بلاغية شكلية ذات وظائف اسلوبية مساهمة في خلق الانسجام التام بين الشكل والمحتوى»⁽¹⁰⁾. ومع أن لكل من التصورين دوره الحجاجي إلا أن (بيرلمان) يصر على ضرورة التحامهما، وعدم إمكانية دراسة أي منهما بمعزل عن الأخر.

وقد قاده هذا التصور إلى الإسهام في توضيح العلاقة الجدلية بين الشكل والمضمون من جهة، والعرض والتقديم من جهة أخرى مؤكدا أن سبب تدهور البلاغة القديمة كان التركيز على أنها لا تعدو كونها أسلويا للعرض الشكلي المحض بالتالي دعا إلى نيذ هذا التصور بإعطاء دور كبير للبلاغة في جميع ميادين الصياة بوصفها أخص علم يدرس جدلية الأشكال والمضامين. لكنه وإن ركز على تعاضد الشكل والمضمون، إلا أنه لم يهتم كما ينبغي، في تصوره للحجاج بالدور الإقناعي الذي يمكن أن يلعبه الاعتناء بالشكل، مع أن بعض النقاد اعتبر «المعنى شكلا وأنه لايمكن أن يدرك إلا باعتباره كذلك»(**). حيث إن للشكل كما هو معلوم دوره في جذب الانتباء ومنع المستقبل له شعورا معينا وإحساسا خاصا به، انطلاقا من بنانه وتقاسيمه وبهذا التصور يمكن أن نقول إن بيرلمان يرسم الحدود بين البلاغتين المنطقية والادبية.

لكنه مع ذلك يؤكد أن الأبنية اللغوية والأشكال لا يمكن أن تحلل بمعزل عن الأهداف الدلالية التي تحملها وتنشيها.

ولما كانت المقامات تتعدد بتعدد الظروف النجبة لقول معين فإن هذا الباحث وإن حدد معنيين الساسيين للمقام إلا انهما يختزلان داخلهما مقامات واماكن متعددة يصلح كل منها دعامة حجاجية في موقف معين، كما قد يتعاضد اثنان أو ثلاثة من هذه المقامات في سياق نوعي معين لايبراز فكرة خاصة بالمقام الشامل. فمثلا لدينا المقامات الكمية والأخرى النوعية والمقامات الخاصة بالتنظيم والترتيب، ومقامات الوجود (الكينونة) ومقامات الماهية ومقامات النوات إلى غير ذلك من المقامات المؤهرة للعملية الحجاجية برمتها.

إن المبدع (خطيبا أو كاتبا) مطالب اليوم- اكثر من ذي قبل- بحسن توظيف هذه المقامات، واحترام حدودها حرصا على سلامة المسار الحجاجي والمخطط الإقناعي. فمثلا في مقام تكون فيه القيم الواقعية (اللموسة) محور الدعوة واساس الخطاب لاينبغي الاستناد كليا إلى إمكانات المقام النوعية، وكذلك العكس. بمعنى أنه في الخطاب الذي محوره القيم المجردة لا ينبغي التركيز

في الخطة الحجاجية على معطيات المقام الكمي، بل لابد من مراعاة طبيعة الهيف واختبار الأساليب المجسدة له، بحيث يحمل كل من الشكل والمضمون معضا من عناصر الجماج، تلتثم جميعها في بؤرة الهدف المدعو إليه. فحسن استحضار القام، أو بعبارة أخرى، حسن استغلال إمكاناته يمنع المسار الحجاجي «قوة ذات تأثير دامغ»(٢٥)، إما عن طريق عرض الفكرة الهدف على سبيل الحصر أو الاستثناء أو الفرادة أو التعذر أو الأولوية.. إلخ. ذلك من الصور التي تكون فيها «الفكرة الهدف» مرجعة على ما سواها. لكن لا ينبغي أن ننسى أن هذا الرجعان المرجو إنما ينبع من حسن استغلال المبدع (غطيبا، أو كاتبا) للإمكانات المتاجة له- نصبة كانت هذه الإمكانات أو مقامية - في خدمة الفكرة المقدمة. ويلعب كل من القياس والاستنتاج دورا اساسيا في عوامل الترجيح. فالحجاج ليس كامنا في المقام محصورا فيه بحيث يختص به، ولكنه مولد منه وفيه، ثم إن الوضع الحجاجي الأساسي لتحديد المقام الذي علينا الاستعانة به وبإمكاناته هو وضع يضم مسائدين أساسيدين: أولاهما: الهدف الذي نروم الوصول إليه، أما ثانيتهما فهي عقبة البراهين التي قد تعوق إقامة حجتنا. وهما مسالتان في غاية الترابط، فلئن كان القصود من الهدف الذي ننشده إحداث فعل فإنه في الآن ذاته تطور لعديد القناعات والاعتقادات، كما أنه في الوقت نفسه أيضًا رفض لعديد البراهين التي تعارضه طرحًا. بالتالي فإن وعي الخطيب (وكذا الكاتب) بهذه الثنائية (النطور والرفض) «ضروري لتفجير أي برهنة ناجحة تعمل على الفعل والتغيير ١(٥٠).

وفي النهاية لا يمكننا إلا أن نقول إن «بيرلان»، وإن اهتم بأساليب الحجاج والإقناع، إلا أنه قدم تصورا مفصلا لدور المقام في الخطابات والنصوص المعاصرة على اختلاف أجناسها المعرفية وإساليبها في الأداء والتوصيل.

فنظريته تعتبر بالدرجة الأولى نظرية مقامية، تتلخص في ضرورة مراعاة جملة من العلاقات الصتمية بين للقام وللخاطبين والسامعين وأنواع القيم ومراتب الكينونة والثقافة والحضارة وأفاق انتظار للعنين، وتأثير نلك على فكر المتكلم (المبدع). وعلاقة نلك كله (بوصفه كائنا) بما ينبغي أن يكنن. وقد اشرنا في البدلية إلى الدور الذي إعطاه هذا الباحث للجوانب النفسية ولحسابات الاحتمال والتوقع ودورها مجتمعة في الدفع إلى الفعل.

لقد أضحت ثنائية البلاغة/ الصجاج عند «بيرلمان» عبارة عن نظرية عالة Savante شاملة

تختار الممارسين الأكفاء على غرار ماتختار النصوص الثرية قراءها المثاليين على حد تعبير أومبرتو إيكو (المشار إليه سابقاً).

ولئن ظل اهتمام هذه البلاغة العجاجية بالجوانب التداولية ضنيلا، إلا أنه «يكفي أن تشير إلى أن أبرز إنجازاتها تمثل في رد الاعتبار الفلسفي لكلمة بلاغة، ثم الإسهام في العودة إلى إثارة قضاياها الجوهرية من منظور أفاد من تطور معطيات المنطق الحديث، وشارف أفق علوم الاتصال الجديدة» (٩٥)

II - البلاغة البنيوية

إذا كان تيار البلاغة الحجاجية ينطلق من تاريخ البلاغة القديمة لإعادة قراته وعرضه من جديد فإن هذا التيار، الذي انبثق في بداية السبعينات متأثرا بالتطورات البنيوية في مجالي اللغة والقراءة، يعلن قطيعته التامة مع التقاليد البلاغية القديمة، ويقصي من دائرته النقدية كل اهتمام بالقراءة، يعلن قطيعته التامة مع التقاليد البلاغية القديمة، ويقصي من دائرته النقدية كل اهتمام بالتاريخ. لكنه بالقابل يهتم بالعلامة اللغوية باعتبارها الاساس اللغوي في كل عملية اتصال لغوي واهتمامهم بالعلامة يتركز على جانبين من تجلياتها: أولا المظهر الملفوظي Aspect Énoncif وفي مذا المظهر يتم تناول الوظائف الداخلية للخطاب التي تعمل على توالد دلالاته. وثانيا المظهر الملفوظي Enonciatif الدينة بالدلالة الملفوظ من هنا كان البحث الاساسي في هذه المدرسة ليس عن دلالات النص ولكن عن العاملة للملفوظ. من هنا كان البحث الاساسي في هذه المدرسة ليس عن دلالات النص ولكن عن الوحدات الصغرى في تناميها وتعالقها ودلالة بعضها على بعض حتى نصل إلى وحداتها الكبرى الضامة أضف إلى ذلك أن هذه المدرسة «تعمد أولا إلى وصف العمليات البلاغية في جملتها على اسس جديدة، باعتبارها تحولات أو انحرافات تتضمن تصورات عديدة وتميز بين مجموعتين السحدات ذاتها من التحول، والثانية نظل الوحدات كما هي، ولا يمس التحول سوى علاقاتها أله. (١٠).

العمليات الأولى الجوهرية تقوم على الاستغلال القوي للجوانب التركيبية كالحذف والإضافة والتعلق، وأيضا التوظيف المعين للقيم البلاغية (يتم ذلك على المستويين الإيداعي والنقدي، وإن كان ينبغى أن يكن الاهتمام به في الأخير بارزاً). أما العمليات العلائقية فهي قائمة على الروابط والأنساق السياقية، أي التناوب الذي يحصل على المسترى الأفقي «النظمي» «وبناء على ذلك نجد هؤلاء البلاغيين الجدد يقومون بتحليل مستويات التغير على محاور عدة، التغيير اللفظي والتركيبي والدلالي، مركزين على العلاقات القائمة ببنها».(١٠)

ولم يهتم هؤلاء البلاغيون كثيرا بعفهرم الحجاج، لأن تركيزهم كان منصبا على النصوص التي تكون فيها الوظيفة الادبية (الشعرية) مهيمنة. وبالتالي فهي نصوص، وإن كانت لها خططها الإقناعية الخاصة المنبئةة من فنية التكوين، إلا أنها تتباين والنصوص السياسية ذات الطابع النقعي البارز والمقاصد الإقناعية المهيمنة. وتولي هذه البلاغة أهمية لا بأس بها لدور الشكل الخطي للمكتوب وأيضا لصورته النطقية، وذلك فيما يتصل بالصورة التي يكونها المتلقي عنه (أي المكتوب) وهم يسمون هذا الجانب بـ «ما تحت اللغوي»، أما الجانب الثاني فيسمونه «المستوى الأولي» «وهو المتعلق بالحروف ومجموعاتها التي تشكل عناصر صرفية للعلامات، أو تشكل مقاطع تقوم بدورها في تكوين الكلمات والمستوى الثالث هو «المستوى المركب» وهو الخاص ماتعت بالتراكيب والمنتاليات المتماسكة التي تكون بدورها جملا وفقرات تامة».(١١)

وفي تحديدهم لهذه المستورات يتبنون منظوراً نحوياً، لأنه في نظرهم هو الذي منه تنبثق جميع الخصائص، وتحته تندرج جميع المكونات النصية. إنه باختصار العنصر الاسلوبي المهين على غيره. لذا فلا غرو أن نجد عند بعضهم الحديث عن «نحو الشعرية وشعرية النحو» وذلك في معرض بحثهم عما يسمونه «علم الدلالة البنيري» La semantique structurelle فهذا العلم في نظرهم هو المحدد لدرجات النحوية ولمستويات الاستفادة ممايسمونه البلاغة المختزنة (أي اقسام البلاغة القديمة). وذلك في علاقتها (النحوية والبلاغية) بالدلالات النصية.

لكن يؤخذ على هذه المدرسة عدم اهتمامها بالقارى، (المتلقي)، وما يتصل به من أطر حجاجية وأخرى تواصلية تداولية. هذا إضافة إلى اختزالها للبلاغة في صور نحوية يسعى من خلالها في احسن الأحوال إلى الكشف عن بناء الجملة وتحديد وحداتها الكلية والجزئية (أي طبقاتها) وكذلك ايضا وظائفها. وهر ما يمكن أن نعبر عنه بالبحث عن: بناء اللغة والوظائف والأفعال- لا النحوية فقط ولكن أيضا الحنثية- ثم التتابع الخطي للكلام واخيرا نسق النص (أو نظامه).

لكن «.. لا يفوتنا أن نشير إلى أن كثيرا من ممثلي هذا الاتجاه قد خرجوا عليه واتهموه

بالقصور والنقص. والنموذج الواضح لنلك هو «جنيت» الذي أعلن نقده لهذا الاتجاه الحصري للبلاغة، حيث ظلت في تقديره تدور حول «العبارة» فحسب، أو بتعبير أدق حول بعض اشكالها التصويرية، مما كاد أن ينتهي بها إلى أن تنحصر في مجرد نظرية للاستعارة تقوم في صلبها على تحديد الانصرافات وطرائق تصويبها. وقد حدا هذا ببعض الباحثين الآخرين مثل (ريكور) إلى الحديث عن الخداع الذي ينطوي عليه تقديمها باعتبارها بلاغة عامة تدعي أنها تريد هز المبنى البلاغي بتكمله، في الوقت الذي لا يتجاوز فيه إنجازها الفعلي مجرد مراجعة قوائم الاشكال البلاغية التقليدية وملامسة مشكلات المعنى والمجاز دون حلول جذرية لها» (١٦٠٠). وهذا ما جعل العديد من روادها يبحثون عن حلول لتلك المشكلات داخل إطار ماسيسمي لاحقاء بالبلاغة. التداولية، التي تستلهم العديد من المنظورات الذرائعية وغيرها من نتائج مدارس ما بعد البنيوية.

III- البلاغة التداولية

انبثق هذا التيار اساسا من النقاشات التي دارت في مدارس ما بعد البنيوية. وقد احتفظ معه، من التيار السابق، بالشاغل التركيبية التجزيئية. لكن هذه الاهتمامات سنكتسي هنا صبغة سيميولوجية دلالية براغماتية مقامية: لأن علم العلامات سيفدو الإطار المنهجي العام للقراءات التي يقدمها المنتمون إلى تيار البلاغة التداولية. إذ لكل نص شفراته الضاصة المنتمية إلى طبيعته النوعية GENRE وهي التي يتوجه إليها اهتمام المؤول البلاغي، لأنها المحددة للادبيات الكبرى للجنس من جهة، ولاهم توجهات النص من جهة ثانية.

وفي ظل هذا التحول البلاغي لم يعد للشفرة المعنى الذي كان معهودا لها في الدراسات اللغوية الذرائعية، وإنما اكتسبت شحنة تواصلية فكرية. وهذا ما جعل «إيكر» يعرفها بانها «نظام من الإمكانات يتجاوز تكافؤ احتمال النظام في أصله ليسهل مجاله التواصلي أي أنه يستخدم عنصرا من نظام يوظفه ليرمز في مستوى آخر لدلالة غير التي كانت له في نظامه الأصلي. (⁽¹⁷⁾

وإذا كانت البلاغة في نظر بيريان تكاد ترادف الحجاج فإنها في هذا التيار اضحت مرادفة للتداول الاتصالي. إنها حسب تعبير ليتش «تداولية في صميمها. فهي ممارسة الاتصال بين للتكام والسامع بحيث يحلان إشكالية علاقتهما مستخدمين وسائل محددة للتأثير على بعضهما، ولذا فإن البلاغة والتداولية (البراجماية) تتففان في اعتمادهما على اللغة كاداة لمارسة الفعل على المتلقي على أساس أن النص اللغوي في جملته إنما هو «نص في موقف» مما يرتبط لا بالتعديلات التي يغرضها أشخاص المرسل والمتلقي وموقعهما على معناه فحسب، وإنما بالنظر إلى تلك المتعديلات التي تحدث في سلوكهما أيضاً، (¹⁷⁾. وعلى الرغم من تحديدهم الظاهري للنص/ الخطاب «بالموقف النفعي/ التداولي لهماء إلا أن لهما صبغتهما الفنية الأساسية المتمثلة: في الحوارية (تعدد الأصوات) الناتجة عن توظيف مستويات تناصية متعددة، الأمر الذي يجعلهما منفتجيز على ثقافات القراء التي ينتظر منها إعادة كتابتهما. لا لأنهما ناقصان- بالمعنى السلبي للمفهوم- وإنما لكونهما يوحيان باكثر مما يقولان، لذا تظل سمة اللااكتمال ملازمة لهما، وهي دليل على رحابة أفاق توقعهما.

بهذا المعنى سيكون الطرف الآخر في عملية الاتصال (القارى/السامع) مركز الثقل في هذه المدرسة البلاغية لأنه المعني بالمفوظ من جهة، والمثير لعملية الاستثراء التي ستحصل له هو وللنص أيضا من جهة ثانية، هذا علاوة على أنه الذي يناطبه إنجاز الأفعال الكلامية. بالتالي يكون البحث عن مظاهر الحوارية وخصائصها من أهم مشاغل هذه المدرسة. ولا نريد أن نفيض الآن في تحليل الحوارية، ولكن نكتفي بالإشارة إلى أنها تضم كل ما يتعلق بتوظيف «كلام الأخرين»: مهما كانت طبيعته (امرة-غير امرة...)، كما أنها تهتم بدراسة الانتماء المكاني، الزهاني، المذهبي، والثقافي للشفرات.

وهذه الصفات التناصية التعالقية وغيرها، تجعل الخطط الحجاجية في النصوص والخطابات مؤسسة على البنى المعمارية التي يتخذها توارد هذه «الأصوات/ المقولات» داخل المبدّعات المدروسة وتلك المؤلفة (من منظور البلاغة التداولية).

الأمر الذي يجعل بنية الحجاج عالمة avante لانفتاحها على حقول معرفية متعددة.

يضاف إلى ذلك أن هذه البنية سترتبط بالمقام بمفهومه الواسع الجديد الذي الأسبَتُه إياه البلاغة التداولية، وهم مفهوم ينظر إلى الظروف الاجتماعية والمذهبية والحضارية ومختلف السباقات الحافة بعطية التواصل (قراءة/كتابة - سماعا/رؤية).

وقد ادى هذا التطور الجديد لفهوم الحجاج إلى تغير في المنظومتين المفاهيمية والمنهجية للبلاغة التداولية، إذ أصبح علم النفس وعلم اجتماع المعرفة يحتلان مكانة بارزة في هذه المدرسة.

_ عالمالفكن

كما تغيرت مكانة (العلامة) signe ومضمونها، حيث انحسرت ليحل محلها (النص) بمفاهيمه الانفتاحية الاستقطابية.

من هنا لم يعد الحديث عن البلاغة التداولية مشروعا بوصفها جزءاً من السيميوطيقا النصية مهمته تحديد الاتصال واطراف، لأن هذه المدرسة قد انفتحت على النظريتين النصية والمقامية. وتجلى حضور النظرية المقامية في إسهامات اوستين وزملائه الذين اهتموا بطرق وآليات إنجاز الأشياء بالكلام، ضمن ما سموه ونظرية أفعال الكلام العامة».

أما حضور النظرية الأولى فقد تم على يد (فان دايك) الذي حول البلاغة إلى نظرية نصية توليدية تبحث في كيفيات تناسل النصوص (سواء بانفتاحها على غيرها أو بتأملها لذاكراتها الداخلية) وأساليب كشفها عن أبنتيها الكبرى والصغرى: حيث تمثل الأولى الأبنية التجريدية للمضامين الدلالية الكبرى، وبالتالي فهي ذات طابع دلالي شمولي. أما الأخيرة فهي الوحدات الجزئية المسؤولة عن تلاحم عناصر البنية الكلية للمبدع(نص/خطاب).

وترتبط بتصيد هاتين البنيتين عمليات سياقية وأخرى نحوية مهمة: يتم فيهما تعليل أدوات ودلالات ووظائف كلا من العناصر النحوية والبلاغية في النصوص المدروسة، وذلك بالتركيز على أدوات الاتساق والإحالة والاستبدال والحذف والوصل والاتساق المعجمي والترابط والانسجام، هذا إضافة إلى السياق وخصائصه، وما يتصل بذلك من كشف عن الاسائيد المعرفية الخلفية والمخططات الحجاجية ومظاهر الاستدلال وأساليب توظيف البلاغة (بفروعها التقليدية). وقد قدم الاستاذ محمد خطابي في «لسانيات النص» (١٠) بحثًا متميزاً حول هذه الآليات، لكن من منظور لساني صرف يتمحور حول «الانسجام»، ولايعير الجوانب البلاغية التداولية اهتماما كبيرا، وإن المع إلى بعض محاورها الاساسية لكن من منظور تركيبي.

كل هذه التطورات التي حصلت في البلاغة التداولية أثرت على مفهوم المقام وحدوده، الأمر الذي اسفر عن تغير مواز في مفهوم الحجاج وبنائه. وهو ما سيكون محور دراستنا القادمة.

الحجاج في البلاغة العربية المعاصرة

يبدو هذا العنوان مقارقا في صياغته (وهو كذلك) لأن الحديث عن (بلاغة عربية معاصرة) أمر لايزال طموجا. فعلى الرغم من تعدد المدارس اللغوية البلاغية الغربية التي أسفرت بحوثها عن نتائج متميزة، إلا اننا لم نستفد بعد القدر اللازم لإعادة قراءة موروثنا البلاغي العربي الثري. وباستثناء بعض الجهود التي يقوم بها بالخصوص كل من د. محمد مفتاح، د حسلاح فضل، د حمادي صمود، د جابر عصفور، د. لطفي عبد البديم، د. تمام حسان، د. سعد مصلوح... حيث يهتم كل منهم بجانب من جوانب بلاغتنا القديمة، فباستثناء هذه الدراسات لاتكاد نجد اهتماما ذا بال بهذا التراث.

إن السبب في عدم تبلور نظرية بلاغية عربية معاصرة كامن في أن العديد من الدراسات التي مورست في حِلقنا النقدية لم تراع في قراسها الشروط البلاغية العربية، وإنما عمدت إلى النظرية النقدية الغربية متخذة منها عدسة واحدة للنظر إلى مختلف جوانب النص، الأمر الذي اسفر عن تغييب للعديد من خصوصياتنا في إجراء اللغة وفي توظيف البلاغة.

وعلى الرغم من أن بلاغتنا القديمة تعرضت إلى انتقادات قوية نتيجة للمستوى الذي وصلت إليه عندما أضحت فنا للترشيع والإطراء والمبالغة، لتنزل بعد ذلك إلى المستويات المدرسية المتدنية، حيث تقدم في اسلوب نحوي تقعيدي، إلا أن مناهج القراءة المعاصرة كفيلة بأن تكشف عن الجوانب المشرقة من هذا التراث.

ففي مجال الحجاج نجد عند القدامى إشارات واضحة إلى شروط الكلام وسماته والمقامات التي ينبغي أن يرسل فيها أي خطاب. كما أنهم اعتنوا- نسبيا- بالمتلقي حيث تكلموا عن حضوره، وذلك في تناولهم للسمات الأسلوبية الخاصة بكل كلام.

هذا إضافة إلى اهتمامهم بآليات الإقناع وخصوصا الخارجية منها (المتعلقة بالأمور النفسية-والهيئة- والموقع-، والصدوت...).

وبالتالي فإننا عندما نستخلص هذه الأفكار من كتب (الجاحظ وابن طباطبا والحاتمي والمحاكي والجرجاني... وغيرهم)، ثم نتناولها أولا انطلاقا من الشروط الحضارية الشاملة التي انتجتها. وثانيا من منظور كل من التداولية (البرجمانية) والسيمياء التركيبية، مركزين على العلاقات الكائنة والمكنة-اليوم- بين عناصر العملية التواصلية (البنا- المستقبل-الرسالة- المقاقبة الشياق) فإننا لا محالة سنخرج بنتائج مبهرة تعيد لبلاغتنا دورها الاجتماعي والاببي الفني الريادي من جهة، وتؤكد من جهة ثانية على سبقنا المعرفي إلى بعض الإشارات التي تعد اليوم محور الدرسين اللساني والبلاغي الغربيين: ونلك مثل علاقة الشكل بالمضمون ومكانة كل من عناصر البيان والبديع والماني في النظرية النقدية الأدبية، وفي البحوث التأويلية ((الهيرمنيوطيقية)).

هذا إضافة إلى أن هذه الدراسات الجديدة- المنتظرة- مطالبة بالكشف عن تواشيج النظريتين البلاغية واللغوية، على اعتبار أن الأولى انبثقت من الأغيرة بعكس ما قد يظن البعض من أنها انبثقت من المداخل النقدية الأدبية «ولهذا السبب نجد قضايا البلاغة بفروعها المختلفة قضايا لغوية الطابع في مجملها، فلاتقترب من الطابع النقدي إلا في مواضع محددة ((١٦)، وسبب ذلك يرجع (سابقا) إلى المناخ السياسي الذهبي الذي كانت تعرفه المنطقة.

أما التحول (المعاصر) فيرجم إلى أسباب معرفية منهجية جعلت الحدود بين النظريات البلاغية والنقدية واللغوية متماهية وبقيقة إلى ابعد الحدود.

وقد أبان هذا التداخل عن خصوبة النظرية البلاغية «لأنه إذا كانت خراص العلم المضبوط تتمثّل في الموضوعية والشمول والتماسك والاقتصاد، فإن كل ذلك متوفر في البلاغة»^(٧٧).

لكن الكشف عن كل ذلك يتطلب معرفة معمقة بجل الخطابات التراثية المؤسسة والأخرى الحافة بالبلاغة العربية، كما يستوجب دراية بالنظريات النقدية اللغوية البلاغية الماصرة، ثم قراشها في ضوء شروطنا الحضارية المعاصرة- على غرار ما قرأ اسلافنا التراث اليوناني- وهي مهمة جليلة ملقاة على عاتق اقلامنا البارزة، ونرجو أن يسمح لنا الوقت بالإسهام في هذه الحركة ولو بجزء يسير.

إلى هنا نكون قد ألمنا إلى أهم مظاهر الحجاج عند المدرسة البلجيكية (الحجاجية). وقد رأينا إلى أي مدى كانت جهود «بيرلمان» رائدة في الكشف عن الجوانب المشرقة من البلاغة الغربية، الأمر الذي نفى عن هذا الجانب المعرفى اللغوى تلك السمعة السيئة التي لحقت به عقودا طويلة.

وقد تم نلك بفضل مراعاة الجمع بين الجوانب التاريخية والاجتماعية والتأويلية في الدرس البلاغي للماصر الذي كان اهتمامه في هذه المدرسة منصبا على مجالات الإقناع والبرهنة والتأثير. وهي الاهتمامات التي رات المدارس اللاحقة (خاصة البنيوية والتداولية) أن حصر البلاغة فيها سيؤدى بهذا المدرس إلى نوع من الاستهلاك الذاتي لمقولاته ومنهجه، وبالتالي فإن خير منهج لتفادي نلك هو فتح البلاغة على العلوم المعرفية المعاصرة خاصة علوم الاتصال (المرئية المسعوعة...)

ثم الاهتمام اكثر بالمتلقي، وبالجوانب النفسية والمعرفية: الفلسفي منها والاجتماعي، لأن طبيعة التداخل المعرفي أضحت ملحة.

الهوامش

- (١) خ م ب إيفانكوس نظرية اللغة الأدبية. ترجمة حامد أبو حمد. مكتبة غريب(د ت)، ص ٢٠-٢١،
- (٢) رولان بارت قراءة جديدة للبلاغة القديمة. توجمة عمر اوكان- دار إفريقيا الشرق- المغرب، ص٦
 - (٣) للرجم نفسه، ص٨
 - (٤) د صداً ح فضل. بالاغة الخطاب وعلم النص سلسلة عالم المعرفة عدد ١٦٤٤، ص١٢٢٠. (٥) قرأة جديدة للبلاغة القديمة· (مرجم سابق)، ص١١
 - (١) نظرية اللغة الأدبية (مرجع سابق)، ص١٧١-١٧٧
- PERELMAN: Traite de L'argumentation. 4ew Édition 1983Édition de l'université de bruxelles. (V)
- (٨) أوستيني. نظرية أفعال الكلام العامة (كيف ننجز الأشياء بالكلام) ترجمة عبد القادر قينيني دار إفريقيا الشرق (٩) المرجم نفسه، ص٧
 - (١٠) يسميها الدكتور صلاح فضل (بلاغة البرهان) راجع بلاغة النطاب وعلم النص، ص ٧٤ مرجع سابق)
 - (١١) عن الدين الخطابي- إدريس كثير/بلاغة السؤال- مجلة علامات في النقد يونيه ١٩٩٨، ص٣٥٤.
- (۱۲)المبدر نفسه دے ۳۵۵ (١٢) أوليفين روبول هل يمكن أن يوجد حجاج غير بالذغي ترجمة محمد العمري- مجلة علامات في النقد- بيسمبر ١٩٩٦، ص٧٧
 - (١٤) الرجع نفسه
 - Transe de L'argumentation (op.cit), p.11. (10)
- (١٦) أمبرتوإيكر القارى، في الحكاية (التعاضد التاويلي في النصوص الحكاتية). ترجمة انطوان أبوزيد المركز الثقافي العربي: للفريد طا- ١٩٩٧، ص٧٢،٦٧
 - Traite de L'argumentation (op.cit), p. I. (NV)
 - (١٨) نظرية افعال الكلام العامة- اوستين ترجمة عبد القادر قنيني- طا إفريقيا الشرق ١٩٩١- المغرب (مرجع سابق)
 - (١٩) السكاكي مفتاح العلوم، ضبط نعيم زرزور، ص ١٦٣ Traite de L'argumentation (op.cit), p.9. (Y.)
 - (٢١) الطاهر لبيب: سوسيولوجيا الثقافة- معهد البحوث والدراسات العربية- القاهرة- ط١٩٧٨/١. ص٥٦
 - (٢٢) محمد العمرى المقام الخطابي والمقام الشعري- مجلة دراسات سميائية- المغرب/ شتاء ١٩٩١- الدار البيضاء
 - (٢٢) الجاحظ البيان والتبين، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت- ج١، ص١٣٦،
 - Traite de L'argumentation (op cit), p.18. (%)
 - Ibid, p.25.(Ye) Ibid, p.27. (Y1)
 - Ibid, p 45. (YV)
 - (٢٨) باختين. الخطاب الروائي. ترجمة محمد برادة- دار الفكر- القاهرة ط١- ١٩٨٧ ، ص٥٥
 - (٢٩) تودوروف باختين البدأ الحواري ترجمة فخرى صالح- الهيئة الصرية العامة لقصور الثقافة- مصر- يوبيو ١٩٩٦، ص٦٠-١٧
 - (٣٠) بلاغة السؤال وسؤال البلاغة. (مرجع سابق) ص ٢٥٦.
 - Traite de L'argumentation (op cit), p.29-30. (Y1)
- (٣٧) تختلف وظيفة هذه الفكرة الحجاجية في السرد عن تظيرتها في البلاغة الإقناعية. فإذا كانت هذه الأخيرة تلزم المتكلم بالوضوح والدقة وعدم الاستهانة بالمخاطب سعيا إلى إنجاز خطاب بالاغي يلائم المقام والفعل المرحوء فإن بلاغة السرد وطرافته تقومان طبعا على احترام القاري، يتقديم مادة ثرية له ولكن جزءا كبيراً من نجاح الخطوات السردية قائم على التحايل على القاري، الذي يسقط متلذذا في تلك الحيل عندما يدرك أن الكاتب يهيمن على أنساقه الفكرية، وينجح في استباق ردود أفعاله. (وقد وضح هذه الفكرة روبوت في كتابه السيمياء والتأويل ترجمة سعيد الغانمي- المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت- ط١ - ١٩٩٩، ص١١٢-
 - (۲۲) على يمكن أن يوجد حجاج غير بالأغى (مرجع سابق)، ص٧٠٠.
 - (٣٤) علامات · (مرجع سابق)
 - (٣٥) للرجع نفسه، ص ٧٩
 - (٢٦) الشفاهية والكتابية والتر أونج ترجمة د حسن البنا عزالدين- سلسلة عالم الموفة عبد ١٨٢، ص١٦٠.
 - (٣٧) الرجع نفسه، ص ٦٥.
- (٨٨) الصيفة يعرفها «باري، «بانها مجموعة من الكلمات مستخدمة بانتظام تحت الشروط الرزنية نفسها لتعبر عن فكرة جوهرية

___ عالمالفک

بعينها - راجم المرجم السابق.

(٢٩) راجع توضيحا لهؤلاء القراء وغيرهم في بعث قمنا به سنة ١٩٩٧ بمعهد الدراسات والبحوث العربية في القاهرة للحصول على شهادة الدراسات المعقمة في النقد وهو تدَّمت عنوان. مفهوم القراحة في النقد المعاصير (راجم الهامش رقم ٩٤ من الفصل الأولى)

Traite de l'argumentation: (op.cit), p.32. (£-)

Ibid, p 46-47. (£1)

Ibid, p.54. (£Y)

Ibid, p 54. (ET)

Ibid, p.64. (££)

Ibid, p.72. (£0) Ibid, p.89. (£7)

Ibid, p.92. (£Y) Ibid, p.93/94. (£A)

Ibid. p.99 (14)

Ibid, p.102. (0.)

Foid, p.108. (01)

Ibid, p.110/& L'empire rehetorique: librairie philosphique. J.Vrin Paris 1977, p.9 (0Y)

Perlman: Traité de l'argumentation, p.112. (97)

Ibid, p.112-113 (08)

(٥٥) سعيد بنكراد النص السردي تحو سيميائيات للايديولوجيا- دار الأمان- الرياط- ط١-١٩٩٦، هر٥٠

Ibid, p.121-122. (0%)

Ibid, p.128-129. (oV)

(٥٨) بلاغة الخطاب وعلم النص (مرجم سابق)، ص٨٢

(٩٩) الرجع نفسه، ص ٨٢

(٦٠) الرجم تقسه، ص٤٨

(٦١) للرجع نفسه، ص٨٤-٨٥

(٦٢) الرجع نفسه، ص٩٧

(٦٣) المرجع نفسه، ص٣٤٣

(٦٤) الرجم نفسه، ص٨١

(٦٥) محمد خطابي. لسانيات النص. مدخل إلى انسجام الخطاب المركز الثقافي العربي- المغرب- ط١٩٩١-١

(٦٦) تمام حسان- المصطلح البلاغي القديم في ضوء البلاغة المديثة- مجلة فصول - سبتمبر ١٩٨٧، ص٦٠٠.

(٦٧) تمام هسان- الأصول. دراسة ابيستيمولوجية للفكر اللفوى عند العرب- القاهرة- ١٩٨٨ ، ص ٢١٦-٣١٦

المراجع

- (١) أوستين نطرية أفعال الكلام العامة (كيف ننجر الأشياء بالكلام) ترحمة عبد القادر قنيني ط١ ١٩٩١ -افريقيا الشرق- المعرب
 - (٢) أوابغين روبول هل يمكن أن يوحد حجاج غير بالاعي ترجمة محمد العمري- مجلة علامات في النقد ، عدد ديسمبر ١٩٦٦
- (٣) أمررتوايكن القارىء هي الحكاية (التعاضد التأويلي في النصوهم الحكاثية) ترجمة انطوان ابو زيد المركز الثقافي العربي-المغرب ط ١٩٧١-١
 - (٤) إيفا نكوس (خ م ب) نظرية اللغة الأدبية ترجمة عامد أبوحمد مكتبة غريب القاهرة (د ت.)
 - (٥) تمام حسان الأصول دراسة ابيستيمولوجية للفكر اللغري عند العرب -القاهرة-١٩٨٨.
 - (1) تمام حسان المساطلح الدلاعي القديم في ضوء البلاغة الجديثة- مجلة فصول عدد سبتمبر ١٩٩٧
 - (ة) تمام حسنان الصنطلح النازعي القديم في ضوء البلاغة الجديبة- مجلة قصول عبد سبتعبر ١٩٦٧
 - (٧) تودوروف ميخائيل باحتين المبدأ الحواري ترجمة فخري صالح- الهيئة العامة لقصور الثقافة- القاهرة- يوبيو ١٩٩٦
 - (A) الجاحظ البيان والتبيين تحقيق عبد السلام هارون- دار الفكر بيروت
 - (٩) رويرت شولز السيمياء والتأويل ترجمة سعيد الغانمي- المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت ط١٩٩٤-
 - (١٠) رولان بارت قراءة جديدة للسلاغة القديمة ترجمة عمر اوكان- دار افريقيا للشرق- المغرب ط١- ١٩٩٤
 - (١١) سعيد بنكراد النص السردي نحو سيعيانيات للايديولوچيا دار الأمان- الرياط- ١٩٩٦-١
 - (١٣) السكاكي مفتاح العلوم ضبط نعيم زرزور– دار الكتب– بيروت
 - (١٢) صلاح فضل بلاغة الخطاب رعام النصر-سلسلة عالم المعرفة- الكويت عدد ١٦٤
 (١٤) الطاهر لييب سوسيولوجيا الثقافة- معهد البحرث والدراسات العربية- القاهرة- ط١٩٧٨-١٩٧٨
 - (١٥) عر الدين الخطابي- ادريس كثير بالاعة السؤال وسؤال البلاغة- محلة علامات في النقد- نادي حدة- عدد يوبيه ١٩٩٨
 - (۱۰۰) عز الدين الحصابي- ادريس خدير الدعه الصوال وسوال البدعة محله علامات في القد- الذي هذه- عدد يوليه ۱۰۰
 - (١٦) محمد خطابي لسانيات النص منخل إلى انسحام الخطاب المركز الثقافي العربي المغرب طا-١٩٩١
 تمام حسان الصطلح البلاغي القديم في ضوء البلاغة المديثة مجلة فصول سبتمبر-١٩٩٧
- (٧٧) محمد سالم ولد معمد الأميّ معهوم القراءة من البقد للعاصر معهد البحوث والقراسات العربية- القاهرة- (محد مقدم لنهل دبلوم المهد) ١٩٩٧
 - (١٨) محمد العمري المقام الخطامي والمقام الشعري- مجلة دراسات سيميائية- عدد شتاء١٩٩١- الدار البيضاء- المعرب
 - (١٩) ميخائيل باختين- الخطاب الروائي ترجعة محمد برادة- دار الفكر للنشر طا- ١٩٨١- القاهرة.
 - (٢٠) والتر أونج الشفاهية والكتابية ترجمة حسن البنا عز الدين- سلسلة عالم المعرفة الكويت عدد ١٨٢
 - CH PERELMAN. & L.O. TYLECA: (Y1)
 - TRAITE DE L'ARGUMENTATION.
 - 4em EDITION 1983.
 - EDITION DE LUNIVERSITE DE BRUXELLES
 - PERELMAN: L'EMPIRE RHÉTORIQUE J VRIN 1977. (***)

المصطلح الأدبي: بين غناه بالمعرفة وغناه بالتاريخ

بعض مصطلحات الشعر العربي لدى القدامي - نموذجاً

ه/صالح فرم الله زيَّاد*

أولاً: مقدمة

المصطلح بين المعرفة والتاريخ:

١- المعنى اللغوي لـ«مصطلح»

نفهم من حديث معاجم اللغة عن الجنر دص ل ح، الذي ترجع إليه لفظة دمصطلح، صرفياً، ما يدل على صلاح الشيء وصلوحه، بمعنى انه مناسب ونافع. ففي المعجم الوسيط: دصلَحَ الشيء كان نافعاً أو مناسباً، يقال: هذا الشيء يصلح لك، (``)، كما نفهم ما يدل على المسالمة والاتفاق، إذ يرد في لسان العرب أن دالصلُح: تصالُح القوم بينهم، والصلُّح: السَّلَم، وقد اصطلحوا وصالحوا واصلاحوا، مشددة الصاد، قلبوا التاء صاداً وانعموها في الصاد بمعنى واحد» ") إي اتفقوا وتوافقوا ... و«الاصطلاح» في وانعموها في الصاد بمعنى واحد» أي اتفقوا وتوافقوا ... و«الاصطلاح» في العجم الوسيط «اتفاق طائفة على شيء مخصوص، ولكل علم اصطلاحاتُه، (``).

^{*} أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية- جامعة الملك خالد- المملكة العربية السعودية - أبها

_ عالمالفکر ____

٢- من الاختلاف إلى الاتفاق

و(الاتفاق) الذي نفهمه، لغريّاً، من مدلول «المصطلح» يُفضى بنا إلى التفكير في جوانب من حركة المصطلح وانفعاله وفعله.

فالاتفاق حول دلالة ما يقتضي أن يسبقه اختلاف، وهذا الاختلاف هو الذي يبرر وعينا بالاتفاق الحادث، ويشعرنا به فاتفاقنا على أمر يتضمن زوال التخالف والتعارض في سياق من الصيرورة والتحول. على أن هذا الاتفاق لا يغدو نهائياً، وإلا توقفت حركة الحدوث والتحول الصيرورة والتحول. على أن هذا الاتفاق لا يغدو نهائياً، وإلا توقفت حركة الحدوث والتحول اللازمة للوعي بالمصطلحات في حركة العلوم والمعارف والانشطة الإنسانية، ومن ثمّ لا نجد مصطلحاً إنسانياً كاملاً، ذلك حما يقول عبد الله الغذامي - إن. «كل مصطلح هو بالضرورة مشروع مفتوم، يتغير مع كل تحول يمر عليه من فرد إلى فرد، ومن زمن إلى زمن، ومن لفة إلى لغة، (أ). والتغير هنا يعني تغيراً معرفياً واجتماعياً ونفسياً وقيمياً يقتضي الاصطلاح من جديد على مدلوله الحادث، لأن «الناس جميعاً يتساوون في فهم معاني الأشياء، ولكنهم لايتساوون في فهم معاني الأشياء، ولكنهم لايتساوون في طهم معاني مالها من اسماء (أ) أي أن المنظومة الاصطلاحية ذات ترابط وتعالق في الدلالة على حقلها المعرفي، أو على مؤلفها أو عصرها أو مكانها، وهو التعالق الذي يجعل تحليلها منفذاً للكشف عن المفاهيم والرؤى والطروحات المختلفة، وقُدرها، وتميزها.

ولهذا لا تغدو المصطلحات سبيلاً ميسوراً لكل احد في فهم مقتضياتها الدلالية، كما إن هذه المقتضيات الدلالية في انتسابها إلى سياق مخصوص قد افضت من الوجهة المعجمية إلى البصر بمرجعيات سياقها ذاك. فهم، لدى مجدي وهبه وكامل المهندس: «مجموع الكلمات والعبارات الحاصلة بفرع من فروع المعرفة أو بفن ما، أو الكلمات والعبارات الخاصة بعالم معين في بسطه وعرضه لنظرية من النظريات الفنية أو الادبية أو العلمية، كان تقول مصطلحات الغزالي في التصوف كالمريد والقطب والإشراق، ((). كما أنها «الفائل خاصة» عند جبور عبد النور «الكل علم من العلوم أو فن من الفنون، أو حرفة من الحرف... تدل على أمور معينة، يطلق على مجموعها اسم مصطلح الفلسية ... إلخ، (لا).

فالاتفاق على مدلول المسطلح يحمل في الآن ذاته اختلافاً على المستوى الأفقي، هو اختلاف مصطلحات الحقل المعرفي عن مصطلحات غيره من الحقول المعرفية، واختلاف مصطلحات هذا الاتجاه عن اتجاه آخر، أو هذا العالم عن آخرين في الحقل الموفي ذاته، كما يأتي الاختلاف على المستوى الرأسي وفي الحقل المعرفي ذاته بين القديم والحديث فتُسنَك مصطلحات جديدة أو تُخصيص القديمة بالقصد إلى مدلول مغاير أو بنسية المدلول إلى اسم مغاير... بما يجلي عن أصالة الأطروحات الفكرية وتميزها.

٢- المصطلح وسمات العلمية المنهجية

ويقودينا ذلك إلى مسالة الوضوح في معنى «المصطلح»، وهو صفة متاتية من «الاتفاق» فالمعنى المتفق على فهمه هو معنى واضح بالضرورة لدى أولئك المتفقين عليه. والمقصود بالوضوح هنا الخلوص من اللبس والاختلاط، ومن ثمّ كانت المصطلحات سمة علمية في حقول المعرفة المختلفة، للختلفة، لانها من خلال صفة الوضوح والدقة تغضى إلى التحديد لدلولها، وهو التحديد الذي تتم من خلاله عملية الاتصال اللغوي لتنتقل المعلومة والمعرفة والرأي بين المتعاطين للغة دون عوائق. وعلى هذا كان المعنى الاصطلاحي للفظ «مصطلح» عند جبور عبد النور اكثر تأكيداً على فعله التواصلي والمفاهيمي الذي تضطلح به اللغة في خطابها العلمي الدقيق، فهو- كما يقول - «لفظ موضوعي والمفاهيمي الذي تضطح به اللغة في خطابها العلمي الدقيق، فهو- كما يقول - «لفظ موضوعي يؤدي معنى معيناً بوضوح ونقة بحيث لا يقع أي نبس في ذهن القارى» أو السامع» ويضيف: «وتشيع المصطلحات ضرورة في العلوم الصحيحة، والفلسفة، والدين، والحقوق حيث تُحدد مدلول اللفظة بعناية قصوى، (^^)

هذا التحديد الدقيق للمعنى في المصطلح بعني انحسار سلطة الذات عليه، وبروز استقلاليته
بين الموضوع والذات، بما يجعله شفيفاً عن مدلوله ومطابقاً لموضوعه، كاصطلاح «المثلث» و«الخط
المستقيم» و «انواع الزوايا»... إلغ، في عرف الهندسة والمساحة، حيث يتخذ المصطلح، هنا، صفة
موضوعية، هي نتاج منظور منهجي «ابستمولوجي Epistemological». تتحقق به علمية العلم،
ومن غير المقبول في العلم- كما يقول فؤاد زكريا- «ان تترك عبارة واحدة دون تحديد دقيق، أو
تستخدم قضية يشويها الغموض أو الالتباس» (٩).

بيد أن هذه العلمية في أعمق وأنق صفاتها الحديثة لا تتسم بالإطلاق بقدر ما تتسم بـ(النسبية) فالحقيقة العلمية- بعبارة الدكتور فؤاد زكريا- «لا تكف عن التطور، ومهما بدا في أي

[«] الإستمولوجيا مي النظرية التبطقة بعنهج العرفة والأساس الذي تثينى عليه (انظر: Gegish) وتتضمن دراسة مبادى، العلوم وفرضياتها ونتائجها دراسة انتقائية توصل إلى إبراز أصلها النطقي، وقيينها النوشية، وقيينها النوشجية، ويقينها النوشجية، ويقينها النوشجية، ويقينها النوشجية، ويتنافرنسية، حيث يراف في الأولى (نظرية المعرفة) في حين يقلب إطلاقه في الثانية على تاريخ العلوم وفلسفتها (انظر المجم اللسفي، ١٧/٧). وشيم استعماله عربيا، في الدلالة على الصدقة النوجية ليؤرقة معرفياً

وقت أن العلم قد وصل في موضوع معين إلى رأي نهائي مستقر، فإن التطور سرعان ما يتجاوز هذا الرأي، ويستعيض عنه برأي جديد (۱۰٪).

كما أنها لا تتصف بالثبات، بل برالتغير)، ومن الخطأ الفاحش كما يضيف الدكتور زكريا أن «تفترض.. أن العلم الكامل لابد أن يكون ثابتاً، مع أن ثبات العلم في أي لحظة، واعتقاده أنه وصل إلى حد الاكتمال، لا يعني إلاّ نهايته وموته، ومن ثَمّ قان الثبات في هذا المجال هو الذي ينبغي أن يعد علامة نقص. إن العلم حركة دائبة، واستمرار حيويته إنّما هو مظهر من مظاهر حيوية الإنسان الذي أبدعه، ولن يتوقف هذا العلم إلا إذا توقفت حياة مبدعه ذاته،(١١)

الصطلح- إذن- غني بالعرفة المنهجية لأنه جزء أساس من الية الخطاب العلمي، وعلميته هذه متأتية من موضوعيته التي تُحيّد فعل الدلالة والصياغة فيه إلى درجة الشفافية والمطابقة، وهي أعلى مستويات الكفاءة التواصلية في فعل اللغة.

بيد أن هذه السعة العلمية في المصطلحات لا تنفك عن تجريدية العلم من جههة، مثلما أنها لا ننفك عن نسبيته وتغيره الستمر. فالتجريد في وصف فؤاد زكريا – صفة ملازمة للعلم، ومن ثمّ لا تنفك عن نسبيته وتغيره الستمر، فالتجريد في وصف فؤاد زكريا – صفة ملازمة للعلم، ومن ثمّ لا تحيل مصطلحات العلوم المختلفة إلى الواقع الحي بقدر ما تحيل إلى صور متخلية تستجيب للائلة تلك المصطلحات والرموز، ويضرب الدكتور مثلاً على ذلك بحديث عالم الجغرافيا عن خط الاستواء، أو خط جريئتش، فعالم الجغرافيا هنا «لايقصد خطاً عرضياً أو طولياً مرسوماً على صفحة الكرة الارضية، بل يقصد خطأً تخيلياً نرمز به إلى الأماكن والمواقع على سطح هذه الأرض وهذه الخطوط ومعها مختلف الرموز التي نستخدمها في العلم، هي عالم مصطنع يخلقه العالم، ولا وجود له في الطبيعة، بل إن وجوده ذهني فحسب (٢٠٠٠). فالاصطلاح على دلالة (خط الاستواء) و (خط جريئتش) هو اتفاق على صورة مجردة تقوم في الانهان.

وإذا كان التجريد في العلم المعاصر صفة متأتية من إرادة الدقة القصوى على النحو الذي يُمكن أن نجد أقوى أمثلته في صيغ الرياضيات، فإن دقة المصطلحات تغضي بها إلى كثافة في الدلالة يغدو المصطلح اختصاراً لها ورمزاً اسمتها، ومن ثمّ يجىء القول بأن «المصطلح يتخذ للتمبير بلفظ واحد في الأعم، عن معنى أو فكرة لا تستوعبها في العادة لفظة واحدة، ولهذا أطلقت عليه هذه التسمية، أي أنه يُصنطُلح به على تأنية للعنى المقصود، (١٣٠٠).

وقد استدعى هذا الاكتناز الدلالي في المصطلح، من حيث هو وسيلة المتعاطين لخطاب العلم

إلى سهولة تبادل الأفكار وبقة التحديد لها، منذ القديم- ألية (الحد Definition) بوصفها .
«تعريف كامل، أو تحليل تام، لمفهوم اللفظ المراد تعريف» (¹¹⁾. وهذه الآلية هي الخطوة النظرية
الأولى التي يتأسّس بها العلم على النحو الذي يميز مادته، وينشىء قوانينه المنهجية، التي
تصف وتكشف وتُغْهَم وتُغْهِم، ويذلك تُحَقِّق لمادة العلم ما تحصل به صورتها في العقل وإدراكها
على ما هي عليه.

٣- الواقع (المحسوس) والواقع (المعقول) في دلالة المصطلح

ولكن السنزال المهم، هنا، ينجم عن مادة العلم هذه، وهي الواقع الحي في مستوياته وجوانيه المختلفة، إذا كانت المسطلحات وحدودها ومفاهيمها تحيلنا إلى واقعية هذا الواقع فلماذا نُعنى بالمسطلحات ولا نُعنى بالواقع؟ الم نقل إن المسطلحات الية ضبط وتحديد للدلالة بحيث تصل لفة الخطاب العلمي (على إطلاقه) من خلال المسطلحات إلى مستوى الشفافية والمطابقة في الإشارة إلى الواقع؟ اليس الواقع في مستوى اغراضنا النفعية والعملية، وفي مستوى فضولنا العلمي وشهيتنا للمعرفة، هو بيت القصيد ومربط الفرس للجهد العلمي؟

إن الإجابة، هنا، تقتضي أن نعي مدلول (الواقع) في خطاب العلم والعرفة البشرية، ذلك أنتا حين نفهم هذا الواقع على أنه الواقع المباشر الذي نتلقاء حسياً، يصبح فهمنا، عندئذ, نفعياً، وثهتز المعادلة المنهجية بين الذات والموضوع لتصبح الذات عبئاً ترجح به كفتها على حساب الموضوع. (الواقع) -إذن- في الخطاب العلمي المنهجي هو الواقع (المسنوع)، وهو تصور قاد نظرية المعرفة إليه الفيلسوف الألماني (أمانويل كانت Immanuel Kan - ١٠٥٨م) حين رأى أن انهاننا، التي تأتي بالإطار أو القالب الذي ينبغي أن تُصب فيه الكثرة من الإدراكات غير المهضومة قبيل أن تتصف بالمنطقية أو المعقولية ومن هنا ينفي (كانت) أن يكون الذهن مجرد أداة سلبية قبيل أن تتصف بالمنطقية أو المعقولية ومن هنا ينفي (كانت) أن يكون الذهن مجرد أداة سلبية للتلقي الانطباعات، كما كان يرى المفكرون السابقون، وإنّما هو أداة إيجابية لا تكف أبداً عن التحويل والتنظيم والهناء لمعني الواقع ليغدو واقعاً معقولاً نستطيع فيه أن نعيش وأن نفكر(١٠٠).

إن الواقع كما نعرفه هو – في نظر كانت – «مصنوع اكثر منه معطى، وهو تركيب اكثر مما هو تلق. وكل ما يجعل العالم مترابطاً ذا معنى، يأتي... (بالفهم). بل إن الزمان والمكان، وهما الوسيلتان الرئيسيتان اللتان نعرف من خلالهما عالمنا، هما صورتان ذهنيتان اوليان للفهم: (٢٠٠). وعلى هذا كان خطاب المعرفة العلمية نسيجاً لواقع مستقل عن الواقع الحي الملموس، وكانت المصطلحات بوصفها لغة العلم آليةً للإشارة إلى الصور الذهنية المركبة للواقع، أي آنها تحيل إلى الواقع المعقول والمبني، ولا تحيل إلى الواقع المحسوس والمعطى، ومطابقتها وشفافيتها وبقتها الواقع المعتدة إلى الصورة الذهنية المبنية للواقع المعطى لا إلى حسيته ووقائعيته الحية. وهي مسالة تقوينا إلى أن نقيس فاعليتها اللغوية علمياً، ونجاعتها في احتواء الافكار، ومصداقية القول بها اصطلاحياً، بمقدار استقلالها عن الواقع المعطى وانفكاكها من القيد الذي يحددها بصورة ما من صور ذلك الواقع. إنها لغة الافكار العلمية، وصورها وأطرها التي يصفها زكي نجيب محمود ببقوله: «اكثرها تجريداً وتفريغاً، اكثرها بقاء وأوسعها شمولاً، وكلما زادت فيها مقادير المشو المدي الذي يربطها بمكان معين أو بزمان معين كانت أسرع إلى الزوال سرعة تتناسب مع حشوها «^(۷)).

ومن الواضح أن هذه الصعة العلمية في المصطلحات قد رتبت على منطلق لا يقل اهتمامه بتطوير الواقع المعطى وتحسين ظروفه، وتفعيل وجوه العيش به وفيه وتكييفها عن الاهتمام بصورته المعرفية ووجوه الوعي الحقيقي به، فكان الفضول المعرفي المطلق محيطاً شاسعاً للإنجازات النظرية والتطبيقية في العلم المعاصر على نحو تحققت به ومعه جوانب لا تخفى من المنفعة والرفاهية لإنسان اليوم. كان التباعد بين العلم والواقع في ضوئها العلة «التي تكسب الإنسان مزيداً من السيطرة على هذا الواقع، وتتبح له فهما افضل لقوانينه (١٨٠٨) وغير خاف أن انعكاس هذا الرابة المعرفية مؤذن بانعكاس النتائج، حيث يهيمن الواقع المعطى بما لايدع فرصة لاكتساب إلية الوعي به، واكتشافه، وتطويره، وعمرانه.

3- تاريخية المسطلح

ولما كان العلم دائب التغير والتقدم والاتساع كان الواقع المبني تحوليًا، وكانت صدرة في تغير واتساع لا ينتهي على مستوى الوعي البشري به ومن ثمّ كان التمرحل التاريخي سمة تنطيع بها وفيها حركة الافكار، وإنتاجها، وما يعبر عنها من مصطلحات. وهذا يعني أن نمو المعرفة يستلزم نعو مصطلحاتها، ونمو المصطلحات يعني أن في تكوينها المعرفي ما هو نسبي وخاص، هو ما عبر عنه زكي نجيب محمود مما عرضناه أعلاه به الحشو الماديء أي الارتباط بواقع تاريخي محدد فانطلاق المصطلح خارج القيود التاريخية هو الذي يعنحه الثبات، وهو ثبات يساوي ما فيه من تجريد، بذلك القدر الذي تصبح الرموز والأشكال الرياضية نمونجه الأكمل، وهو نموذج تطمح إليه العلوم بمختلف حقولها الطبيعية والإنسانية. ويغض النظر عن مدى ما حققته من نجاح، فإنه مدى ليس هيئاً على أي حال، وهو مدى معتبر وله قيمة دلالية مائزة، مادمنا ننظر إليها نظرة علمية، وينظمها (أو نظمع بالقياس إلى بعضها الإنساني) في دائرة العلوم والمعارف المنهجية

هذه التاريخية في الصطلحات منفذ لإدراك خصوصية الوعي فيها، ونسبية القيمة، وأن نؤرخ للإفكار بها التاريخ المبين للجامد والنامي والإنساني والمحلي والفاعل والمنفعل والأصيل والدخيل. بوصفها إشارات دالة: من وجهة الوجود الاجتماعي وعلائقه في مكان وزمان معينين، ومن وجهة التغير والتحول المطلق في الوعي المعرفي دون تحديد لإطلاق هذا التحول بقيد من صفات التقدم أو التطور أو الرقي، لأن أي علم راق ومتطور ومنظم ما هو في الحقيقة إلا محصول من معاناة الافكار والصيغ المنطقة للوعي، ورث السابق ويورث اللاحق، فهو القديم وما يجاززه، من معاناة الافكار والصيغ المنطقة للوعي، ورث السابق ويورث اللاحق، فهو القديم وما يجاززه، وهو ما أخذ به في الوقت ذاته فالمعرفة العلمية بحسب فؤاد زكريا، ثانية «متغيرة حقاً، ولكن تغيرها يتخذ شكل (التراكم)، أي إضافة الجديد إلى القديم، ومن ثمّ فإن نطاق المعرفة التي تنبعث من العلم يتسع باستمرار، (١٩١٩) ولذلك يغدو الوعي بالسياق الاصطلاحي

ويبناء الرعبي بالمعرفة في تمرحلها تأريخياً يستصحب من خلال التاريخية في المصطلحات سياقها الاجتماعي. فالمجتمع المنتج لمصطلحاته الخاصة يتمتع حتماً بقدرة على بناء افكاره، ويجهد في تركيب وعيه وبناء تاريخيته وفضاءاته الثقافية والرمزية المائزة. ومن مؤلفينا القدامى من وعي هذا المنطق الذي يؤسس للمصطلحات مضمار الحركة، ويتيح لها فضاء التشكل والإبداع والتكاثر والنمو بما يوازي تشكل العلم ونموه وهاهو احدهم يقول «وكل من استخرج علماً، أو استنبط شيئاً، واراد ان يضع له اسماً من عنده، ويواطىء عليه من يُخرجه إليه، فله أن يفعل ذلك ومن هذا الجنس اخترع النحويون: اسم الحال، والزمان، والمصدر، والتمييز، واخترع الخليل (-٧٠هـ) العروض، فسمى بعض ذلك: الطويل، وبعضه المديد، وبعضه الهزج، وبعضه الرجز، وقد ذكر ارسطاطاليس (-٣٢٣قم) نلك، وذكر أنه مطلق لكل أحد احتاج إلى تسمية شيء ليعرفه به أن يسمية شيء ليعرفه به أن يسمية من الاسماء، وهذا الباب منا يشترك العرب وغيرهم فيه وليس منا ينفردون المعالمية، ما يقوي من حجية منطقها النظري، فتذكر امثلة الصطلاحية من «اختراع النحوين»، ومن «اختراع الخليل». كما أنها تعظم اليقين في الطروحتها الصطلاحية من «اختراع النحوين»، ومن «اختراع الخليل». كما أنها تعظم اليقين في الطروحتها المطلاحية من «اختراع النحوين»، ومن «اختراع الخليل». كما أنها تعظم اليقين في الطروحتها المطلاحية من «اختراع النحوين»، ومن «اختراع الخليل». كما أنها تعظم اليقين في اطروحتها المطلاحية من «اختراع النحوين»، ومن «اختراع الخليل». كما أنها تعظم اليقين في اطروحتها

النظرية بتجاوز المحلية (او الخاص) لدى العرب، حين تذهب للاستشهاد بقول (ارسطو) لتكتسب درجة من عموم الحقيقة واتساع دائرتها الإنسانية.

٥- عناية القدامي بالمصطلح

وحقاً نجد لدى القدامى وعياً بأهمية المصطلح وبما ينشئه الوعي به من انضباط علمي من جهة، ومن خصوصية تتيع للمؤلفين والمفكرين التحرك ضمن دواثر اصطلاحية يضعون اسماها، أو يقترحون مسمياتها، لتضيف أفكاراً، وتعد آخري، وتتسم بحدود المعرفة، وتعمقها. وكُتُبُ مثل كتاب (التعريفات)(۲۰) للسيد الشريف الجرجاني (-100)، و(الزينة في المصطلحات الإسلامية العربية)(۲۰) لابي حاتم الرازي ((000))، و(إحصاء العلوم)((000))، و(كتاب الألفاظ المستعملة في المنطق)((000)) لابي حاتم الرازي ((000)) لابي (000) لابي عبد الله محمد بن أحمد الخوارزمي ((-000))، و(مفتاح العلوم)((000)) لابي يعقوب السكاكي ((-000))، و(مختصر أصطلاحات الصوفية)((000)) لابي يعقوب السكاكي ((000)) لابسامة بن منقذ الصوفية)((000)) لابي عربي ((000)) للتهانوي ((000)) لابي بالإضافة إلى معاجم ((000)) لابي المغافي بضرورة الفقه للحدود الاصطلاحية، والإبانة عن معاجم معانيها بما يُخلص المتداولين لها من الاضطراب واللبس والاختلاط

أما إذا نمن تعمقنا في تقليب كتب الأقدمين فسنجد إلى جانب الاحتفال بالحد والتعريف وصك المصطلحات عند بعضهم (٢٠٠) بما يميزه الساطة بينهم على سبيل الاستفهام أو الاعتراض والإنكار(٢٠)، وسنجد التغاير بينهم في مدلول للصطلح، أو مرجعيته العربية، أو الاعتراض والإنكار(٢٠)، وسنجد التغاير بينهم في مدلول للصطلح، أو مرجعيته العربية، أو المنطقة، أو اليونانية... وهو تغاير لم يكن يحلو البعض كأبي القاسم الأمدي (-٢٠٧هـ) حين أخذ على قدامة بن جعفر (-٢٧٣هـ) دافلته ابن المعتز (حـ ٢٩٩هـ) في بعض مصطلحات الفنون البلاغية قائلاً: «فإنه وإن كان اللقب يصح، لموافقته معنى الملقبات، وكانت الألقاب غير ممن تكلم في فإني لم أكن أحب له أن يخالف من تقدمه، مثل أبي العباس عبد الله بن المعتز وغيره ممن تكلم في هذه الانواع والف فيها، إذ قد سبقوا إلى التقيم، وكفوه المؤونة، (٢٠٠). ونظرة الأمدي، هنا، حفية بالاتفاق الذي يتحسس في اختلاف الأسماء وتعدد المصطلحات ما يفضي إلى الفوضي والاضطراب، ويذلك ثقف عبارته نقيضاً لما شاع لدى القدامي من أنه «لا مشاحة في الاصطلاح»، وكان الوقوف عند الاختلاف اللفظي، فقط، وعدم التقدم إلى ما يضيف جديداً، أو يكشف معرفة، أو بيني تصوراً هو أمر غير ذي قيمة بالمقاس الموضوعي.

لكن المسألة التي ينبغي أن نلتفت إليها في الرؤية إلى المصطلحات عند مؤلفينا القدامي، هي انتصار ثلك الوجهة التحديدية للمصطلحات التي تنتهي بالفكرة إلى مصطلح وحدً، اعني إغلاق فسحة الاختلاف والنظر إلى المصطلحات نظرة تعميم موضوعي فقط. ولعلنا نستوضح نلك بالرجوع إلى أمثلة المصنفات والمعاجم التي نكرتها أعلاه، حيث لانجد من يُعني بالمصطلحات في سياقها التاريخي، تماماً كما لانجد للفتنا العربية معجماً تاريخياً يتناول الالفاظ والدلالات في تطورها وتحولها ومايعتريها من تغيرات عبر مراحلها وبيئاتها المختلفة. ونلك هو مايعوق الرعي بالمصطلحات العربية وعياً بانياً لتاريخيتها معرفياً، فمن لفو القول ألا نجد للمخالفة في بعض المصطلحات بين عالمين متعاصرين كقدامة وابن المعتز معنى من سياق كل منهما، وخصوصية منظومته الاصطلاحية.

٦- المصطلح ومعركة اللغة والقوة

ويجدر بنا، الآن، أن نعود إلى الواقع الذي تتحرك من خلاله المصطلحات في التفاهم بها والوضع لها، وهو (الواقع المبني) أي الصورة المعقولة للواقع المعطى باشيانه، وظروفه، وعلاقاته، ومعايشته، وخارجية ... فالمصطلحات، في سياق الواقع المبني، أطر تصورية وتعبيرية للمفاهيم، ومعايشته، وخارجية ... فالمصطلحات، في سياق الواقع المبني، أطر تصورية وتعبيرية للمفاهيم، المغاني والصور الصيحية (٢٣)، و دليس بين الشيء والتسمية (٢٤) أو المصطلح والواقع المعطى كما إن هذا الريط ليس سببياً، بمعنى أنه لا يرتبط بدافع، وليس المتسمية صلة طبيعية بالمسمى، فيهم بتعبير سوسير (Fredinand de saussure) - «اعتباطية (٢٠)، والاعتباطية، هنا، تجعل المسمى، من حيث المبدأ، قابلاً لهذا الاسم (الاصطلاح) ولغيره. لكن الذي لاريب فيه أن الفرد لا ينشى، اللغة مثالمة نتاج اجتماعي (٢٠)، ولا وجود لها إلا «بنوع من الاتفاق يتوصل إليه أعضاء مجتمع معين (٢٠). وهي بصفتها الاجتماعية هذه سلطة مهيمنة تحتوي الوعي، وتصوغ التفكير، وتحدد الرؤية، وتحكي جدل التكون والتشكل للأفكار والأنواق والقيم، وهي نتعاطى مع وجود اجتماعي له علائقه في ذاته ومع غيره.

ومن ثمّ يجى، وصف باختين (۱۹۷۰ – ۱۹۷۰ م ۱۹۷۰) للّغات بانها: «معركة ليست بريئة (۲۸)، وإن «كل الملفوظات مكتظة بالأخرين (^{۲۸)}. أي أنه لا توجد لفة فارغة يُمكن أن تنظر من زجاجها إلى الواقع بحياد، وإن تسكن فيها لتبدأ تفكيرك موضوعياً من الصفر. ففي كل لفة منظور مميز، يتشكل من محتواها بوصفها ملكية خاصة بالنسق الاجتماعي للمجموعة المتكلمة بها، ولهذا المنظور بدوره الوان متعددة وصيغ مختلفة بتعدد واختلاف مكونات ذلك النسق الاجتماعي وعلاقاته.

وهنا، يُمكن أن نفهم كيف يقوم الجدل في بناء خصوصية الدلالة في المصطلح على نوع من مفهوم «الحوارية» لدى باختين، بوصف مبدأ الاختلاف «كامن في الإنسان نفسه، لأنه تعددي بالضرورة» (-٤٠). وخلف الكلمات الدالة على الافكار «فعل جدلي، يُقْصي ويتأخذ ما بين المخالفة وتأكد الذات» (٤١).

وذلك يقودنا إلى مسالة الترابط بين القوة والخطاب (الذي تمثله، فيما نحن بصدده، المصطلحات بوصفها: دوال على حقائق علمية دلالة تجمل لها نسقاً دالاً في التاريخ) فالملاقة بين الخطاب والقوة منظور نافذ في تحليل دلالة الخطاب على الحقيقة. ويرجع هذا الاتجاه في اصله الفكري- كما يقول رامان سلدن (Raman Seldon)- إلى الفيلسوف الألماني نيتشه (Friedrich) حيث يورد قول نيتشه: «إن البشر يقررون ما يريدون لانفسهم أولاً، ثمّ يكيفون الحقائق مع اهدافهم، إن الإنسان- في نهاية المطاف- لايجد في الانشياء إلاً ما جلبه هو يكيفون الحقائق مع اهدافهم، إن الإنسان- في نهاية المطاف- لايجد في الانشياء إلاً ما جلبه هو إليها، وكل معرفة تعبير عن (إرادة القوة)» ويضيف إلى ذلك قائلاً: «ويعني ذلك اننا لا يُمكن أن نتحدث عن حقائق مطلقة أو معرفة موضوعية. ولايعترف الناس بصدق أي نظرية فلسفية أو علمية في مرحلة من المراحل، أو كما يحددها أعضاء الصغوة الحاكمة، أو منظرو المعرفة الموجودة في ذلك المجتمع (٢٤).

وقد تابع فوكر (Michel Foucault) تعميق هذه العلاقة بين الخطاب والقوة، إذ اهتم بما يطرأ على الخطاب من تغير من خلال البعد التاريخي، ورأى: «أن أنماط علاقات القوة، في أي حقبة معطاة لمجتمع من المجتمعات، تؤلف التصورات والمواقف والهرمية في خطابها، ويهذه الطريقة شُكند ما يُخد معرفة وحقيقة… وتستبعد ما يُعد في تلك الحقبة إجرامي، أو مجنون، أو منحوف، "أكار منحوف، "أكار ويذك يتغير ما يُمكن قوله من حقبة إلى آخرى.

وعلى هذا تُحقّب هذه المارسات الخِطَابية امتداد التاريخ، ليغدو الخطاب، عملياً، في كل حقبة، مجموعة من القواعد والإجراءات التي تحكُم الكتابة والفكر في مجال بعينه، وهذه القواعد تسود. عن طريق الاستبعاد والتنظيم، وتشكّل المجالات مجتمعة (ارشيف) الثقافة، أو (لا وعيها المرجب). ونحن لا نستطيع أن نعرف أرشيف عصرنا قط لأنه هو اللاشعور، أما أي أرشيف سابق علينا فإن من المكن أن نفهمه بسبب اختلافنا وتباعينا التام عنه، وفي ضوء ذلك لا تخرج الخطابات المختلفة عن صراع القوة، سواء في السياسة أو الفن أو العلم⁽²³⁾.

وهذا يعني أن الحقيقة المرضوعية، هنا، لا تستقل بخطابها عن علاقته الحتمية بصراع القوة، ومن ثمّ ينتهي رامان سلدن من عرضه لأطروحة فوكو بالتاكيد الذي يخلص إليه فوكو تجاه هذه القضية، ويأتي هكذا. «امًا دعاوى الموضوعية التي تقال لحساب خطابات معينة فهي دعاوى زائقة دائماً، إذ ليس هناك خطابات صادقة بالمعنى المطلق، بل إن كل ما هنالك خطابات قوية بدرجة أو بأخرى،(٩٤).

إن القوة- إذن- بوصفها إرادة غلبة وتفوق، وفعل هيمنة وسيطرة، ومقتضى سيادة وتحكم، بالمعنى المطلق الذي لايخصصها بحقل السياسة دون حقل العلم والفكر، أو حقل الفن والثقافة، ولا يخصصها بفئة أو فرد أو طبقة أو جماعة تنتهي بالخطاب إلى ردة الفعل التي تحمل في باطنها تلك الإرادة المتحيزة للذات في لحظتها الفردية والاجتماعية بمختلف ألوان ودرجات ذلك التحيز. وإذا كانت المصطلحات في إرادتها اللغة والموضوعية، وخلوصها للمعرفة لا تخرج عن موقعها الاتصالي من حيث هي خطاب يحمل دلالة ذات نسق تاريخي، وأنها تبني خصوصية دلالتها في لغة ليست فارغة من المعترى والرؤية والجدل ضمن إطار مرن وفضفاض من صورة الواقع وبنائيته الخاصة والنسبية معرفياً، فإن المصطلحات مخزون غني بالتأريخ الذي يكشف الحقر فيه عن مهاد الافكار الموضة ونسبيتها.

٧- إرادة المعرفة

لكتنا - في المقابل- لا نستطيع أن نغفل في المصطلح معرفيته، فهر إذ ينطوي على خصوصية، ويمتد في فضاء من النسبية إلى تاريخ له مقوماته وتوجيهاته، وإلى سياق من معترك اللغة الذي يشخص وعي بنيها ومعرفتهم الجمعية، ينطوي أيضاً على رغبة معرفية تمثل الإرادة الموضوعية في الوصف أو الكشف الذي ينتهي إلى نتائج ذات قيمة في ميزان العلم، كما أسلفنا.

ولنا أن نقول، هنا، إن (إرادة المعرفة) جزءٌ أساس في تكوين الـلاوعي في خطاب المصطلحات، يلتقي مع (إرادة القوة) وسائر الـكونات التاريخية ذات العلاقة بخطاب المعرفة، وبينهما جبلية تاثر وتأثير، وتناقض، وتغالب، واتصال وانفصال على مسترى الموضوع في إنسانيته أو طبيعيته أو تجريديته، وفي محليته او عالميته من جهة، وعلى مستوى العالم (النظر) في امتيازه وتفرده وايديولوجيته ومنهجه من جهة ثانية، وعلى مستوى اللحظة التاريخية الاجتماعية في علاقات قواها من الداخل، وفي علاقتها بما هو خارجها : من الماضي ومن المعاش الراهن ومن المترقب القادم من جهة ثالثة.

إرادة المعرفة – إذن - هي المهاد الذي نتصور من خلاله المصطلحات بوصفها إشارات لغوية تُجلّي المتفق عليه بين المتعاطين، منهجياً، لقضايا خطاب، وتكشف عن المشترك التصوري فيه من مسائل البحث والتفكير، وعن نواحي النظر التي تتقاسمها جوانب موضوعه، وتفرضها حدود مادة الدراسة في حقله. وبذلك نلمس في المصطلحات وجهاً من وجوه الانتظام والاتساق النظري، وعلامة من علامات التبلور العلمي الذي يبني ادوات مقاربته وطرق استكناهه على نحر مميز وراسخ، ويفيض بما يضيف إلى المعرفة الإنسانية، ويجدد قناعاتها، ويغني تطلعاتها إلى الوعي.

وحديثاً ، استجد في الاهتمامات المنهجية العربية الاهتمام بالمسطلحات، وخاصة ما ينتمي
منها إلى خطاب الدراسة الأدبية التراثية. ونستطيع أن نقراً في هذا الاهتمام إرادة المعرفة
بالصيغة المنتجة منهجياً سواء جاء هذا الاهتمام من خلال تأليف معاجم وفهارس لتلك
المسطلحات (⁽¹²⁾)، أو من خلال التوجه إلى دراسة المسطلحات في فترة زمنية محددة أو عند احد
النقاد أو المؤلفين (⁽¹²⁾)، أو من خلال الدراسات والبحوث التي أتجهت إلى التأريخ لعلوم اللغة
وفنونها في تراثنا (⁽¹²⁾)، بالإضافة إلى المؤتمرات والندوات والأعداد الخاصة من الدوريات العربية
المنصصة (⁽¹²⁾).

وأحسب، هنا، أن ما يوجه هذا الاهتمام من شبهية المعرفة وإرادتها في إطار منهجي لا يسيغ الوقيف عن حدود الإلما بالحدود الاصطلاحية كما قال بها القدامى، إذ لابد – انسجاماً مع تلك الإرادة ولهائها إلى معرفة لا تكف عن الكشف المتجدد – أن تُقدر تلك المصطلحات في ضوء سياقها، وذلك يقتضي التفكيك للدلالة الاصطلاحية المغلقة على حدّما للكشف عن النسبية والخصوص فيها، ومن ثم إعادتها إلى فضاء الاختلاف والتحدد فيما يثيره من إشكاليات المعرفة واستلتها، وما يحيل إليه من أنساق ومساقات في إطار موضوع البحث. فمن خطر المصطلحات، منهجياً، أنها تشيع في الرؤية المعرفية مرتكزات مطلقة، حيث يقف وراء كل دلالة اصطلاحية إنسانية تشبع بخصوصية ما ومنظومة مفاهيمية ورؤيوية تقود إلى نقطة التحديد، وتمهد لانفلاق الدلالة على نحو يشبه التقاء الخطوط الهندسية في مركز أو بؤرة، هي المصطلح الذي يختزل التعدد، ويلم الاختلاف، ويقبض على فضاء من نمو الدلالة وصيرورة الدال وانفتاحه، فهو التمام الذي يخفل النقص، والكمال الذي يلغى النسبية.

٨- بين الفردية والجمعية

ولا ربب أننا حن نكتنه في المسطلحات صفقها اللغوية، سندلف إلى منعطف دال في طبيعة تكوينها، وهو ما تحمله من طابع الإنشاء والاختيار، اللذين يحيلان المسطلح إلى نمط القول أو الكلام (Parole) في رؤية سوسير^(ع)، وما يتصف به من طابع فردي لواضع المصطلح، ومفترع إشاريته.

قمن يضع مصطلحاً من المصطلحات إنما ينتقي من مخزون اللغة وقاموسها الجمعي لفظة
تشير إلى ما يفكر فيه، وتُسمَّي مايراه، هذه اللفظة التي تغدو عَلَماً يُعرَف موضوعه، ومصطلحاً
يميز مادته، تتوسط بين ذات واضعها بما تحمله من طابع ثقافي ونفسي واجتماعي، وما يحركها
من أصابع التاريخ وفضاء الجغرافيا، وبين موضوع دلالتها بما يُحمله من ثبات المادة، ورسوخ
العنصر، وشموله...، ومن ثمَّ يحمل المصطلع في ظاهره ومضمونه دلالات ذاتية ذات نسق تاريخي
وثقافي ودلالات موضوعية ذات خلوص منهجي وإرادة معرفية، بقدر إصابته في تمييز ما يَثُبُت،
وتجاوزه نحو ما يُستَقير، فعناصر الذات وطوابعها تجسد في الصطلح حكماً منصازاً بالضرورة
لجماع مكونات الذات في لحظتها الفردية والمضارية، وصفات الموضوع وطوابعه تُحملُه حقيقة
الرجد، وتُلبسه معني الـ (ما صدق). وبين هذه وتلك تغدو المصطلحات مادة الدراسة الاجتماعية،
والعلاماتية، والحفرية المعرفية، والبيئية، والتنويكية. مثلما هي مجال
طريف للتعلي في حركة الفكر والمفاهيم والتفكير حول مايصنع تفكيرنا ويوجهه.

وإذا ما تجاورنا تلك المصطلحات التي تحكمها المادة الطبيعية والرياضية بسياجها الحسي والصوري الصارم على النحو الذي يتلاشى فيه دور الإنسان، ويخفت جهد الذات وطابعها في سك المصطلحات والصوري المسلط، وإبداع التسمية كما هو حال العلوم الطبيعية والرياضية، فإن للمصطلحات الاجتماعية والفلسفية والأدبية (واخص الأخيرة هنا بالذكر) نصيباً وافراً من الصفة الإبداعية التي تشع بالفعل الإنساني، وتضى، بالذات كمحصول تنطوي عليه اللغة، وتكشف ما يداخله وما يختبى، في سريرته. وهنا يقف الحد حاسماً بين مصطلح تبدعه الذات لنسمي به فكرتها أو هما، وأخر تنقله أو تقلّدُه عن غيرها للغرض نفسه، ففي إبداع المصطلح وافتراع التسمية معاناة وصدق وحيوية إدراك ووعي بالسياق وتجادل مع زخم أضداده ومعايشة عميقة ونافذة لمطياته، وهو ما يُغني المصطلح بالتاريخ ويثريه بالواقع الاجتماعي والحضاري والخلفية المعرفية ولايديولوجية وطريقة التفكير وأطره المنهجية...

ثانياً: بعض مصطلحات الشعر العربي لدى القدامي بين الحكاية للتاريخ والحكاية للمعرفة

وفي ضوء ذلك سنحاول القراءة للمصطلح الأدبي عند القدامى، من خلال أبرز المصطلحات التي تصف الشعر في عروضيته، وتفاضله، وعلاقته بالقديم، للتمثيل على ما تدخره تلك المصطلحات من تاريخية، وما يمكن أن يثيره بعضها وفق نسقها من اسئلة المعرفة، وإشكالياتها الخاصة بالشعر

١- خطاب التاريخ واللغة في المصطلحات البدوية للشعر

لقد كان وضع الخليل بن أحمد لمصطلحات علم الأوزان والقوافي الخاص بالشعر العربي مثار سؤال ملفت عن علة هذه التسمية، من حيث حقلها الدلالي الذي يحيلها إلى حياة البادية وفضاء معاشها، ومن حيث ما تثيره هذه الإحالة من دلالة خاصة بسياق الخليل المعرفي، وقد ابان الخليل نفسه عن إرادته الواعية التي وضع بها تلك الاسماء بما يجمعها في إطار بدوي، حيث يروي عنه المرزياني (-١٩٨٤هـ) أنه: «قال: رتبت البيت من الشّعر ترتيب البيت من بيرت العرب (يريد الخباء) قال: فسميت الإقواء ما جاء من المرفوع في الشعر والمخفوض على قافية واحدة.. وإنما سميته إقواء لتخالف، لأن العرب تقول أقوى الفائل إذا جاءت قوة من الحبل تخالف سائر القوى، قال: وسميت تغير ماقبل حرف الروي سنادا من مساندة بيت إلى بيت إذا كان كل واحد منهما ملقي على صاحبه ليس مستويا كهذا. قال وسعيت الإكفاء ما اضطرب حرف رويه، فجاء مرة نونا ومرة ميا ومرة لاما ... مأخوذ من قولهم: مكفأ إذا اختلفت شقاقه التي في مؤخره، والكفاة. الشقة في مؤخر البيت (١٥٠).

وقد كانت هذه المسألة ملفتة، حديثاً، لإحسان عباس، حيث نراه يُلُمّ بلك الصلة بين المصطلح الخليل أنه الشعري وشؤون الخباء البدوي عند الخليل، قائلاً: «والشيء اللافت للنظر في مصطلح الخليل أنه مستمد من «بيت الشعّدر» بفتح الشين»^(۱۹)، ويمضي- بعد ذلك- ليرى امتداد أثر الخليل إلى غيره من العلماء باللغة والشعر، فالفحولة لدى الأصمعي (-۱۲۱هـ) مصطلح «يعود بنا إلى طريقة الخليل بن أحمد في انتخاب الألفاظ الدالة على الشعر من طبيعة الحياة البدوية»^(۱۹)، وتعلب (-۲۹۱هـ) في (قواعد الشعر) «حاول أن يسترحي روح الخليل في صياغة مصطلح مبتكر... وأوجد مصطلحاً مستمداً من (الفُرّس) يدور حول وصف البيت المفرد، فالبيت إمّا معنل أو اغر أو محجل أو مرجل، (۱۹).

ولمن كان أثر البيئة منا طبيعياً في توجيه رؤية الخليل ومن بعده الإصمعي وثملب إلى استيحاء المصطلحات من محيطها البدوي، فإن إحسان عباس يلمح دوافع اجتماعية وثقافية في تمسك نقاد القرن الثالث الهجري بالمصطلح البدوي، هين يعرض لاثر الاعتزال في النقد، حيث نهب المعتزلة إلى تأكيد منزلة الشعر في تصور هؤلاء نهب المعتزلة إلى تأكيد منزلة الشعر في تصور هؤلاء المدافعين عن العرب تراث عربي خالص، ليس هناك ما يشبهه لدى الأمم الأخرى إلا شبها عارضاً، ومن هنا كان المعالفية والمناسبة والمناسبة والشياها، ومن هنا كان الاتجاه نحو القول بالإعجاز في النظم، لكي يتميز القرآن عن كتب الحكمة الفارسية واشباهها، وكذلك كان تمسك هؤلاء العلماء بالمصطلح البدري في النقد، «٥٥)

ومن الواضع، هنا، أن أثر البيئة في تشكيل المصطلح وطبعه بطوابم أفقها الحسي والتجريبي، قد تراجع أو تضامل في ظل نقلة اجتماعية تاريخية تتمظهر في شكل من الصراع والتمايز بين العرب والعجم، حتى غدا المصطلح النقدي العربي جزءاً من خطاب التاريخ في هذه المرحلة يؤكد الذات العربية، ويعلن تميزها، فهو يشف عن الذات إذ يصف الموضوع، ويظهر ما وراء الرؤية النقدية وما يستبطنها من وعى بالكيفية ذاتها التي يقدم تلك الرؤية بها.

وبخول الواقسع هنا بمستواه المكاني والزماني والفريدي والاجتماعي في صياغة المصطلح
لا يمكس صورة ساكنة من التجاوب بين حركة الثقافة وحركة الإنسان، ولا يُبقي مسافة بين اللغة
ومدلولها، فهناك تمانق جدلي تتحرك به الثقافة مثلما يتحرك الإنسان، وتنمو معه اللغة وتكتسب
دلالاتها وابعادها الرمزية والإشارية، والخليل حين سك مصطلحات بدوية للعروض لم يكن يبتدع
مسميات معزولة عن سياقها الاجتماعي والثقافي التاريخي، فهو نحوي – كما نعرف – معني
بتثبيت بناء اللغة في صورتها الجاهلية النقية، والوجهة المعرفية الغالبة لزمانه تتجه إلى التأسيس
لرؤية نقلية للعالم في مواجهة الصيرورة والابتداع، فكان الاصتراف لرواية الشعر، وكان التقابل
حاسماً بين (عربي محض) و(مولد) و(قديم) و(محدث)، وليس نلك العربي المحض أو القديم الذي
هو مادة الدراسة اللغوية والشعرية، وموضوع الرواية والنقل، سوى البدوي الذي عزلته الصحراء
عن الاختلاط بغيره، وصانه المكان والزمان عما (يفسد) طبعه ويزوته واسانه...

فالمصطلحات البدوية - إذن - تحيل إلى السياق المعرفي لعصر الخليل، وهو سياق يندرج فيه الخليل ويتعامل مع لفته، أو قل يسبح مع تيارها اللفظي ويستجيب فيما يضعه من مصطلحات الإيحاء دوالها، ففي اللفة من قبل الخليل (بيت الشُعر) بفتح الشين، و(بيت الشُعر) بكسرها، وإشارة (البيت) من الشعر تجتذب إلى فلكها المعتد في محيط البادية الإشارات التي يضعها الخليل أسماء لاجزائه وإصنافه العروضية، وما يخل باتساق نظمه . وهو وإن سكن البصرة، وانتمى بتجرية حياته إلى بيوت الحاضرة وفضاء المدينة المستقر، فإنه لا يملك أن يعدين مصطلحاته، وما يعمد إلى تسميته وتقرير مفهومه، لأنه يتحرك داخل لغة، أو بالأحرى تحركه تلك اللغة وتوجه رؤيته بسياقها اللفظي المحمل بفضاء البادية، وبسياقه المعرفي المتجه إلى تثبيت تلك اللغة وتجريدها علميا.

ماذا لو أن العرب قبل الخليل أسموا (البيت) سفينة، أو شارعاً، أو حانوبتاً... مما يحيل إلى فضاء البحر ومتعلقاته، أو المدينة ولوازمها؟!

وماذا لن أن الطليل قد أتجه إلى اكتشاف ماتغير، ورصد ما استجد، ورصف ما يحدث من مسميات شعرية في إطار الحاضرة والاختلاط بالموالي؟!

٧- الفحولة في الشعر، فاعلية الذِّكر وسياقه الثقافي

ولا يخرج الأصمعي في استيحائه لمسماه الشعري عن هذا المنظور. فـ(الفحولة) إنما تحيل إلى سياق اللغة والشعر، هذا السياق الذي يعلي من قيمة الذكورة.

إن الفحل من الشعراء في نظر الأصمعي إنما يتخذ قيمته الدلالية، وميزته الشعرية من خلال معنى الذكورة الذي يفهم باختلافه عن الانثى، أو بتضاده معها، وها هو يجيب أبا حاتم السجستاني (-٥٠٥هـ) عن عدي بن زيد (-٥ق هـ). «أفحل هو؟» بقوله «ليس بفحل ولاانثى» (٥٠) كما يجيبه عن معنى الفحل من الشعراء قائلاً «إن له مزية على غيره كمزية الفحل على الحقاق جمع حقة وحق وتطلق على الانثى أو على الصغير الذي استكمل ثلاث سنين وبخل في الرابعة (٨٠).

فذكورة الفحل فوق ميزتها الاختلافية عن الانثى، لها ميزة أخرى من خلال اختلافها عن الضمي او الصغير، وكأن خاصية الإنجاب والقوة التي تحملها صفة الفحل إلى الشاعر تستلزم ثراء شعريا وتميزا، ولذا كان الكم والوفرة مقياساً للفحل من الشعراء لدى الأصمعي فتعلبة بن صعير المازني (--ق.هـ) «لو قال مثل قصيدته خمساً كان فحلاً «⁽⁴⁰⁾، ومعفر البارقي حليف بني نمير (--ق.هـ) «لو تتم خمساً أو ستاً لكان فحلاً «⁽¹¹⁾، وأوس بن غلفاء الهجيمي (--ق.هـ) «لو كان

قال عشرين قصيدة لحق بالفحول، ولكنه قطع به «^(۱۱)، وسلامة بن جندل (-تق.هـ) «لو كان زاد شيئاً كان فحادً (^(۱۲)

هذه الفحولة التي تصطنع دلالتها على الشاعر من استيحاء أفق الذكورة في اللغة، إنما تميل الى سياق يعتر بالذكورة، ويفخر بارتداء رمزيتها، ومن قبل الأصمعي واستاذه ابي عمرو بن العلاء (-۱۹۵هـ)(۱۲۰)، ثم ابن سلام الجمحي (-۱۳۰هـ)(۱۰۰)، بعدهما تمدّح أبو النجم العجلي (۲۰۰هـ) بأن شيطان شعره ذكر وشيطان غيره من الشعراء أنثى:

إنبي وكبل شباعير من البيشير شيطانه أنثى وشيطاني ذكر(٢٠)

والتقابل بين (الأنشى) و(الذكر) في سياق الثقافة العربية الجاهلية واللغة المعبرة عنها، يُصمت الانثى، ويكاد يخليها تماما من الفاعلية، فهي مفعولة ومنفعلة، وقد وصف القران الكريم هذه الرؤية لدى العرب في هزئه بالمسركين وإنكاره وصفهم الملائكة بالانوثة، قال تعالى: (وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين* أم اتخذ مما يخلق بنات واصفاكم بالبنين* وإذا بشر احدهم بما ضعرب للرحمان مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم* أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين*)(٢٦).

فالانشى ليست إمكانية معلقة للفعل، لانها تدخل دائماً في تراتب مع الذكر لتأخذ الصمت في مقابل كلامه، والسكون في مقابل حركته، والتأخر في مقابل تقدمه، مما لا يعلق إمكانية فعلها وفاعليتها، بل يرتبها على مقابل لايزول إلا لتزول هي.

وعلى هذا ياتي تمدح أبي النجم بذكورية شيطان شعره، إنه ينسل من رؤية الثقافة للذكر، وهي رؤية لا تقف بالذكر عند دلالته النرعية الضيقة، بل تترامى بها إلى أفق أسطوري غامض تشرق فيه الحياة من فعل الموت، حتى لتتلبس فيه الذكورة فيما تتلبس معنى السلاح فتخرجه من حقيقته الحسية الجامدة، وتخلع عليه الخصوبة الفاعلة، ومن هنا كانت السيوف ذكوراً في قول ابن عبد ربه (-٣٢٨هـ).

ومعترك تهزيه المنايا نكورَ الهند في أيدي ذُكور (١٧)

وفي قول المهلهل (كق.هـ):

ولولا الريح اسمع اهل هجر صليل البيض تقرع بالذكور(١٨٠)

كما خلع الشعراء على الحرب معنى الانفعال للذكر، فهي (تلقح وتنتج) في وصف زهير بن أبي سلّمى (-١١ق.هـ):

فتعرككم عرك الرحى بثقالها وتلقح كشافا ثم تنتج فتتكِم(٢٠) ومدرج ابي تمام (-٢٢١هـ) يبتك هذه الخاصية المنتجة:

أَخَا الحربِ كم القحتها وهي حائل واخْرتها عن وقتها وهي ماخض(٢٠)

فالتقابل بين انوثة (الحرب) وذكورة (السلاح) يصطحب ذلك التفاعل النوعي على نحو يخرج عما يالفه العقل والرؤية السطحية للواقع من منطقية التطابق بين اللفظ ومعناه، فلا يجدي التعليل العقلاني شيئا أمام هذا اللغز المجير الذي تصطنعه اللغة، وياتي التصور المجازي لتلك العلاقة ذريعة واهية ترضي العقل وتوصد باب التساؤل، لكنها لا تتجاوز السطح إلى العمق، ولا تستبدل بمركزية المنطق وسببيته ما يتجاوزه باتجاه تلك الأغوار السحيقة والمطمورة مما تخبئه اللغة وتدخره من وعي بنيها الإنساني بالحياة والعالم.

إن الفحولة التي تأتي مصطلحا نقديا في تراثنا يمايز بين الشعراء، لا يزال هناك غموض في دلالتها المعيارية، الذي انطوت عليه استلة أبي حاتم السجستاني وأجوية الأصمعي وطبقات ابن سلام، ولايزال هذا الكنه المعصى على التحديد يدخر عمقا غائرا وراء انتخابه والتسمية به، وهو عمق يتواضح مع مجمل معطيات التراث باعتبارها كينونة عضوية تحيل إلى اللاوعي وتداخل ما يتجاوز العقل بقدر ما يبدو على ظاهرها من مجسدات الوعى والعقل.

ففي ذاك الأفق الذكوري للقيمة الشعرية يغدو (السلاح/الذكر) صفة للقوافي والقصائد، إنها - كما يقول جرير-:

خروج بافواه الرواة كانها قرا هندواني إذ هر صمما(١٧)

كما وردت الذكورة ذاتها بمعنى القوة والشدة صفة للقصيدة في قول المزرد (-؟هـ):

مذكرة تُلْقَى كثيرا رُوَاتُها ضواح، لها في كل أرض أزامل(٢٧)

بل غدت المعاني الشعرية، في أصالتها وجدتها، نتاجا لعملية ذكررية نوعية فهي مفترعة أو منتجبة، فيما يرويه ابن الأعرابي لراجز قديم.

يا أيها الزاعم أني اجتلب وأنني غير عضاهي انتجب كنبت إن شرّ ما قيل الكنب(٧٧)

وقد جات الفحولة صفة للتفوق الشعري في لقب علقمة بن عبدة (-؟ق.هـ) الشاعر الجاهلي(^{٧٤}).

الأصمعي – إنن – حين انتخب (الفحولة) مقياساً وقررها مصطلحاً في المعرفة النقدية، كان يصفي اسباق رؤية يحملها الشعر واللغة، وكان يجد في هذه الإشارة ما يجسد الرؤية الثقافية والاجتماعية العربية للعملية الشعرية وفضاءات تلقيها وإبداعها وفاعليتها لغوياً واجتماعيا، فالخصوبة والإنجاب كمركز لدلالة الفحولة حملته اللغة منذ العصر الجاهلي هو الأفق الدلالي ذاته الذي نترامي إليه كيفية الفحولة الشعرية وكميتها لدى النقاد اللغويين وعلى راسهم (الاصمعي) خاصة حين ندرك اشتراطهم - في من يلقب بالفحل - بالإضافة إلى الجودة، كثرة الشعو وروايته، وكان فحولة الشاعر متصلة بقدرته على إخصاب حقله الإبداعي، وإثرائه، تماماً كما يثرى الفحل من الحيوان جنسه بالإلقاح والإنجاب.

وإذا كان العمق المستتر وراء المصطلح بالغ الاثر في الترجيه إليه، وفي تشكيل أبعاده الدلالية، فإن لهذا العمق وجهاً ظاهراً على سطح اللغة النقدية ينسرب في إجراءاتها، ويصنع إشكالياتها ومظاهر الخصومة والاختلاف فيها. وهذا الوجب الظاهر للفحولة، من الناحيسة البنائية، هسو ما يتشابك مع وجوه المفاضلة والمعايزة التي قامت عليها الرؤية النقدية لدى العرب منذ الجاهلية، فقد انطوت تلك الرؤية على سؤال صريح حينا، وضمني حينا آخر يتلخص في البحث عن الافضل والأجود، وكانت الملاحظات والآراء، بل الكتب والمؤلفات – فيما بعد – تنبثق من محور السؤال: من الاشعر؟!.

فجاءت فحولة (علقمة بن عبدة الفحل) لقباً يشير -على ما يبدو- إلى تفوقه وامتيازه، ويحيل إلى مفاضلة ام جندب بينه وبين زوجها امرى، القيس، وهي لم تقل انت فحل قياساً إلى ما اعتمده ابن العلاء والاصمعي وابن سلام من معنى (الفحولة)، بل قالت -كما تحكي الرواية- لامرى، القيس (حـ٥٦م): «علقمة أشعر منك»(٧٥). كما جاءت حكومة النابغة (-٨١ق.هـ) في سوق عكاظ^(٧٧) من منطق هذه المفاضلة، ومثل نلك تساؤل عمر بن الخطاب (-٣٢هـ) عن «شاعر الشعراء،(^{٧٧)} يعني زهيرا، وقولهم أهجى بيت قالته العرب، وأغزل بيتر. إلغ^(٨٧).

ثمّ جات الفحولة نقدياً فكان «راس الفحول والفحل وشبه الفحول، وقريب من الفحصول، ويسلك مسلك الفحول، ويسير على طريق الفحول، وليس بفحل، وليس بفحل ولا آنثى، وليس بفحل لا مفلح، ومن فحول الفرسان...،(٢٩٨). بل (الفحل) لوحده أصبح مدار تمايز طبقات ابن سلام على نحو ما نعرف. وبعد ذلك جاحت مؤلفات: «الموازنة بين الطائيين» للأمدي (-٢٧٥هـ)، و«اخبار ابي تمام» لابي بكر الصولي (-٣٢٥هـ)، و«الوساطة بين المتنبي وخصومه» للقاضي الجرباني (-٢٩٣هـ)، وغيرها، لتحيل سؤال الافضل إلى منطلق لتناول جوانب المسألة النقدية الشعرية والإفضاء إلى معطيات تصورية وقيمية تجسد تجليات من التراتب، مرة بين (اللفظ) و(الصنعة)، ورابعة بين (الفطابة) و(الصنعة)، ورابعة بين (الفطابة)

هذا التراتب المعيز لبنية النقد العربي لا ينفصم عن التراتب الذي يشكل لب الدلالة في (الفحولة)، فهي -كما راينا- تصنع قيمتها دلاليا في ضوء علو الذكر على الانثى او الخصي، وهذا التراتب الذي تنطري عليه هو ما يصنع اهميتها وجاذبيتها النقدية في السياق العربي، لأنه سياق يولي المفاضلة اهتماماً كبيراً، وتحتل من وعيه موقع اللب والمركز، حتى لنرى أن ورودها في الشعر يمنحه قيمة ملفتة لدى العرب، ولذا اعتمدها الهجاؤون والمداحون من الشعراء، وقال ابن رشيق (--201هـ) عن بيت جرير (--10هـ):

فغيض الطوف إنـك من نمـير فلا كعبـا بـلـغت ولا كـلابــا^(-^). إنه «اشد هجاء لما فيه من التفضيل»^(^^).

وعلى هذا تأتي (الفحولة) في موقع مركزي، في بنية القضايا النقدية العربية القديمة: ١-القديم والحديث. ٢- اللفط والمعنى. ٣- الطبع والمستعة. ٤-السرقات، حيث تستمد تلك القضايا وعي المفاضلة والتراتب من الفحولة، مثلما استمدت الفحولة وعيها من سياق مفاضلة، وآقامت -كذلك- قيمتها النقدية على وعي المفاضلة.

٣- المصطلح الشعري وصفات (الفرس)، سياق السبق وفعل المفاضلة:

و(ثعلب) لا ينحرف بمصطلحاته النقدية الشعرية عن هذا السياق، فقد رأينا كيف قسم أبيات الشعر إلى «معدلة» ودغر» و«محجلة» و«موضحة» و«مرجلة» وأوجد -كما يقول إحسان عباس-مصطلحا مستمدا من الفرس(AT).

بيد أن هذا لا يعني أن (ثطبا) كان ينتخب ثلك الصفات، ويطلقها بشكل ميكانيكي لا ترتبط فيه الرؤية بالإجراء، ولا يعي أفق النظر النقدي والتقويمي العربي للشعر، وكيفية اصطناع التسميات وإطلاق المصطلحات، ولا يتحرى شيئا من العلاقة بين الاسم والمسمى والمعنى الحقيقي والمعنى الاصطلاحي

وهو المنظور الذي أتى من خلاله وصف ثعلب بالمتمحل في رأي محمد مندور $^{(\Lambda^r)}$ حين يحاول تحديد الاصطلاحات وباستيحاء روح الخليل، في رأي إحسان عباس $^{(\Lambda^s)}$ ، حين يحاول صباغة مصطلح مبتكر.

ذلك أن الصلة بين صفة أبيات الشعر وأوصاف الفرس صلة تنبع من اتصال أفق الشعر وأفق الفروسية في الرؤية العربية، وافتران الشاعر والفارس واللسان والسنان (^(٨٥)، كما يشيع في نعطية التعبير عن هذا العالم.

وإذا كان الفرس اداة الملاحقة والطرد ماديا، وموضوعا لتجليات العلم الشعري المتفجر بصراع البقاء بين الإنسان الجاهلي وبينته (^{(٨٦}) فإن الشعر اداة بحثه عن المعنى/الوجود، وموضوع لتجليات فروسيته المعنوية التي ترتب منزلته في سلم الاحتفال والتقدير. ومن ثم تعدح الشعراء كثيراً بفروسيته (^{(٨٨})، وأضفوا على أبياتهم أخلاطاً من صفات الفروسية ومافيها من تقانف بالسلاح، كقول المزرد:

زعيه لمن قانفته بأوابد يغني بها الساري وتُحدى الرواحل(٨٨)

وما تعود به من اسلاب كثيرة، كقول أبي تمام:

بكُراً تورَثُ في الحياة وتنثني في السَلُم وهي كثيرة الأسلاب(٨١)

وما تتصف به أوابد الصيد وهواديها من نفور وشرود، كقوله أيضاً:

ووالله لا أنفك اهدي شوارداً إليك يُحَمَّلْنَ الثَّنَاءَ المُنْخُلا (١٠)

بل جعل جرير الشاعر نفسه جوادا يحامي عن عشيرته، فقال:

ما قاد من عَرَب إليّ جَنوَادهم إلا تركت جوادهم محسورا ابقت مراكضتي الرهان مجربا عند المواحن، يُرزّقُ التيسيرا^(۱۱)

واتخذ أبو تمام من الشعر فرسا يلين له تصريفه في قوله.

صعب القوافي إلا لشارسه أبيّ نسج العروض ممتنعه (٢٢)

إن مصطلحات ثعلب تلك، حين تصطنع دلالتها على أبيات الشعر من استيحاء صفات الفرس، تقذفنا بالسؤال مكذا: لماذا لم تستوح صفات الناقة -مثلاً- وهي، ربما، لا تقل عن الفرس إلحاحاً على وعي الشعراء؟!

لماذا الفرس تحديداً؟!

ولائنك أن لاختيار الفرس دلالته على الوعي الجمالي والوظيفي للشعر عند القدامي، فغرس الشعر هنا تحيل إلى الفارس/الشاعر، وهو الذي رأيناه (فصلاً) من قبل (ثعلب)، والفحل بدوره فاعل للإخصاب والإنتاج الشعري، أي أنه يتقاطع في مؤداه الضمني مع ما يتصل بالفرس من صفات العتق والنجابة التي حرص العرب عليها بتفعيل الإخصاب والإنتاج النوعي في سلالاتها، والمايزة والمفاضلة في صفاتها.

ويقودنا هذا إلى إدراك دلالة التراتب والتفاضل الذي يبني عليه ثعلب تقسيماته واصطلاحاته، حيث نجده يصف النوع الأول (المعدل) بقوله: «وهر أقرب الأشعار من البلاغة»، وينتقل إلى الإبيات (الفُر) فيقول: «وإنما ألّفنا هذه الإبيات مصلِّية (المصلِّي: الذي يجيء من الخيل بعد السابق كما سياتي)، وجعلناها بالسوابق لاحقة، لملاستها إياها وممازجتها لها في اوائلها وإن افترق عن أواخرها، ويعرض بعد ذلك الأبيات (المرجلة) فيبين رتبتها بقوله: «وإنما رتبنا هذه في الطبقة الثالثة وجعلناها للمصلية تالية لشبهها بها ومقاريتها لها وانتظامها، ثم يذكر الأبيات (الموضحة) في المرتبة الرابعة، وينتهي -أخيراً- إلى الأبيات (المرجلة) قائلاً: «هي ابعدها من عمود. البلاغة، وأذمها عند أهل الرواية....^(۲۷).

فتراتب هذه التقسيمات يستدعي صفات دالة على التقاضل النوعي، أو ـ بالأحرى- إن تلك الصفات التي سمّى بها ثعلب أقسامه الموضوعية للأبيات الشعرية، وهي مستمدة من الفرس، انخلته حتما إلى المفاضلة والانتخاب بحكم ما تتضمنه من رؤية اجتماعية (تفضيلية) لا يملك تعديلها، ولا يقدر على تحجيم هيمنتها، والحد من سطوتها الفكرية على رؤيته.

ومعنى هذا أن تقسيمات ثعلب واصطلاحاته لا تنفك عن بنية المفاضلة والتراتب القيمي في نقدنا القديم، فهو يبني اصطلاحاته في خط مواز لما قام في وعي العارفين بالشعر قبله من صلة بين تفاضل الشعراء وتراتبهم قياسا على تفاضل الجياد في السبق، وهاهو ذا ابن سلام يروي عن العلاء بن حريز العنبري (-:هم) وهو من يصفه بأنه «قد أدرك الناس وسمم». قال: «كان يقال: الأخطل (-٩٥هـ) إذا لم يجيء سابقا فهو سكّيتًا، والفرزدق (-١٠١هـ) لا يجيء سابقاً ولا سكيتًا، فهو بمنزلة المصلي، وجرير يجيء سابقا وسكّتيا ومصليًا، (١٤)

ثم يذهب ابن سلام إلى تأويل ذلك التفاضل وتعليله بقوله. «إن للأخطل خمساً أو ستا أو سبعاً طوالاً روائع غررا جيادا، هو بهنّ سابق، وسائر شعره دون اشعارهما، فهو فيما بقي بمنزلة السُكُلُيْت والسَكَلُيْت: أخر الخيل في الرهان، ويقال: إن الفرزدق دونه في هذه الروائع، وفوقه في بقية شعره، فهو كالمصلّي أبدا، والصلّي، الذي يجيء بعد السابق، وقبل السُكُلُيّت وجرير له روائع هو بهنّ سابق، وأوساط هو لهنّ مصلّ، وسفسفات هو بهنّ سكيّتُ "٥٠٥).

وقد ذهب ثعلب -كما رأينا- إلى إيراد مصطلحاته التي تسم قسمته للأبيات على نحو مرتب جماليا، وارتكز في ترتيبه على مرتبة (المصلّي) التي ادرج في رتبتها ما اسماه بـ «الأبيات الغر»، ثم اعتبر ما قبلها سابقا، وما بعدها تاليا، ويذلك كانت صياغته لسلم التفاضل الذي تجسده طريقة تقديم البيت للمعنى صادرة عن وعي صريح بقراتب الجياد في نتائج السبق، وهو التراتب الذي القي بظله على مسميات ثعلب، فجاءت -بدورها- من صفات الأفراس.

ولاريب أن مسميات ثعلب ذاتها لاتحمل التراتب، فهي صفات شكلية في الوأن وهيئات الافراس، ولا يمكن أن نحيل الأبيات (المعدلة) أو (الغر) إلى مثلما أحال الاصمعي إليه (الفحولة) حين بيّن أن «المفحل (من الشعراء) مزية على غيره، كمزية الفحل (من الحيوان/الإبل) على الحقاق، (٢٩) وهنا نقف على تباين في حركة التسمية دلالياً بين (الاصمعي) و(شعلب) ذلك أن (الاصمعي) يتجه بتسميته وممايزته إلى الشعراء، في حين يتجه (تعلب) إلى الشعر، و(الاصمعي) يستمد تفاضل موضوع التسمية (وهم الشعراء) من التسمية ذاتها (أي الفحل)، ولذا وجدنا معايير التسمية وعللها غائمة وغير متبلورة في حدود واضحة وصلبة ومجردة يستطيع تلاميذه أن يتكنوا عليها في النظر إلى الشعراء بمعزل عن رؤيته هو، في حين يجسد (شطب) تمايز موضوع التسمية (وهي أبيات الشعر) عن صفاتها الموضوعية والمحددة في كيفية تقديم للعنى وصياغته في بيت واحد، ولذا نراه يقدم صفة نظرية مجردة، ونمونجا تطبيقيا لكل قسم، فالمعلل من أبيات الشعر «هو ما اعتدل شطراه، وتكافأت حاشيتاه، وتم بأيهما وقف على معناه... كقول زهير.

ومن يغترب يحسب عدوا صديقه ومن لا يكرم نفسه لا يكرم(١٧)

والأبيات الغر، واحدها أغر، وهو ما نجم من صدر البيت بتمام معناه دون عجزه، وكان لو طرح أخره لأغنى أوله بوضوح دلالله... كقول الخنساء (-٤٢هـ):

وإن صخراً لـتاتم البهداة بـه كنائــه عـلــم فــي راســه نــار^(۱۸). ..الغ^{ه(۱۸)}.

واخيراً فإن (الفحل) يستمد افضليته من رؤية عامة وموروثة اي انها إشارة تفوق لا خلاف فيها، وهو امر لا نجده في صفات الأفراس «المعدلة، او الغر، او المحجلة، او الموضحة، او المرجلة» فإن اياً منها لا يجسد بشكل قاطع افضلية في الرؤية العامة، ولا يدلنا بذاته على تفوق واضح متفق عليه.

وهذا يعني أن مصطلحات ثعلب تحيل كيفية الدلالة على التفاضل والتمايز الجمالي الدقيق إلى إشكالية، وتصنع من خلال التسمية بتلك الأوصاف التي تحمل دلالات جمالية متقارية وغير وأضحة التفاوت سؤال الخيار، وعلة الأفضل، ومفهوم الجميل... الذي تكمن فيه، بأشكال مختلفة، ذات الناقد بامتدادات زمانها ومكانها وثقافتها، حتى ليرى الجميل حينا ما يلبي حاجته الذهنية والنفسية، ويحسب الأفضل تارة ما ينجع في استمالة السامع وامتياح عطيته وثنائه، ويقدر الأجود حينا بحكمة معانيه، وحينا أخر بحسن العرض لها والدلالة عليها... إلى غير ذلك من العلل الئي تتفاوت وتتفاير بتفاير وتفاوت الأشخاص والأحوال. والوعي بإشكالية الجميل، وإدراك الحيرة المنطقية والقصور المعلي في بلورة علة الاستحسان والرعي بإسكالية الجميل، وإدراك الحيرة المنطقية لدى القدامي، فخلف الأحمر (-١٨٠٠) يقرر ومثلباب التفضيل، لم يكن غائباً عن الرؤية النقدية لدى القدامي، فخلف الأحمر (-١٨٠٠) يقرر الناس؟ فقال: ما ننتهي إلى واحد يجتمع عليه، كما لا يجتمع على اشجع الناس، وأخطب الناس، وأجمل الناس... ومن الواضع، هنا، أن خلفاً يدخل بسؤال الأفضل إلى موضوعات اخرى غير الناس.م. (١٠٠٠). ومن الواضع، هنا، أن خلفاً يدخل بسؤال الأفضل إلى موضوعات أخرى غير الشعر، هي (الشجاعة) و(الخطابة) و(الجمال)، ليجسد وجه العسر، وحقيقة الواقع، لأفضلية مطلقة، نعوذج الأفضلية والاتفاق على الإشارة إليه عياناً، لأنه لا وجود، في حقيقة الواقع، لأفضلية مطلقة، بل لابد أن ترتهن تلك الأفضلية نسبية التصور والعلاقة النابعة من ذاتية ذات (في زمان ومكان)

كما ينقل ابن سلام رواية سليمان بن إسحاق الريالي (-؟) عن (يونس) (-١٨٢هـ)، آنه قال: «الشعر كالسراء، والشجاعة والجمال، لا ينتهى منه إلى غاية الله ونفي يونس، هنا، الانتهاء إلى غاية في الشعر والشرف والشجاعة والجمال يطلقها من حيز المحدودية، ويرتفع بها عن النسبية، ويذلك تنتمي إلى نمط المثاليات المجردة التي يصبح التحقق الواقعي لصورها جزءاً ظاهراً من جوهرها، وكيفية محدودة من كنهها الغائر في فضاء الحلم الإنساني الذي لا تحده حدود.

وغير خاف أن (الانتهاء إلى غاية) في موضوع ما يغلق فاعلية الكشف المعرفي له، ويستبدل بالحلم حقيقة الواقع، وبالأحاسيس الجمالية تجاهه الغاية العملية والنفعية فيه، ومن ثم تستحيل الخبرة الإنسانية له إلى مواصفات نظرية قياسية جامدة، تتفاوت في الاقتراب من حدودها النمطية درجات الفضل وصفات الجودة.

ومن هنا نجد للثقافة والصناعة التي تميز جيد الشعر من ردينه، عند ابن سلام، صفة الغبرة الدوقية، والمرانة، والدربة، بحيث تنفذ من وراء الصفات الشكلية المتساوية أو المتقاربة إلى تقدير قيمة الجوهر، والبصر بدقيق الاختلاف والتمايز بين الموضوعات الجمالية وقد صاغ هذا المؤدى من خلال مقارنة نقد القيمة الشعرية بنقد قيمة الشكل والجمال في الأشياء الحسية كالملؤلئ والياقوت والدينار والدرهم وإنواع المتاع وضرويه والجواري والدوار واصوات القراء والمفتين، هن ذلك الثارة والمشاعات... من ذلك اللائمة وثقافة يعرفها أهل العلم، كسائر أصناف العلم والصناعات... من ذلك اللؤلؤ والياقون، لاتعرف جوبتهما بلون ولا مس ولا طراز ولاوسم ولا صفة، ويعرفه الناقد عند للعاينة، والدينة،

فيعرف بهرجها وزائقها وستتوقها ومغرضها. ومنه البَصرَ بُ بغريب النخل، والبصر باتراع المتاع وضروبه واختلاف بلاده، مع تشابه لونه ومسه وفرعه، حتى يضاف كل صنف إلى بلده الذي وضروبه واختلاف بلاده، مع تشابه لونه ومسه وفرعه، حتى يضاف كل صنف إلى بلده الذي خرج منه، وكذلك بصر الرقيق، فتوصف الجارية فيقال: ناصعة اللون، جيدة الشطب، نقية الثغر، حسنة العين والانف، جيدة النهود، ظريفة اللسان، واردة الشعر، فتكون في هذه الصفة بمائة دينار وبعنتي دينار وأكثر، ولا يجد واصفها مزيدا على هذه الصفة... دينار وبعنتي دينار وبمنتي دينار، وتكون آخرى بالف دينار وأكثر، ولا يجد واصفها مزيدا على هذه الصفة.. ويوصف الأخر بهذه الصفة، وبينهما بون بعيد، يعرف ذلك العلماء عند الماينة والاستماع لمه، بلا صفة ينتهي إليها، ولا علم يوقف عليه، (١٠٠٠). أي أن تقدير التفاضل الجمالي لايحيل إلى المستقر والناجز من مقررات الذهن، ومعايير العرف، وصفات الشكل، فليس هناك صفة منتهية للجمال والقيدة، ولا علم تقف عليه نتائج الاستحسان، ويحيل إليه ناقد الفنون، ومستبصر علل للجمال واختلاف قيمها

وفي ضوء رزية ابن سلام هذه يجسد الأمدي وعيه بما يكتنف موازنته بين ابيات ابي تمام والبحتري من قصور المنطق وعجز البيان عن ذكر العلل الجمالية، وتفصيل اسباب الإجادة والإحترى من قصور المنطق وعجز البيان عن ذكر العلل الجمالية، وتفصيل اسباب الإجادة والرداءة التي تتجاوز الصفة الظاهرة لمنهبي الشاعرين، وتتعدى علمه بالانحرافات والأعطاء التي تنتهك عمود ذوقه، ونمط ثقافته، وقالب إدراكه، فهو يقول: «وإن طالبت بالعلل والاسباب التي البجبت التفضيل، فقد اخبرتك فيما تقدم بما احاط به علمي من نعت منهبيهما، وذكر مساويهما في سرقة معاني الناس وانتحالها، وغلطهما في المعاني والألفاظ، وإساءة من اساء منهما في الطباق والتجنيس، والاستعارة، ورداءة النظم واضطراب الوزن، وغير ذلك مما أوضحته في مواضعه وبينته. ...(۲۰۰) ثم يقول: «... ويبقى ما لا يمكن إخراجه إلى البيان، ولا إظهاره إلى الاحتجاج، وهي علمة ما لا يعرف إلا بالدرية ودائم التجرية وطول الملاسمة، (۱۰۵۰). ويذهب ايضا مذهب ابن سلام في إيضاح هذه الدربة بالقارنة بين العلم بالشعر والموفق بالوسائل والمستوعات المنفية والمدية بالوسائل والمستوعات النظمية والمدية، كدالموفة بالعين والورق والخيل والسلاح والرقيق والبز والطيب وأنواعه، (۱۰۵۰).

إن الدربة -إذن- كمقوم معرفي، في البصر بالأفضل والأجود، هي ملاذ لاختصار طريق الحفر وراء ظاهر النص، والتحليل لعناصر الرؤية الجمالية الناقدة، وهي إذ تستر العجز عن التعليل، وتبرر قصور الية النظر تدخر مادة ثرية من الرؤية الاجتماعية والإنسانية، ومن الوعي بالحياة . ومن شأن ذلك أن يشعرنا بالحرمان من عدم تمكن علمائنا القدامى من اختراق (ميتافيزيقية) هذه العلة الصامتة، وافتراع أسئلة التحليل لمكوناتها ومظاهرها، وما ينعكس عليها من طبيعة الواقع الاجتماعي والرؤية الكونية في زمانهم.

ثعلب -إذن- من خلال مصطلحاته التي يقسم بها أبيات الشعر، يدلنا ضمنيا على هذه المسكلة المعرفية في الوعي الجمالي والنقدي العربي للشعر في زمنه، وهي إذ تدخل كمقوم لاختيار التسمية، ومرجع يحيل إليه الاصطلاح النقدي على يديه -كما نحدس- فإنها تمثل غياباً في مقابل حضور المصطلح الدال عليها، وخلفية عميقة يصجبها الصمت الذي انتهكه من قبله خلف الأحمر ويونس وابن سلام، ثم الأمدي والقاضي الجرجاني وغيرهم، حيث قدموا -كما رأينا- ما يشير صراحة إلى بروزها في الوعي، وحضورها في العملية النقدية.

والملاحظ أن مصطلحات ثعلب التي تتخذ من صفة الشكل والهيئة طابعها الدلالي الوصفي لا المعياري التفاضلي تتصل بتقسيماته للابيات، فهي تقسيمات وصفية للعلاقات التركيبية أو التاليفية البنية المعنى في البيت، وحين نطالعها نتذكر تصور (رولان بارت Roland التاليفية المعنى في البيت، وحين نطالعها نتذكر تصور (رولان بارت Parthes) للعلاقات التي تربط بين البنيات، وهو تصور يندم من نضمن الجملة معنى الأخرى أو عدم تضمنها، ويذلك تمثل (بارت) ثلاثة أنواع من التاليف والتعالق: يعود أولها إلى تضمن إحدى الجملتين لأختها، واعتماد كل واحدة منهماعلى الأخرى (كما هو الحال في جملة الشرط وجوابها)، ويرجع ثانيها إلى تضمن واحدة من الجملتين للأخرى في حين تكن الثانية حرة من العلاقة بها (كما هو الحال في تعلق شبه جملة بجملة أخرى تامة ومستقلة) وياتي ثالثها من عدم تضمن الجمل لبعضها البعض، واعتمادها على التاليف الحر(١٠٠٠).

إن ثعلبا يصف هذه العلاقات التاليفية للمعنى في حدود البيت الشعري بشطريه أو بصدره وعجزه، فالمعدل من أبيات الشعر، كما قال: «ما اعتدل شطراه، وتكافأت حاشيتاه، وتم بأيهما وقف على معناه، والبيت الأغر هو «ما نجم من صدر البيت بتمام معناه دون عجزه، وكان لو طرح أخره لأغنى أوله بوضوح دلالته»، والبيت المحجل هو: «ما نتج قافية البيت عن عروضه وأبائ عجزه بغية قائله، والابيات الموضحة هي «ما استقلت أجزاؤها وتعاضدت فصولها، وكلارت فقرها، وأعدلت فصولها، والأبيات المرجلة هي التي «يكمل معنى كل بيت منها بتمامه ولا ينفصل الكلام منه ببعض يحسن الوقوف عليه غير قافيت» (٨٠٠٨)، وقد أورد لكل نوع نماذج شعرية تصدق صفقه التائيفية وترضحها عمليا.

ولاريب أن (ثعلبا) بهذا الوصف البنائي يمكن أن يصنف مع أولئك الذين مهدوا للتحليل النظمي في نقدنا القديم، أي أنه كان، برؤيته النجوية لتشكيل المعنى، يصدر عن شهية المعرفة، ويتحرى ويكتنه ويستبطن، ويمثل هذه الرؤية يصبح جديراً بأن ينفذ بالنظر النقدي إلى كشوف للغة الشعرية بطابعها النوعي المتمايز بين الشعراء، وقد وصل بها بعد ذلك عبدالقاهر الجرجاني (-٤٧١هـ) إلى نتائجه الباهرة، قياساً إلى زمانه، في نظريته عن (النظم).

لكن هذه الرؤية لدى ثعلب، لا تتحرر حكما رأينا- من هيمنة المفاضلة، ولاتخلص نقديا للمعرفة بإمكانات اللغة، والكشف عن الية الرؤية الشعرية فيها، وقراءة ما تجسده من فعل شعري يشمره الوعي الخاص بالشاعر، ويفتَّقه حسه الجمالي حيوية وجدة تعيد للغة بكارتها وشفافيتهاالفطرية فوصف البناء الدلالي للبيت يبدو وكانه ذريعة لبناء أساس تفاضلي لشكل المعنى في الإبيات، وهذه الكيفية هي -بدورها- المبرر الذي يتدح لرؤية ثعلب أن تتصل ببنية النقد الشعري في سياقه الثقافي والاجتماعي، وأن تكتسب قيمة دلالية نقدية، فلو وقف ثطب برؤيته عند حدود الوصف، ولم يفاضل لبقي خارج معاني البصر بالقيمة الشعرية، وبون الوعي بما تفرضه المعرفة النقدية لعصره من دلالة معيارية حاسمة هي شغل النقاد الشاغل.

٤- عمود الشعر وسياق (المركزة) للذات العربية المحضة

وكما ارتكزت مصطلحات (الخليل) و(الاصمعي) و(ثعلب) في الدلالة على المعرفة بالشعر على سياق الرؤية الوظيفية الاجتماعية والثقافية التي مثلها الشعر القديم واوحى بها، وكما انتخبت تلك المصطلحات من المهاد الأساس للشعر العربي وهو (البادية) التي لم تعد واقعا يحياه الشعر العباسي، بل محمولا تتوهج به اللغة، ونسغاً تنبض به شرايينها، وسط جهد وحرص من اللغويين والنقاد على استمرار ذلك، وأن يحمل الشعراء عليه حملاً... على نحو ذلك جاء مصطلح (العمود) الذي قام في موازنة الأمدي، ووساطة القاضي الجرجاني، وفي شرح حماسة أبي تمام للمرزوقي (-٤٧١هـ).

إن (عمود الشعر) يدخر عمقاً غائراً وراء سطحه، عنه تصدر غايته المعرفية، وفيه تكمن دوافعها وطوابعها ولا وعيها الذي يتجاوز الحدود العقلية والموضوعية للمعرفة النقدية، لتغدو ثلك المعرفة - في محصولها الأخير - رهناً لوعي محكوم في إطار الذات بصيغتها وسياقها وزمانها ومكانها، أي بلغتها التي لا تعي تلك الذات وجودها بما هو خارج عن هذه اللغة، فضلاً عن أن تعي - بغيرها - ما تتصدى له من موضوعات النقد. فليس في الشعر عمود، بمدلول (العمود) حسياً ومكانيا، ذلك أن العمود بهذا الملول هو -كما في السان العرب ما «تصامل الثقل عليه من فوق كالسقف يعمد بالأساطين المنصوبية، (١٠٠٩). ولذا ينقل ابن منظور (-٧١١هـ) قول الليث: «يقال لأصحاب الأخبية الذين لاينزلون غيرها هم أهل عمود وأهل عماد»، ثم يقول: «والعماد والعمود: الخشبة التي يقوم عليها البيت، (١٠٠٠)

فالعمود، في وعي العرب به حسياً وعملياً، هو محور البناء وقائمته التي يتهاوى بتهاويها، ولايقوم وجوده عند اختلالها، وهو في إطار هذا الوعي مرتبط بـ (البيت)، الذي هو مارى الإنسان ومقر طمأنينته وعلامة استقراره ووجوده الحسي من جهة، ومرجع أخلاقياته وصفاته الاجتماعية ووجوده العنوي من جهة ثانية، ومن هنا لا يقتصر (البيت) على معنى السكنى والمعيشة بحسبانها ضرورة طبعية للفرد، بل يعني شرف الإنسان وعزه وحسبه ونسبه بحسبانها ضرورات اجتماعية. اي أن (العمود) الذي عليه مقوم بناء البيت ينهض ببناء متسلسل في الزمان، وبذلك كان (عمود النسب)، وكانت بيوتات العرب، والبيت منها - كما يقول ابن سيده (-80 عهـ) - «الذي يضم شرف القبيلة كال حصن الفزارين، وال الجَدُين الشيبانين، وال عبدلدان الحارثين... إلغ، (***).

وينهض ببناء حاضر في المكان، ويذلك كان (عمود الخباء) وكان (البيت) بمعنى الدار أو الخباء أو أمراة الرجل.

هذا الارتباط بين (العمود) و (البيت) في الوعي اللغوي، يفضي إلى انسجام لا واع بين (العمود) والشعر، وقد راينا أن (البيت) بمعناه البنائي البدوي (الخباء) يدخل إلى وصف بناء الكلام في وزن وقافية، فجاء (بيت الشكر) وأسبابه واوتاده.. ويذلك ياتي (عمود الشكر) في تعالق وثناغم تنطيع به الية التسمية، وفضاء التصور الذي تحمله اللغة لكينونة العربي اجتماعياً وحسياً وإبداعياً...

وهكذا يغدر (الآمدي) في قوله بـ (عمود الشّعر) خاضعاً ومنسجماً مع اللغة، ومتصلاً معرفياً بوعي التثبيت لها، ودعم سياق الاتصال لسلسلة النقل والاتباع الجمالي فيها. .. ذلك السياق الذي يحتوي الية النظر المعرفي، ويحتشد له جهد العصر في مجال الدراسة اللغوية والادبية عامة.

وهذا يعني أن انتخاب لفظ (العمود)، واختياره يصدر عن إرادة التلكيد على مركزية محددة في النظر إلى الإبداع الشعري، بحيث يحمل (العمود) هيمنتها، ويجسد محور بناء رؤيتها النقدية، وقاعدة أحكامها، وسياق ذوقها، ودلالة (العمود) على هذه المركزية يتجلى في مستويات ثلاثة: أولها: الذات العربية: فالعرب أهل عمود، وقد كانت الخيام والأخبية العربية أساس حملة الانتقاص والنظرة الدونية التي أحاطهم بها أصحاب الحضارات الأخرى التي ارتقت فيها معاني التحضر والاستقرار العمراني والمدني، حتى قال شاعرهم مؤكداً هذا المعنى:

في بلدة لم تصل مُخُلُّ بها طُنُباً ولا خباءٌ، ولا عَلنُّ وهَ مُدانُ ارضُّ يُبَنِّي بها كسرى مساكنه فما بها من بني اللَّخْنَاء إنسانُ^{١٧٢})

وثانيها: مالوف الذوق: إذ «العمود» يعني نمطاً من الجماليات المتواترة والناجزة، وهو نمط أملته رواية الشعر القديم، واساغه التمرس به بحثاً وتقعيداً وقياساً واستشهاداً، حتى استقر الإلف له، وقام الإحساس به في هيئة يجسدها العمود.

وثالثها: فطرية الرؤية وطبعيتها: فالعمود إشارة إلى واقع بسيط، هو واقع المارسة المية والمعاشرة المباشرة الذي لايحجب النظر فيه حاجب الرفاهية، ولا يزيَّف التجرية تعمُّل الصنعة، وكنب التخيل.

وهذه المستويات الثلاثة التي تشف عنها مركزية العمود، تغدو ملامح بارزة في الإطار النظري الذي يطرحه النقاد القدامي لعمود الشعر العربي

ففي مستوى تأكيد الذات العربية و(مركزتها) يقترن وصف العمود بالإحالة إلى (الموثين) و(المرأدين) و(عادة العرب) و(طريقتها) (١١٣)، في مقابل (الموثين) و (الموثين) النين ينضوون بمنطق الرؤية الاصطلاحية لـ (العمود) في معنى النفي لعروبتهم، أي أن النقاد بهذا المنطق يتحرون في الدلالة على الذات العربية ما يفي بصفائها وتمحضها وصدقها، وهي الصفات التي تأتي – زمانياً – من القديم، و-مكانياً – من البادية، و-عرقياً – من العرب، وبذلك لاتستطيل الذات العربية في الزمان، ولا تمتد في المكان، ولاتندمج في الأعراق، لأن حدوث ذلك يعنى انكسار عمودها.

وفي مسترى (الذوق)، يقف (العمود) بفعل التذوق عند حدود القرب، والوضوح والإلف، وهي الحدود التي رأها الأمدي في طريقة البحتري، وقصر حقيقة الشعر المعلومة عليها، قائلاً: «وليس الشعر عند أهل العلم به إلا حسن التأتي، وقرب المأخذ، واختيار الكلام، ووضع الألفاظ في مشله، وأن يورد المعنى باللفظ المعتاد فيه المستعمل في مثله، وأن تكون الاستعارات

والتمثيلات لائقة بما استعيرت له وغير منافرة لمعناه... وتلك طريقة البحتري، (١١٤). ثم ذهب إلى وصف هذه الطريقة في اكثر من موضع بأنها «عمود الشعر» (١١٥)، وقرنها في مواضع عديدة بمعياريته في القياس على مذهب الاوائل وطريقة العرب، كقرله في وصف بعض الاستعارات: «فهذا مجرى الاستعارات في الكلام، (١١٥) وهذا «أشبه بكلام العرب» (١١٧).

وفي مقابل ذلك يأتي البعد، والغموض، وتوليد المعاني... وهي السمات التي تميز طريقة أبي
تمام في نظر الأمدي(١١٨)، وبذلك كان خارجاً على (عمود الشعر)، وكان شعره «لايشبه أشعار
الأوائل» (١٩٠١)، واقترن وصفه لأخطائه في مواضع كثيرة بمثل قوله. «هذا الذي وصفه أبو تمام
ضد ما نطقت به العرب،(١٦٠٠)، وقوله: «هذا كله لفظ سائغ مستقيم، غير أنا ما سمعنا مثل هذا في
الربح، ولا علمناه في اللغة، ولا وجدنا في الشعراء أحداً قال: (الصبا وقبولها) ولا (الجنوب
وقبولها)، أي سهلها ولينها،(١٣١١)، وقوله، «وهذا خلاف ما عليه العرب، وضد ما يعرف من
معانيها،(٢٢٢)، الخ.

ومعنى هذا أن عمود الشُعر يحيل، فيما يعتمده نوقياً وجمالياً إلى خصائص جمالية ناجزة، مُرِن عليها فعل التلقي، واستسلمت لشيوعها وتواترها حاسة الاستجابة والانفعال، وساغت في الفهم، وبذلك قام مصطلح (العمود) في الرزية النقدية ليمنحها سلطة الهيمنة، وخاصية التمركز في حركة الفعل الإبداعي للشعر

وفي مستوى الطبع والفطرية، يربط (العمود) بين الشعر والواقع العملي المباشر للحياة العربية من خلال صبيغة البادية وفضائها ويبدو هذا الربط في التلكيد على (الاعرابية) والإصابة في الوصف، وصحة المعنى ووضع الكلام في مواضعه، والمقاربة في التشبيه والاستعارة، ولزوم الوصف، وصحة المعنى ووضع الكلام في مواضعه، والمقاربة في التشبيه والاستعارة، ولزوم الطبع والابتعاد عن الصنعة والتكلف والاستكارة، ولذا كان من صفات شعر البحتري الذي مثل (عمود الشعر) في نظر الأمدي أنه «أعرابي», ومطبوع» (١٣٧٠). كما أنه يتسم بـ «وضع الكلام في مراضعه، وصحة العبارة» (١٤٤). وكان مدار المفاضلة الذي يجسد نظام القريض وعمود الشعر عند العرب، في رأي القاضي الجرجاني، هو ما يلخصه قوله: «وكانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن: بشرف المعنى وصحة، وجزالة اللفظ واستقامته. وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب، وشبه فقارب، ويده فأغزر، ولن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته. ولم تكن تعبا بالتجنيس والمطابقة، ولاتصفل بالإيداع والاستعارة إذا حصل عمود الشعر ونظام القريض ،(٢٠٥).

_ عالمالفکر _

ولاريب أن مركزية هذا المسترى تنبثق من حضور الواقع وطفيانه، وهو الحضور الذي تمثله الحياة البدوية للأعراب، تلك الحياة التي تلح الأشياء الطبيعية فيها على الوعي الإنساني، وتستقطبه أو قل تؤكد على اقترابه منها، وتمثله لها، والانطباع بحقيقتها على نحو صادق وماشر.

وإذا نحن تاملنا في المستويات الثلاثة لمركزية العمود، نجدها تصدر عن نظرة خارجية ساكنة وغير شعرية لخصائص الإبداع الشعري القديم، إنها لاتستبطن رؤياه على نحو حي ومتنام ودائب التغير، وبذلك تقصر عن إدراك قيمته الشعرية واللغوية في عمقها الإنساني والتاريخي والجمالي...

فدلالة الشعر العربي القديم على (العرب)، وتجسيده لطريقتهم ومذهبهم، إنما هي دلالة على الإنسان فيهم وفق مكان وزمان وجنس وثقافة وظروف محددة، ومن ثم لا يصح أن نعتبر طريقتهم واحدة إلا على وجه الإجمال، فهي ليست حجميعاً – إبداع فرد منهم، وهي متمايزة ومختلفة بقدر ما يبدو أنها متجانسة ومتوحدة، ويترتب على هذا حضمنياً – أن تختلف طريقة العرب من عصر إلى آخر مع ثبات عرقهم ولغتهم، فالآمدي وغيره من النقاد القدامى حين يثبتون لقدامى العرب طريقة شعرية، يثبتون لمحدثيهم الحق في أن يكون لهم طريقة.

ويقودنا هذا إلى رؤية خاصية اساسية في اصول الرؤية الشعريةالتي بالفها ذوق عمود الشعر، فالتأكيد على ماساغ والف وجرت به العادة من وضسوح وقرب، إنما هو تأكيد على ما يدركه خالف لسالف وتابع لمتبوع فالإساغة والإلف والشيوع والعادة، ومن ثم الوضوح والقرب ووضع الألفاظ في مواضعها، إنما هي أمور تاريخية تحدث في الزمان، وتكون بعد عدم، وتصيير بعد كون، فالمالوف كان غريباً، والواضع كان غامضاً، والقريب كان بعيداً...

ومثل ذلك ما نجده من تلكيد العمود على الطبع والفطرية والتعلق بحقيقة الواقع، إن قصرها على ماهو (أعرابي) و(قديم) يستلزم فرض الكذب والتكلف والادعاء على النتاج الذي يطابق واقعاً محدثاً وطبعاً مدنياً، فمثل هذا النتاج، وإن لم يكن أعرابياً وعلى مذهب الأوائل، فإنه صادق ومطبوع وواقعي بالقياس إلى واقعه الإنساني التاريخي، في الوقت الذي يغدو النتاج الأعرابي المطبوع بطريقة القدامى كاذباً ومفارقاً للواقع المحدث.

الهوامش والمراجع

- (١) المعجم الوسيط مادة (ص ل ح).
- (٢) لسان العرب: مادة (ص ل ح).
 - (٣) المعجم الرسيط: المادة نفسها .
- (٤) ثقافة الأسئلة، ط٢، دار سعاد الصباح، الكريت، ١٩٩٢م، ص٠٠٠.
- (*) د. لطفي عبدالبديع. فلسفة للجاز بين البلاغة العربية والفكر المديث، ط٢. النادي الأدبي الثقافي، جدة، ٢-١٤هـ/ ١٩٨٦م، ص ١٣٠
 - (٦) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأنب، ط٢، مكتبة لبتان، ١٩٨٤م، ص٢٦٨
 (٧) الصدر نفسه
 - (٨) المجم الأدبى، ص٢٥٢
 - (٩) التفكير العلمي، ط١٠، ذات السلاسل، الكويت، ١٩٨٩م، ص٤٠
- (١٠) مرجمه السابق، ص٣٦، وانظر، في الوضع نضه، تعليل ويشيل المكتور على ما يبدر انه حقائق مطلقة تنافض بصطة الحقيقة العلمية بناء نصبياء أي تصدق على إطارها الخاص، وإذا تغير هذا الإطار كان لابد من تعديلها المرجم نفسه، ص٣٦٠-٢٣٤ المالة المسلمة المسلم
 - (١١) للرجع نفسه، ص٢٦.
 - (۱۲) للرجع نفسه، س۵۰-۸۰
 - (۱۳) مجلة قضايا عربية، بيروت. ۱۹۷۶م. ع۲، ص۱۳۹ نقلاً عن جبور عبدالنور. مرجعه السابق. للوضع نفسه (۱۶) د. جميل صليها: للمجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ۱۹۵۲م، ج۱ ص/۶۶
- (۱۰) انظر. هنترميد. الفلسفة انواعها ومشكلاتها، ترجمة د فؤاد زكريا، ط٧، مكتبة الانجلو الممبرية، القاهرة، ١٩٨٦
 - مص۱۹۳ . (۱٦) الرجع نضبه.
 - (١٧) في تحديث الثقافة العربية، ط١، دار الشروق، ٧-١٤هـ / ١٩٨٧م، بيروت والقاهرة، ص١٣١
 - (۱۸) د. فؤاد زکریا: مرجعه السابق، ص۹۵
 - (۱۹) للرجع نفسه، ص٢٦
- (٠٧) قدامة بن جمعفر (-٣٣٧هـ) نقد النثر، تحقيق عبدالحميد العمادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٠٤٧هـ/ ١٩٨٨م، مص صحاب مقدمة للكتاب ميرا-- ١٠، وقد قام صحاب وغير المسابق المسابق الكتاب مية ١٩٤٢م. وقد قام الأستاذ العبادي، بتحقيق هذه النسبة صراء ١٩٠٠، ونشرت وال طبقة الكتاب سنة ١٩٣٧م، اكن باحث الوقياة عور عليه حسن عيدالقادان نشر مقالاً سنة ١٩٤٨م في موقة المهمية العلمي العربي بمعشق، بنسب هذا الكتاب إلى إسحاق بن إبراهيم بن وهب (-) ويعدم جزءاً من كتاب (البرهان في وجوه الدينان). انظر د شوقي ضيف البلاغة تطور وناريخ،
 - ط٤، دار المارف، مصر، ۱۹۷۷م، ص٩٢ (٢١) ط مصطفى البابي الطبي، القاهرة، ١٩٣٨
 - (٢٢) تحقيق: حسَنيْ بنَّ فيض أله الهنداني، مطبعة الرسالة، القاهرة، ١٩٥٦م.
 - (٧٣) تحقيق: عثمان محمد أمين، مطبعة السعادة ومكتب الخانجي، القاهرة، ١٩٢١م.
 - (۲٤) تحقیق: د. محسن مهدي، دار الشرق، بیروت، ۱۹۹۸م
 (۲۰) ط إدارة الطباعة المنبرية، القاهرة، ۱۳۶۲هـ
 - (۱۰) طارداره الطباعه النبرية، الفاهرة، ۱۹۳۷م. (۲۱) طامصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ۱۹۳۷م.
 - (۲۷) فلامطنطنی الپایی الطابی، الطاب (۲۷) المکتبة الوهبیة، مصر، ۱۲۸۲هـ
 - (۲۸) تحقیق. أحمد بدوی رحامد عبدالمجید، الإدارة العامة للثقافة، القاهرة، ١٩٦٠م.
 - (۲۹) منشررات خیاط، بیروت، ۱۹۲۲م
- (- ۲) الطر-ملا التام في رجعفر: فقد الشعر، حيث اتى بمصطلحات لأساليب تعبيرية لم يقف عليها من قبله، واستبيل
 را الطر-ملا التام في رجعفر: فقد الشعر، حيث اتى بمصطلحات لاساليب تعبيرية لم يقف عليها من تعبله، واستبيل
 السامة، بعضها الآخر مصطلحات من وضعه هو، وقال مالا كنت أخذاً في استنباط معنى لم يسبق إليه من يضع لعانيه

وفدونه المنتنبطة اسماء تقل عليها احتجت أن أضم لما يظهر من نلك أسماء أخترعها، وقد فعلت ذلك، والأسماء لامنازعة فيها إذ كانت علامات، فإن قدم بما وضمته، وإلا فليضترع لها كل من أبلاي ماوضعته منها ما أحب، فليس ينازغ في ذلك، (نقد الشعر، تحقيق كمال مصطفى، ط7، ١٩٧٨هـ/ ١٩٧٨م، ص7٢-٢٤)

(٢١) كسؤال ابي حاتم السجستاني (-٣٥٥هـ) للأصمعي (-٢٥١هـ) عن «معنى الفحل» من الشعراء (فحولة الشعراء» تعقيق د محمد عبدالقامر احمد، مكتبة نهضة مصر، القامرة، ٤١١هـ/ ١٩٩٩م م١٧٠) أو الاسئة التي وجهب إلى قدامة نفش محمد بن الحسن الحاتمي (-٨٨هـ) حلية الحاضرة، تحقيق هلال ناجي، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٨٧٨م من ١٩٣٠م، من ١٩٣٤م.

(٣٢) الموازنة بين أبي تمام والبحثري، ص٥٩٦

(۲۲) مزريت بن اين عدم وسيستري، هل٠٠٠
 (۲۳) فرديتاند دي سوسير (۱۹۹۳م) علم اللغة للعام، ترجمة. د يونيل يوسف عريز، ط۲، بيت الموصل، العراق، ۱۸۸۸م، صر٣٣

(۲۶) المرجع نفسه، ص۶۸–۸۵

(۳۰) نفسه، ص۸۸–۸۷

(۲۱) نفسه، ص۲۷

(٣٧) نشاء ص٣٦ (٨٦) نقلاً عن محسس حاسم الوسوي القارنة والتناص قراءة مستجدة في منهجيات الأدب القارن، علامات، نادي جدة الثقافي (الايم: ٢٤- م) شعبان ١٨٤ أهـ/ ديسمبر ١٩٤٧م، ص٣٤

(۲۹) المرجم نفسه، ص ۲۸

(٤٠) نقلاً عن د ميجان الرويلي، ود. سعد البارعي دليل الناقد الادبي، ط١، العبيكان، الرياض، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م. ص١٤٧

(٤١) عن مصنى جاسم الموسوي مرجعه السابق، ص٤٢

(٤٢) النظرية الأدبية المعاصرة، ترجمة. د جابرعصفور، طاءدار الفكر، القاهرة، ١٩٩١م، ص١٦٧.

M. H. Abrams: Aglossary of Literary Terms, 6 th ed, U.S.A. 1993, P. 249. نقلاً عن (٤٣)

(٤٤) انظر رامان سلدن، مرجعه السابق.ص١٦٩-١٧٢

(٤٥) المرجع نفسه، ص١٧٢

(21) من دلك -ستلاً- معجم البلاعة العربية، لبدوي طبانة، 18، دار العلوم، الرياض، ٢-١٤هـ -١٩٨٢م (وقد صدرت طبعته الاولى عام ١٩٧٥هـ/ ١٩٧٥م)، ومعجم المصطلحات العلاغية وتطورها، لاحمد مطلوب، مطبعة المجمم الطمي العراقي، ٢-١٤هـ/ ١٩٨٣هـ/ ١٩٨٨م.

(١٧) مثال عدد من الدراسات والرسائل الجامعية في هذا الصدد، من دلك ما نجده من عرض للمصطلحات عن قدامة ضمن رسالة بدري طبائة للقدمة إلى كلة دار العلام جامعة القامرة، بعنوان (قدامة بن جعفو والنقد الأدبي) هذ سيعت مرات، وفي المبائة القديمة الم كلية المدين إلى المسلح التقدي في نقد المشعر - دراسة لفرية تاريحية نقدية) (وقد صدرت عن النشأة الشععية، طرابلس، ليبياء ، ١٨٨٤م)، ورسالة لحميدة التيفي، بعنوان (مصطلحات تقدية ويلاغية في كال البائد الشيئة الشيئة من المراتب المسلحات تقدية ويلاغية في كال البائد الليئاد والتيبي روسالة قديل إلى طابة الأفراد السابح الليئاد والتيبي والتيبي والمسلحات والمسلحات القدية في كال المسلحات الليئاد المسلحات المسلحات المسلحات بدينة منها المسلحات القديمة المسلحات الشيئة المؤسسة من سياق معرض وتاريخي كما عن ادريس التقديق، ويضم المسلط عمناها المسلحات المسل

(٤٨) من ذلك ما يتجلّى في كتاب إحسان عباس تاريخ النقد الأدبي عند العرب نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري (وقد مسرت طبعته الأولى عام ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م)، وفي كتاب محمد مندور النقد النهجي عند العرب، دار نهضة مصرر القاهرة، (دون تاريخ).

(٤٩) من ذلك مؤتمر النقد الأدبي الذي عقدته جامعة اليرموك بإريد بالأردن في ١/١/٤ ١٩٩٩م، والعدد الذي حصصته مجلة (فصول) الصادرة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب لـ (قضايا المصطلح الأدبي) مجلا، ع؟، والعدد الخاص من مجلة (علامات) الصادرة عن النادي الثقافي الأدبي بجدة عن (المصطلح قضاياه وإشكالياته، مج٢، ع/١٩٩٢م

- (٥٠) الصدر نفسه، من٢٧-٣٢ .
- (٥٠) الموشح، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٥هـ/ ١٩٦٥م، ص٢٦-٢٧.
 - (٥٢) تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ط٢ ، دار الثقافة، بيروت، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ص٤٧
 - (٥٢) المرجع نفسه، ص١٥
 - (١٥) المرجع نفسه، ص٥٨
 - (٥٥) الرجم نفسه، ص٦٨
 - (٥٦) أبق حاتم السجستاني: مصدر سابق، ص١١٧ . (٥٧) المصدر نفسه، ص١٠٧
 - (٥٨) انظر· لسان العرب مادة (حقق)
 - (٥٩) السجستاني مصدر سابق، ص١١٥
 - ر) (۱۰) المندر نفسه، من۱۱۱
 - (۱۱) المندر نفسه، ص(۱۲
 - (۱۲) المعدد نفسه ص) (۱۲) الصدر نفسه
- (٦٢) استخدم أبو عمرو بن العلاء صفة (الفحولة) قبل الأصمعي للتمييز بين الشعراء انظر . ما يرويه الأصمعي عنه في المصدن السابق، ص١١٩ - ١٠٠٠ .
- (٦٤) اعتمد ابن سلام، في طبقاته، على مقياس (الفحولة) ايضاً انظر طبقات محول الشعراء، تحقيق مجمود مجمد شاكر، دار المدنم، جدة (بون تاريخ) ٧١/١
 - (٦٠) ابن قتيبة الشعر والشعراء، تحقيق احمد محمد شاكر، ط٢. دار المعارف، مصس ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م ٢/ ٦٠٣
 - (٦٦) سورة الزخرف الآيات ١٥–١٨
- (٦٧) ابن عبد ربه. العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين وزميليه، ط٦، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م ١٩٢١م
 - (٦٨) ابن قتيبة. مصدر سابق. ٢٩٧/١ . ص١٨٦، ابن عبد ربه مصدر سابق ٥/ ٢٢٠
- (٦٩) البيت المادي والثلاثون من معلقته، انظر ابو بكر محمد بن القاسم الانباري (٣٦٠هـ)، شرح القصنائد السبع العلوال الجاهليات، تحقيق عبدالسلام هارون، دار المارف، مصر، ١٩٤٠هـ/ ١٩٨٠م، ص٢٦٨
 - (٧٠) ديوان أبي تمام، شرح: إيليا الحاوي، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨١م، ص٢٢٧
 - (۷۱) این سالام مصدر سایق: ۲/ ۲۳۸
- (۷۷) للفضل الضبي (-۱۷۸هـ). للفضليات، تحقيق احمد محمد شاكر، وعبدالسلام هارون، دار للعارف، مصر، ۱۹۷۹م. ق۱/۱، البيت ۹۹
 - (٧٣) لسان العرب مادة (جلب).
 - (٧٤) انظر عن قصة لقيه ابن سلام مصدر سابق، ص١٣٩، وابن قتيبة مصدر سابق، ص١٣٠٠ .
- (۷۰) ابن فقيبة مصدر سابق ۱/ ۲/۲۰ وهناك قول آخر يرويه ابن قتيبة وغيره عن تسعيته بـ (الفحل) وهو انه «كان في قومه رجل يقال له علقمة الشصي ففرقوا بينهما بهذا الاسم» انظر الصدر نفسه (الموضع نفسه)، وانظر الجاحظ، الحيوان، تجفيق. عيدالسلام هارون، ط7، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٨٨هـ/ ١٣٦٩م / ١٢٠ – ١٢
- (۷۷) انظر: ابن قتيبة المصدر نفسه: ١/ ١٦٧-١٦٧
- (۷۷) انظر أبو الفرج الأصفهاني (۱۳۰-۵۳) الأغاني، طدار الفكر، بيروت، ۱-۱۵هـ/ ۱۹۸۱م ۱۰، ۳۳۹، **وقارن** لبن قتيبة مصدر سابق. ۱/ ۱۲۷–۱۲۸ .
- (۷٪) انظر الأصفهاني: مصدر سابق ۲/۸٪ -۱۶، ۵۰ ۲۱، وابن سلام مصدر سابق هر۷۷۸ ۲۸، وابن رشيق (–۶۵ هـ)، العمدة، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الجيل، بيروت، ۱۱ (هـ/ ۱۸۹۸ م. ۱/ ۱۲۰–۱۲۱)
 - (٧٩) عبدالله للعطاني النقد بين المسافة والرؤية، طاء دارالنوابغ، جدة، ١٤١٤هـ، ص١٢١
- (۸۰) بيوانه بشرح محمد بن حبيب، تحقيق نعمان محمد آمين ها، دار المعارف، محمر، سلسلة زخائر العرب (۲۶)، (۱۸۷۸ / ۸۲۱) ۱۹۷۸ (۲۶)،
 - (۸۱) این رشیق ٔ مصدر سابق، ۲/ ۱۷۰ .
 - (٨٢) تاريخ النقد الأنبي عند العرب، ص٨٥
 - (٨٣) النقد النهجي عند العرب، ص٢٧٩
 - (٨٤) تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص٨٥.

__ عالمالفكر _

```
(٨٥) لاحط كيف اقترن الاحتفال بالفروسية والشاعرية لدى العرب في قول أبن رشيق. «وكانوا لا يهتئرن إلا بغلام يولد، أو
شاعر بنيغ فيهم، أو فرس تنتج، مصدر سابق. ١٩/١، وانظر إلى إضفاء حسان بن ثابت صفة السلاح المادي على
شعره في قوله
```

لساني صارم لاعيب فيه وبحري لا تكدره الدلاء

ديوانه، تحقيق د. وأبد عرفات، دار صافر، بيروت، ١٩٧٤م: ١٨/١ (٨٦) انظر معلقة امري، القيس - مثلاً - الأبيات: ٥٣ - ٧٠ لدى الأنباري، شرح القصائد السبع

(٨٧) انظر - مثلاً - قصيدة الرار بن منقذ في المفضليات رقم [١٦]، وقصيدة متمم بن نويرة رقم [٩]، وقصيدة عامر بن

الطعيل رقم [١٠٦] (٨٨) المفضليات، قصيدة [٧٧] البيت، ٩٨.

(۸۸) المفضليات، قصيدة [۲۷] البيت. ۸ (۸۹) ديوان أبي تمام، ص٣٩

(٩٠) للصدر تفسه، ص٤٦٧ .

(۹۱) دیوانه ۱/ ۸۲۲-۲۲۹

(۲۱) دیوانه ۱۸ ۸۲۸–۲۱۹ (۲۲) دیوانه، ص۲۲۳ .

(٩٣) قراًعد الشُّعر، تحقيق رمضان عبدالتواب،القاهرة، ١٩٦٦م، ص٨٠٠ وما بعدها

(٩٤) طبقات ضحول الشعراء مس ٢٧٤-٢٠٠٥، والغير - كما يذكر محمود شاكر (محقق الكتاب) - ورد ايضاً في الاغاني ٢٠ ـ ، ٢٨٠، ١٨٠، والمرشع ١١٥ . و(العلاء بن حريز) نكره ابو محمد الازدي في (المؤتلف والختلف) في اسماء نقلة الحديث وقوله وادرك الناس، يعنى القدماء السالفين، اي هو قديم لليلاد قد سمع بحفظ

(٩٥) ابن سلام مصدر سابق، ص٣٧٥ -

(٩٦) قواعد الشعر، نفس الموضع السابق

(٩٧) البيت رقم ٥٢ من معلقته، لدى الأنباري، شرح القصائد السبع

(۹۸) دیوانها، بیروت، ۱۸۹۰م، ص33

(۹۹) قواعد الشعر، ص-۸

(۱۰۰) طبقات فحول الشعراء، ص١٥-٦٦.

(١-١) للصندر نفسه والسراء والسرو الشرق والسبقاء وللروءة (عن هامش التحقيق) وانظر- أيضاً-تقرير أبي القاسم الأمدي، في (الموازنة) تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العلمية، بيروت (دون تاريخ) عدم اتفاق رواة الاشمار على أحد معن وقع التفضيل بينهم من شعواء الجاهلية والإسلام وللتلخرين، ص٠١

(١٠٢) المندر تفسه، ص٥-٢

(۱۰۳) الموازنة، ص۲۷۲ . (۱۰۶) المصدر نفسه

(۱۰۰) الصدر نفسه، ص۲۷۳

(أ. ١.) القاضي الجرجاني الوساطة بين القنبي وخصومه، تحقيق محمد أبو القضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي البابي الحلبي، القاهرة ١٣٨٦ هـ/ ١٩٦٦م، ص١٩١

(١٠٧) انظر عبدالله الغذامي، الخطيئة والتكفير، النادي الأدبي الثقافي، جدة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص٣٧-٤٠

(١٠٨) ثعلب، قواعد الشعر، نفس الموضع السابق

(۱۰۹) لسان العرب مادة (عمد)

(۱۱۰) المصدر نفسه المادة نفسها (۱۱۱) المصدر نفسه، مادة (بیت)

(١١٢) العقد الفريد ٦/ ٤٠٩ . والطنب: حيال يشد به الخياء

(۱۱۳) القمد العرب الراحاء والسب الباري المراحات المراحات المرجاتي مصدر سابق. ص٣٣-٣٤.

(١١٤) الأمدي، المصدر نفسه، ص-٣٨.

(۱۱۰) المصدر نفسه، هي ۱۱

(۱۱۲) الصدر نفسه، ص۲۲۸ (۱۱۷) الصدر نفسه

(۱۱۸) الصبر نفسه، ص-۱ – ۲۲۷ ، ۲۲۷ .

(١١٩) الصدر نفسه، ص١١

. عالمالفکر ـــــ

(۱۲۰) للصدرنفسه ، ص۱۳۱

(١٢١) الصدر نفسه، ص١٤٤، وذلك في تخطئته قول أبي تمام:

قسم الزمان ربوعها بين الصبا في وقبولها ودبورها اثلاثا

ديوانه، ص-١٣

(۱۲۲) للصدرنفسه، ص۱۸۷ .

(۱۲۲) الصدر نفسه، ص۱۱

(١٣٤) المندر نفسه،ص١٠

(١٢٥) الوساطة، ص٣٦-٣٤، وانظر ذلك ايضاً: في مقدمة شرح الحماسة للمرزوقي ٧/١ وما بعدها

توظيف المأثور القولي في تنمية لفة الطفل

ه. ومعية عبدالمسن المنصور "

ما المأثور القولي؟

نعني بالماثور القولي الجانب المحكي من التراث الشعبي، الجانب الذي تصوغه اللغة، ويحكيه الناس بعفوية، ويصدر عن سياقية شعورية لايحكمها الانتقاء ولا يقومها الانتقاد. فهي متوارثة هكذا سمعت وهكذا حكيت، وإذا ماتدخل الراوي فاضاف أو قصر لا يكون نلك بوعي أو مرهونا بضوابط أو معايير، إنما تدافع الماثور متفاعلا بما تحمله الذات الخصوصية. قد يحدث تعديل هنا أو هناك لمناسبة المقام، لكنه ليس مما يفقد الماثور القولي سمته أو خصوصيته.

^{*} جامعة الملك سعود - الرياض.

أهمية الموضوع وهدف الدراسة

أصبحت الدراسات اللغوية اليوم ميدانا الأوان من الدراسات الإنسانية التي تمس جوانب حياة الإنسان المختلفة، حتى لقد انبثق من دراسة اللغة علوم لغوية بدأت تأخذ سبيلها إلى الانفصال عن علم اللغة العام، مثل علم اللغة الاجتماعي وعلم اللغة النفسي، وامتد فعل اللغة إلى أشكال الإيداع الإنساني المختلفة سواء منها الحركي كالموسيقى، ام السكوني مثل النحت والرسم والتصوير، فالخط العربي وتشكيله يمثل معينا تنهل منه الفنون التشكيلية. والموسيقى جمل تتخطى نفسام الكلام المنطوق، بل هي لغة إنسانية لا يقيد إدراكها حد أو مصطلح

تتجاذب هذه الدراسة اهتمامات متعددة، فمن جهة، المأثور الشعبي القولي تمثله الاغنية الشعبية والحكاية والمثل والمعاضلات اللسانية، والمؤلف اللغوية من الفاظ التحية والمناسبات، والحكم، والأجوبة المسكتة التي تفصح عن سرعة البديهة، والغناء المصاحب للعب، ومن جهة أخرى النمو اللغوي للعلفل، والمكاسب المعرفية التي تتحقق بما يتلقاه من مأثور شعبي قولي. واهتمام أخر يتصل بأهمية التراك الشعبي عامة والمأثور القولي خاصة، فبعد أن طغت الحياة العصرية على مجتمعاتنا الخليجية، واكتسحنا الغزو الثقافي المتعدد الجهات، وذابت هويتنا الخصوصية أو كادت، بعد هذا وذاك، يجد المره نفسه في حيرة وتساؤل: ما صورة المجتمع بعد منا لزمان؟ ومانتيجة هذا المسخ الشخصيتنا العربية؟ وإن كان العالم اليوم قرية صغيرة، أنكون نحن إياهم أم يكونون هم إيانا؟ إن تميز شخصية المجتمع هم شاغل تعقد له الدراسات، وتقام له الندوات، فتحديد شخصية المجتمع أباس التنمية الاجتماعية وبه ترقى الأمم، فأين نحن

لفت نظري غياب كثير من الماثور القولي عن استخدامنا اليومي، ويفسر هذا الغياب بعوامل ومؤثرات متعددة، ترد أحيانا للتطور القولي، وتكون حينا آخر نتيجة إحلال بدائل للماثور القولي، فالرسوم المتحركة وبرامج الأطفال أغنت عن الحكاية، وتجهيزات المولود المزودة بموسيقى مسجلة أغنت عن أغاني المهد والتنويم، والأرجوحة الإلكترونية أضاعت أغاني الترقيص، والعاب الحاسوب أقصت اللعب الشعبي وأغانيه، وأعباء المدنية الحديثة من رفاه اجتماعي وغيره أدت إلى تغير الفعل الاجتماعي في نمط الحياة الحديثة، فالخوف على الأطفال من اللعب في الشارع ومغريات السوق الاستهلاكية بكل ما فيها من زركشة اللون، وإشراق الصورة، وتعقيد التركيب جعل الطفل متلاها لا ماعدودا لا محاورا، وأدى هذا إلى انقطاع رافد من روافد النمو اللغوي عند

الطفل، نضيف إلى ذلك انشغال الاسرة وتبدل الاهتمامات، والانسياق الاولويات مستحدثة في المجتمع باعدت بين الأمهات من الجبل الجديد والمأثور القولي. وما يصاحب ذلك من تطور لغوي تارة، وتلوث لغوي تارات كثيرة، إذ تتداخل اللغات الاجنبية في الاستخدام اليومي ما بين مصطلح معرب وأخر مغرب. كما أن مثل هذه الدراسات لا تعين فحسب بل هي ضرورة لفهم لغة الطفل، ومن ثم بناء مطرق تعليم لغتنا القومية على أساس قويم من الدرس والتجربة، (١/).

تعريف النمو

النمو سلسلة متتابعة متماسكة من تغيرات تهدف إلى غاية واحدة هي اكتمال النضيج ومدى استمراره وبدء انحداره، فالنمو بهذا المعنى لا بحدث فجأة ولا-خبط عشواء، بل يتطور بانتظام خطوة إثر خطوة، ويسفر في تطوره هذا عن صفات عامة تحدد ميدان ابحاثه⁽⁷⁾، وتقول سعدية بهادر: «إنه نظام مترابط ليس محددا بزيادة الحجم فحسب، ولكنه يتكون من تغيرات مختلفة وإن كانت جميعها ليست من الذوع نفسه».⁷⁾.

واجمل القرآن الكريم صورة النمو في مراحله المختلفة، ونلك في قوله تعالى. (يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطقة ثم من علقة ثم من مضعة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام مانشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى آرنل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا) (*-الحج)، فللنمو في القرآن مراحل متعددة لها نقطة البدء ولها نقطة النهاية، وبينهما مراحل «من التغيرات الارتقائية والمنظمة، المتكاملة التي تعدف إلى تحقيق النضج،(أ).

أنواع النمو

يمين الباحثون أنماطا من النمو يتصل بعضها ببعض، وتتراصل حاملة معها عناصر وراثية. وإرثاً إنسانياً ومكتسبات اجتماعية في تفاعل موصول ما بين نقطة البدء حتى نقطة النهاية متمثلة في:

— النمو الحسني: وهو يتصل بالجانب الفسيولوجي لجسم الإنسان: هيكله وبنائه ومعيزاته الشكلية من لون وملامح تظهر فيها بوضوح آثار العامل الوراثي، ويقرر العلماء «أن الجيئات في الإنسان تحمل نوعين من الرسائل احدهما يجعل من الفرد لنسائا لا كائنا أخر، والنوع الآخر بحعل منه فدا متعداً أنه. (ق).

_ عالوالفک _

- النمو الحسي الحركي: ومحوره التحكم في العضالات، ويمكن تعييز التحكم الفطري الذي
 ينمو تدريجيا مسايرا للنضج العمري، وتحكم مكتسب ينمو نتيجة لتلقي خبرات تستثمر عند
 الإنسان في مراحله المختلفة.
- النمو العقلي: هو ما «يتعلق بالوظائف العلي Higher Mental Functions كالإحساس
 والإدراك والانتباه والتفكير والذاكرة والتخيل، وكذلك التغيرات المتعلقة بالذكاء والقدرات المقلية، (¹)
- النمو الانفعالي الوجدائي: ويتضمن الجانب الوجدائي من التكوين النفسي للطفل مثل.
 الحب/الكراهية، التواد/العدوان، الأمان/القلق أو الخوف، الهدوء/الغضب^(٧). وللنمو الانفعالي مظاهر عضوية، ومظاهر عامة تظهر في سلوك الفرد عند المواقف.
- النمو الاجتماعي: ويتناول تكيف الفرد في المجتمع وعلاقاته بالآخرين وتمثله لاعراف المجتمع وانتماثه الأسرى، والتزامه الديني(^)
- النمو اللغوي: اللغة نشاط إنساني يميز الإنسان عن غيره من المغلوقات، وهي إداة الفكر والاتصال، بل هي النشاط الإنساني الفاعل بالحدوث أو بالسكون، فحتى أثناء توقف الإنسان لمطلة عن الكلام فاللغة لا تتوقف. إذ هي مستمرة، حالة من النمو المتصل في الداخل، وتحوطه من الخارج، فلحظة الفعل اللغوي لا تقتصر على المتحدث فالمستمع في حالة نمو لغوي ومثله القارى...
 وهي حاضرة في جميع أحواله الانفعالية وسلوكه الاجتماعي، وهو في حالة نمو لغوي متصل.

ويعد مبحث النمو اللغوي من المباحث التي شغلت علم اللغة الاجتماعي وقام عليها علم اللغة النفسي، واثار هذا المبحث الدارسين منذ بدء الاهتمام باللغات ونشاتها وبدراسة انظمتها وتطورها، ولذلك كان الاهتمام بالنمو اللغوي عند الطفل نقطة البداية، لأنه يمثل المراحل المختلفة للنمو اللغوي، وتحوط هذا المبحث إشكاليات عدة: متى يفطن الطفل للغة ويسمعها وهل يرتبط تأخر الكلام بتأخر النمو العقلي أي ما علاقة الذكاء بالكلام وماالم التي يمكن تمييزها في سير العملية الكلامية وهل اللغة سلوك فطري وهل تكون سرعة النمو في الأنواع المختلفة واحدة وهل التندخل أم تتباين إذ يتضح الارتباط بين نواحي النمو المختلفة بشكل خاص في الأيام الأولى من حياة الطفل، دويتعذر علينا في هذه المرحلة أن نميز تمييزا واضحا بين ما هو عقلي وما هو حركي، وما هو الخطابي وما هو انفعالي. غير أن كثيرا من هذه النواحي التي كانت في الأصل

متشابكة غير معيزة تصبح بمرور الزمن بعد ذلك اكثر تحديدا واكثر تميزا ولو أن الصلة الوثيقة بينهما باعتبارهما جميعا أرجها لشيء واحد نظل موجودة (١٠) ويقرر العلماء أن المظاهر السلوكية المختلفة لاتنحو منحى واحدا عند النمو لا في الزمن ولا في الستوى الشكلي «ومعنى ذلك أن لكل مظهر من مظاهر النمو المنحنى الخارجي الخاص به، فمعدل الزيادة في النمو الجسمي مثلا يكون كبيراً في المراحل الأولى من حياة الطفل، في حين يكون معدل الزيادة في النمو اللغوي اقل بكثير في الفترة نفسها، كذلك تزداد سرعة النمو الجسمي في مرحلة المراهقة في حين تبطؤ سرعة النمو العتلى في المرحلة نفسها وهكذا» (١٠).

منشأ العملية الكلامية

الكلام عملية معجزة معقدة تتهيأ له أجهزة متعددة في الجسم الإنساني، وتؤثر فيه عوامل خارجية تساهم في أداء العملية الكلامية مثل الظرف الاجتماعي، وتأثير الحالة النفسية للمتكلم، بل حالة الطقس والمناخ ومايطرا على المجتمع من تغيرات سياسية واقتصادية يتفاوت تأثيرها في آليات الكلام عند الفرد. ويكشف مسار العملية الكلامية عن «العلاقة التكاملية بين النمو الفسيولوجي والنمو اللغوي بل إن أحد العلماء (تراير Trayer) تشدّد على عامل النضيج والنمو للاعضاء الفسيولوجية، فالتدريب يكون ذا مفعول اجدى وأقوى كلما كانت الاعضاء أكثر نموا ونضبجا. وإن نعط الاستجابة يكون مع النمو أكثر وضوحا وتحديدا (١١) فالعملية الكلامية تخضع لمؤثرين: مؤثر داخلي وهو الية النطق، ومؤثر خارجي مكتسب. وكلا المؤثرين يعتور تركيبه نظام معقد متشابك متصل بأنظمة اخرى داخلية وخارجية وفنحن لكي نلفظ بلفظة واحدة نحتاج إلى تحريك مئة عضلة من عضلاتنا، ولابد أن يتم ذلك في توقيت محدود معلوم، فالعضلات المتحكمة في صندوق الصوت أو الحنجرة لابد أن يتوافق عملها، الذي يسير في شبكات عصبية في قشرة الدماغ، مع العضلات المسيطرة على حركة الصدر والبطن. كما يرتبط كلاهما بحركة عضلات الفم والحلق. ولعل أشد الألحان الموسيقية تعقيدا يقصر في توافقه عما تحتاج إليه جملة واحدة ننطق بها كقولنا: إنه يوم جميل جداء (١٢١) والجانب الأخر هو المؤثّر الخارجي، أي الذي يكون فيه المتكلم مكتسبا متأثرا بما يحيط به من منتج لغوى، أو يؤثر على آلية النطق عنده، وعلم عامل الفعل في إخراج اللغة، ونقصد به مجموع العمليات العقلية من قبول ورفض وتذكر وتخبل واسترجاع...إلخ.

مراحل سير العملية الكلامية

النمو اللغوي مثل غيره من انواع النمو لا يحدث دفعة واحدة، ولا ينتج من عدم. وقد كان لتقدم العلم التقنية في رعاية الام والطفل أثر كبير في كشف كثير من الألغاز المعيرة حول مراحل النمو اللغوي، بل إنه صحح معلومات شائعة في تعديد بداية سير العملية الكلامية. إذ كانت مرحلة الصراخ هي المرحلة الأولى للغة التي يجمع عليها أكثر الباحثين إلا أن العلم الحديث كشف عن الستجابات الطفل المبكرة للغة وهو جنين في رحم أم^(۱۲). ويتراوح المدى بين الاصوات العالية الفجائية التي هد يستجيب لها بحركة عنيفة داخل الرحم، والأصوات الموسيقية الرتيبة (۱۶).

وقد أثبتت الملاحظة العادية للأمهات «أن معظمهن يحملن أطفالهن باليد اليسري ليضعنهم بجرار القلب فيساعدن على تهدنتهم»(١٥).

وتتميز العملية الكلامية بمراحل:

أولا: مرحلة ما قبل اللغة

وهي المرحلة التي تستغرق الشهور الأولى الثمانية من عمر الطفل. وفيها مرصد موقفين لغويين يصدران عن الطفل: أحدهما يتمثل بالصراخ والصبياح، والآخر يكون الطفل فيه متلقيا للغة من حوله، ولعموم الأصوات إنسانية أو غيرها.

واستماع الطفل للغة يحقق له متعة. فمثلا طفل الشهور السنة الذي يتعثر في عملية الجلوس ينتصب قاعدا عند سماع صوت الآذان، ولا يعني هذا بالضرورة فهمه للغة. وففي عمر تسعة شهور فقط ينصتون للشعر والأغاني والقصيص على الرغم من أنهم لا يفقهون شيئا مما يسمعون. ويبدو أن الصوت وحده هو الذي يجذبهم وليس معاني الكلمات،(١٦).

مرحلة المناغاة

وهي داخلة في المرحلة السابقة إلا أنها تتميز بإصدار الطفل للأصنوات الإنسانية جميعها حتى الأصوات التي لاترجد في النظام الصنوتي للفقه أو لغة المعيطين به، كما أنه كلماتقدم في العمر الختف الأصوات التي لاتستخدم في المعيط اللغوى حوله(١٧).

واسنا نعلم لهذه التنفيمات ظرفا انفعاليا محددا غير أن الطفل يغرد في أحوال متفاوتة في

الراحة والشبع، أو عند الإثارة البصرية أو السمعية، ولكن هل المناغاة مرحلة واحدة؟ إن المتأمل لمناغاة الأطفال في الشهر الثاني يلاحظ مراحل تلقائية لا إرابية تصدر من الطفل أولا، ثم تعقبها مرحلة إرابية يكون الطغل فيها فاعلا لا لسبب أو مثير فقط، وإنما فعل إرادي ذاتي محض يناغيه يستمتع الطفل فيه بسماع صوته (١٨١). وتكون المناغاة فعلا إرابيا عند التجاوب مع شخص يناغيه كان تغني له الأم أو يلاعبه أحد الكبار «فالأطفال الذين تربوا في منازل تتبادل الأم مع الطفل اللعب اللفظي نجدهم يتلفظون أكثر وبصورة أكثر تنوعا وشمولا من الأطفال الذين نشاوا في بيوت تكون فيهامثل هذه المبادلة قليلة، (١١). ويمكن القول إن هذه المناغاة لا تكون تقليدا وتبقى مهمة الكبار قاصرة على التحفيز والمشاركة فقط فهي نوع من التواصل الإنساني من جهة، مهمة الكبار قاصوة على التحفيز والمشاركة فقط فهي نوع من التواصل الإنساني من جهة، المناغاة يدرك التنوع الصوتية للتجريب، وتطوير وتحرين تجريبي يستعد به الطفل للمرحلة اللاحقة، فهو في المراحل المتقدمة من فترة المناغاة يدرك التنوع الصوتية للتجريب، المنافدة أن ما يصدر عنه لا يعدو كونه لعبا بالأصوات قد يحقق فعلا اجتماعيا، لكنه يقصر عن اداء الوظيفة الرمزية للصوت. (١٠).

مرحلة الكلام

يتلقف الطفل اللغة من الآخرين، ثم يعبّر عن ذلك بالمحاكاة والتقليد، ويزامن النشاط الاستقبالي نشاط تحليلي «فيبني الطفل تنظيمه اللغوي استنادا إلى عدد من العمليات الذهنية التي ترتبط بنموه الإدراكي،(٢١).

فالطفل يتعلم شكل الالفاظ الصوتي والتراكيب اللغوية، ولكن وفق تنظيم بسيطر عليه ذاتيا وتحكمه قدراته الصوتية والإبراكية، ويتمشل ذلك في نطقه مقلدا ما يسمعه، فما ينطقه كثيرا ما يختلف إما في نوع الصوت (خس/حس) نتيجة للإبدال الصوتي، أو في ترتيب الأصوات وهو ما يعرف بالقلب المكاني مثل (مسكة—— سمكة). ويحدث في تركيب الجملة تقديم وتأخير أو حذف لبعض أجزاء الجملة، وقد يكتفي الطفل أحيانا بنطق الجزء الأخير من الجملة المسموعة مثلا لو سائنا الطفل (أنت تحب السيارة أو الطيارة؟) لأجاب الطيارة، ولو كان السؤال (أنت تحب الطيارة أو السيارة؟) لأجاب: السيارة. ورغم كل ما يطرأ على لغة الطفل من سمات شخصية ينفرد بها إلا أنه يتقن بوعي شديد التنفيم السائد في لغته القومية(٢٢) والطفل حين يكتسب اللغة كانما يكتشف قواعد تلك اللغة(٢٣). وتتحقق مراحل الإدراك اللغوي متزامنة مع قدرات اخرى وهي: الإدراك السمعي، والإدراك البصري. وتتضافر مقدرة السمع والبصر على ترجمة حركات الشفاه، وتمييز الأداء الحركي للمتكلم الذي يقلده الطفل بوعي شديد «فلكل شعب حركاته الجسمية أو كياناته (Kinesics) التي تميزه عن سائر الشعوب، وهذه الحركات يتعلمها الأطفال في السنوات الأولى من حياتهم كما يتعلمون لغة بالادهم سواء بسواء (((3))، مثال ذلك ظاهرة التصفيق المسلوبة لأغنية التصفيق، فيكتسب الطفل التصفيق متدرجا من الفعل اللاإرادي إلى الفعل الإرادي الواعي، فالمشاهدة عنصر أساسي في العملية الكلامية، والمكفوفون اللين استكملوا القدرة على الإدراك السمعي يكتسبون اللغة، لكنهم يفقدون عنصرا مهما في تكاملها بالأداء الحركي، والإحساس اللوني، لذلك لاحظ الباحثون فروقا في لغة الاكمه ولغة من كف بصره في مرحلة تألية من طفولته أو عمره، وعبقرية مبدع مثل طه حسين الوصفية تفسر بقوة الخيال الذي ازدادت حدته بعد أن كف بصره فاستثمر ما اختزن في ذاكرته من مشاهدات. ويعضد الإدراك الحسي والذهني بقية القدرات، وتتمثل مقدرة الإدراك الحسي في اللمس والتذوق، وهذه المقدرة تضيف للطفل مكتسبات معرفية تنمي قدراته الذهنية ((7)). وملاحظة الطفل وهر يتعوف على الأشياء بلمسها ووضعها في القم مباشرة تكشف لنا أهمية الإدراك الحسي، ولهذه المقدرة أهمية الأشياء بلمسها ووضعها في القم مباشرة تكشف لنا أهمية الإدراك الحسي، ولهذه المقدرة أهمية مؤدرة في تعليم المكفوفين((۲)). والإدراك الحسي باللمس والتذوق مقدرة فطرية يولد بها الطفل، فهو يخرج للحياة مزودا بقدرته على المص، بل إن هذه القدرة هي نافذته إلى الموفة.

وتنمو القدرة على الإدراك الذهني سابقة القدرة الكلامية (٢٧١)، والطفل قد يفهم الاف الألفاظ، لكنه لا يستخدم منها إلا قليلا(٢٠٨). فالطفل قد يستطيع تعييز الطلب الموجه إليه، ويجيب عليه بالحركة مثل. أن يُسأل الطفل في سن شائية شهور وتسعة شهور أبن عينك؟ أين فمك؟... إلخ. أو أن تسأله أين بابا فيرفع عينه إما إلى صورته أو إلى الباب منتظرا دخوله، كذلك قدرته على التقليد نتيجة لإدراكه الذهني، فهو يقلد الكلمة صوتيا دون أن يدرك معناها، أو إخراج أصواتها، ففي (لعبة الصفاقة) يستطيع الطفل أن يتابع التصفيق مع الاغنية المقاة:

صفاقة حبق البيابا صن طرشته ما خيابا

وكذلك في اللعبة الحركية على الأصابع: (هذا بابا.. هذي ماما)

ولا تقف المقدرة الذهنية عند القدرة على التجاوب أو التقليد، فالطفل قد يتجاوز ذلك إلى القدرة على تمييز الخطأ من الصواب، وذلك عندما تقوم الأسرة بتصحيح نطق الطفل الذي يعمل مع تقدمه في النمو على «استبعاد الأخطاء، والتنبه لأغلاط اللفظ، وكل هذا وذاك بعمل على تثبيت الأصوات المتلفظة بكثرة أمام الطفل فتنطبع في ذهنه، ويبدأ بالتعرف على دلالتهاء (٢٩)، ومن إدراك الطفل للخطأ إدراك طفل في الثانية من عمره أن الصواب في اسم أخته المولودة حديثًا هو (غيد) لا (عيد) وقد كان يناديها (عيد) قبل شهر فقط وتزداد مقدرة الطفل على اتقان قواعد اللغة والقياس على أمثلتها، إلا أنه يواجه بمشكلة عند تعدد القواعد فالتأنيث مثلا بالتاء (شاطر/شاطرة)، (حلو/حلوة)، إلا أنه عندما يقيس (أحمر/أحمرة)، (أحمق/أحمقة) يطالب بتصحيح الخطأء وكذلك الجمع فهو يتلقى قاعدة الجمع السالم أولاء وذلك لسهولة إدخال اللاحقة على المفرد، لكنه يخطى، عند اختلاف القاعدة. فجمع الصفات اللونية أيضا يأتي على جمع السالم (الأخضرين)، (حمار/حمارين، شيطان/شيطانين) فالطفل لديه مقدرة فائقة على تنويع مدركاته اللغوية إذ «يلتفت مرة إلى الجانب الشكلي من اللغة، وأخرى إلى الجانب المعنوي»^(٣٠)، وفي مرحلة الإدراك الذهني تتوقد إيجابية الطفل وفاعليته وهناك من الباحثين من يرى «أن الطفل لا يكتسب اللغة عن طريق محاكاة البالغين، بل إنه يفعل ذلك عن طريق الفرضيات (٢١١)، وتلك الفرضيات تظهر في سلوكه الإدراكي بعد تمكنه من اللغة. ففي سن الخامسة غيرت ابنتي بدور من لكنتها إلى لكنة السرحيات الكويتية، وهي لكنة لا تستخدم في محيطها البيئي الأسرى، وإنما اكتسبتها من مشاهدة المسرحيات التي نالت رضا في وجدانها. ويرى أصحاب نظرية تحليل المعلومات أن الأطفال في كل مكان في العالم يتعلمون قواعد لغوية بالغة التعقيد بسرعة هائلة، مما يوجي بأن الإنسان ذو تركيب خاص يؤهله لاكتساب اللغة التي يتلقاها، وتكون الفرضيات حول كيفية بناء التركيبات اللغوية، وأصحاب هذه النظرية يسبغون الفضل في تعلم اللغة على الطفل لاالبيئة(٢٢).

وتنمو قدرات الإدراك الذهني بصورة متنوعة، مثل. قدرة التذكر المباشر، والقدرة الاستقرائية، والاستنباطية والمكانية(٢٣).

ويعد الاستخدام الصحيح لأزمنة الأفعال وأقسام الكلمة والتسلسل السليم للصفات والأسماء والأفعال والظروف في الجمل مهارات يكتسبها الطفل عادة من دون تعلم مباشر^(٢٤).

الخصائص المبرة للغة الموجهة للطفل

إن مقدم الطفل لا يفرض نظاما لغويا خاصا للأسرة، وإن كان يلون لغة الأسرة السائدة.

باستخدامات لغوية استجدت مع مقدم الطفل، فقد درجت أسر كثيرة على محادثة الطفل منذ اليوم الأول بلغة مميزة لها خصوصيتها، فالطفل يتعرض لنظامين لغويين: نظام خاص يوجه له فقط واخر عام يتمثله بقية أفراد الاسرة المحيطين به، وينتبه الكبار إلى الفروق بين مستويات الاستخدام فيسلكون طرائق لغوية وظيفية عند محادثة الطفل وإن كانت أحد جوانب النظام اللغوي العام الموجه للكبار، فأغنية الطفل مختلفة والحكايات (الحزاوي والسواليف) لها نظامها، وتسمية الاشياء والاعلام تسلك مسلكا مختلفة عام يخاطب به الكبار. والطفل يسمع اللغة حتى وإن لم توجه له بصفة خاصة، ومن ثم يتعرض للازدواجية اللغوية بين المستوى الموجه له والمستوى الموجه لل والمستوى الموجه له والمستوى الموجه

وأهم ما تتميز به اللغة الموجهة للطفل:

١- الكلمة الجملة: تستعمل الكلمة المفردة محملة دلالة جملة كاملة مثل (عم)، أو (أم) - بالميم المفحة - وهي تقابل: تناول طعامك، ومنه كلمة (بم)، وهي بمعنى انتهى، ويصاحب النطق اداء حركي يميز المعنى، ويكشف دلالت. ويكون الطفل كلمته الأولى بدلالات مختلفة فهو يسمي المواقف اللهوية المتصلة بشيء محسوس باسم الشيء ذاته. فقد شاهدت طفلا كانت كلمة كرة (كله) من كلماته الأولى - باللام المفخمة - فإذا أراد الكرة قال: (كله)، وإذا العبها قال (كله)، وهنا يمد الصوت بامتداد ماتند حرج فيه الكرة، وإذا أراد إرضاء الأم أو الإخوة يتودد إليهم مادا الكرة مكردا (كله، كله) كأنما التكرار إلحاح في طلب الرضا.

وتفسر الكلمة الأولى بأنها قد تكون: إما مجاكاة للغير، وإما أول كلمة يفهمها، وإما أول كلمة يستعملها تلقائيا^(٣).

ومن المكن أن نضيف أن الكلمة الأولى هي الكلمة التي تحقق له متعة وسعادة.

٢- التصغير. تكثر صبيغ التصغير في اللغة للوجهة إلى الطفل، وعلة ذلك انها سمة من سمات اللهجة المحلية، مثل: «احليبة، أميهة، ابنية، أوليد». ومن الأسباب التي يمكن أن ترد إليها ظاهرة التصغير مناسبة صغر حجم الطفل، كما أن التصغير شحنة عاطفية تنظوي فيها الألفاظ على تنفيم يتجاوز البنية الصرفية إلى ما يتصل بوجدان الصغير فيحسه وينفعل به.

وثمة مقولة هي أنه: «كما يسمع الطفل ينطق، فلغة التصغير تمثل نمونجا بحتذيه، وهي تحاصره في اللغة الموجهة له وفي الأغاني التي يسمعها:

____عالمالفکر ____

قسمسيسسر السسدودو مسا شسفست السعسابسا

والأم تخاطبه في أغانيها بلفظ (اوليدي) أي: يا وليدي، أو لابنتها (ابنيتي) أي: بنيتي، التي تحييها بتحية الصباح منشدة:

صبياحيك اصبياح والسورد والستيفياح وعوينتك هالزينية سييلابسية الارواح

والتصغير يتناول صفات الطفل وما يحيط به.

 ٣- وجود الكلمات التي تحاكي الطبيعة مثل: صوت السيارة (عن)، ولمناغاة الطفل (اغو)، والعنز (امباعر) لارتباطها بالدلالات الحسية التي يدركها الطفل.

٤- الكلمة المقطعية: يظهر الطفل في بدء نطقه للكلمات ميلا شديدا إلى تكرار في مقاطع الكلمة (ديد، وحوح، ماما، بابا)، وتمين الكلمة المقطعية الطفل على تكرار نطقها وتثبيتها في لفته، بما لها من سهولة في النطق وجرس صنوتي موسيقي. ويرى بعض الباحثين أن أول ما يتعلمه الطفل ليس الأصنوات المنفردة، أو الكلمات، بل المقاطع (٢٠٠٠). فوجود الكلمات ذات المقطع الواحد المكرر مرتين مثل الجرح (دودو) والسيارة (الديد)، والملكولات الجيدة (النانا)، والثوب الجديد (النيني) فيه ربط بن المقطع الصادية والدلالة يميزه ما الأصنوات العلل الطويلة من قيم خلافية.

٥- وجود اسماء اصوات وأسماء أفعال مثل (الأوف) للرز، ذلك أن إطعام الطفل الرز يقتضي تبريده بنفث الهواء وهو ما تحكيه كلمة (الأوف) فتشعر الطفل بحرارة الطعام وتربيه على الصبر، وأما الطفل فيقرن بين الصوت (الأوف) والرز فهو يصدر هذا الصوت (الأوف) حين يرى الرز مرة أخرى، ومثلها كلمة (٢-) يعبر بها عن الحار بعد تعرضه للسعة شيء حار.

 حشرة استخدام الألفاظ التي تتصل باهتمامات الطفل من ملبس مثل: (النيني)، والطعام (الناح)، بعض الميوانات المنزلية مثل (الهدع) للفنم، و(الوجوح) للكلب، و(النيو) للقط(٢٧).

وتمثل اللغة الخاصة الموجهة للطفل عائقا - في بعض الأحيان - يحول دون النمو اللغوي المامول للطفل فإذا ما استمر الأهل في مخاطبته بتلك اللغة الخاصة فقط تظهر بعض إسقاطات تلك اللغة بين حين واخر في مراحل متقدمة من عمر الطفل، وقد رصد الباحثون مفردات مثل (أمبو)، و(الدوبو) عند بعض الأطفال الكبار (٢٨).

والموقف اللغوي للطفل يتخذ بعدين بعد أفقي وفيه يتبادل اللغة مع أقرائه، وبعد رأسي وفيه يتبادل اللغة مع الكبار. وتلتقي هذه الازدواجية في الموقف اللغوي مع ما يقع فيه من مستويين لغويين صادرين عن الكبار أحدهما بلغة خاصة موجهة، والآخر بلغة عامة موجهة للكبار، ومن ثم شابت لغة الطفل الصادرة عنه سمات اللغة الموجهة إليه.

خصائص لغة الطفل

نميز هنا بعض الظراهر في الأصوات وشكل الجملة، وأنواع الكلمة الصرفية في منطوق الطفل في السنة الاولى.

الإصوات

تتميز مرحلة المناغاة بإطلاق الطفل للاصوات الصائنة المتكررة الوحدات، وتقل فيها الاصوات الصامنة التي تظهر منها مبكرا أصوات الصنجرة والحلق، ثم الشفوية والسنية، وأخيرا الانفية (٢٠٠). ويتعيز الاصوات الشفوية الباء والميم ثم الدال بأولوية الظهور (٢٠٠). ويستعمل الطفل سبعة أصوات مختلفة قرب الشهر الثاني (٢٠١). ويلاحظ أن الاصوات الأولى (الصنجرية والشفوية) هي أصوات لا إرادية، يقل فيها جهد الطفل، أما الاصوات الأخرى الإرادية فهي تتطلب مجهودا لا يتاتي للطفل إلا بعد حين، وقبل أن تستكمل أعضاء النطق عند الطفل كفاءتها يلجأ الطفل إلى الابدال فكلمة (براية) تصير (بلاي /بغلية) ويتغير شكل الكلمة بالنبر والتضعيف، أو مطل المركة تعويضا عن المحذوبة من مناطعة من صواحت وحركات فكلمة مثل (علك) سمعتها من أحد أخر في منظومة صوتية متتابعة من صواحت وحركات فكلمة مثل (علك) سمعتها من أحد الاطفال يقولها (عبك) فحذف اللام وعوض بتضعيف الكاف. ويتخلص إلى الإدغام وكلمة مثل (حمد) إذا الحمد) حمام يستبدل بالحاء همزة (أماد)، والغريب أن الطفل يوظف أصوات المد فـ (حمد) إذا كان قريبا (أمد) من دون مد، وإن كان بعيدا فهو (أماد).

وإذا كانت أصوات الكلمة المسموعة جديدة على الطفل فهو يلجأ إلى كلمة أخرى أصواتها اكثر الفة لديه. فأحد الأطفال -عمره سنة كان يعرف اسم الفاصوليا فلما طلب منه أن يحيي إحدى الزائرات واسمها (سهيلة) قال خالة فاصوليا، وليس الملاحظ هنا مجرد معرفته كلمة (فاصوليا)، بل التدرج في نطقها وفق مخارج أصواتها، كما أكسبتها أصوات المد تشكيلا مقطعيا مفتوحا

بخلاف الاسم (سهيلة) ويقرر أحد الباحثين أن الأصوات التي هي اكثر تميزا (More Marked) من حيث ملامحها الميزة (Dictiactive Features) أصعب في الاكتساب من الأصوات التي هي أمّل تميزا (Less Marked)، إذ يتدرج الطفل في اكتسابه الأصوات من الأقل إلى الاكثر تميزا (183).

أقسام الكلام في لغة الطفل:

شكل الجملة

١ الكلمة الجملة، وتخضع لظروف النطق في بداياتها من عدم تمكن وضعف، وتبدأ في أواخر
 السنة الأولى ويداية الثانية.

٢- الجملة من كلمتين، وتبدأ في النصف الثاني للسنة الثانية حتى الثالثة، وتتعيز هذه الجملة بأنها تتكون من كلمتين يظب عليها الاسماه، ولابد أن يتصدر الاسم إن ظهر الفعل مثل (محمد أخذ)، (بدر قال) إلا في الصيغ الأمرية: هات، وهي كلمة أو (عطه).

٣- تتطور الحمل بعد ذلك بتوظيف الأدوات الرابطة مع تقدم العمر.

أنواع الكلمة الصرفية:

١- الاسماء اكثر شيوعا من غيرها، وتفسر كثرة شيوع الاسماء، لأن الطفل يتعرف على المحسوسات، وأما الافعال فإنها تتخلف عن الاسماء في الاستخدام، فالاسماء هي أول ما ينطقه الطفل وهو يتعامل لغويا مستثارا من الاشياء التي تحيط به.

٢- الأفعال: ورد في إحدى الدراسات أنها تشكل ربع الكلام فقط^(؟؟). ويفسر تخلف الأفعال في كلام الطفل أن الأفعال ترتبط «بمفهوم الزمن الذي لا يكتسب ولا تتم السيطرة عليه إلا في مراحل متأخرة من الطفولة»(٤٤).

٣- المروف والأدوات:

إن طبيعة الحروف والأدوات الوظيفية ذات دلالات تجريدية لا يدركها الطفل في المراحل الأولى للكلام فهي تحتاج إلى مهارة في التركيب، وخبرة في الاستعمال، وهذا لا يتاح للطفل في بداية الكلام، لذا فإنها تتأخر، وتقل نسبتها حتى يستكمل الطفل قدراته اللغوية، وتربك الطفل أحيانا.

___ عالمالفکر

فقد كان أحد الأطفال لا يفهم كلمة (عند) في أمر الأم له: (نام عند الجدار)، فسأل عن معنى (عند)، ذلك لأنه لا يفهم (عند) إلا للملكية في فهمه (عندي كتاب/عندي قلم) ومثلها: عندك، لكن الجدار كيف يكون له (عند)^(ه)؛ فالأدوات والحروف تختلف دلالاتها في سياقات متعددة، ولا يتقن الطفل مهارة توظيفها في الجملة إلا بعد أن يحصل على خبرات لغوية ومساعدة من الآخرين⁽¹³⁾.

معوقات النمو اللغوي

هذا مبحث دقيق في درس النمو اللغوي، وثمة دراسات مستفيضة في هذا الموضوع^(٤٧)، لكننا نشير هنا إلى أهم عوامل هذه الموقات.

١- عامل معنوى.

٢– عامل نفسي.

۲– عامل سئی.

ونجملها على النحو التالي:

١- ظهور الأسنان.

٢- ظهور مهارة الشي(٤٨).

٣- ضغط الكبار في تدريب الطفل على النطق (٤٩).

٤- عدم تنوع لغة الخطاب بالنسبة للمتحدثين مع الطفل من حيث: أقرباء وغرباء، كبار وصعفار، ذكور وإناث، في المنزل أو خارجه (٥٠).

المستوى الاجتماعي والمادي لاسرة الطفل، فقد دلت الدراسات على أنه كلما أرتفع مستوى
الاسرة ماديا واجتماعيا، وتحددت طبقتها المتميزة في المجتمع ازداد المحصول اللغوي للطفل،
وذلك لأن هذه الظروف تؤدي إلى اتساع نطاق خبراته(٥٠).

 ٦- عدم التساهل في إطلاق حرية التعبير، وضبط المعايير بمعنى تصحيح النطق نحويا وصرفيا لا صوتيا فقط^(٧٣).

٧- تحريم الكلام على الطفل إلا في أوقات محددة.(٢٠).

٨- انعزال الأطفال سواء في الملاجىء أو تركهم مع الخدم أو لعمل الأم ساعات طويلة، وانشغالها خارج البيت أو سفرها فترات طويلة، والعزلة أيضا تفسر تأخر لغة التوامين اللذين يتركان معا فترات طويلة، وتفسر أيضا عيوب النطق عند الطفل الوحيد الذي يعزل عن الإصدقاء، ولا إخوة له أو أقارب يلتقي بهم.

٩- صعوبة التواصل اللغوي مع الكبار، فالطفل الذي يكثر القلب المكاني عنده، أو الإبدال أو الحذف يصبح غير مفهوم عند الآخرين «وتسبب عملية الحذف هذه صعوبة في فهم كلام الطفل ومعرفة الماجة أو الفكرة التي يريد أن يعبر عنها، مما يؤثر على الطفل ويؤدي إلى إرباكه وشعوره بعدم القدرة على إيصال أفكاره إلى الآخرين، (٤٥).

حوافز النشباط الكلامي

يستقبل الطفل مؤثرات مختلفة تعمل على تشكيل محصموله اللغوي من حيث الكم والكيف، بعضها ذاتي وبعضها خارجي، فالذاتي مثل يقظة الطفل، والخارجي مثل الجماعة اللغوية ووسائل الإعلام:

١- العوامل الذاتية

يقظة الطفل

تكون يقظة الطفل المبكرة نتيجة واستجابة لإحساسه بالحاجة، فاحتياجه للرضاعة يتطلب يقظة وانتباهاً وفعلاً، ومن ثم يكتسب الطفل تلبية احتياجاته. وفي مرحلة الكلام يتفاوت الأطفال في استجابتهم للعب والأغاني كل حسب درجة يقظته وقدراته الذاتية. فالفروق الفردية تؤثر في المتجابتهم للعب والأغاني كل حسب درجة يقظته وقدراته الذاتية. فالفروق الفردية تؤثر في المكتسبات الجديدة التي تحقق للطفل المتعة والإحساس بالنضيج. وتنمو هذه اليقظة مع مواصلة الحديث مع الطفل ومعاملته كقرين، «فالتعرض للغة اكثر فاعلية من تعلم اللغة. ويرى بعض الباحثين أن التحادث مع الطفل اقدر على الإسراع في اكتسابه إياها، ولكن سماع اللغة يؤدي إلى تعلمها حتى ولو لم يمارس الطفل الكلام، لكن عملية التعلم تكون أكثر بطناء (٥٠٠). فاليقظة تعمل على إثراء محاوراته الذاتية التي يستثمر الطفل حريته في انتقاء الفاظه وتعديل ما يريد فيها (٥٠). وتوقد اليقظة في المحاورات الذاتية الجماعية التي «فيها يضم الأخر إلى فعله أو إلى تفكيره

__ عالمالفکر

الآني، ولكن دون اهتمام بأن يكون مسموعا أو مفهوما فعلا، إن وجهة نظر المتحدث إليه لا تتدخل إطلاقا فالمتحدث لا يشكل إلا منبها تظهر وظيفته في الاتصال بوضوح في الاوامر والتوسسلات والتهديدات مما تظهر في تبادل الاسئلة والأجوبة،(٥٧٠).

٧- العوامل الخارجية

اللغة نشاط إنساني مبدع، وهي أهم أدوات الاتصال الحضاري والتواصل الإنساني الاجتماعي «وقد أصبح عزل الناس عن بعضهم وسيلة من وسائل التعذيب، فالسجن والنفي نوعان من التعذيب، وأهم ما فيهما هو حرمان الإنسان من التكلم مع الغير، أو الاستماع إليه، أو كلا الأمرين،(^٥).

المؤثرات الاجتماعية

الأم، الأسرة، الرفاق

الأم، هي الفعل الأكثر مضيا في خبرات الطفل فهو يتلقى منها الغذاء والمشاعر والتوجيه واللغة، والملاقة بينهما تأخذ بعدا متناغما. فشة مساحة من فهم الآخر، والإحساس به، والتفاعل معه، كل بنصيبه، وكل له فاعلية في التأثير على الآخر وتحريك استجاباته. ويرى (تريفاتن) أن «السياق الإبداعي الذي يؤدي إلى التفاهم، والتفاعل بين الأم والطفل، يشكل حجر الزاوية في التطور المعرفي اللغوي وإدراكه المعنى أ^(٥)، ولاهمية الأم تسمى اللغة القومية اللغة الأم (^(٠)) فالمغل يرضع من الأم الغذاء، ويرضع في الوقت نفسه انفعالاتها، والموروث الثقافي الذي تحمله له أغانيها، ومداعباتها له، وترقيصها له، وما يصاحب ذلك من حركة ونفم «وتجدر الإشارة إلى أن الأم التي ترضع الطفل عند طلبه تجد من الفرص للتفاعل معه والحديث إليه أكثر من الأم التي ترضع وفق برنامج محدد «(^(١)).

فأغاني المهد مثير لفوي تؤديه الأم تعبيرا عن احتياجاتها النفسية اولا، ثم يتطور ليأخذ بعدا وظيفيا تعليميا في مرحلة لاحقة من نمو الطفل، وارتباط اللفظ بمدلوله – مثل كلمة: «احبك» ودلالتها الحسية المتمثلة بالتقبيل- يكثبف عن اثر أغنية المهد وثرائها فهي تمتد في يوم الطفل من الصباح إلى المساء، تصاحبه في الآكل والنوم واللعب، ويأخذ اللعب جانبا وظيفيا عند الأم، مثل لعبة الصفاقة، ولعبة هذا بابا هذا ماما التي تعرف فيها الأم الطفل على أفراد الأسرة. وفي بعض

البيئات البدوية سمعتها (طبّاخ نفّاخ كليب البدو نبّاح) وعند بعض الأسر الكويتية سمعتها (شاح باح كشمش تفاح)، وتهتم الأم بترديد اسم الطفل على مسامعه، بل إنها تتلذذ وتستعذب تشكيل الصورة النطقية لهذا الاسم ما بين ترخيم وتصغير وتحوير مثل: ابريه ترخيم إبراهيم، والعبّد لعبدالله، وفي أسماء البنات المحلية مثل غنيمة «غنّومة»، ولطيفة «لطّوفة»، وتقيس الام الاسماء الحديثة على ما سمعت مثل: ديمة «ديومة»، فتقول:

ومن طرائق التشكيل تلك التراكيب اللغوية التي تصف الاسم وتميزه من ذلك:

منيرة خزنة الديرة أو مناير خزنة التاير-التاجر-وحمودي دهن العودي، والريم خلاقها عظيم، وحمدلي في السوق لبد لي، حصوص أم القصوص، سلومي بياع اللومي، بدور سراج الدور، سعاد زينة البلاد.

وللأم القدرة على اختراع مثل هذه التراكيب متى أعوزتها الحاجة.

ويأخذ التزويد اللغوي منحى اكثر اتساعا بعد أن يتقدم الطفل سنا، فالام تحادث الطفل كثيرا، وتجيب عن أسئلته الأكثر، وتعبر اغلب أسئلة الطفل إما عن لهوه، وإما عن حاجة معرفية، وإما إثارة انتباه المحيطين به، وإما الأسئلة التي لا يعرف إجابتها فهي التي ترتبط بمعرفة الاشياء المثيرة والصعررة التي تثير الانتباه، والام اكثر الناس قدرة على معرفة مدلولات ماينطق به الطفل، إن معظم الاتصال اللغوي للطفل يتم مع أمه خصوصا في الأشهر الأولى من العمر (٢٦). وتكثر بعض الأمهات في مخاطبتها الطفل من الأمثال الشعبية المتصلة بتربية الطفل وتوجيهه، مثل (طقاق روحه مايصيح) وهو يقال عند وقوع الطفل الثناء تعثره بشيء ما على الأرض، ويتضح من المثل السابق حرص الأم على تقوية صحة الطفل النفسية، وعدم الاستسلام للبكاء. ومثل (يا ماشي درب الزلق لا تامن الطيحة)، وهو اسلوب تحذيري ينمي عند الطفل النظرة المستقبلية للقادم من تصرفاته، ومنها (شور من لااستشار مثل سراج بالنهار). وتمثل الأمثال الشعبية البوتقة التي تصب فيها تجربة الأمة وتنقلها الأم لابنها لتتوارثها الأجبال فيما بعد «فالأمثال الشعبية وبأسلويه بساطتها تحمل من تجربة الإنسان عمقا جميلا لخصبها الشعب حسب ظروف بينته وبأسلويه بساطتها تحمل من تجربة الإنسان عمقا جميلا لخصبها الشعب حسب ظروف بينته وبأسلويه بساطتها تحمل من تجربة الإنسان عمقا جميلا لخصبها الشعب حسب ظروف بينته وبأسلويه وبأسلويه الته المهابية تحمل من تجربة الإنسان عمقا جميلا لخصبها الشعب حسب غروف بينته وبأسلويه وبأسلونه

الخاص»(٦٢). والأم تقص على الطفل الحكايات الشعبية والسوالف، وفي الحكاية والسوالف أفق رحب للثراء اللغوى، والاتساع المعرفي. من ذلك حكاية مريم أم الدل والدلال(٦٤). والحكاية الشبعبية تحكى للطفل منذ السنة الثالثة، وعالم الحكاية هو عالم الخيال المجنح، فالطفل يجلس مشدودا جامعا كل قدراته الإدراكية متبقظا لكل شاردة أو واردة حتى إذا ما توقفت الأم لتلتقط نفسها أو تتذكر بادرها بالسؤال (وبعدين؟) ويقتصر دور الأم على الرواية أما الفعل فهو للطفل إذ يعمل الخيال على رسم عوالم الزمان والمكان والشكل واللون مستفيدا من خبراته السابقة في تشكيل الصورة، وإدراك ما جد عليه من معارف، وقد تثيره بعض الألفاظ فيطلب المعاني أحيانا، لكنها لا تبعده عن سياق الحكاية فيواصل السؤال: ويعدين؟ وتؤسس الحكاية الشعبية قيم الجمال، وعالم الرفاه والطموح إلى مستقبل وردى يشرق في عقل الصغير، ويندمج الوعى بالخيال، ويبنى الصغير في مخزون ذاكرته قيما تظهر في المستقبل، فلهذه الحكايات أثرها الفاعل في رسم صورة الشخصية القدوة. وتأتى ممارسات الأم اللغوية اليومية مدرسة يتعلم منها الطفل ويزيد محصوله اللغوى سواء كان الخطاب موجها له أم لغيره أثناء ملاحقته لأمه وجلوسه قربها. فالفاظ التحية وما نطلق عليه (الرد والبدل) مثل: (خطاك السو) تقال للمريض أو المصاب، وهو يجيب (خطاك اللاش) وللتعبير عن حلاوة الشخص المقابل يقال في المجاملة (يا حلوة) فيجيب الشخص الآخر (حلت دنياك)، وفي التهنئة بعودة الغائب: (قرت عينك)، وجوابه (بوجه نبيك). وتحفل اللهجة بكثير من أمثلة الاتباع وتساق على لسان الأم في مواقف مختلفة في التدليل والخصام والرضا والغضب والفخر والندم... إلخ. من ذلك للتعبير عن الحب (أحبك والبك) وللاستهتار بما تسمع (خربوطة بربوطة) أو (خوى موى)، وللتعبير عن الأصوات الكثيرة (حنة ورنة)، وتقال في سياقات متناقضة فإذا أزعجها الطفل فهو (حنة ورنة) وإذا افتخرت ببيت الأسرة فله (حنة ورنة) كناية عن عمار البيت بالأهلين، والافتخار والاعتزاز (طش ورش) أو (صيت وصليت)، وفي تعويدها له على الالتزام بالمسلك اللغوى المقبول اجتماعيا فإنها ترد عليه ناهية إياه إذا قال (هه) ملبيا نداءها بقولها (لا هويت ولا في جليب دويت)، أما إن كانت في حالة غضب فتجيب (هويت في جليب)(٥٠). فاللفظ المناسب للإجابة عن ندائها هو: (لبيه/ سمّى/نعم/أبشري) كما تشترك مع أفراد الأسرة في توجيه الطفل للمتلازمات اللغوية مثل (أسلوب التشميت) والدعاء لن قال (هني) الإجابة: (هناك الله بالإيمان وطاعة الرحمن ومعصية الشيطان). وللحديث المتبادل بين الأم والطفل أهمية في تنمية قدراته اللغوية. فالأطفال الذين تربوا في منازل تتبادل فيها الأم مع الطفل اللعب اللفظى نجدهم يتلفظون أكثر ويصورة أكثر تنوعا وشمولا من الأطفال الذين نشأوا في بيوت تكون فيها مثل هذه المبادلة قليلة (٢٦) ولاحظ الباحثون اهمية الأم واثرها في أمام الدوس الداخلية، إذ أولئك الأطفال تزداد حصيلتهم اللغوية في فترة الإجازات، ويقابل ذلك أن بعض الأطفال الذين يكونون في السنة الثانية، أي في بداية التمكن من القدرة الكلامية، يفقدون موهبة الكلام عند سفر الأم (٢٧).

الأسوة: الأسرة هي المؤسسة الاجتماعية الأولى التي يتعرف عليها الطفل ويتأثر بها، وهي «السؤولة عن اكتساب الطفل انماط السلوك الاجتماعي، وكثير من مظاهر التوافق أو سوء التوافق يرجع إلى نوع العلاقات الإنسانية في الأسرة، (١٨) وهي المسؤولة عن تربيته الدينية وطبيعة معتقداته «فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» (٦١) والأسرة (الأم والأب والإخوة والجد والجدة إن وجدا). وقديما كانت الأسرة الكبيرة تعيش في بيت واحد، الأعمام وأسرهم بوجود الجد والجدة، وكان لهذا النوع من النمط الأسرى إيجابية، وإن كانت له بعض السلبيات الاجتماعية. فبالنسبة للنمو اللغوى للطفل تكون الأسرة الكبيرة رافدا يمد الطفل بالقيم ويستثمر يومه في ممارسة اللغة مع الكبار والصغار، ويتمكن من فهم المواقف وإيجاد الحلول لها نتيجة كثافة الخبرات التي يتلقاها. فهو يدرك مفردات القرابة بوعى لأنه يعيشها يوميا، وقد لاحظت -شخصيا- في هذه الأيام أن الطفل الأول الذي يولد في أسرة كبيرة أكثر أفرادها من الكبار يكون أسرع في اكتساب اللغة، كما أن حصيلته اللغوية أغزر مادة وأكثر تنوعا. ويتميز فهمه للمواقف، وقدرته على التوافق الاجتماعي عن الطفل الذي يولد لاسرة تعيش مستقلة عن الأسرة الكبيرة. فالنمو اللغوي يعتمد في جوهره على تقليد الأطفال الصغار لذويهم والإخوتهم الكبار في أصواتهم وحركاتهم المعيرة(٧٠). ومن الملاحظات الشخصية أن الطفل الأول لوالدين على قدر من الثقافة والتعليم يتميز اكتسابه اللغوى وتتنوع قدراته اللغوية عن إخوته الأصغر منه سنا بوجود الوالدين معا. والأسرة هي النبع الصافي الذي يستقى منه الطفل ثقافته القومية التي تتأصل فيه، وتعمل على زرع الروح الوطنية والاعتزاز بالانتماء لجتمعه. ومن خلال «هذه الثقافة الاجتماعية المتوارثة يكتسب الطفل قيمه ومعايير الخطأ والصواب وطريقة التفكير المنظم، والمنطقية في التفكير "(١١). كما تقوم الأسرة بتقويم السلوك غير اللائق اجتماعيا، وتعمل على تهذيبه، وتخفف حدة تمركز الطفل على ذاته، وذلك بمعالجة بعض السلوكيات غير اللائقة مثل: العناد، العدوانية، السيطرة، القيادة، حبّ الذات، العداء للجنس الآخر، والغيرة(٧٢). وتكون تلك المعالجة بالحب وإغداق العواطف الموجهة التي تقوى عند الطفل عامل التوازن النفسي، وتوجيه سلوكياته عن طريق القدوة الصالحة، فالطفل الذي يستمع إلى أسرته التي تكثر من استخدام أساليب الشكر

والامتنان، وتتمثل القيم الأخلاقية العالية مثل الصدق والإحساس بالآخر وتتحاشى اللفظ البذي، (۱۷۳). مثل هذه الاسرة تكون دافعا لمواطن صالح، وقد عرفت أسرا تحرم على أبنائها لفظ الملاعنة باي صورة اشتقاقية كانت، واستمعت إلى أمهات في غاية الغضب إلا أنهن لايتجاوزن لفظ الملاعنة باي صورة اشتقاقية كانت، واستمعت إلى أمهات في غاية الغضب، صافي اللغة، قادرا الله يصلحك) مثل هذه البيئة اللغوية ينشأ الطفل فيها متوازنا، نقي النفس، صافي اللغة، قادرا على إدراك ما له وما عليه. إذ إن «من خلال العلاقات الاسرية يتعلم الطفل مسايرة الجماعة وقيمها وتقاليدها، ويتعلم التعاون مع الآخرين والاخذ والعطاء، (۱۷٪ ويرى القوصي أنه وإذا لم يتهيا للطفل إدراك هذا المفهوم يتعذر عليه فيما بعد فهمه فينشنا شغوفا بما له من حقوق ناسيا ما عليه من واجبات، وهذا عيب خطير في المجتمعات، (۱۷٪).

ولاكثر اللغوي للاسرة يحيط الطفل ويحاصره طيلة يومه، ويتميز هذا النشاط بممارسة أفانين من الماثور القولى الشعبي تتمثل في:

- -- تدليل الطفل.
- الفاظ السلوك الاجتماعي اليومي.
 - أغانى المناسبات.
 - الألفار والعاضلات.

أما الأسرة التي تقصبي الطفل وتتركه للمربيات فإن محصوله اللغوي يتأخر، وكذلك أطفال الملاجىء(^{(٧٧}).

تدليل الطفل

يتلقف الكبار الطفل متبادلين حمله مغنين له:

«مـــن إيــدل إيــد يــكـبـر ويــزيــد»

ويشارك الأب والإخوة في لعبة التصفيق ولعبة عد أفراد الأسرة على أصابعه التي تعرفه رتب الاقارب، هذا بابا، هذا ماما، هذا عمك، هذا خالك... إلخ. كما يستلهمون من الأم مناداته بالتعابير المختلفة سواء أكانت متوارثة مثل: حمودي دهن العودي، أم مرتجلة نحو مناداتي لا بني: «أورسة حلارة ويسبوسة» - هكذا ناديت أبني أوسا- وفي تعليمه المهارات تتضافر الجهود في مساعدته

نے عالمالفکر ہے

على الجلوس، وعند بداية تعلمه المشي تساهم الأسرة في مساعدته بالغناء والتصفيق وتعزيز ذلك بتلقفه من واحد لآخر مغدةين عليه من القبلات ما يعينه على مواصلة التجرية حتى إتقانها. ومن أغانى تشجيع الطفل على الجلوس:

بو أربعة ربعوه وان ما قعد صفعوه(١٠)

وأغنية المشي:

هــدا هــدا مــشــي وعــدا حمـودي يمشيي يبييغدا

وفي رواية : عسى يمشي حق الغدا

وفي اللعب معه يغنون له:

قمير الدودو ما شفت البابا فارش عباته قاعد يصلي

الفاظ السلوك الاجتماعي

يكتسب الطفل لغة التخاطب الاجتماعي، وقد سبقت الإشارة إليها في حوافز النشاط الكلامي، فيتعلم كيف يرد على الكبار (سم)، و(لبيه)، وكيف يخاطبهم. (طال عمرك)، وإذا أراد طلبا (الله يسلمك)، ويسمعهم يقولون لمن قال (كرمك الله): (كرمت)، ولمن عطس يشمتونه، وإذا عطس الطفل قالوا له:

عشبت واصلحك الله عشبت وارحمك الله عشبت ولبسبت البشبت عبشبت وعشبعبشبت وترست البيت فريخات(^^)

ويتلقى الطفل الفاظ التحية والتهنئة في المناسبات كالأعياد والزيارات فيتلقفها ويتقفها بصورة تلقائية. ومما يكتسبه الطفل من الماثور الشعبي في المستوى السلوكي الاجتماعي الكنى والالقاب، فالمجتمع يعرف كنى خاصة به فكنية (عبداللطيف): ابوشعيس، وعبدالله، بونيم (أبونجم)، ناصر: بويدر، سلطان: بوماجد، عبدالحسن: بويراك، عيسى: بوعبدالله، محمود: بوشاكر، أحمد: بوشهاب، عبدالرحمن: بوفهد. أما يقية الكنى فهي مشتركة في البلاد العربية مثل علي: بوحسين، وسليمان: بوداود، ويعقوب: بويرسف...إلخ^(٢٨).

ومن مكتسبات الطفل اللغرية الفاظ المدح التي تكون عاملا تحفيزيا على مواصلة انخراطه في الجماعة وتوافقه معها، من ذلك: «كفر، والله/والنعم وسبعة انعام/ بيض الله وجهه/من أهله، والله، (^^)، وتحمل مثل هذه الألفاظ دلالات تعكس ثقافة المجتمع، فالعس الديني واضع في ذكر الله في أكثر الألفاظ، والعدد سبعة يحمل البعد الديني في مفهوم الكثرة العددية، والدعاء بتبييض الوجه كناية عن الفخر والترفع عما يشين، ثم «من هله والله» تمام الاعتزاز بالاسرة، وعروقها الضارية في القدم المعروفة بالفضيلة والقيم. ويتلقى الطفل كنايات لغوية سكت في قوالب لا تحيد عنها اللهجة، مثل، «دابة الله بارض الله/طويفه هبيطة، وفي الشتائم: ثور بهور/حمار جت/عقرب ومل/حية رقطه/قطو مطابخ،(^^).

أغانى المناسبات وأناشيدها

يعرف المجتمع مناسبات اجتماعية ويينية تحتفل بها الأسرة، بل تطوف احيانا فئات من الشعب على الأحياء يطرقون الأبواب مهنئين بالمناسبة، أداتهم في ذلك أغانيهم الشعبية «التي تعكس شعور الجماعة وذوقها أكثر مما تعكس شعور مغنيها وذوقه، وهي تتسم بأنها غير ثابئة البناء، ففي كل لحظة من تاريخها يمكن أن يعاد خلقها من جديد، وأن تضاف إليها أشياء، وأن تحنف منها أشياء، كما أنها لا توجد في شكل واحد فقط، ولكن في أشكال عدة، (٢٨)، وتتميز أغاني المناسبات والاحتفالات بأنها قصائد مطولة وليست مُقطعات كاغاني المهد والترقيص، ولو تساطنا عن مؤلفها لن نعرف الإجابة فالوعي الجمعي قد وعاها، إذ إن الاغاني الشعبية «هي التي استمرت على مدى واسع، واشترك الشعب في صياغتها لتعير عن ذاته وأصبحت من نتاج المجماعة وملكا لهاء (٢٨). كما أن حياة هذا الإبداع الفردي وانتشاره مرهونة بمدى قبوله لدى الجماعة ورسوخه في وجدانها على مر الأيام.

ويعرف المجتمع الكويتي مناسبات عديدة يعبر فيهاعن الوجدان الشعبي مثل أنشوية التهليل، وهي عادة قديمة عند خسوف القمر، فكان أهل الكويت يخرجون إلى الشوارع حاملين المصاحف وكل جماعة معها قائد إمام يقرأ والجماعة ترد بالتهليل. لا إله إلا الله، محمد رسول الله والجماعات تطوف كل جماعة في حيها وتتجاوزه إلى أحياء أخرى، وقد ثلقي جماعتان فتندمجان ___ عالمالفکر ___

أو تفترقان حتى يظهر القمر فيتبادلون التهاني، فكان اليوم عيد، والأنشودة ينشدها القائد وتجيبه الجماعة بالتهليل، وهذا نصبها^(AA):

لا إلى إلى السلسة محمد رسول السلمة

(تهليل الجماعة)

مسولانا با مسولانا باسامسع دعانا

(تهليل الجماعة)

وندور بالمصاحبة نبيي رضا مهولانا

(تهليل الجماعة)

اشتقتع لتنبا ينا متحتميد البيوم الحنشير والتقييامية

(تهليل الجماعة)

محمد على سيادته ياته الغزالية ونادته

(تهليل الجماعة)

محمد زيسن كملمه زيسن مسولمود ضمحمى الالمنسين

(تهليل الجماعة)

هدي قلمارنا يا حلوته هديله هديله

وقد يتعرض الطفل - قديما - لهذه المؤثرات اللغوية منذ الخامسة، إذ يخرج إلى الشارع مصاحبا الجماعة المنشدة مما يؤثر في لغته وذوقه الفني الموسيقي، وقدرته على الانخراط في الجماعة المؤدية ومعرفة دوره فيها.

وهناك مناسبة أخرى هي ختم القرآن تعقد لها الاحتفالات، فحفظ القرآن، فيركها إلا كل لبيب، وهو حلم تتعلق به الأسرة، فالأم تسمع أبنها شوقها إلى حفظ القرآن، ويرتبط هذا الشوق بحبها له:

يا حبي لك حبين بنيت بالقلب شعيبين شعيب ينحر الوادي وشعيب ينحر سدير وشعيب قال يا يمه حفظت اليوم جزوين(^^)

وبعد أن يختم الطفل القرآن تقام الاحتفالات في طقوس مهيبة (٨٦).

ويخرج الصغار والكبار إلى دار تحفيظ القرآن حيث يجلس (المطوع) ويجانبه خاتم القرآن ووالده وسط رهبة الجميع وفرحهم ينشد (المطوع) التحميدة، وبعد كل مقطع يرد عليه الحاضرون (أمين)، ويستمع الطفل المصاحب للأسرة إلى هذا الإنشاد ويؤثر فيه بالغ التاثير، ويعمق عنده قيما دينية رحبا للعلم ومكاسب لفوية تثيرها التحميدة(٨٨) وهذا نصبها:

الحمد لله الذي هدانا	(آمين)	
للدين والإسلام اجتبانا	(آمين)	
نحمده وحقه ان يحمدا	(أمين)	
ما فتق الزهر وما طاح الند <i>ى</i>	(أمين)	
ثم الصلاة كلما الحادي حدا	(أمين)	
على الذي قد جاء بالهدى	(أمين)	
هذا غلام قد قرأ وقد كتب	(آمين)	
وقد تعلم الرسائل والخطب	(آمين)	
ولا تقصر يا ابن أشراف العرب	(آمين)	
واطرح على اللوح دراهم وذهب	(أمين)	
- وفي رواية: ولا يكن طرفك هما وغضب -		

 الفك	عالم	
العجر	ринь	

علمني معلم ماقصوا	(أصين)
رددني في درسي وكررا	(آمين)
إني علمت كتابا اكبرا	(اَمين)
حتى قرأت مثله كما قرأ	(اَمين)
جزاك الله يا والدي الجنانا	(آمين)
وشيد الله لك البنيانا	(أمين)
الجد والجدة لا تنساهما	(امین)
فعند ربي جزاهما	(آمين)
في جنة الخلد مع الولدانا	(أمين)
اعطوا المعلم حقه عفليما	(امين)
لأنه كان بنا رحيما	(امين)
الحمد لله الحميد المبدي	(آمين)
سبح له طير السماء والرعد	(آمين) ^(۸۸)

والطفل الذي يشارك في هذه المناسبات يستثمر النغم في تأسيس وتدعيم محصوله اللغوي، فالأغنية الشعبية من اقدم أشكال التعبير التي عبر بها الإنسان عن ذاته، وهي تصاحبه من المهد إلى اللحد، وتواكب الإنسان في موكب الحياة في كل شكل من أشكال ممارسة الحياة في دورتها المستمرة، يشارك الإنسان في الإيداع الشعبي لمجتمعه سواء في أداء جماعي أو بدور فردي هو في محقيقته تكامل اجتماعي(^(A)).

الحكاية الشعيبة

الأسرة تجلس معا فترات طويلة، وتتاح للطفل فرصة الاستماع إلى أحاديث الأسرة وأخبارهم، فهم وسيلة الإعلام التي تنقل الطفل إلى عوالم مختلفة، والحكايات أحد هذه العوالم، والحكايات نوعان: حكايات (سوالف) وحزاري: وأما السالفة فتتصل لفويا بجذر (س/ل/ف) فهي اسم فاعل من الفعل سلف أي مضى، والسلف هم من سبقونا من الأجيال لذا نقول السلف المسالح. فالسالفة جملة اخبار نتناقلها، ولها اصل قد حدث فعلا معلوم الأين والآن. تُوثَقُ نسبته إلى شخوصه الذين كانوا أبطال الحدث على مسرح الواقع ويأتي دور الرواية الشعبية في تناقل الحدث ممن شهده إلى من سمعه جيل عن جيل، تسقط كلمة هنا ويتناثر وصف هناك، وتهب على اللغة عواصف التغيير، إلا أن جسمها يبقى على أصالته صلبا قائما لا يتغير مهما أتت عليه عوادى الروايات المنقولة

أما الحزاية فهي من التحزي وهو التكهن أي القول بظن. فهو القول الذي لايتصل بالواقع. قال رؤية.

لا يَاخُذُ السَّافِيكِ والسَّصَرَي فينا، ولا قبولُ العِدى ذوا لأزَّ

وسميت الحكايات الشعبية المتصلة بالخرافة بالحزاية في الكريت، وهي عند أهل نجد تسمي السباحين ومفردها: سبحانية، لانها تبدأ بالتسبيح.

ولكل من سوالف البحر وحزاريه عبق فاعل يفير عوالم كثيرة تتفلفل في وحدات السامع – ابن البيئة – فتفجر في داخله ركام الذكريات يتجاوز معها الزمان والمكان

من سوالف البحر سالفة دانة باقوت (١٠٠) وهي دانة تنسب إلى عمر الياقوت وقد كانت لؤاؤة
كبيرة الحجم تزداد قيمتها كلما انتقلت من مالك إلى آخر، إلا أنها ارتبطت في تاريخ تنقلها
بحوادث وكوارث آصابت ملاكها، مما دعا كل من اقتناها إلى سرعة بيعها التخلص منها، وانتهت
إلى تاجر فرنسي كان مفتونا بلؤلؤ الخليج عاشقا له، فلما حصل عليها مقابل ثمانية عشر ألف
رريبة هندية – وكانت في ذلك الوقت ثروة طائلة – إلا أن التاجر الفرنسي كان سعيدا بالدانة
يحتفظ بها في جيبه، حتى إن امن على الدانة بعبلغ يساوي قيمتها، وفي يوم كان واقفا على سطح
يخته في عرض البحر يقلبها في يده منتشيا بجمالها ونسمات البحر العليلة تداعبه، غير أن البحر
كان أشد شوقا منه إلى الدانة، ثنازعه نفسه إلى الاستحواذ على تلك الدانة، فهي بنت احشائه.
فتسلطت الربح التي مبت عاصفة فعصفت بالفرنسي ودانته فندحرجت فالتقمها البحر، وغابت في
جوف، ظم يتمالك الناجر الفرنسي نفسه فقذف بنفسه في جوف البحر وراء دانته، وتنتهي السالفة
هذا أما الحزاوي فهي حكايات شعبية متوارثة، منها حزاوي البحر الكثيرة مثل حزاية أمي
السميكة، وحزاية سمكة أم تسعة وتسعين لون(١٩٠)، وحكاية أبو درياه، وربما كانت بعض الحزاوي
السميكة، وحزاية سمكة أم تسعة وتسعين لون(١٩٠)، وحكاية أبو درياه، وربما كانت بعض الحزاوي
السميكة، وحزاية سمكة أم تسعة وتسعين لون(١٩٠).

علة في حدوث بعض الحوادث الطريفة. فمن ذلك ما حدثني به والدي رحمه الله عن موقف حدث لبعض البحارة، قال: إنه في ليلة من الليالي بعد عناء يوم شاق، بين الغوص والعمل اجتمع البحارة في جانب من سطح السفينة يتسامرون ويخففون من شقاء ومعاناة نهار لاقوا فيه ما لاقوا من كبد وشظف وانتصارات وإحباطات، وكان مما يتحدثون فيه ابو درياه وهو كائن مخيف يظهر من كبد وشظف وانتصارات وإحباطات، وكان مما يتحدثون فيه ابو درياه وهو كائن مخيف يظهر اللبحارة احيانا، وفي هذه الاثناء والخوف قد آخذ ببعضهم سمعواحركة غريبة في الطرف الأخر من السفينة، حيث كان الموقد، فشدهم إليه فلما التفتوا ناحيته رأوا أبا درياه يتسلق السفينة، ويتجه نحو الموقد باسطا جناحيه، فاضطرب البحارة بين خائف وجل وحائر مشده، وترددوا بين مهاجمته والهرب، فانبرى احد البحارة الجسورين، وتقدم نحوه، وامسك بتلابيبه، واصوات البحارة تعلوا في دهشة وجزع وتحسر على ذلك المسكين الذي غامر بنفسه، وإذا بصاحبهم يجر البحارة الين أخذوا يتدافعون نحو الخلف حتى كاد يقع أحدهم في البحر، فصرخ صاحبهم: هذا أبوفلان الطباخ. وكان الطباخ قد قذفت به الربع في البحر على غفلة من البحارة، فلم يشعروا بغيابه، غير أنه استطاع أن يتشبث بأحد الحبال وتسلق على ظهر السفينة، وجر لحافا قريبا منه للرجل على ظهر السفينة ذلك الصوت الذي زاد من فزعهم.

وإمثال هذه الحكاية والحزاوي مما احتفظ به المأثور الشعبي القولي تنصب في ذاكرة الطفل، وتشكل جزءا من تكوينه الوجداني واللغوي، وقد ينسى الطفل تفاصيل الحكاية أو الحزاية، ولكنه يعود بمتلازماتها التي تفتتح بها مثل: الصلاة على النبي، ثم قولهم: «زور ابن الزرزور من عمره ما كذب زور ذبح بقة وترس عشرة جدور، وخلى اللحم والشحم على الصواني منثور»، وتختم بمثل قولهم: «خلصت وملصت ويت الديايه وعنفصت»، «والسلام ختام وييت منهم ما عطوني شي».

اللثل الشعبى

يختزن المثل تجربة يستحضرها أصحاب اللغة عند الحاجة تأييدا لحجة أو شرحا لحالة، وهو يختزل بمضمونه ما يطول تفصيله، وهر أبلغ في أداء الرسالة. إذ قد يرتفع إلى مقام القواعد المقررة، مثال ذلك قولهم (ل فات الفوت ما ينفع الصوت).

الألغاز والمعاضلات (الغطاوي)

كانت الحياة قبل تغيرها بظهور النفط تتبع للأسرة فرصة للقاء الحميم في المساء لتبادل المسامرات والأخبار ولشيء من اللهو البرىء، من ذلك الألغاز والمعاضلات التي تحلو معالجتها ليلا أو نهارا^(۲۲)، وفي جلسات الألغاز الخاصة بالأطفال عادة ما يراعى العمر العقلي للطفل، ويحاول الكبار مساعدته على الإجابة لتدريبه (۲۲)، إضافة إلى ذلك فالألغاز الموجهة للطفل تتميز بتجانس الاصوات والجرس السائد فيها، مثل:

(رمانتي لقفتها فيها سحر فيها بحر فيها عيون تبتحر)، ومنها. (إن طقيته طار، وإن شقيته طار، وإن شقيته طار، وإن شقيته طار، وإن خطيته طار، وإن خطيته طار، وإن خطيته طار وإن خطيته طار وإن خطيته طار والتمكن من المخارج مثل: إذا أظلمت الدنيا وتغطلمطلست وجاء عباد الله المتغطلمطلسين (³⁸).

دور الرفاق

في أواخر السنة الثانية وبداية الثالثة يتقدم النمو الاجتماعي للطفل، ويبدا في الاندماج مع غيره من الأطفال، ومشاركتهم العابهم، وهنا تفتح له مساحات جديدة داخل المنزل وخارجه، وكل هذه الأفاق يرتادها بأدواته اللغوية البسيطة التي تزداد نموا بازدياد خبرته اللغوية الجديدة، فالطفل سريع التقليد، وعنده قدرة على اقتران التجرية وتذكرها فيما بعد (١٩٥٠). فقد يلتقط الطفل ما يزوده به الصغار من محصول لغوي أثناء اللعب والشجار من لغة مالوفة لديه، وأحيانا تكون جديدة في الصوت واللفظ والتركيب. وللاقران قبول عند الطفل أكثر من الكبار (٢٦١). فالطفل ريما تابع أقرانه حتى إنه قد يرفض بعض المقولات التي تصدر عن الكبار، لأنها تخالف ما نقله عن الصفار.

ففي مجال اللعب يتعرف الطفل على أيام الأسبوع في لعبة (السبت سينبوت)، وفي لعبة التداعي ينمي مهارات ذهنية إلى جانب مكتسبات دلالية

(یا مرت ابوی - وین راح ابوی(۹۷))

وخروج الطفل للعب خارج المنزل يزوده بمعجم لغوي متميز، تقول كافية رمضان: «اما في البيئات التي يكثر فيها نزول الطفل للشارع والاختلاط بالأطفال الآخرين، فإن هذا كله مدعاة لأن يزوده بمعجم لغوي متميز، فكلما تعددت خبرة الطفل واتسع نطاق بيئته زاد نموه اللغوى (٩٨).

وهذا المعجم يتناول أسماء ما يحيط بالأطفال من حياة في الشارع: مثل الملات والناس والعاب الظواهر الطبيعية مثل لعبة (أم الغيث) للبنات، والعاب أخرى مثل (خروف مسلسل)⁽¹⁹⁾ للصبيان.

وهناك نوع من الألعاب اللغوية غير المعاضلات يرددها الصغار، فاللاعب الثاني عليه اختيار أن يردد مقطعا في نهاية الكلمة كأنه رجع الصدى، وعلى الأول أن يلون في المقطع الأول بحيث يوقع الثانى في موقف يثير ضحك الأخرين مثل:

يا صاحبي	بيخ
علمتك	(بیخ)
تاكل الط	(بیخ)
تاكل	(بیخ)
يا صاحبي	ان
علمتك	(أن)
أكل الربي	(ان)
اک <i>ل</i>	(ان)

وفى الشارع يستمع الطفل إلى الفاظ الباعة والمتجولين:

طماطته حتميره شتوبناش يناكيك وننها واينا المناش

وتضيف أصوات شوياش تنغيما موسيقيا ليس له مدلول معجمي.

وفي رمضان تجتمع البنات والأولاد للقرقيعان كل على حدة، ويصاحب هذا التقسيم اختلاف في الأغنية المُوداة.

ويكثر في الشارع الشجار وما يتبعه من لغة خاصة تحمل الفاظ التنابز (المعيارة) مثل: . ١٦٥.

بوتنبه كسر اللمبه صحن تين صحن همبه زيوط النقعة إلخ.

ويتعلم الصبيان أسماء الطيور فقد كان الصيد هواية محببة لهم، ويحبون مطاردة الحوانات(۱۰۰).

إن دراسة معجم الطفل تكشف لنا عن هذا التنوع الهائل في روافد النمو اللغوي عند الطفل الخليجي اليوم، فمجتمعه تكتسحه عوامل من التغيير اللغوي اتاحتها التغيرات الاجتماعية والحضارية، وانفتاح العالم، وكثرة الاتصالات بين أمم الأرض، وغياب في الماثور القولي الذي انصرف عنه أمله إلى متابعة ما تبثه أجهزة الإعلام المختلفة، وماتلوكه السنة العمالة الوافدة إلى منازلهم، مما جعل بعض الأطفال في حالة اغتراب لغوي، وخلط في استعمال الصبيغ والتراكيب والمعجم، وهو اضطراب يصاحب الطفل حتى مراحل متقدمة من التعلم. ويبقى بعد السؤال الذي طرح في مقدمة هذا البحث: هل الثروة اللغوية تطرد مع النمو العقلي؟ وهل نقص المعجم اللغوي يكشف عن نقص في الذكاء؟ أم هل تأخر الكلام دليل على تأخر الذكاء؟

لقد كشف البحث العلمي عن خطأ النظرية التي تربط تقدم الذكاء بسرعة الكلام. فتأخر الكلام قد لا يقتضي تأخرا موازيا في الذكاء. فإن كان التأخر في الكلام لا يعني تأخرا في الذكاء دائما فإن العكس صحيح، إذ تأخر الذكاء يقتضي تأخرا في الكلام ((٬٬۰)، وهناك من يربط النمو اللغوي بالذكاء (٬٬۰۱). ولا يمكن إغفال اثر النضيج اللغوي في استيعاب الحيط الاجتماعي والتقاليد الاسرية والثقافية القومية. يقول (سرجيو سبيني): «إن نمو الذكاء يتم على قدم المساواة مع النضج اللغوي، (٬٬۰۱).

أما بيان أثر المتثور القولي في نمو لغة الطفل فهو ما سنحاول الكشف عنه بتحليل بعض النماذج من هذا الماثور القولي، ويبقى أن ننبه إلى أن نمو لغة الطفل مسالة نسبية تحكمها جملة من المتغيرات منها هذا الماثور، ومنها مستوى صحة الطفل العقلية والنفسية والبدنية، وبيئته الخاصة.

تحليل مضمون المأثور القولى ووظائفه

نتناول في هذا القسم نماذج من الأغاني الشعبية. نقف عندها بالشدرح والتحليل، ثم نتبع ذلك بنتائج عامة حول الأغاني الشعبية، ونقف فيها على أهم خصائصها. _ عالمالفکر ___

وتجدر الإشارة إلى أن اللعب الشعبي والأغاني الشعبية تحقق غايات نفسية في أهدافها، إلى جانب غايات أخرى سنذكرها في الدراسة التحليلية، كما نلحظ أن الطفل يتعلم باقتدار فائق مما حوله، وتأتي الأغاني والألعاب لترسخ ماتثيره جميع مصادر المعارف من حوله فتجتمع لديه المتعة واللهو والمعرفة، لذا نتناول أنواع الأغاني بالدراسة والتحليل لبيان خصائصها

أنواع الأغاني

تنقسم الأغاني وظيفيا إلى:

اغنية الترقيص: ومنها أغاني التدليل، مثل (أحبك حبن)، وأغنية التشجيع (صفاقه حق البابا)، و(انقزي انقيزة)، وأغنية التعليم (هذا بابا هذا ماما). وأغنية التنويم: مثل (نام يا وليدي نام). والأغنية المصاحبة للعب ومنها: التحذير. ومنها تنمية المهارات البدنية: (ليش تبوق اللومية)، (خروف مسلسل)، (طبق حنه طبق ماش)، ومنها أغنية التداعي: (يا مرت ابوي)

أما أغاني المناسبات فمنها: المناسبات الدينية مثل أغنية القرقيعان، والتحميدة. ومن المناسبات استبطاء البحارة: (توب توب يا بحر). والاستسقاء والشجار. ونداءات الباعة.

أغنية الترقيص

وقد ذكرت الأغنية متفرقة عند بزة الباطني(١٠٤).

النص:

أحبك يا ولوفي وانبح لك الفروفر وفي محمل المشايخ وصول خالك دفوفر واحبين وفي القلب شعيبين الهيل واحبك من عطا البرب وافيرش لك المضرب وفي وفي موسدة ريش وتحتك بنت مجرب واحبك حب عاجب لجنون والحناس ما يسرون واحبك حب اجنون والحناس ما يسرون

مستوى الأغنية

هي من أغاني ترقيص الطفل، تغنيها الأم أثناء حملها للطفل ومداعبته في السنة الأولى حتى منتصف الثانية

موضوع الأغنية

تحمل الاغنية في سياقها النظمي تاريخ الأم وتاريخ البيئة المعيطة، وتسكب الأم في المفردات مشاعرها، وتغلف انغامها بتجريتها وإمالها، فلفظ أحبك يتوالى في الأغنية كالجملة الموسيقية اللازمة في المقطوعة الغنائية، وتكرار لفظ أحبك في بداية كل مقطع يمثل رتما يذكر بنبض القلب، وتلك المشاعر المختلفة التي تؤججها عاطفة متقدة بين اعتزاز الأم بأسرتها (وصول خالك دفوف)، وما تحلم به لهذا الوليد من مستقبل (وافرش لك المضرب)، أي حين تتزوج بابنة رجل من خيرة الرجال (مجرب).

غايات الأغنية

١- التواصل النفسي بين الام وطفلها، فهو مشارك بالنظر إلى وجهها المتهال اثناء الغناء، وتشنيف اذانه الصغيرة بالنغم الجميل. فالغناء يحرك عضلات الوجه، ويتلقى الطفل انعكاس حركة العضلات فإن كانت وادعة منبسطة حققت له فرحا وانشراحا آثار لديه استجابات سريعة بالابتسام والتمسك بالام ومبادلتها النظر إلى وجهها «فكل فعل أو حركة لأحد الطرفين يقع ضمن جملة مترابطة تشكل وحدة سلوكية متكاملة ومتوافقة مع أفعال الطرف الآخر»(١٠٠٠).

٢- نمو حركي للطفل، فالأم تغني له اثناء الترقيص والحمل والمداعبة، فتثير عنده استجابات سريعة في الانتفاض ومبادلة الحركة بحركة آخرى، مما يعمل على تقوية عضلاته وشدها.

٣- كشف مشاعر الأم، وإسقاطها على الطفل، فالأم تعتز بأسرتها، وتفخر بإخوتها، فوصولهم يحتفى به بالدفوف، وهي تتطلع إلى يوم يكبر فيه هذا الطفل وتزف إليه عروسه (وافرش لك المضرب) وهذا المضرب رمز الرفاهية التي ينعم بها المقتدر ماديا، فهي تطمع إلى أن يكون مستقبل ولدها مشرقا سعيدا رغدا.

٤- الحضور البيئي، فالكويت تحيط بها صحراء برية وصحراء بحرية، وهذا الحضور يستغرق الأغنية كلها إذ يمتد فيها طولا، ويتمدد فيها عرضا، فالفاظ البيئة البحرية وما فيها من معاناة تشيع فيها، فالانتظار للمسافر في رحلة الغوص أو السفر ولحظة الوصول تعني الفرج (وصول خالك دفوفر)، (حب تاجر مغرب من سنين)، هذا حب لا يعرفه إلا من عاني مرارة انتظار الخائب، وحرقة شوق المغترب للحظة العودة، وجذوة اللقاء.

اما الصحراء البرية فانبساطها واتساعها تعكسه في القلب عبارة. «ينبت فيه شعيبين» يفوحان بالعطر الصحراوي المعبب (الحنة والهيل).

٥- معاناة المرأة المعتدة عبر الزمان والمكان (احبك حب عاجر لجاها الجنين)، فأي حب هذا الذي تحمله المرأة ويتلقاه الطفل، إنها تجرية آزلية يسمعها الطفل دون وعي بمضامينها، إذ تتعذر الأهداف التعليمية لصغر سن الطفل فلا يدرك إلا النغم الموسيقي المصاحب للحركة، لكن الإحساس والنغم يعملان به سحرا مشويا بتوقد الحس وتوهج العاطفة، إذ ميتمكن الصغير في عامه الأول قبل الكلام من الدخول في علاقات اجتماعية مع البالغين، وينمي تدريجيا مهارات للتراصل مع الآخرين، (١٠٠١). فألغايات قد لا تكون أنية، لكن الخبرات المختزنة يستمدها الصغير من الأم لتصبح رصيدا يحرك نموه الاجتماعي، فالطفل «يظهر التفاعل الاجتماعي في الأشهر الستة الأولى. إن اهتمام الطفل يتركز على المؤثرات الصادرة عن الأم، (١٠٠١).

غاية لغوية، فالاغنية تثبت معنى الحب عند الطفل بالمفهوم الكويتي، إذ غالبا ما تشفع الام
 كلمات الاغنية بتقبيل طفلها فتصبح دلالة لفظ (أحبك) مقابلة لعملية التقبيل، وتصرح بذلك في
 أغنية أخرى:

حبيني واحبك زود بكر امك وابسوك السعود اغضة التنويم:

النص:

نام نسوماته هستايات الموملة البغازلان في الباريات انتام نسوماته هستايات السوماة على ويُنا خاديّات وليدي ينام وطيب الله نومه وعدو وليدي ما يهتنى في منام وعدوة وليدي واللي ما تحبه لها الرجز مجسوم والغبن زام نام يا وليدي نام وللما وللما يستوينام وللمام يا وللمام يا وللمام يا وللمام يا وللمام وموسى وموسى والمصطفى عليه السلام

أداء الأغنية

تؤدي الأم الأغنية اثناء محاولة هدهدة الطفل لتنويمه، حاملة إياه على صدرها، أو وهي متقرفصة في جلستها محتضنة جسمه ليرقد بسكون في حجرها، وتهز بفخذها عند راسه بانتظام يبعث الخدر في جسم الطفل. وتؤدى هذه الأغنية لطفل المهد وتمتد حتى بعيد الثالثة من عمره

موضوع الأغنية

تحمل أغنية التنويم في تضاعيفها الخيال الذي يجنع بالطفل، فيأخذه إلى عالم الاسترخاء والهدوء فما بين الدعاء واستحضار ذكر الانبياء إلى البراري الفسيحة المتدة، ثم معاناة الأم التي تجد متنفسا لها في هذه الأغنية (نومة أمك يوم هي ابنيه) فهي لا تحته على النوم فقط بل تعكس احتياج هذه الأم المسكينة إلى سويعات من الفوم خالية البال متخففة من المسؤوليات المنوطة بها تجاه أسرتها، وأين منها تلك الأيام الخوالي (يوم هي بنيه)؟ مكفولة غير مسؤولة، كما لا يغيب عن الأغنية الهاجس المقلق وهو الخوف على الطفل من اعدائه ومبغضيه، وهي دعوة مستقبلية فالصغير لاعدو له ولا مبغض، وإنما العدو متوقع في مستقبل الأيام، لذا فالدعاء عليه (ألا يتهني بمنام)، أما من تتحقق كراهيتها لهذا الابن فلها (الرجز مجسوم والغبن زام).

ما تحققه الأغنية

- الرغبة الخالصة في تنويم الطفل.
- التأصيل النفسى والنمو الوجداني المتنامي بين الأم وابنها، فهو أقرب مايكون التصاقا بها،

تحوطه ذراعاها، أو مستقرا في أحضانها، تنحني إليه وتحنو عليه، تلمسه كفها مربتة، فيتواصل إحساسه بها ويتناهى إليه صوتها منغما تشويه موسيقى هادئة، تتيح له تأمل ما يصل إليه من لفظ بوعي يشده إلى عالم الخيال ثم الاسترخاء والاستغراق في نوم تحلم به الأم ذاتها، غايتها نوم طفلها ونوم أخر تتوق إليه وتأباه جفونها التى أرهقتها مسؤوليات الاسرة.

- تنمي الأغنية عالم الخيال عند الطفل، فالنومة الهنيّة هي لغزلان البريّة، والغزلان تمثل عالما يحيط بالطفل في كثير من العابه، وما يسمعه من غناء، فهي تأتي في بدء اللعب عند إجراء القرعة:غزالة/بزالة.. وهي أمنية الطفل في بداية استبدال الأسنان وهي أن يعطي الشمس سنه القديم مشفوعا بسبع من نوى البلح، مرددا بصوت عال تسمعه الشمس: يا عين الشمس بذي ضرس حمار وعطيني ضرس غزال، ومولد الغزالة خبرة اكتسبها عندما تظهر الشمس بين السحب المعطرة فيصيح الأطفال: ولدت الغزالة(^^.\). وهو لفظ التحبيب والفخر (يا غزال)، وفي اغنية أخرى:

هسجت هسجيوب منن شسميال يسوم نسرليت بسدور غيرال والغزالة ترتبط بالوجدان الديني في أغنية الخسوف وتسمى أغنية التهليل:

محمد على سيانته جاتبه النغزالية ونادتيه

والغزالة هي الشمس.

فالغزالة مثير لتداعيات الصدور الجميلة التي تحيط بالطفل أثناء نومه فهي رمز الجمال، والأمومة في القصص الشعبي (الغزالة ربت الولد)، وفي بعض البيئات يقال للأطفال قبل نومهم إن الذي ينام دون أن يشرب ماء فإن (الغزيل) تزوره في الليل وتسقيه من لبنها. وقد لا يكون الطفل قد رأى الغزالة من قبل فيجول به الخيال في الجراري حيث (نومة الغزلان في البراري الجميل حيث اللهو واللعب.

- ترسيخ مفردات متصلة بمضامين دينية: الدعاء (يرعاك رب الأنام/طيب الله نومه)، وذكر الأنبياء (عيسى وموسى والمصطفى)، وارتباط ذكر النبي بالسلام عليه: (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) [٥-الاحزاب].

 الشعور بالخوف والقلق على هذا الوليد من العيون الحاسدة، والقلوب المغضة، وظاهرة الخوف هذه نوع من الهلع الإنساني يصاحب الإنسان في كل مراحل حياته، وهلع الام أكثر حدة تنقله مترجما في كثير من أغانيها للطفل.

صبابات عيني صبابات جمعل من يبغضك مات ولا يسقسرا الستحصيصات وكسل نسسلسه ابسنسيات ولميسه يساب السولسد مسات

فالدعاء بالموت على الأعداء يكثر في أغاني الترقيص، مثل:

اللي ما تقول لك يا عيني تعمى من الثنتيني ويموت ريال صاباها ويكثر عليها الديني واللي ما تقول لك يا شَكر ما عاش في حيها ذكر غير العيوز وبنتها والشايب محني الظهر

والتعود من الشر وأهله في الأغنية:

أهسلا هسلا واهسلسيسه واكسفساه شسر الأذيسه واكسفساه شسر الأعسادي وساعد ابوه في كل نيه هسلا وهسلا واستهاسي والشسر عندك مسواسي

ولكن هل هذا النوع من أغاني القهر الإنساني مناسب لنوم الصغير؟(١٠٩)

- التنغيم والمرسيقى هو ما تحققه أغنية التنويم، وتتميز هذه الأغنية باصوات المد التي تطاوع التنغيم فتوفر للام إمكانات متعددة في تلوين الصوت بين الارتفاع والانخفاض، وتتراوح المقاطع والمقطعات بين الطول والقصر، يحوط ذلك نظام مطرد في التكرار (نام نومه هنيه/نام يا وليدي نام)، ويأتي السجع والجناس ليعطي إيقاعا جميلا منسابا يخدم الأغنية في مثل: نام/انام، هنيه/بنيه. ويرى رشدي حنين «هذه الخاصية بحقيقة أن الأصوات الموزونة المتقطعة تهدى، أكثر مما تفعله النغمات الثابة»(١١٠٠).

أغنية اللعب:

النص الأول:

السعبت سبنبوت والاحد والعنكبوت والاثلث والاثلث والاثلث والاثلث والاثلث منساره والاربعا ابتشاره والخسم المناره والخسم المنارة والخسمة عبينا وعيد الرسول

معانى المفردات

سبنيوت كلمة مأخوذة من (مسبوت) بمعنى ميت، وذلك بالقلب المكاني بين السين واليم، وإقحام باء زائدة لغاية موسيقية، والباء والميم من مخرج واحد، وتمثل الكلمة مشاكلة للبنى المتوالدة في الأغنية: سبنبوت/عنكبوت.

بشارة. فهي في المجتمع فرحة الأولاد بالطواف على الجيران، فإذا بشر أحدهم الجيران بالمولود الجديد أو بقدوم البحارة أو الحاج فنلك يعني مايحبونه من هبات تسعده وتشجعه على مواصلة الطواف على الجيران، فهو أداة الاتصال في زمن لم تعرف فيه الهواتف

منارة: هي الرمز الديني ورمز الحياة البحرية، إذ هي أول ما يراه العائد من رحلة الغياب فيقوم البشير بالبشارة.

أداء الأغنية المساحبة للعب

تؤدى الأغنية في مجالين.

١- مجال تلاعب فيه الأم الطفل الصغير ما بعد السنة الأولى.

٢ - مجال يلعب فيه الطفل بالكرة منفردا أو مع اقرائه، وذلك بعد السنة الثالثة، عندما يبدأ معرفة طريقه خارج المنزل، وتؤدى الأغنية أثناء رمي الكرة على الجدار لو كان منفردا، أو على رفيق اللعب المشارك في أداء المقطع التالي. فالأول يقول: السبت سبنبوت، والثاني يرد: والأحد عنكبوت (هكذا لعبتها شخصيا).

موضوع الأغنية

تعد الأغنية من أغاني اللعب اللغوي الذي يحافظ فيها التقسيم الموسيقي والبناء اللغظي، وهذا القيد قد يكون له وظيفة معنوية كما في (الخميس نذبح ابليس)، وقد يكون من أجل المشاكلة اللفظية للمحافظة على الإيقاع والموسيقي مثل (السبت سبنبوت/والأحد والعنكبوت). . إلخ.

غايات الأغنية

تحقق الاغنية والحركة المصاحبة بقنف الكرة غايات نفسية، ومعرفية، ولغوية، واجتماعية، وعضلة.

الغايات النفسية والاجتماعية

تنمو روح المشاركة عند الطفل أثناء اللعب وتأدية الأغنية، فإن كان صغيرا فهو برفقة أمه، أو من يلاعبه ويشاركه اللعب بندية تنمي إحساسه بالنضيح، وتشبع احتياجاته العاطفية. وإن كان مشاركا لرفيق فاللعبة تعوده على الانضباط والالتزام بالدور، واحترام حق الآخرين وعدم تجاوزه. وإلى جانب إحساسه بأنه مقبول اجتماعيا فالمشاركة في اللعب صبورة من صبور القبول الاجتماعي الذي يحقق تطورا في شخصية الطفل. والبشارة سلوك اجتماعي يحقق له والآخرين الفرح، بل إن الأربعاء يبشر بالخميس ثم الجمعة.

الغايات المعرفية

تعرف الاغنية بأيام الأسبوع، وتصوغ ذلك في قالب موسيقي عماده التقسيم وإقفال المقطع، مما يستهوي الطفل ويعينه على حفظ أيام الأسبوع، كما تعرّف بالمناسبات والمفاهيم الدينية (الخميس نذبح إبليس)، و(الجمعة عيدنا وعيد الرسول)، فينمو إحساس الطفل مع الزمن ليصل ابتداءً من السنة السابعة إلى التكليف بالصلاة، وأن الجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهما، وهذا التجمع الكبير للصلاة هو عيد، وختام أسبوع من العمل والدراسة هو عيد أيضا.

الغايات اللغوية

إن تسمية أيام الاسبوع تستحق جهدا اثناء التعلم إلا أن وجردها في هذا السياق الترفيهي
 الموسيقى يسمل عملية حفظها.

- حصيلة من المغردات المتباينة. فالعنكبوت ثم البابين والسينبوت، والبشارة ثم المنارة، وهذه الالمقاظ المتعددة تنقل الطفل إلى عوالم تثير أسئلة كثيرة، وتنمي غريزة حب الاستطلاع فلفظة سبينبوت - التي تظهر من الوهلة الأولى على أنها نوع من البنى الصوتية- تحافظ على الإيقاع المسيقي، وتفتتح به اللعبة كانما هو قرع يؤذن ببدء الاغنية، إلا أن هذه الكلمة لها دلالة معجمية الموسيقي، وتفتتح به اللعبة كانما هو قرع يؤذن ببدء الاغنية، إلا أن هذه الكلمة لها دلالة معجمية أخرى وهي الراحة فالميت مسبوت والسبت أخر أيم الأسبوع (الابرسبيت حيّ لوميت)(١٠٠٠)، وثمة تفسير أخر، أن لهذه الكلمة مدلولا حسيا عند أهل الكريت وهو نوع من القواقع البحرية يعرف بالصبمبو والصبة اتخف موسيقيا لتصبح سينا، ولكن يُقفل المقطع بالثاء، وهو معروف في العربية القيمة، بقيت منه صور لفظية: رهبوت/ملكوت، ولعل تفسيرها بالصبهبو هو ما كنا نظنه في طفولتنا أثنا، أدا، اللعبة والاغنية، فالبحر وما فيه وما يثيره اقرب إلى خيال الطفل، وكانما تأبى قواعد اللعبة إلا أن تشد الأطراف المشاركة إلى البيئة البحرية، بل هي طقوس يحافظ عليها بأداء حقوق البحر بمواصلة اللقاء، فإن لم يكن ذلك فبالذكر واللعب والغناء، وما البشارة والمنارة إلا ألفاظ تمزز هذه القيمة الوجدانية في الارتباط بالبحر والفرحة المحارة، الما المحرة، المحارة المالية المحارة المالية المحارة المحارة المالودة المحارة المحارة المحارة المالودة المحارة ا

الغايات العضلية

تحقق اللعبة للصغير نموا عضليا يحرك به جسمه كله إذا كان جالسا على الأرض مع أمه، وتحقق للطفل الذي يؤدي اللعبة خارج المنزل نموا عضليا أكبر فهو يتحرك بحركة الكرة، ويركض هنا وهناك وراء الكرة، وللبادلة مع الرفيق تتفاوت فيها القدرات العضلية بين اللاعبين.

النص الثاني(١١٢):

حديث بديك نصاصر ليك حديث السخر بيك حديث السخور عمل السخور السخور عمل السخور المسام المسخور المسام المسلم المسلم والمسلم المسلم المسلم والمسلم المسلم المسلم والمسلم المسلم والمسلم المسلم المسلم والمسلم المسلم الم

قلت یا عمی یابو حسین کم علی عید ارمضان

سببعة أيسام والستمسام

أحاديها وا باديها واضرب الخيل امعاديها

خرجه برجه طاحت بالما قالت وش

أنا نايم في الدربية أسمع دبكة حراميه مدري عقرب مدري حية

(تبي دوسة الفرس والا المهيرة؟ تبي قرصة العقرب والا الحية؟)

قاق

شتبی یا غراب؟

آبی عثبای

خذ عشاك

معانى الكلمات:

حدية: تصغير (واحدة) بصورتها المقلوبة (حادية). ويرى السعيدان ان (حديّة) تصغير حداة اليد (۱۱٤)

بديّة: تصغير بدأة.

ناصر دیه: ساعد هذا، أوساعد بدیه.

الكور: بيت الزنابير $(^{110})$. وفسرها الشملان بالحفرة $(^{111})$. وللكور في اللهجة الكويتية معان متعددة $(^{(110)})$.

أبوحسين: يرى السعيدان أنه شخصية شعبية (١١٨)، وأرى أنه اسم وافق الروي.

اعرابين: مفرد اعريب، وأبناء اعريب أي أبناء العرب(١١٩).

مستوى الأغنية

تؤدى الأغنية في مستويات عمرية متعددة، ويشترك فيها أحيانا الكبار والصغار، وفي لقاء الكبار مع الصنغار في هذه اللعبة، يفتح المجال أمام الطفل لاكتساب خيرات متعددة، لغوية وحركية، إلى جانب الترفيه، ويشترك فيها الطفل منذ السنة الثالثة.

أداء الأغنية

هي من الأغاني المصاحبة للعب في الليالي الشتوية في البر، وتؤدى الأغنية أثناء اللعب، فيتحلق اللاعبون كبيرهم وصغيرهم حلقة واحدة واكفهم مبسوطة على الارض منفرجة الأصابع، ويبسط القائد يدا واحدة، أما الأخرى فهي مقبوضة على هيئة التشهد، ويبدا اللعب بأن ينقر بالشاهد على الأكف المبسوطة مبتدئا من جاره الذي على يعينه، ويغني بحيث توافق كل كلمة نقرة على كف: حديه/بديه/بناصر/ديه... إلغ وحين يصل إلى كلمة (حية) يسال صاحب الكف على كف: حديه/بديه/بناصر/ديه... إلغ وحين يصل إلى كلمة (حية) يسال صاحب الكف وأسا السؤالين المذكورين في الأغنية ويلبي له اختياره، فأما قرصة العقرب فتكون بأصابع القائد، وأما ورسة الموردة فيهي ضوربات قوية من قبضة القائد على الكف، وأما اللهبرة فهي بقبضته على الكف على نحو دائري. وإذا فالغالب أن يختار اللاعبون دوسة المهيرة، إلا من يجد في نفسه قوة وحبا للتحدي وإظهارا للصبر، ورغبة في إمتاع اللاعبين الذين يتضاحكون من انفعالات المعاقب التي قد تظهر بشكل طريف. وتخرج بعد هذا اللاعبين الذين يتضاحكون من انفعالات المعاقب التي قد تظهر بشكل طريف. وتحرج بعد هذا العقاب المذكر تلك الكف وترفع من الأرض وتخبا في الجيب أو في العضن أو تحت الإبط، لتكون دافئة، وتبدأ الأغنية من جديد حتى ترتفع جميع الأيدي، فيدور الحوار الذي في نهاية النص، والقائد يسأل وأحد اللاعين الوائق من دفح يده جهيب.

القائد: قاق

اللاعب: وش يبي يا غراب [ومنهم من يقلب: يا براغ]

القائد: أبي عشاي

اللاعب: خذ عشاك [وذلك بأن يضع كفه الدافئة على خد القائد].

والقائد أن يحكم بالرضا أو الرفض، وليس للرضا ثواب سوى سلامة اللاعب من العقاب، أما إن رفض فعقابه شديد يجتلب كثيرا من ضحك اللاعبين وصراخهم وحبورهم.

ـــ عالمالفک

أهداف الأغنية

تبتعد هذه الاغنية عن تأثير البيئة البحرية فلا نشعر بوجودها أو إيحائها، إذ إنها لعبة البر والبادية، وأكثر ما تكون في ليالي الشتاء الباردة التي يحلو فيها طلب الدف، وغاية اللعبة طلب الدف، للقائد أو ما يصاحبها من حركة اللاعبن للفرار من القائد عند الحكم عليهم بالعقاب، لهذا كله تعددت غامات اللعبة، وأهدافها على النحو التالي:

١- غاية اجتماعية

تصاحب الأغنية اللعب الجماعي مما ينمي عند الطفل روح الجماعة، ويثير فيه الإحساس بالنضيج إذ يشارك الكبار لعبهم وتزوده اللعبة بقوة نفسية تتحمل عواقب الفشل، وتعمل على تنمية قابلية التآلف مع الآخرين والتحرك في دائرتهم.

٧- غاية لغوية

تساق الأغنية في تسلسل تحكمه تقسيمات متوازية متوازنة يقيدها الرويّ، ويلونها التجنيس: حديه/بديه، الكور/الزنبور، واحاديها/ واباديها/ معديها، غرابين/ سمتين/ بوحسين، أيام/ التمام، خرجه/ برجه، الدبيه/ حراميه.

وتربد في الاغنية كلمات تنتمي إلى جذر واحد مما ينمي عند الطفل الإحساس بالجانب التصريفي للغته (يا قناص/قوم اقنص)، وتعيد الاغنية إلى الاذهان مفردات قديمة لم تعد في دائرة الاستخدام مثل: الكور، شبط، سجتين.

ويلون اسم الصوت (وش) جو الأغنية بمثير صوبتي يشد السامع ويهيىء قفلة مناسبة، ينتقل بعدها إلى قسم اخر من الاغنية.

وتحتري الأغنية على الوان من الجمل الخبرية والإنشائية، الضيقة والموسعة، وإما المضامين فليس ثمة صلة قوية بين أجزاء الاغنية، وهذا يغلف اللعبة بشيء من الغموض الملائم لحالة اللاعبين المترقبين لن ينتهى عنده الإنشاد وينال العقاب.

٣- غاية تعليمية

تتنوع المعارف المكتسبة من هذه اللعبة والأغنية المصاحبة لها، منها إظهار فكرة التتابع والدورة المتكررة التي هي سنة كونية مشاهدة (ليل/نهار، شتاء/صيف)، ويظهر التتابع في تقسيمات الأغنية وتوالي حركة القائد بشكل دائري. ولإعادة الأغنية بعد إخراج كل كف أهمية في حفظ كلمات الأغنية، وتنشيط ملكة الحفظ عند اللاعبين.

ومن الغايات التعليمية التعرف على الدلالات العددية في اللغة. فالأغنية تشتمل على المفردات والمثنيات والجموع.

وتاتي الأغنية على ذكر بعض جوانب الحياة البيئية من قنص وما يتصل به من حركة، وإعداد (شبط خيلك شبطها)، وحيوانات وهوام (خيل، مهيرة، غراب، عقرب، حية)، ومن ذلك المناسبات الدينية مثل (عيد رمضان)، وتعبر الأغنية عن شرق الناس إلى هذه المناسبة الدينية التي تلي صيام رمضان وهو شوق يكشفه السؤال الملح (كم بقي على عيد ارمضان)، والأطفال ينتظرون العيد فهم يعانون من تغير نمط الحياة في نهار رمضان، وتعودوا الفرح بالعيد والعيدية.

أغنية المناسبات

الأغنية التي تستعجل عودة البحارة (توب توب يا بحر):

تسوب تسوب يسا بسحسر اربيعه والخياميس بخيل ما تخاف من الله يا بحر اربيعه والخياميس بخيل جيين الله يا بحر اربيعه والخياميس بخيل ماتخاف من الله يا بحر اربيعه والخياميس بخيل ماتخاف من الله يا بحر اربيعه والخياميس بخيل يسيا لجيين هي الحيين من البحره يسين من البحره

تسوب تسوب يسا بسحسر أربسعته والضامس دخسل يسا السلسيسان هسات أبسو نسيسان ما تخاف من الله با بحر أربيعيه والخياميس بخيل بهاليها فيسان هسات أبسو قسمسار يـــالـــراعـــى هــات المــنـاعــى تسوب تسوب يسا بسحسر أربعه والخسامس دخسل ماتخاف من الله يا بحر أربعته والضامت دخيل يـــا لـــرحــي هاتي اللي يقيل من ضحي بــــا لـــدانـــه جــرى شــمــلان مــن اذانــه تسوب تسوب يسا بسحسر اربسعته والخسامس بخسل يدا رمان المقطيف هات عبيد الطحف با مطلعة السزرى هاتى حسان بان على تسوب تسوب يسا بسحسر أربسعته والخسامسس دخسل ماتخاف من الله يا بحر أربعه والخامس دخيل بنيا الخنستاميين المساميين بساميين سنا التكنيين مان محمد العقربين تنبوت تنبون بننا بسحسن ارسعته والخناميس دخيل ما تنضاف من الله با بنصر أرب فيه والخياميس بخيل

ففي هذه الأغنية عدد من المفردات اللغوية، ثم تعريف بأسماء عواثل واسد كويتية ذات صلة بالبحر وتجارة اللؤائر.

نتائج الدراسة

نجمل في هذا العرض نتائج الدراسة التحليلية للأغنية الشعبية فنجد أن أثارها على الطفل قد تنوعت ما بين المفاهيم والأثر المسيقى والأثر اللغوى.

۱- المفاهيم

يستطيع الطفل توظيف الماثور القولي في موقفه المناسب تبعا لما تلقاه، وتكون له القدرة الفائقة في تمييز المواقف وما يناسبها، كما يستطيع التعرف على أفراد الأسرة، وتنمية روح الانتماء من خلال ارتباطه بالأغنية الشعبية أو الحكاية أو المثل، من ذلك أغنية (قمير الدودو ما شفت البابا)، وأغنية التصفيق (صفاقة حق البابا)، ولعبة العد على الأصابع (هذا بابا هذا ماما)، وأغنية الترقيص (احبك يا ولوفي)، و(خوالي يا حلالي).

وخالي يا بولبنيه عسمامته حريه اخذها رضخا بالقاع طلعت له ابنيه ابنيه ابنيه ابنيه ابنيه ابنيه ابنيه المدم تلعب بقرون الحنطه(۲۰) اما الانتماء الوطني فيظهر في أغنية الترقيص:

اصنا بنات أحمد تلاقينا كلينا حلوه دبق أيدينا والشام والباروت بأيدينا

يا صبباره ما دريتي عن خطاره الخفوذ قالوا لها امشي امشي هناك أحمد ولد الشيوخ قاعد على النشرية قاعد يعد فلوسه((۲۲) والنور ساطع بوجهه في مصحفه يقرا(۲۲)

ــــ عالمالفکر ـــــ

ويتعلم الطفل القيم الدينية ومناسباتها ف (بيت الله) يكثر في أغنية:

اطسريسف اطسريسف يسا اهسل السبسيست عطونا الله يعطيكم بيت مكة يسوديكم يا مكة يا المعممورة يام السلاسل والذهب يا نوره احسبسك يسا يمسه واوديك بسيست السله(١٣٣)

وأغنية القرقيعان والمطر والتهليل، حميعها تقوي الوازع الديني عند الطفل، وينمو معجمه اللغوي الديني.

ومن المقاهيم البر بالوالدين:

امسى تسنساديسنسى مسدري اشستبي فديني

وأغنية:

يا يمنه قنومني طبلني شنوفي البندر منحتناس شنوفني أشنزاع ابنيني ابنينض كننه التقبرطناس

وفي أغنية (اطريف اطريف) وعد بأن الابن سيعمل على أن يحقق لأمه امنية الحج (واحججك يا يمه واوديك بيت الله).

ومن المفاهيم التي تزرعها الأغاني الأجنبية رفض الأجنبي مثال أغنية

شمبل شمبل شمبيله عنكريزي بوتيله سنه يدعج السرمر عساه يموت الليله

٧- المعارف

بيئة مثل الكريت يمثل البحر شريان حياتها، ومن ثم شكلت أغاني البحر رافدا معرفيا تنتقل بالمؤدى والمثلقي إلى فنون معرفية مختلفة فمثلا أغنية:

(يا الصاجّه ويا الصاجّه	ما صدقتي	صاحِّه)(۱۲۲)
يا نوخذاهم	لا تصلب عليهم	صاجه
ترى حبال الغوص	قطع ايديهم	صاجه
يا ليتني ادهينه	وادهن ايديهم	صاجّه
يا ليتني إخويمه	واظلل عليهم	صاجه
يا خوي محلى السفن	لي لزت السيف	صاجه
كلها صبيان	تجر المجاديف	صاجه

والمقردات البيئية في معجمها: (لا تصلب): لاتثقل عليهم بالأوامر، (إخويمه): تصغير خيمة، (لي): بالف مماله هي (إلى) بعد حذف همزتها وهي تستخدم بمعنى إذا، (لزت): لاصقت، (السيف): بياء المد هو الشاطئء.

ومن أغاني البحر ما تشفق فيه الأم على ابنها مغبة المخاطرة والمغامرة في البحر، تقول:

يا طسويال المطهر ويان أنست راياسج تحسيا المفوص المعب المبدرايسج(١٢٥) ويختلط الفخر والاعتزاز بالاسرة بفرحة العودة:

يا يماة قلوملي طلبي شوفي البحر محتاس شلوفي شراع ابلياي أبيض جننه القرطاس شلوفي شلراع غلبسور أسلود جننه محتمله

(مجتاس): من الحوس وهو الاختلاط والمقصود هنا أنه هائج، (غبور): صبيغة مبالغة من الغبرة، كناية عن العدو، (جنه): كأنه، (مخمة) مكنسة.

___ عالمالفکر ___

وتشكل الألعاب وأغانيها الشعبية مادة معرفية تطوف بالأطفال من بلد إلى بلد فتعرفهم عليها.

فتلحظ طائفة من اسماء المدن والمناطق مثل:

احنا بنات أحمد تلاقينا كلينا حلوه دبق ايدينا والشام والباروت في ايدينا

(دبق): فعل ماض من الدبق وهو ما يعلق من مواد سبكرية لزجة باليد.

وأغنية أخرى تقول:

يا ليتني لوميه ميزروعة بعمان يا كلني سلمان السلمان أخو شيخه يا مراطن العجمان (٢١)

يــــا مــــرت ابــــوي يــــا مــــرت ابــــوي ويـــــن راح ابــــوي راح الـــــوي راح الــــوي راح الــــوي

ومن المعارف التي تحفل بها الأغاني الشعبية لفظة التمر، وما يتعلق به. وغير خاف أهميته الغذائية في بينة مثل الكويت، فيتفنى الطفل بالتمر في أغنية المطر:

يا ربضا عطفا المطر ازين حستى تسزعال أم حسسين ونساكا للمسرها السزيان ونشلي لها التمر الشين(١٣٧) واغنية أخرى تعنيها البنات أثناء اللعب:

انا خالالله حاماره أنا خاويط بارياسام

وأغنية

خصم يسسوه حسالوي ياكل تمر خضراوي (١٢٨) ولعالم الجن نصيب مما تقدمه الأغاني من معارف وثقافة تصور المعتقدات الملية:

تحست البياب جسنسي يصيفق ويغينسي والشرطي شخصية معروفة إيضا لدى الأطفال. فترقص البنات:

الشرطي باني بيته باني بيته خبروابن عشيته عــشـــيـــتـــه

٣- خصائص الأغنية

تتصف الأغنية الشعبية بجملة من الخصائص اللغوية نذكر أهمها:

 الأصوات: تهيىء أصوات المد جملة من المتماثلات الصوتية تناسب مقام الأغنية مثل أغنية نهابة اللعب:

(صلوح ملوح اللي يدل بيت أمه وأبوه يروح)

فالمد هنا ينبه اللاعبين البعيدين بوقت الانصراف.

- الاتباع تعتمد بعض الأغنيات في موسيقاها الداخلية على الاتباع اللغوي مثل أغنية التداعي: شرق/ورق، واغنية الترقيص أحبك/والبك، وأغنية اللعب: سحر/بحر.
- اللوازم: تكتسب الأغنية الجماعية التي يكثر فيها المؤدون جملة من اللوازم اللغوية التي تقوي
 الأغنية وتبث وهجا عاطفيا في نسيج الأغنية مثل أغنية البحر. يا الصاحّه، صاحّه، وأغنية: توب
 توب يا بحر أربعة والخامس بخل، وأغنية التحميدة (ختمة القران): أمين.
- التصغير: اتسمت لفة الأغاني بالتصغير اللغوي الملائم لحال الصغار، ولأنه ينطوي على
 دلالات تمليحية وتحبيبية مثل أغنية: قمير الدودو، ياوليدي، بنيه، خويط بريسم، مضيعدي
 يالهلالي، خويمة.

الفاظ تنبيهية: تصدر بعض الأغاني بافتتاحية تنبه السامع إلى موضوع الأغنية كما في
 الأغنية التي توجه للإنجليزي الذي يمثل شخصية مكروهة بصفته مستعمرا، مثل أغنية: شمبل شمبيله [كلمات غير مفهومة تناسب كلام الأجنبي].

الفاظ تعبر عن الحركة. يتمانق فعل اللغة بملفوظها الصوتي في أداء واحد في مثل أغنية: دور دور يا البطه، صفاقه حق البابا، انقرى انقيزة.

- الفاظ اللامساس (التابو): مثل ألفاظ التنابز، ويعض الألفاظ التي تشير إلى الأعضاء الحسية.

خاتمة

كشف البحث أهمية المأثور القولي الشعبي، ونبه إلى انحساره في الاستخدام وتقلص توظيفه لعوامل ومتغيرات سبق الإشارة إليها، وقد نبهت إليها دراسات كثيرة. ولمل من المفيد أن نوصمي بما يلى:

١- الاهتمام برعاية الأم الحامل رعاية تثقيفية إلى جانب الرعاية الصحية.

حث الأم على الالتصاق بالطفل وعدم تركه للخدم ومواصلة الحديث معه في مناسبات عدة،
 ونلك بعد إجازة الأمومة حتى مرحلة النطق.

٣- تطوير المناهج التعليمية بحيث توظف الماثور الشعبي المنتقى مثل القصص والسوالف والأمثال والأغاني مع أهمية انتقاء ما يوافق القصحى، وقد أثبت أحد البحوث العلمية السابقة أن 1/٢ من كلام الطفل للصرى فصيح (١٢٩).

3- تفعيل عمل وسائل الإعلام في كيفية التفاعل الحضاري مع الغزو الثقافي الخارجي دون مسئل للهوية الشخصية للمجتمع، وصد جماح هذا الغزو الثقافي الخارجي، وذلك بتأصيل المنتقى من الماثور الشعبي في إنتاجها الفني، ومتابعة انشطة الوسائط الثقافية للعنية بهذا النشاط، وبخلق طرائق للاستفادة من النتاج الثقافي الخارجي مما لا يتعارض مع قيم المجتمع واعرافه وأصالت.

ضرورة التعاون بين المؤسسات المعنية بخدمة التراث الشعبي في مجتمعاتنا الخليجية
 والعربية لتبادل الخبرات، والعمل على إبراز هويتنا العربية الشتركة من التراث.

الهوامش

- (١) أيلى كرم الدين، المصيلة اللغوية المنطوقة لطفل ما قبل المدرسة (الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية/الكويت، ١٩٨٩م)، ص١٨٨
 - (٢) فؤاد السيد البهيّ، الأسس النفسية للنمو (ط٤، دار الفكر العربي/القاهرة، ١٩٧٥م)، ص٢١
 - (٣) سعدية بهادر، في علم نفس النعو (ط١، دار البحوث العلمية للنشر/الكويت، ١٩٧٧م)، ص٦٢.
 - (٤) كافية رمضان وفيولا بيلاوي، ثقافة الطفل (وزارة الإعلام/الكويت، ١٩٨٤م) ٩٣/١
- (°) محمد عماد الدين إسماعيل ومحمد المحد غالم، الإبنار النظري لدراسة النمو (دار القلم/الكريت. ١٩٥٨م)، ص. ١٤٠. ولهي الكتاب دراسة عن ميدا الغروق الغربية (صر؟ ١٠) وغير الباحثان فيها أن مرد الغروق الفرية إلى الموامل الوراقية والبيئة ولنظر: يوسف ميخاليل، وعاية الطلالة، صر؟ و
 - (٦) كافية رمضان وفيولا بيلاوي، ثقافة الطفل، ٩٤/١
 - (V) الصدر نفسه
- . (^) سعدية بهادر، في علم نفس النمو، صر١٩١ وتهتم الصحة النفسية بمناهجها الثلاثة العلاجي، والوقاتي، والإنشائي في الاتجاهات العلمية المعدية لدراسة النمو، انظر أرنلد حزل وأخر، العقل من الخامسة إلى العاشرة، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد (لجنة التاليف والنشر/القاهرة، ١٣٢٥م)، ٣٣/١
- (*) إسماعيل وغالي، الإطار النظري لدراسة النمو، صراً ١٠ يدر الطفل بمراجل إدراكية متعددة نطرد مع نموه المعربي إلا ألمحدود بين هذه المراحل بقتوحة، ويميز بياجيه المرحلة الحسية ومرحلة النشاط الفعلي للمدركات الكلية، وهذه المرحلة تنفذ بعدا في النمو المعربي لتحدد مراحل نزري العمليات الإمراكية المتنابية عبد الطفل بدراً من مرحلة ما قبل الملاميم في السنة الثانية مرورا بالحدس ومرحلة ما قبل الدرسة، ثم العمليات الحسية وتنبياً، مرحلة التنفير الشجريدي، انظر مزيداً من النماطة التعديد والمراكزة المدرية (1842م).
- (۱۰) إسماعيل وغالي، الإطار النظري لدراسة النمو. ص۱۰۷، وانظر كافية رمضان وفيولا بيلاوي، تُقافة الطفل، ١٩٥/-١٠٨٨
 - (١١) جورج كلاس، الألسنية ولغة الطفل العربي (دار النهار للنشر/بيروت، ١٩٨١م)، ص٥٥
 - (١٧) فان رايير، مساعدة الطفل على إجادة الكلام، ترجمة صلاح الدين لطفي (مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٠م)، مع١٠.
- (١٣) مصطفى أحمد شحاتة، لغة الهمس (الهيئة للصرية العامة للكتاب/القاهرة ١٩٧٣م)، ص٥٧، فؤاد السيد اليهي، الأسس النفسية للنمو، ص١٧٧
- (١٤) صنالح الشماع، ارتقاء اللغة عند الطفل (٣٥، دار المارف بمصر/القاهرة، ١٩٧٣م)، ص٤٥، إسماعيل وغالي، الإطار النظري لدراسة النمو، ص-٣٣-٣٣١، قنطار، الأمومة، ص٧٤
- (١٥) سعدية بهادر، في علم نفس النمو، ص٦٣٨، وأحمد أبوسعد أغاني ترقيص الأطفال عند العرب (ط٠، دار العلم للملاييز/بيروث، ١٩٧٤م)، ص-٢٠
- (١٦) موفق الحمداني، اللغة وعلم النفس (وزارة التعليم العالي/بغداد، ١٩٨٧م)، ص ١٤١، وانظر لغة الهمس، ص ١٠٠ يرى بعض البلحثين أن الإحساس النفني بالإختلاج السمعي يختلف عن الإحساس بالاختلاج اللساني فالمستمع اسير الصدرت الجاري في السمع، وأسير الوزن الذي ينقسم ليحد وحدات الجملة الصوتية في حدين حد الحروف وحد الكلماد، تميم علوق، الاختلاج اللساني، ص ١٥٠.
- (١٧) محمود السعران، اللغة والمبتمع (ط٢، دار المعارف/الاسكندرية، ١٩٦٣م)، ص ٤٦-٤١، حنفي بن عيسى، محاضرات في علم النفس اللغوي (الشركة الوطنية للنشر/الجزائر، ١٤٧١م)، ص١٤٨، صباح حنا هرمز، الثورة اللغوية للأطفال العرب ورعايتها «الجمعية الكريتية لتقيم الطفاية العربية/الكريت، ١٩٩٧م» ص٢٧
 - (١٨) موفق الحمداني، اللغة وعلم النفس، ص١٤٣.
 - (١٩) رشدي حنين، سيكولوجية النمو (الهيئة المصرية العامة الكتاب/الاسكندرية، ١٩٨٠م)، ص١٩٢٠.

- (٢٠) عبدالعزيز القوصى، اللغة والفكر (المطبعة الأمريكية/القاهرة، ١٩٤٦م)، ص١٠٥
- (۲۱) جورج كلاس، الأسنية ولغة الطفل العربي، ص۲۱، وانظر لس فيجوتسكي، التفكير واللغة (ط۱، مكتبة الأنجلو المصرية/القاهرة، ۱۸۲۷م)، ص۱۸۱
 - (٢٢) موفق الحمداني، اللغة وعلم النفس، ص١٤٣
 - (٢٣) جورج كلاس، الألسنية ولغة الطفل العربي، ص٢١
 - (٢٤) فاطمة مجوب، دراسات في علم اللغة (دار النهضة العربية/القاهرة، ١٩٧٦م)، ص١٦١.
- (٧٧) مصطفى فهمي، آمراض الكلام (ط٢، مكتبة مصر/القاهرة، د ت) ٧٤، وانظر لس. فيجوتسكي، التفكير واللغة،
 ٥٠. ١٦٢
 - (٢٦) عبدالمجيد منصبور، علم اللغة النفسي (ط١، جامعة الملك سعود/الرياض، ١٩٨٢م)، ص٤٥٠.
- (٢٧) جررج كلاس، الأسنية ولمة الطفل الحربي، ١٥-١٥- عبداللطيف حسين فرج، النمو اللغوي لأطفال مرحلة الرضاعة (الجمعية الكوينية لنقدم الطفولة العربية/الكويت، ١٩٨٨م) بعثور الإبراك الدغيني عملية التعميم والتجويد ولهما دور مؤثر في تكوين المفاميم ويعرف المكتور فاشر عاقل المفهره (Ocopen) أنه عملية تمثل وجوه الشبه بين أشهاء أو أرضاح أو موادث مختلفة فاخر عاقل، علم النفس. دراسة التكوف البشرى (بروت/١٩٨٦م)، ١٨/١٦)
 - (۲۸) فؤاد السيد البهي، اسس الشو، ص١٧٧.
- (٢٩) سبد غنيم، اللغة والفكر، مجلة عالم الفكر. ٢٥، ٧٩/ ١٩/٩ والمائير القيلي الشعبي دور في تثبيت الملول اللغوي، إذ إنه يقدم اللغة بمفهرة الخامس مواطنا الكلمة والإنسارة والحركة والإيقاع وتشكيل لمادة، مريدا من التفامميل في. عبدالحميد بياس، حجلة الفنون الشمعية القاهرة، ع?، السنة الإلي، ص ٥٨
 - (٣٠) الشماع، ارتقاء اللغة عند الطفل، ص١٥١
- (٣١) نايف خرما، اضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة (المجلس الوطني للثقافة والفنون/الكويت، ١٩٧٨م)، ع٩، ص١٦٦٠.
 - (٣٢) موفق الحمداني، اللغة وعلم النفس، ص1٣٧–١٣٧
 - (٣٣) فؤاد السيد البهي، اسس النمو النفسي، ص٦٧٦
 - (٣٤) كافية رمضان وفيولا بيلاوي، ثقافة الطفل، ١/ ١٤٤
- (٣٥) عبداللطيف فرج، النمر اللغري لأطفال مرحلة الرضاعة، ص.٣٠ تمثل الكلمة (الجملة) تشكيلا مقطعها لمصوت واحد أق صعرتين على الأقل، وهذا المسئل اللغوي مشاتع في اللغات الإنسانية في للجنمات كافة وروي بعض الهاحثين ان يعض هذه الاصوات لا ينطقها الكبار ابتداء ليقلدها الأطفال، بل إن الأطفال مع الذي يضرجون تلك الأصوات من انوفهم وأفواههم في حماولة للتعبير عن الفرح أو الشيق. ومن ثم يقوم الكبار بإعادة تلك الأصوات أمام الأطفال لتشكيرهم بها، وبالثالي لإضحاكهم أو لإسكانهم عن الباء، عبد السلام إبراهيم قادريو، أغنيات من بالادي، (ط١٠ منشورات الكتاب والتاريخ والمطابع/طرابلس، ليبياء ١٩٨٧م)، ص٣١٧
- (٣٦) موفق الحمداني، اللغة وعلم النفس، ١٥ ا برى إبراهيم أنيس أن لقدرة الذاكرة السعمية للطفل دورا في تقبله للكلام المؤرس إلى المقارط المؤرس بعلى الطفل متامعتها والتجاوب معها البراهيم إنس بمسيق الطفل متامعتها والتجاوب معها براهيم إنسي، موسيقى القضل والمقارفة المؤرسة مي و يطل القبل الاستساط النطق، ومن ثم يوظف لتعليم اللغة لغير الناطقين بها، يقول أحمد مختار عمر، فلحسن طريقة للتعود على النطق الصحيح النفات السعرية والوقفات الموجدة في لغة أجنبية في نقل الكفات أو مجموعة الكلمات ببغم مقطعاً مقطعاً مع الوقفات المحيم المقطعة منظم على المؤلفات المحيمة بين كل مقطع مقطعاً مع الوقفات المحيمة منظماً مقطعاً مع الوقفات المحيمة منظم مقطعاً مع الوقفات المحيمة منظماً مقطعاً مع الوقفات المحيمة منظم مقطعاً مع الوقفات المحيمة منظمة مقطعاً مقطعاً مع الوقفات المحيمة منظمة مقطعاً مقطعاً مع الوقفات المحيمة منظمة منظمة المحين اللغوي وأطاً عامل الكتب/القافرة، ١٩٧٩م، ص. ٢٤
 - (٣٧) وانظر موفق الحمداني، اللغة وعلم النفس، ص١٣٨
 - (٢٨) كافية رمضان وفيولا بيلاوي، ثقافة الطفل، ١٨٤/١.
- (٣٩) فارس الشائقية في اضطرابات النطق عند الأطفال العرب (البحمية الكويتية لققيم الطفولة العربية/الكويت، ١٩٨٨م).
 اكا يريون بإراهيم إنس أن تكون الاصوات الشفوية أول الأصوات، ويمثل لذلك بقوله «نول ريط ويهة الشمسية بين بسماع الاصوات الشغوية بعناج إلى عملية عقلية لايصل إليها الطفل الا في مرحلة متأخرة منه الإلى الطفل الفقل في منط الشخوطة الطفل في منط المرحلة يتجه عادة إلى عيني أمه اكثر من الاتجاه إلى حركات شفتيها، وليس ببعيد أن الطفل الذي يولد اعمى لا يبصر عبداً لنطق أيضاً بالأصوات الشغوية «. إبراهيم إنس، الأصوات اللغوية (طه، مكتبة الانجوار/القاهرة، ١٩٧٥م)، ص ٢١٧٠٠١٦

- (٤) السعران، اللغة والمجتمع، ص ٤٥-٤٦، فؤاد السيد اليهي، الأسس النفسية للنمو، ص٤٧١، حنفي بن عيسى، محاضرات في علم النفس اللغوي، ص٨٤٨، جميل منصور وفاروق عبدالسلام، النمو من الطفولة إلى المراهقة (دار تهامة/جدة، ١٨٧٢م)، ص ٨٦٨.
 - (٤١) عبدالجيد منصبور، علم اللغة النفسي، ص١٤٨
- (٤٩) فارس للشاقية، في اضطرابات النطق عند الأطفال العرب، صـ٣٨ المقصود بالملامح للتعيزة للصوت هو تجمع الصحات الصحوت العنوي، صـ٣٥ المسافات الصحوت اللغوي، صـ٣٥ المسافات الصحوت اللغوي، صـ٣٥ المن المنافذة المنافذة المنافذة المنافذة والمجهورة ويبيد طعاء الأصدات الشديدة المنافذة والمجهورة التي تكون أوضح في السمح إذ تلقاها الأزن في مسافة تختفي عندها نظائرها المهوسة، إبراهيم انيس، اللهجات المربية (ط٢، مكتبة الأنجار/القامة ١٤٧٤م)، صـ٣٠ المربية (ط٢، مكتبة الأنجار/القامة عـ٣٤٨م)، صـ٣٠ المربية (ط٢، مكتبة الأنجار/القامة عـ٣٤٨م)، صـ٣٠ ا
- (27) ليلى كرم. الحصيلة اللغوية المنطوقة لعلمل ما قبل المدرسة، ص.١٩٤ يتضح الانتقال من المحسوس إلى للعفوي، ثم صياغة الأفعال في تزويد المعجم العربي بمفردات كثيرة تنامت من اسماء الذات الجامدة فعن اعضاء جسم الإنسان الأرس من الراس وتأنف من الانف، ومن اسماء الحيوان الجمال من الجمل والاناقة من الثاقة، ومن النبات ازدهر من
- (3٤) المسدر نفسه في مجال دراسة التمثلات الدلالية للفعل عند الطفل العربي يرى احد الباحثين في دراسة إحصائية أن كيفية أرتقاء التمثلات الدلالية تبدأ من أفعال الملكية ثم الحكم وأخيرا الاكل والشرب أنظر: الطالي احرشناو، الطفل واللغة (طاء المركز الثقافي العربي/بيورت.١٩٩٣م)، ٢٠٧/٣
- (49) وانظر موفق الحمداني، اللغة وعلم النفس، ص٧٥١ من ملاحظاتي الشخصية أن الطفل يخلط في إدوات الربط عامة بما فيها حروف الجر
 - (٤٦) وانظر. الشماع، ارتقاء اللغة عند الطفل، ص١٢٥.
 - (٤٧) فارس المشاقبة، في أضطرابات النطق عند الأطفال العرب، ص١٧-٧٥
 - (٤٨) المسدر نفسه، ص ١٢٠، عبداللطيف فرج، النسو اللغوى لاطفال مرحلة الرضاعة، ص٢٢
 - (٤٩) كافية رمضان وفيولا بيلاوي، ثقافة الطفل، ١٤٤/١
 - (٥٠) يوسف ميخائيل اسعد، رعاية الطفولة (دار نهضة مصر/القاهرة، ١٩٧٩م)، ص٥٧
- (١٥) المبدر نفسه، فؤاد السيد، أسس النمو، ص١٨٠، جورج كلاس، الألسنية ولغة الطفل العربي، ص٥٠ والنمو اللغوي سريم لدى الأطفال والذين يخالطون الكبار انظر حنفي بن عيسي، محاضرات في عام النفس اللغوي، ص١٦٥
 - (٥٢) يوسف ميخائيل، رعاية الطغولة، ص٤٥
 - (۵۳) للصدر نفسه (۵۶) فارس المشاقبة، في اضطرابات النطق عند الأطفال العرب، ص.٦٠
 - (٥٥) موفق الحمداني، اللغة وعلم النفس، ص١٣٢.
- (٥٦) مارك ريشك، أكتساب اللغة، ترجمة كمال بكداش (ط١، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشو والتوزيع/بيوويت، ١٨٩٤م)، حر١٢٨
 - (٥٧) المصدر نفسه وانظر. كافية رمضان وفيرلا بيلاوي، ثقافة الطفل، ١١٤/١
 - (٥٨) عبدالعزيز القوصى، مقدمة كتاب (مساعدة الطفل على إجاده الكلام) لغان رايبر، ص٢٤.
- (٩٩) فايز قنطار، الأسرعة نمر الملاقة بن الطفل والأم عالم المرفة، ع١٦٦ (المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب/الكويت، ١٩٩٧م)، ص٠٧٠.
 - (١٠) سيد غنيم، اللغة والفكر، مجلة عالم الفكر، م٢، ع١، ١٩٧١م.
- (١١) المسدر نفسه يعبر باللغة الام عن مدلواي: اللغة القومية في مجتمع ما باللغة الامسلية لاي مجموعة من اللغات كاللغة المسلمية، وانتهي العلماء إلى أن النوع الأصلي الاي مجموعة من اللغات ليس له وجود محسوس فلا احد يستطيع أن يتكلمها ولا محرفة يقينية لنا في أغلب الأحوال بالشعب الذي كان يتكلمها كما أن معرفتنا بالمواصل الذي كان يقلنه ناك الشعب معرفة تقريبية في معظم الاحوال محمود السعران، علم اللغة (دار للعارف بمصر/الفاهوة، ١٣٦٣م)، ص١٧٧
- (٦٢) قارس الشاقعة، في اضطرابات النطق عند الأطفال العرب، صُ٥٠ فؤاد السيد اليهي، أسس النمو التفسي، مر١٧٧-١٨٠

- (٦٣) صفوت كمال، مدخل لدراسة الفلكلور الكويتي (ط٣، وزارة الإعلام/الكويت، ١٩٨٦م). ص٢٦٥-٢٦٥
- (4) تعرف في مجتمعات أخرى حكايات تحمل تشابها بين بعض عناصرها وعناصر حكاية (الم الدل والدلال) فقي نجد حكاية (المردق ويقد أم الدل والدلال) فقي نجد حكاية (المردق الأميان) وفي السودان حكاية (حس عنائية (المردق الأميان) وفي الفرب حكاية (القنائة والصندوق) وجمعها تشترك بأن عنصر الجمال الفائق يخشص عناء وينشص عليه وين ثم تنظير احداث الحكاية الني تقوم على فكرة الإيماد أو الاغتراب وتنتهي المعانلة إذ ينتصر الحق والخير المقل بالجمال بزواح الفئة الجميلة المطلوبة بابن السلطان أو الذيء، ويتداخل عالم البون بعالم الإنس فقد حطم القصمس الشميمي كل الحراجة للفريضة عقلا بين هذه العوالم المختلفة ، وانظر صفوت كمال الحكاية الشعبية الكوينية دراسة مقارنة (طا، ورزائم الإعلام/الكوين- ١٩٧٥). صرياحا ١٠٠٠٠.
 - (٦٥) بزة الباطني، من أغاني المهد (ط١، مركز رعاية الفنون الشعبية: وزارة الإعلام/الكويت، ١٩٨٦م) ص٦٧.
- (17) رشدي حنى: سيكولرجية النمو، مـ ٣٦٧، وانظر سرجيو سبيني، التربية اللغوية للطفل، ترجمة فوزي عيسي وعدني، سيكولرجية النمود المفارد الموقد مستورد الفكر العربية المفارد الموقد مستورد الفكر العربية مستورد المفارد الموقد مستورد المفارد المستورد المست
 - (٦٧) سبيد غنيم، اللغة والفكر، مجلة عالم الفكر، م٢، ع١، ١٩٧١م.
- (٦٨) رمزية الغريب، العلاقات الإنسانية في حياة الصغير (مكتبة الانجلو/القاهوة، د.ت.)، صر٥ . المتنشئة الاجتماعية دور في تشكيل شخصية الغرد منذ ولانته، وهي ليست محددة بمرحلة نمائية معينة وتعرف عملية التنشئة الاجتماعية -50 ccalization على انها العملية التي عن طريقها يكتمب الطفل الانجهات والقيم والدوافع وطرق التفكير والتوقعات والخصائص الشخصية الاجتماعية التي ستميره كفرد في المجتمع، سميرة أحمد السيد، علم اجتماع التربية، على صر - - ١٤.
 - (١٩) البخاري، صحيح البخاري (ط١، دار السلام للنشر، ١٤١٧) ص٢٦٧، حديث ١٣٥٩
 - (٧٠) فؤاد السيد البهي، الأسس النفسية للنمو، ٦٣
 - (۷۱) كافية رمضان وفيولا بيلاوي، ثقافة الطفل، ١٨٢/١
 - (٧٢) سعدية بهادر، في علم نفس النمو، ٢٥٦، ٢٦٣
 - (٧٣) كافية رمضان وفيولا بيلاوي، ثقافة الطفل، ١٨٤/١ (٧٤) للصدر نفسه، ١٧٩/١
 - (٧٠) القرميي، اسس الصحة النفسية، ص١٦٥
 - (٧٦) رشدي حنين، سيكولوجية الندو، ص١٣٢
 - (٧٧) بزة الباطني، من اغاني المد، ص ١٠٧ .
 - (۷۸) الصدر نفسه، ص۸۰. (۷۹) ايوب حسين، مختارات شعبية من اللهجة الكويتية (ط۱، مطابع مقهري/الكويت، ۱۹۸۲) ص۲۹۱
 - (٠٠) أيوب هسين، مم ذكرياتنا الكويتية (ط٢، ذات السلاسل/الكويت، ١٩٨٤م). ص٧٦٠.
- (٨١) للصندر نفسه، ص١٥١ للكنايات والأمثال الشعبية مناسبة أولى، ولكنها مع الزمن تتخلى عن تلك الخصوصية وتصبير ذات دلالة وظيفية، أبوأوس إبراهيم الشعمسان، جوانب من الاستخدام الوظيفي للغة، للجلة العربية للعلوم الإنسانية، ع٢٢، م١١، ١٩٩٠م.
 - (٨٢) أحمد علي مرسي، الأغنية الشعبية. مدخل إلى دراستها، (دار المعارف بمصر/القاهرة، ١٩٨٣م)، ص٢٦
 - (٨٢) صفوت كمال، مدخل لدراسة الظكلور الكويتي، ص١٣٦.
- (٨٤) أيوب حسين، مع الأطفال في المأضي (ط١، مطبعة حكومة الكويت/الكويت، ١٩٦٩م)، ص٠٠، سيف مرزوق الشملان، الألعاب الشعبية الكويتية: وصفها وادواتها وما يتعلق بها (ط٢، مطبعة مقهوى/الكويت، ١٩٧٨م)،١٠٥٨
 - (٨٥) بنت. أنشأت بناء، بنحر. يقصد، صدير: منطقة في نجد، جزوين جزوين من القرآن.
 - (٨٦) أيوب حسين، مع الأطفال في الماضي، ص١٣٢–١٣٤.

- (X) إنشر أيضًا أحمد محمد السميدان، للرسرية الكويتية المتصرة (ملاً، وكالة المطبوعات/الكويت، ۱۸۹۸م)، ۳/۱۳۷۲. يذكر السميدان أن الروايات في التحديدة متعددة والأرجع عنده أنها مؤلفة من ١٨ بينا فقط. قد لفقت بعد النقول روايات مختلفة أورد السميدان إحداما بلفت ١٧ بينا وذلك نقلا عن خليل رشيد في مجلة القرات الشمين المعراقي،
 - (٨٨) الشملان، الألعاب الشعبية، ٢٠٣/١.
 - (٨٩) صفوت كمال، مدخل لدراسة الفلكلور الكويتي، ص١٤٢.
 - (٩٠) السعيدان، الموسوعة الكويتية المغتصرة، ٢/٥٥٦، ١٩٧١/٢، ٢/٩٩٩.
 - (۱۸) صفوت كمال، منظل لدراسة الفلكلور الكويتي، ص١١٥، ١٢٧ (۱۸) من من الناصل الغالب الكرنية (۱۸ هـ كاللحاد الناص ما الكريد و١٨٥ م. ١٨٥
 - (٩٢) محمد رجب النجار، الغطاوي الكويتية (ط١، شركة الربعان للنشر والتوزيم/الكويت، ١٩٨٥م)، ص٧. (٩٣) المسدر نفسه، ص٢٠.
- (٩٤) النجار، المعاضلات اللسانية في الأدب الشعبي (مجلة الماثورات الشعبية، السنة الأولى، العدد٢، أبريل ١٩٨٩م)، ص
 - (٩٥) موفق الحمداني، اللغة وعلم النفس، ص١٤٤
 - (٩٦) سعدية بهادر، في علم نفس النمو، ص ٢٥٦
 - (٩٧) انظر الدراسة التحليلية
 - (٩٨) كافية رمضان، تقويم قصبص الأطفال (مطبعة حكومة الكويت/الكويت، ١٩٧٨م)، ص٥٦
 - (٩٩) أيوب حسين، مع الأطفال في الماضي، ص٥٦ الشملان، الألعاب الشعبية، ٢٠٦/١. (١٠٠) أيرب حسين، مع الأطفال في الماضي، ص٨٥١–١٩٦
- (١٠١) النَّجُورِث، الرضَّع والأطفال الصغار، ترجمة فردوس عبدالمنعم، (الهيئة المسرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤م)،
 - (١٠٢) فارس المشاقبة، في اضبطرابات النطق عند الأطفال العرب، ص٠٠
 - (١٠٢) مرجيو سبيني، التربية اللغوية للطفل، ص٥٠
- (١٠٤) برة الباطني، من اغاني المهد، ص١٩٤، ١٩٤١. وقد عرف المجم العربي اكثر من لفظ للدلالة على ترفيص الأطفال، على تعارف بين المناب المعرف المحتوية وقد المعرف المعرفة ا
- (١٠٥) قنطار، الأمومة، هي ٢٨٩ً. (١٠٦) للمصدر نفسه، ص١٧٥ وفي التراث اغنية لأم اعرابية تقول احبه حب الشحيح ماله « قد كان ذاق الفقر ثم ناله « إذا
- (۱۱) تصفدر نسبته عن ١٠٠ وهي معرات المه معرات المفارة المقد الغريد (لجنة التأليف والترجمة والنشر/القاهرة، (۱ د بلكه بدا له انظر أبوعمر احمد بن صعد بن عبدريه، العقد الغريد (لجنة التأليف والترجمة والنشر/القاهرة، ١٩٤/ ٢ (١٠٠) قنطار، الأموية، ١٤/
 - (١٠٨) أيوب حسين، مم الأطفال في الماضي، ١٣٢.
- (٩. ١) كافية رمضان وفيولا ببلادي، ثقافة الطفل، ١٨٦/١ يحمل التراث العربي كثيرا من الصرفات الشحونة بالضعف الإنساني للام، الاتمك من وسيلة للتعبير عن عضيها إلا ما ترقص به طفها، فالام التي عائد من زوجها ترقص لبنتها قائلة ومبتها من شبح من المراقبة ومن المنتها ومناه ومناه المنتها من شبح ما والمنتها والمنتها الألادة لا يبالي جاره إن بيعد. انظر الصحة المعتقل المنتها فائل تنز بذلك اللوج المعتقل الذي تحملة تضاعيف الفنس الداخلية للام، وهي أغان لا أجد فيها أي تعليل للطفل، وتروي روايات عديدة منها المقطلة المنكوب النص الداخلية للام، وهي أغان لا أجد فيها أي تعليل للطفل، وتروي روايات عديدة منها المقطلة المنكوب النص المنتها التي تعيز بانه يلحق بكل نص النونة المنسيقية التي تبدئ كيفية الإنشاك. المذكر إبراهيم والشرع من الشرعة المنسيقية التي تبدئ كيفية الإنشاك. انتظار إبراهيم راشدة المنسيقية التي تبدئ كيفية الإنشاك.
- (١٠) رشدي حنين، سيكولوجية النمو، ١٩٩/١. واثبت البحث العلمي أن الهمهمات المصاحبة الأغنية التنويم تشترك فيها شعب كثيرة تنتمي إلى يبنة جهزائية حددة مثل شعوب البحد الاييض للتوسط فالهمهمة حثل (هو هر) دهي أسماء أصدوات يصاحبها رثم واحد تنظير في شعوب الساحل الشمالي للبحر المتوسط مثل إلياليا والبيائيان وهند شعوب السلحل الجنوبي مثل مصر والشرقي مثل بلار الشام، انظر أحمد أبرسعد، أغاني ترقيص الأطفال عند العرب، ص.١٧).

- (۱۱۱) لسان العرب (سبت)
- (۱۱۲) أبورب حسين، مع الأطفال في للأضبي، ص. ۲۲، ويرد أحد مشتقات اللفظ بدلالة للون في اللفز الشعبي حمامتين فوق البيت» بلقطوا حب السبيت» إن عطوني ما بغيت» وإن عطوا غيري بكيت انظر. أيوب حمين، مختارات شعبية من اللهجة الكويتية، ص ۲۷۷، واللجوار، القطاوي الكويتية، ص. ۱۱
 - (١١٣) الشملان، الألعاب الشعبية، ٨٢/١
 - (١١٤) السعيدان، الموسوعة الكوينية المختصرة، ٢٠٧/١.
 - (۱۱۰) لسان العرب (کور)
 - (١١٦) الشملان، الألعاب الشعبية، ١٧٥٧
 - (١١٧) السعيدان، الموسوعة الكويتية المختصرة، ١٢٥٨/٢. (١١٨) الصدر نفسه، ١٩٩١.
 - (١١٩) الشملان، الألعاب الشعبية، ١/٧٧
 - (۱۲۰) السعندان، الموسوعة الكويتية المختصرة، ١/١٦ع.
 - (۱۲۱) المنبر نفسه، ۸۸۸/۲
 - (۱۲۲) الصدر نفسه، ۲/۹۲۵
 - (١٢٣) الشملان، الألعاب الشعبية، ١/٨٦، السعيدان، للوسوعة الكويتية المختصرة، ٢/٩١٠
 - (١٧٤) أيوب حسبيّ، مع الأطفال في الماضي، ص٢٠١
 - (١٢٥) حصة الرفاعي، أغاني البحر (ط١، ذَات السلاسل/الكويت، ١٩٨٥م)، ص٢٢١
 - (١٢٦) أيوب هسين، مع الأطفال في الماضي، ص٤٠٠. (١٢٧) السعيدان، الموسوعة الكويثية المقصرة، ٢٠/١
 - (۱۲۷) استغیدان، الوسوعه انخوینیه التصطیری، ۱۰٫۲۱ (۱۲۸) للصدر نفسه، ۱۲٫۲۱
 - (١٢٩) ليلي كرم، الحصيلة اللغوية المنطوقة لطفل ما قبل الدراسة، ص١٠

تعريب التعليم الجامعي

«أضواء على تجربة»

تعتین :د. تغرید نصر أصفر*

مقدمة

يحكي صاحب «الفهرست» عن السبب الذي من اجله كثرت كتب الفلسفة وغيرها من العلوم القديمة في البلاد العربية الإسلامية زمان المامون، ان رجلا مهيبا تجلى لهذا الرجل المحب للمعرفة والحكمة في منامه، واوحى له بان يستخرج كل ما سبقه من فلسفة وعلوم لينقلها إلى العربية(أ). هذه هي الرواية المتفق عليها حول سبب إنشاء المامون لدبيت الحكمة، عام ١٨٣٢/٢١٧، والذي يعد بحسب تعبيرنا اليوم أبرز مؤسسة علمية شهدها التاريخ العربي الإسلامي على امتداده، وليس مصادفة أن عصر الترجمة والنقل الذهبي إلى العربية كان عصر بلوغ الإشعاع الحضاري العربي الإسلامي الذروة. فقد كان مترجمو ذلك الزمان من أبرز مفكريه، كما ولم تكن هناك مسافة بين الترجمة الثاني الذي

باحثة من سورية

ابتداء محمد علي فقد اختلف عن عصرها الأول بانه كان عبارة عن انعكاس لضعف حضاري لا قوة، وبان الإبداع فيه تاخر عن النقل، وبان هذه الحركة لم تتسم بالعمق والاتساع الكافيين لكي تنجح في ترك بصمة مرئعة.

أما في يومنا هذا فلا مخرج من تكرار النفعة الحزينة ذاتها، فما يسر من حالنا وإياكم اقل بكثير مما يبهج. وهنا فالحديث يدور عن الموقع الذي نحتك كعرب في سلم الحضارة العالمي، وعلى الأخص فيما يتعلق بالعلم والتكنولوجيا، وفي أجواء كهذه لا اعتقد أننا بحاجة للتأكيد على ان اللغة العربية هي أثمن ما تبقى لنا على امتداد البلاد العربية، وإنها الحقيقة الوحيدة التي نجتم حولها دون خلاف، إن المحافظة على هذه اللغة لا تتم بالتعامل معها على أنها احد الأنواع المهددة بالانقراض، ويجب وضعها في محميات وصوبها من أي نسمة هواء، كداب بعض اللغويين المحتكي المستعدين للتضحية بوظيفة أساسية للغة على حساب نقاء نحوي ولغوي مفترض، بل على العكس يكون الحفاظ عليها بفتح الأبواب والنوافذ في وجهها، بتعريضها لمختلف الرياح وإقحامها هي كل المجالات إن من يقول إن لفتنا اليوم لغة أدب وعلوم كلام وليست لغة علوم ومصطلحات ليس مخطنا كليا، فستظل لغتنا بعيدة عن العلم وأسلوبه ومنهجه ومصطلحه مادمنا قد تخلينا عنها في هذا المجال، ومادامت لم تعرك بعد في معمعان الثورة العلمية بكل تعقيدها وشموليتها ومادامت علوم اليوم تدون أصلا بغير لغتنا فإن علاقة لغتنا العربية بها ستقتصر في وشموليتها ومادامت علوم اليوم تدون أصلا بغير لغتنا فينا علاة لغتنا لتأخذ مكانها كلغة علم أصيلة ينقل عنها إلى اللغات الأخرى

لقد تخلينا عن تعريب العلوم تحت مختلف الذرائع، فماذا سيكون مصير اللغة العربية بعد عقود من عدم استعمالها فيما يختص بالعلوم؟ طبعا لا يحتاج الأمر لنباهة لإدراك بأن هذه الوظيفة الاساسية للغة ستموت، وأن الوقت سيتجاوزها بحيث يصبح من المتعذر تلافي هذا النقص مهما حاولنا عندها سيكتب على كل ناطق بالعربية في اجيال ستأتي نامل أن تشارك في صنع العلوم، أن يقوم بنشاطه العلمي بغير لغته. وسيصبح من المتعذر على غير المشتغلين بالعلوم وغير المتقنين

للغات أخرى متابعة مايجري من حولهم، وهي حالة مرضية سبق وأن وعت إلى خطورتها الدول المتقدمة، فبذلت جهودا كبيرة في سبيل عدم ترك أحد خارج تيار الثورة العلمية.

ليس هذا السيناريو مستقبليا جدا بأي حال من الأحوال، بل إن يومنا هذا يحمل كل مؤشراته هل من متابع لشؤون ألفكر في يومنا هذا يحمل بنرة شك في أن وضع اللغة العربية مهدد كلغة علم، وأن إنعاشها بحاجة لقسم العناية الفائقة، وأن خلاصها لايتم إلا بتضافر جهود الاكاديميين في كل مكان ممن يتقنون ليس فقط لغة العلم بل ومنهجه أيضا. إن من يعول عليهم هم الاكاديميون الحقيقيون الذين لا يترفعون عن لغتهم الأم بسبب رطانة أكاديمية، أو تعصب للبلد الذي نهلوا منه العلم، أو للحفاظ على ما يشبه مجتمع الصفوة العلمي الذي يروق له التميز عن العامة بتعمد الإيهام والترميز، والذي هو أقرب إلى نهج المشعوذين منه إلى أهل العلم.

لكن الحماس للشعارات كشعار التعريب هو اسوأ ما يمكن أن يحصل لهذا المشروع. ولربما كان إخراج هذا الموضوع من حيز تداول المنظرين إلى خبرة المجربين هو اكثر ما يمكن أن يضخ في عروقه دماء جديدة. وفي كثير من الأحيان كانت معالجات هذا الموضوع، المبنية على تجارب واقعية، تأتي من مواقع مسؤولة لأناس شغلوا مفاصل محورية في خطط التعريب الجامعي، فكان أن جاحت مقارياتهم عبارة عن مديح فج لسياسة ساهموا في صياغتها وتنفيذها، وربما أيضا في فشلها!

إيجابيات التعريب والتدريس باللغة العربية

«المترجمون خيول بريد التنوير» بوشكين

١- إن النقل النشط للعلوم والمعارف إلى اللغة العربية لهو من أهم عوامل خلق التربة والمناخ الملائمين للدخول في عملية التحديث والمشاركة الفاعلة في تيار التطور العلمي والحضاري العالمي. فقد ترافقت كل حركة نهوض وانبعاث على مدى التاريخ بحركة ترجمة نشيطة. وتكاد لا توجد نهضة علمية فكرية تنمو في فراغ، بل تبنى دائما على ما حققه الآخرون. ويعبر الباحث اللبناني عبد الكريم ناصيف عن هذا الطرح بقوله: «إذ تسبق حركة الترجمة دائما حركة التأليف، بالمعنى العام للكلمة، وتمهد الأولى للثانية حيث يبدو جليا إذا ما القينا نظرة على تاريخ الأمم أن حركة الترجمة كانت دائما هي المرحلة الإبداع والتأليف، (٧٠).

لقد ترافق عصر الترجمات الكبرى مع أكبر ازدهار عرفته الحضارة العربية، كما لعبت الترجمة عن العربية دورا بارزا في دخول أوروبا عصر النهضة. فنحن اليوم مأخوذون بمنجزات الحضارة الغربية التي نحاول نقلها إلى العربية كما كان أسلافنا يقفون من حضارة ومعارف الإغريق، مع فارق جوهري، وهو أنهم كانوا أكثر شجاعة وتحررا من عقدة النقص في نقلهم عما سبقهم. ويتفق الكثيرون على أن هناك شروطا معينة يجب أن تتوافر في الترجمة لكي يمكن أن تسهم في المشروع التحديثي، ومن أهمها بحسب تعبير الباحث هاشم صالح أن تكون الترجمة عملا إبداعيا يقوم به رجل عالم وباحث في نفس الوقت». أي أن النقل يجب أن يكون تعريبا أكثر مما في ربحمة حرفية أن الترجمة الخلاقة نيست عملية نقل حرفي، بل هي عملية إبداعية تنجم عن تفاعل فكر وثقافة المترجم مع فكر وثقافة المؤلف من دون انتهاك لروح العمل، لهذا لم تكن ترجمة كهذه في متناول الكثيرين بينما تعجز حركة الترجمة المعاصرة عن لعب الدور نفسه لأسباب عدة سيتم التعرض لبعضها لاحقا. ويمكن أن أورد قول الباحث جورج طرابيشي الذي يعتبر الفرق سيعم الترجمة الأولى كان العقل العربي في عملية الترجمة الأساسي ما بين المرحلتين يتمثل في الصاحة التي ينطلق منها العقل العربي في عملية الترجمة الأماسي عصر الترجمة الثاني فكان العقل العربي ولا يزال- قيد التكوين «⁽²⁾).

Y- إن اللغة العربية هي لغة التواصل في المجتمع، بمعنى أنها لغة الاتصال والتأثير والتأثير. ومن الافعية بمكان أن يكون الاكاديميون من خريجي الجامعات، ومدرسيها، قادرين على أن يوصلوا علومهم ومعارفهم لمجتمعاتهم، وأن يسبهموا في تنمية الوعي العلمي والعقلية العلمية في يوصلوا علومهم ومعارفهم لمجتمعاتهم، وأن يسبهموا في تنمية الوعي العلمي والعقلية العلمية في بصمة على مجتمعاتهم إلا إذا تمكنوا من العلوم التي يُدرسونها أو يُدرسونها باللغة العربية، وإلا إذا توفرت المنشورات العلمية والتعليمية على جميع المستويات بالعربية، فجميع علماء الدول المتقدمة يستطيعون التعبير عن تخصصاتهم وأفكارهم بلغاتهم المحلية، وظاهرة المختص الأبكم لنفرد بها عن غيرنا من الأمم. لذلك فإن جهدا من طرف الاكاديميين يجب أن يبذل من أجل بناء جسور التواصل مع العامة. فلم يعد مقبولا تعمد الإيهام والحشو للمصطلحات الاجنبية أثناء التوجه للعامة لإحداث شعور «كاذب» لدى المتلقي بتفوق المتحدث وسعة معارفة، وحتى عندما

يكون المتحدث على مستوى عالى فإن جهله بالعلم- موضوع اختصاصه باللغة العربية- يجعله عاجزا عن إيصال مائديه للمتلقي العربي العادي، وعلى التأثير الإيجابي في محيطه. إن إقصاء السبواد الأعظم من الجمهور عن حلقة العلم في الدول العربية سينعكس سلبا في النهاية على مسيرة العلم ككل. إذ لايخفى ان تمويل الأبحاث، واستمرار الدعم الحكومي للجامعات والأكاديمين يعتمد بشكل أساسي على وجود رأي عام إيجابي فيما يخص دور العلم والعلما، في حركة التنمية. وهذا لا يتم إلا بتبسيط العلم والسعي الدائم لإبقاء الغالبية العظمى من المجتمع على مسافة ليست بالبعيدة مما يجري على جميع جبهات العلم، وأهمية وحيوية البحث العلمي بالنسبة لجميع مناحي الحياة.

٣- إن اللغة هي الوعاء الذي تنضج فيه الهوية وحس الانتماء إلى المجموعة الأكبر. وقد يبدو هذا الكلام للبعض شعاراتيا فضفاضا لكثرة ما استعملت تعابير كهذه كقوالب جاهزة لابد من القائها في أي خطاب ليأخذ طابعا وطنيا. وما يهم هنا هو التركيز على حقيقة أن اللغة تؤثّر على تشكل الشخصية الإنسانية على كل المستويات، بل وتؤثر على الانفعالات والأحاسيس والذائقة، وحتى على منظومة القيم والعلاقات الاجتماعية. وغالبية تأثيرات اللغة هذه تعمل في اللاشعور. فعلى المستوى الفردي، تسهل اللغة للشخص اكتساب الثروة اللغوية للأمة التي يعيش فيها كيما يصبح عضوا كاملا في هذه الأمة. وهنا فإن اللغة تلعب دور وسيلة للإخوة ووسيلة للاتصال في الوقت نفسه. كما تمكن اللغة المتحدث بها من التفاعل مع محيطه المشترك، وتسلحه بالأداة التي يستعملها في كشف وتحليل عملياته المعرفية ليوصل إلى الآخر ما يريد فعله وقوله. وأخيرا، وكما يقول ليباج Le Page فإن اللغة تكسب صاحبها سهولة التعرف على تجارب الأخرين ومفاهيمهم(٥). أما على مستوى المجتمع، فإن اللغة بحسب الباحث عمر عسوس: «هي المستودع التعليمي للمعارف، والمعايير الثقافية. والتاريخ الاجتماعي-الثقافي المتوارث عن طريق العملية التعليمية. وتعمل اللغة كالغراء الاجتماعي الذي يتم بموجبه الشعور بالارتباط بالماضي والحاضر والمستقبل»(1). ومن البديهي أن تشعر النخب المثقفة التي تلقت تعليمها بلغة أجنبية فقط بالاستعلاء والامتياز وعدم القدرة على التماهي مع المجتمع بمفهومه الأعم. فاللغة لاتأتي بمعزل عن مناخاتها، وعن منظومتها الاجتماعية والثقافية، بل وعن تعصبها الثقافي، وفي هذا السياق يقول سامويل كودجو Kodjo حول أهمية الدور الذي تلعبه السياسة التعليمية واللغة في تشكيل الوعي الثقافي للنش، في البلدان التي احتلتها فرنسا حتى بعد الاستقلال: «إن السياسات والمارسات التعليمية دعمت بصورة مباشرة أو غير مباشرة المجهودات الاستعمارية المبذولة في سبيل إدماج الشعوب المستعمرة ثقافياء كما رسخت الأنظمة والمارسات التعليمية بعد الاستقلال التقاليد الاستعمارية وسياسة التغريب، ومن ثم أدت إلى زيادة الاغتراب والتبعية الثقافية (٧). بيد أن هذا لا يعنى أننا ننكر على أحد ما تمتعه بالقراءة بالفرنسية وسماع أديث بياف، أو الإعجاب بأفكار وكتابات فولتير. فهذا يختلف طبعا عن الانحياز الثقافي الذي يؤدي إلى اتخاذ موقف مناهض للغة والثقافة العربيتان كما هو حال بعض المثقفين الفرنكوفونيان الذين يذهبون إلى حد وصف اللغة العربية بالميتة، أو بأنها لغة التخلف، أو أنها لغة الجمود والصعوبة واللاعلم(^). ومن هنا - فإن بعدا جديدا -يضاف للمعادلة بشكل يستحيل معه أن يتعايش الانتماءان الثقافيان للفرد، فيصبح غريبا في مجتمعه لا يستفيد من معارفه إلا القلة، ولا يشارك المحيطين به أمالهم وأحلامهم، والأهم من ذلك جهودهم للخلاص مما هم عليه من تخلف أو تبعية. ومن المفيد التذكير هنا بأن ابن سينا كتب مؤلفاته الطبية والفلسفية باللغة العربية، بينما كتب مؤلفاته العاطفية باللغة الفارسية، أي أن العربية كانت بنظر هذا العالم المتفرد لغة العلم والمعرفة. فلماذا نصاول اليوم نفي هذه الصفة عنها؟! ومن أهم الأمثلة في هذا الصدد ما لعبته الازدواجية اللغوية في لبنان من دور هدام برأيي لحس الانتماء للوطن الأم على حساب الانتماء للثقافة الفرنسية، والذي ساعدت على تغذيته بعض الدعوات الدينية. يقول الباحث اللبناني كمال الحاج في معرض انتقاده للازدواجية اللغوية التامة-أي تعايش لغتين تتقاسمان دورا متساويا في مجتمع ما- في لبنان: «لقد جلهنا فلسفة اللغة، فكان أن سرنا عكس الواقع البشري، دون أن ننتبه إلى الخطأ التربوي الذي ارتكبته مناهجنا التعليمية ودون أن ننتبه إلى الشق الذي اقمناه بين اللبناني كفرد ولبنان كوحدة شعب (^). وفي المقابل برجع الباحث سليم عنو الأزدواجية اللغوية (العربية-فرنسية) إلى معطى اجتماعي ناجم عن احتضان لبنان لتجمعين دينيين مسلم ومسيحي «المسيحي يشعر بالراحة أكثر حين يستعمل اللغة والثقافة الفرنسيتين، والمسلم يشعر براحة أكبر حين يستعمل اللغة والثقافة العربيتين»(١٠٠). بل هو يذهب إلى القول: «ومن هنا فإن طرح الازدواجية اللغوية أو إرادة التعريب يظهر كعامل لطرح

مسالة الثقافة الوطنية للمناقشة، بل وحتى وجود الدولة نفسه (١٠). وهنا نشهد وجود تباين جذري في وعي ما تعنيه الثقافة الوطنية ناجم عن اختلاف الثقافة السائدة لدى كل فئة. فالسافة الفاصلة بين التعصب اللغوى العلمي اللّبوس والتعصب الثقافي لا تكون بعيدة إذا ما استفدنا من دروس التاريخ. لذلك لابد من التعريج ولو بسرعة على الازدواجية اللغوية في المغرب العربي، وتشكل الجزائر الحالة الأوضح بينها وتأتى أهمية الحالة الجزائرية بالنسبة لموضوعنا هذا، من حقيقة أن الاتجاه السائد في الجزائر كان ينحو إلى استعمال اللغة الأجنبية- الفرنسية هنا- لتدريس العلوم، بينما تترك العربية لتدريس التاريخ والفلسفة. وهو طرح يلقى تجاوبا واسعا في الأوساط الأكاديمية حتى في البلاد العربية الأخرى. أو بحسب عبد المالك الصياد تكون اللغة الفرنسية هي اللغة الدنيوية المعبرة عن عالم المادة، بينما تترك اللهجات التقليدية للتعبير عما هو مقدس وديني (١١). وبغض النظر عن هذا التقسيم الوظيفي اللغوي، فإن اللغة تتجاوز - كما سبق وأشرنا- وظيفتها المصطلحية والدلالية لتؤثر في التركيبة الثقافية-العلائقية في المجتمع. تقول الباحثة ايفون لوفيفر في هذا الشأن: «ليست الازدواجية اللغوية عبارة عن لغتين فقط، وإنما هي أيضًا مجموعتان بشريتان، وثقافتان تدخلان في علاقة متبادلة، وكل واحدة منهما تخضع لقوانين خاصة». ثم تطرح جوهر مشكلة علاقة لغة التعليم بنوع التنشئة التي يخضع لها المتعلم في الجزائر: «إن وظيفة التمييز الاجتماعي التي لعبتها الفرنسية خلال الحقبة الاستعمارية تبدو وكأن التعليم المدرسي المزدوج اللغة قد اخذها على عاتقه»(١٢). فالتعريب في الجزائر كان عبارة عن إدماج العربية في النظام التعليمي نفسه، لذلك عاني من شتى أنواع المصاعب. إن الالتباس الذي تفرضه الثنائية اللسانية يؤدي حتما إلى التباس يتعلق بالازدواجية الثقافية إن هذا الفصل في فهم مهام اللغة سيؤدى بالتدريج إلى وضع ترتبط به إحدى اللغتين بالحداثة والأخرى بالتقاليد. وهذه كلها من العوامل التي أدت للنظر إلى اللغة العربية بكونها قاصرة على استيعاب منجزات العلوم والتقانة. ومع محاولة عدم الوقوع في التعميم الذي يختزل تأثير العوامل الأخرى على مجمل الوضع في الجزائر ولبنان، فإن هذين البلدين اللذين شهدا الازدواجية اللغوية- الثقافية الأكثر حدة في الوطن العربي عانيا من أعنف الحروب الأهلية.

٤- إن الاعتماد على لغة عربية علمية موحدة هو عنصر ائتلاف وتعاون مهم بين الدول العربية

وأكاديمييها على وجه الخصوص. إذ لا تقتصر المشكلة حاليا على اعتماد كل دولة عربية على لغة الجنبية مختلفة عن الأخرى كلفة للعلم، بل إن لكل دولة عربية لغتها العربية العلمية الخاصة بها. فقد أدى عدم التنسيق في هذا المجال إلى نعو مصطلحات محلية في جميع أوجه الفكر من علوم إلى نقد إلى فلسفة، وأصبح من المتعنز فهم النصوص العلمية المعربة من دون الرجوع إلى الأصل في معظم الحالات إن وجود لفة علمية واحدة يتكلم بها الأكاديميون العرب لهو حيوي جدا من أجل التعاون العلمي، وتبادل الخبرة، بل وبناء جسور الثقة بين البلدان العربية. كما أنه حيوي لإرساء منظومة معرفية مشتركة تستطيع استيعاب كل ما يرفدها من نتاج علمي وفكري من كل بلد

و- إن التعريب والترجمة يضيفان إلى اللغة العربية ويغنيانها، بل وينقذانها من الموت الحضاري فاللغة تعتمد على الترجمة من أجل أن تعيش وتتكاثر وينمو قاموسها، كما أن الترجمة توسع صياغات اللغة وتخصب مفرداتها وتراكيبها. فقد ترافق عصر الترجمة الذهبي أثناء حكم الممون بتبلور اللغة الاصطلاحية والتقنية المختصة بعلوم ذلك الزمان، والتي لم تكن موجودة قبله. وبحسب هنري كوربان فإن اللغة العربية أصبحت تمتلك وللمرة الأولى لغة اصطلاحية حديثة بمعنى ذلك الزمن (٣). كما يشهد عصرنا هذا دخول لغة العلوم في جميع مجالات الحياة، وذلك نتيجة لسهولة انتشار المعلومات وثورة الاتصالات، مما يقتضي تطور اللغة بحيث تستطيع التعبير عن واقع اليوم، واقع عصر الهندسة الوراثية والموصلية الفائقة والإنترنيت، لا أن تقتصر على وصف مطالعة العاشق لملل حبيبته. فالترجمة والاحتكاك باللغات الأخرى، وباللغات العلمية العصر الذي شهد نشأتها وشيوعها. إن الميادين الجديدة التي تدخلها اللغة، وأعني هنا ميادين العلميم المعاصرة، تقتضي منها ليس البحث عن مصطلحات جديدة فحسب، بل عن صيغ ومفاهيم وأساليب وحتى تراكيب بنيوية جديدة، ومن هنا فالترجمة تلعب دوراً رئيسيا في التعرف على الاساليب اللغوية المبتركرة، وعلى مناطق الجدة والحيوية في اللغات الأخرى، وعلى الاساليب اللغوية المبتركرة، وعلى مناطق الجدة والحيوية في اللغات الأخرى، وعلى الاساليب اللغوية المبتركرة، وعلى مناطق الجدة والحيوية في اللغات الأخرى، وعلى الاساليب اللغوية في الوقت نفسه التي تشيع في لغة العلوم المعاصرة.

٦- للترجمة دورحيوي للاطلاع على منجزات العلوم باللغات الأخرى، واطلاع الآخرين على ما

نحققه في هذا المجال. فمع أن إتقان اللغة الإنجليزية أصبح ضرورة حيوية لكل المشتغلين بالعلوم-كونها اللغة العلمية الأوسع انتشارا-إلا أن الترجمة تتيع الاطلاع على النصوص العلمية غير الإنجليزية، كما توصل اهم منجزات العلوم لن لا يتقن الإنجليزية، أو لمن-لسبب أو أخر- لا يستطيع تأمين المخطوطات العلمية بلغتها الأصلية. وهنا لابد من الإشارة إلى المكانة الخاصة للغة الإنجليزية كلغة عالمية للعلم، والتي لا يتوقع أن تنافسها فيها أي لغة أخرى في المستقبل القريب. فالمشتغلون بالعلم في كل العالم اصبحوا مجبرين على إتقان اللغة الإنجليزية نطقا وكتابة إذا كانوا راغبين في الانضمام إلى المجتمع العلمي العالمي. ويغض النظر عن العوامل الخاصة التي جعلت الإنجليزية تتبوأ هذه المكانة، فإن وضعها هذا يحتم علينا التعامل معه بما يقتضيه، بل واستغلاله لصالح نشر منجزاتنا في حقول العلوم ومن هنا فإن ترجمة بحوثنا العلمية للإنجليزية، وتأسيس منشورات عربية علمية تستخدم اللغة الإنجليزية لهو ذو أهمية فاثقة في بقائنا على الخارطة العلمية العالمية وعدم انعزالنا. كما أن إعطاء الأولوية للغة الإنجليزية في النشر العلمي، والاعتماد على محكمين ومحررين أجانب يضمن لنا إمكانية إدخال منشوراتنا العلمية في الفهارس العلمية العالمة مثل SCI) Science Citation Index). أي يضمن بقامنا ضمن الطقة الداخلية للعلم، وإمكانية اطلاع العلميين في كل العالم على ماننجزه في هذا المجال. وهناك تجربة رائدة وممتازة في تمكن الاستفادة منها وهي تجربة المجلات الطبية في الخليج وخاصة «المجلة السعودية للأطباء» Saudi Medical Journal، و «المدونات الطبية السعودية» -Annals of Saudi Medicine ، ودمجلة الكويت الطبية، Kuwait Medical Journal . وهي دوريات محكمة تصدر باللغة الإنجليزية مع إعطاء ملخص بالعربية لكل بحث. فقد نجحت هذه الدوريات في اكتساب احترام عالمي نظراً لحيادية تحكيمها ورقى معاييره، مما أهلها لدخول بعض الفهارس العالمة كالـ Current Content.

معوقات التعريب في العالم العربي

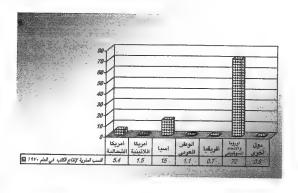
لابد من الإشارة في البداية بأنه لايوجد تعارض بين مبدأي التعريب والمحافظة على سوية التعليم. ومن جهة آخرى لابد من الإقرار بأن تجرية تعريب التعليم الجامعي كما هي عليه اليوم قاصرة قصوراً شديداً عن الإيفاء بمتطلبات التعليم الاكاديمي والبحث العلمي، وايضاً بأن وضع هذه التجربة لن يشهد تحسنا ملموسا في المستقبل القريب. وهكذا يكون الحديث عن معوقات التعريب واقعيا بل ومطلوباً. فهذا الموضوع حساس جداً وحيوي جداً، وإذا كان من المتعذر القيام به كما ينبغي فإن مساوله ستفوق محاسنه.

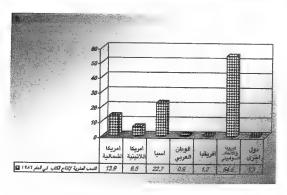
يقول الباحث اللبناني حسن قبيسي: دبيدو أن البلدان العربية قد حسمت أمرها منذ زمن على تعريب التعليم...، فإن الواقع المعاش في هذه البلدان يشير إلى أنها مصممة على المضي في تنفيذ هذا القرار دون توفير أسباب تنفيذه، (١٦٠). يلخص هذا القول ببساطة جوهر مشكلة تعريب التعليم الجامعي في الاقطار العربية التي سارت به، طبعا الحديث هنا أطول من سابقه، والخوض في معوقات ومشاكل التعريب هو العمود الفقري لهذا البحث في محاولة لرصد تجربة قائمة على الارض، تتميز باختلاف تطبيقها وشمولها واستراتيجياتها باختلاف البلدان العربية. وفي ما يلي أهم معوقات وسلبيات التعريب:

١- غياب الدعم المادي الملائم لحركة التعريب والترجمة

قد يبدو مستغربا للبعض وضع مسالة التمويل وتأمين الدعم المادي لعملية الترجمة والتعريب كأول وأهم ما تعاني منه حركتا التعريب والترجمة العربيتان. فقد تعودنا في الدراسات التي تبحث في هذا الموضوع عدم إيلاء هذا الجانب الاهتمام الكافي، واستباق الجوانب النظرية من تبحث في هذا الموضوع عدم إيلاء هذا الجانب الاهتمام الكافي، واستباق الجوانب النظرية من استحداث سياسات تعريب موحدة إلى اتضاذ قرارات تنسق وتنظم التحول نحو التعريب إلى ضرورة إنشاء معاهد ومراكز متخصصة للترجمة وتعريب العلوم... إلغ. إن التركيز على هذه الجوانب أدى إلى التقليل من الدور المحوري للعامل المادي في إنجاح هذه العملية. إن كل السياسات والبرامج والمؤتمرات لن تقدم في الواقع إلا القليل لعملية الترجمة والتعريب بفياب التعريل والدعم المادي الكافيين، والعكس فإن توفر الفيض الكافي والمستمر من الأموال المخصصة المسلمية الترجمة ونقل العلوم للعربية سيؤدي إلى نتائج إيجابية حتى بغياب أي من العناصر السابقة. ليس هذا فحسب، بل إن توفير الدعم المادي الملازي على فدرة ذاتية على تجاوز الأخطاء والارتقاء بالنوعية. فالأجر المادي المجزي يدفع أفضل العلميين والمترجمين إلى التقرع لمنائب الموهوبين على تحول معترك هذه للترجمة مناء المدي المديد العديد من الشباب الموهوبين على دخول معترك هذه المهنة وتكبد مشاق الإجادة فيها. هذا يعني أهمية دور التمويل في تنشيط حركة الترجمة عن طريق المهنة وتكبد مشاق الإجادة فيها. هذا يعني أهمية دور التمويل في تنشيط حركة الترجمة عن طريق

تخصيص ميزانيات ضخمة سنوية لهذا الموضوع. أي تمويل ربما يتجاوز قدرة الافراد والمؤسسات إلى تمويل حكومي. ولإضاءة هذا الجانب يمكننا الرجوع إلى تجربة ناضجة للترجمة العلمية عالية النوعية في الوطن العربي، وهي تجربة مجلة «العلوم» التي تصدر عن مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، والتي تعتبر بمعظمها ترجمة للمجلة الأمريكية Scientific American. فوجود التمويل الكافي لإصدار هذه الطبوعة بصورة لاثقة ووفق المعابير العالمية، إضافة إلى توفر الحوافز المادية المناسبة لاستقطاب أفضل المترجمين العلميين من جميع الأقطار العربية، ولتشغيل جهاز تحريري متخصص على أعلى مستوى، كلها ساهمت في النجاح منقطع النظير، وفي الفائدة الكبيرة التي قدمتها وتقدمها هذه المجلة لعملية ترجمة العلوم ونشرها بالعربية. وقد لانكون مبالغين إذا قلنا إن هذه المجلة منفرية قدمت من الفائدة للمشتغلين والمهتمين بالعلوم في الوطن العربى بما يفوق كل ما قدمته الإصدارات العلمية المترجمة وكل مؤتمرات ولجان التعريب وقراراتها وتوصياتها مجتمعة. ومن الجدير بالتنويه أننا بالطريقة التي نتعامل معها اليوم مع التعريب والترجمة وضعنا أنفسنا في سباق خاسر مع الزمن حكما. فإذا غضضنا النظر عن موضوع النوعية ونظرنا فقط إلى الترجمات الراقية للمراجع العلمية والطبية المتوفرة اليوم بالأسواق، نرى أن واحدها يكون قد تقادم حتى قبل طرحه في الأسواق بسبب الوقت الذي يتطلبه إعداد ترجمة الأعمال الضخمة، والإيقاع السريم للتطور العلمي اليوم. ولا حل لهذه المشكلة إلا أن تتم عملية ترجمة المراجع العلمية بشكل متواز ومتزامن مع عملية تاليفها، كما هو متبع حالياً في الإصدارات الأصلية بلغات مختلفة للمراجع العلمية المهمة. ويحيلنا هذا الأمر إلى الجانب المادي مجددا. إذ لا يخفى أن أتباع هذه الطرق التي تتبعها الدول التطورة كلها يتطلب شراء الحقوق والإيفاء بالالتزامات المالية التي تنظم هذه العملية بموجب اتفاقيات عائية، بينما يكون معظم كتبنا المترجمة- السييء والجيد منها- عبارة عن قرصنة نشرية. وإذا كان موضوع الوقت ثانويا في الآثار الفنية والأدبية، فإنه أساسى في المنشورات العلمية، ومن غير المعقول أن يقوم المرء بشراء مرجع علمي بإصدار حديث، تعود أحدث معلومة فيه لسنين مضت. كما يفرض التكاثر الأسي للمنشورات العلمية، توظيف استثمارات مادية مربحة في عملية الدعم المادي للترجمة، مما يتيح إمكانية مسايرة الإنفاق على الترجمة للتزايد في الإصدارات العلمية. أما الوضع الحالي كما يظهر من الشكل \ (B,A)، فإنه يعكس بوضوح تراجم حصننا العالمية من الكتب النشورة بدلا من زیادتها.





شكلا : يبين بحسب إحصاء قامت به منظمة اليونسكو النسب المثوية لإصدار الكتب المترجمة وغير المترجمة في العالم في العامين ١٩٧٠ (A) و١٩٨٦ (B)، ويلاحظ تراجع إصدارات الدول العربية بدلا من تقدمها.

٢- عقم هيئات التعريب وجهود التعريب المشتركة

ليس المرء بحاجة إلى ذكاء لإدراك بأن حال جميع البنى والهيئات العربية المشتركة كحال الأميرة النائمة إذا ماتعرض الأمير لحادث سير وهو في طريقه لتقبيلها. فالمنطق يحتم علينا أن نفظر إلى هذه الهيئات كانعكاس للحال العربي بمجمله. ولا أعتقد أن التساؤل عما تفعله جامعة الدول العربية، أو منظمة حقوق الإنسان العربية يدخل في خانة خيانة الأمة. وعلى هذا المنوال جاءت جهود الهيئات والمنظمات والندوات العربية التي أنشئت لدفع عملية التعريب، ولتعريب المصطلح العلمي وتوحيده .. الخ، كليلة غير باضعة إنه في أحسن الأحوال لاتجد الجهود المبذولة ضمن هذه البنى طريقها نحو الانتشار والتطبيق، ولاتصل إلى الشرائح المعنية بها. وإذا تساطنا عن الأسباب أخشى أن يكون من الصعب تقديم إجابات مقنعة. فعلى الغالب لا تلتزم الدول العربية بقرارات وتوصيات المنظمات العربية المختصة كـ «المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم-اليسكو، المفترض إشرافها على شؤون الثقافة العربية بمختلف وجوهها. فقد تطلب من منظمة اليسكو على سبيل المثال الحصول على بيانات من الدول العربية حول الكتب المترجم فيها ثلاث توصيات وأكثر من خمس سنين. وفي النهاية قدمت فقط سبع دول البيانات المطلوبة (١٤). وقد يكون من الأسباب غياب القناعة الحقيقية بصلاح عملية تعريب التعليم الطبي والعلمي الجامعي، بالصورة الشاملة التي يطرح عليها، من قبل الغالبية من القيمين على الجامعات العربية، خاصة من قبل الجامعات التي تعتمد اللغة الإنجليزية ويشارك في عضوية هيئاتها التدريسية مدرسون أجانب، رغم مشاركة ممثلن عنها في المؤتمرات والهيئات، وتوقيعهم على البيانات الختامية إلى ماهنالك. وقد يكون السبب الآخر قلة الأكاديمين الحقيقيين بين القيمين على الجامعات العربية والتعليم العربي، رغم حمل أغلبهم لأعلى الألقاب العلمية قبل أسمائهم، فهم في أفضل الحالات ساسة أولاً وأكاديميون ثانياً، ومن غير المعقول أن تتماشى حسابات الساسة مع متطلبات العمل الأكاديمي. فالكثير ممن يشتركون في هذه المنظمات والهيئات والمؤتمرات يهمهم تسجيل المواقف وتحقيق الانتصارات السياسية، وذلك عبر صياغة التوصيات والبيانات الختامية ويرامج العمل بما يتوافق مع توجهات دولهم السياسية وليس بما يتلام مع الضرورات الأكاديمية.

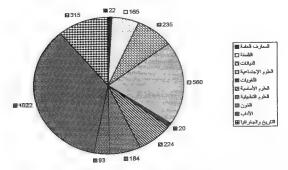
٣- غياب حرية الفكر

يجب ألا نتوقع ظهور حركة ترجمة نشطة كتلك التي تسبق فورات النهوض الحضاري بوجود المحرمات العديدة في حياتنا. وهذه مشكلة تعانى منها الدول العربية كلها من دون استثناء ولو بدرجات متفاوتة فنحن مقيدون بالف رقيب ورقيب، منها ماهو داخلي، ومنها ماهو خارجي، وتتكاثر المقدسات في حياتنا العربية على حساب الأمانة في التعامل مع الحقيقة العلمية والنص العلمي فالسياسة في عالمنا العربي كانت ولا تزال هي الغول الأساسي الذي يهدد نعجة الثقافة كلما حاولت أن تشرد عن القطيع. لذلك فإن لغتنا تتحول ويشكل تدريجي غير منظور إلى لغة تصالحية رمادية مبطنة غير مباشرة تبهم أكثر مما تشرح وتخفى أكثر مما تبدى. وهذا مما لاشك فيه ينعكس على لغة العلوم والمعارف التي يجب أن تكون بطبيعتها عكس كل ماستق. ولا شك فإن هذا ما يحدو البعض، عن سوء أو حسن نية، إلى وسم العربية بالبعد عن متطلبات اللغة العلمية. من الحقائق المعروفة في علم الاجتماع أن كل مجتمع يسيج نفسه بسياج ايديولوجي وعقائدي يحميه من رياح الخارج، ويزداد السياج ضيقاً وقوة كلما ضعف المجتمع وضعفت حركته وحركة الفكر والإنتاج فيه، لأنه يخشى على نفسه من أي وافد. وتدخل ضمن هذا النطاق محاولاتنا الماضية والحالية جميعها للحد من انتشار كل الاقنية التي يمكن أن تسهل اتصالنا بالعالم الخارجي وبأخر منجزات العلوم، في وقت يتباور فيه مفهوم القرية العالمية أمام أعيننا، كالفاكس والصحون التلفزيونية والبريد الإلكتروني والإنترنيت... إلخ. ليس هناك شك في أن هذه الوسائل يمكن أن تقدم مايمكن أن يضر المجتمع والفرد على حد سواء. إنما نحن نستسهل الأمور، وبدلاً من أن ننضم إلى جهد عالمي يهدف إلى ترشيد وتطوير هذه الوسائل، فإننا نتجاهلها مضحين بكل فوائدها من أجل مساوى، معدودة (طبعا يتفاوت النظر إلى وسائل الاتصال هذه تفاوتا كبيرا باختلاف البلد العربي). ويطرح الباحث حسن قبيسي هذا الأمر من منظور أخر ففي رأيه أن «الغربيين يقولون بلغاتهم قولًا معينا يسفر عن إغناء العارف، فالأن لديهم ما يقولونه أولا، ولأنه ليس لديهم ثمة موانع تمنعهم من قوله في معظم الأحيان إن لم يكن في جميعها»، ثم يتابع فيتساعل: «هل نكون قد بدانا نفقد لغتنا لأننا بدانا نفقد حرية استعمالها؟» (١٣). فعلى سبيل المثال قد لا يبدو غريبا في عالمنا العربي أن تسمح هيئات التحرير لنفسها بحذف مقاطع من كتاب مترجم، وأحياناً تضيف مقاطع على الكتاب المذكور بغية إغنائه!! كما تحذف اقساماً من كتاب مترجم لدافع ديني أو سياسي أو ماهناك. (ما المضحك في الأمر فهواننا نقوم في حالات «انتقائية جدا» بتجاوز عملية نقل المعارف العلمية بشكل أعمى إلى مناقشتها والبحث فيها وإغنائها. وأسوق هذا الكلام لاتحدث عن الهستيريا التي رافقت أخبار استنساخ النعبة دوللي في عالمنا العربي. فقد سمح الكل لنفسه من أمي إلى متعلم إلى متدين إلى متفلسف بمناقشة مختلف الجوانب العلمية والفقهية والأخلاقية للاستنساخ، في تصور شبه ساذج بأن مناقشتنا كلاعدد الإبحاث، ولو من الناحية الأخلاقية، تضعنا في مصاف الدول المشاركة في العدث العلمي

٤- عدم توفر المترجمين الأكفاء

يمكننا في الواقع الاستعاضة عن مقولة ندرة المترجمين الأكفاء بتعبير بطالة المترجمين الأكفاء إن انعدام سوق الترجمة عالية النوعية أدى- ويشكل تدريجي- إلى عزوف المؤهلين عن الاشتغال بهذا المجال، وأيضاً إلى تناقص في الكوادر الشابة المؤهلة التي تقدم على اختيار الترجمة العلمية كتخصيص وحرفة للمستقبل. وبينما تزخر صفحات المجلات واسعة الانتشار بماهب ودب من القطم العلمية المترجمة بالسطر أو بالمتر مقابل أجر مادى زهيد، أو لمجرد فرحة المترجم برؤية اسمه وهو يذيل مقالة مطبوعة، يعزف الأكاديميون المؤهلون عن إضاعة وقتهم من دون أجر مجزى أولاً، ومن دون فائدة حقيقية ثانيا والترتيب مهم جدا، لاننا نحاول هنا أن نلامس الواقع ومثطلباته ويتعامل مع الأكاديميين والمترجمين تعاملنا مع أناس ذوى حاجات أولاً. ومن هنا يكون من المشروع أن نطرح السؤال التالي: هل بإمكان أكاديمي متخصص أن يضمن لنفسه حياة كريمة من عمله في الترجمة العلمية فقط؛ فإذا كان الجواب لا، وهذه هي الحال على أغلب تقدير، فإن الخطاب السائد على الساحة العربية في هذا الخصوص يصبح من دون معنى لننظر ما يقول أحد المختصين العراقيين عن واقع الترجمة في العراق: «ولكن تجري الرياح بما لاتشتهي السفن فالحماس شديد والإمكانيات المادية متوفرة، لكن العنصر البشري المؤهل بشكل جيد هو ماينقصنا. وهو العمري- نقص كبير». ويناقش خبير آخر أردني المشكلة من جانب أخر فيقول إن «ثمة نقصا مؤسفا جدا في كفاءة الترجمين إلى اللغة العربية فهم لا يحسنون لغتهم العربية «^{(١١}) أي أن المشكلة هنا ثنانية الجانب فهو جهل باللغة الأم، كما هو عدم كفاية باللغة الأجنبية، وفي حالة الترجمة العلمية يضاف بعد ثالث وهو ضرورة الإلمام بالعلم موضوع الترجمة. وسأعود لمناقشة هذه النقطة الأخيرة لاحقا. إنن هناك إجماع على وجود مشكلة أساسية في نقص المترجمين الأكفاء، ولكن دعونا نطرح تساؤلات أخرى مشروعة، كم من الوقت والجهد يصرفه المترجم لإيجاد من ينشر له نتاجه حتى ولو كان على أعلى مستوى؟ وهل سيكون العائد المادي،

إذا كان هناك عائد مادي، يوازي الجهد المبنول؟ لابد أن مثل هذه التساؤلات ستفتح باب الحسرات والزفرات لكل قاريء ممن زاول عملية الترجمة العلمية فالوضع معروف وهو أكثر من مؤلم يدفعنا هذا إلى القول مجددا بأن ندرة المترجمين الأكفاء وتناقص عددهم، وإن كان واقعا معاشا إلا أنه تال لضعف الإمكانات المادية المخصصة للترجمة، ولغياب في تنظيم مهنة الترجمة. ومن بين الحلول المطروحة اليوم على الساحة العربية لتلافى النقص في المترجمين الأكفاء إنشاء فروع متخصصة بالترجمة في الجامعات العربية، أو معاهد متخصصة في الترجمة، ومع القناعة بأن هذه الخطوات مهمة ومفيدة، إلا أنها ليست كافية، خاصة إذا حصرنا حديثنا بالترجمة العلمية. عموماً تنشأ هذه الفروع الجامعية ضمن الكليات الأدبية، وفروع الألسنيات مما لايؤهل هؤلاء للترجمة العلمية وخاصة في الفروع الدقيقة المعقدة. حتى بالنسبة للترجمات الأدبية، فإن تجارب السنين الماضية علمتنا بأنه لكي تترجم أدب أحد أعلام الفكر العالمي على المستوى اللائق يتوجب أن تكون من الدارسين الجديين لأدبه والمهتمين به. أي لا تكفي هذا المهارة اللغوية مهما كانت عالية النوعية، أما في الترجمة العلمية فقد يكون الوضع أسهل. وهنا يجب التفريق بين أنواع الأعمال العلمية المطلوب ترجمتها. فقد لا تتطلب ترجمة مرجع بالطب التشخيصي أو السريري مواهب خاصة «بالطبيب» المترجم غير إتقانه للغتين اللتين يتعامل بهما، بينما تحثاج ترجمة الأعمال العلمية المتعلقة مثلاً بتقنيات الدنا DNA Technology أو بالبيولوجيا الجزيئية Molecular Biology إلى دراية كافية بالعلم موضوع الترجمة. وأظن أن هذا الموضوع ينطبق على مجمل التخصصات العلمية الدقيقة في يومنا هذا كفيزياء الجسيمات الدقيقة وغيرها ومما يدلل على قولى هذا أنه على الرغم من قيام بعض الدول العربية (سورية - الأردن-تونس-السودان-الجزائر-العراق-ليبيا- على سبيل المثال) بإنشاء دبلومات ومعاهد للترجمة، فإن كمية الكتب العلمية المترجمة تبقى قليلة جداً (شكل٢) (١٥)، ويطال النقص الكتب في باقى الفروع، هذا من دون التطرق إلى نوعية هذه الترجمة. وفي الحقيقة فعلى الرغم من عدم وجود التخصيص العالى على النحو الذي نعرفه اليوم، فقد كان جل المترجمين الأوائل من المشتغلين بالعلوم والآداب ذاتها التي يترجمون عنها، ولم يكونوا مترجمين محترفين فقط، لهذا برعوا وأضافوا. فالكندي الذي كرس كفيلسوف كان مترجما، يضاف إلى ذلك أن كل كبار الفلاسفة كانوا قد مارسوا عملية التعليق والشرح على المؤلفات الفلسفية اليونانية وأبرزهم ابن رشد الذي ترجم وشرح فلسفة ارسطو. فالترجمة كانت تتميز بكونها اختيارا مسؤولا، وبحثا علميا حقيقيا، وتميز المترجمون بالجرأة والانفتاح على جميع الأفكار والثقافات التي سبقتهم رغم كونها صادرة عن حضارات وثنية بمعظمها.



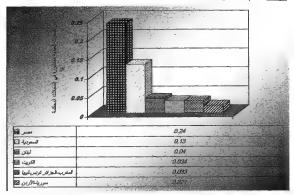
شكل؟: عدد الكتب المترجمة إلى العربية في كل فرع من الفروع ما بين العامين ١٩٧٠-٨١ في الوطن العربي بحسب إحصاء قامت به منظمة اليسكو.

٥- سيطرة الخطاب السياسي

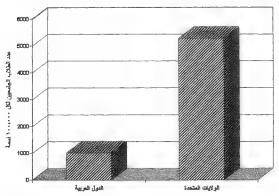
مما لاشك فيه أن القرار بتعريب التعليم الجامعي هو قرار سياسي أولاً وأخيراً في الدول العربية التي أخذت به. إي أنه لم يكن قرارا أكاديميا نابعا من رزية الأكاديميين لاهمية هذه العملية وكيفية تطبيقها. إذن فمنذ البداية هناك خلل كبير ناجم عن اختلاف بين في حسابات كلا المعسكرين. لقد ارتبطت عملية تعريب التعليم الجامعي منذ البداية بخطاب قومي وحدوي يعلي المسائل القومي على كل ما عداه، ولا يأبه بالجانب الأكاديمي لامن قريب ولامن بعيد. وفي المقابل قوبل التعريب بفتور بالغ من قبل البلدان التي لم تشغل نفسها كثيرا بالمسائة القومية. وعندما تكون المبررات الاساسية لعملية التعريب سياسية، يغدو أي اعتراض أكاديمي على الخطوات التعريبية مهما كانت دوافعه خيانة لقضايا الوطن العظمي، وتمسكا بالقشور لعرقلة المسيرة المهادرة للشعوب العربية. وقد شبه الكثيرون العقلية التي أديرت بها عملية التعريب بوضع العربة قبل الحصان، أي اتخاذ القرار قبل توفير أسباب نجاحه. وفي المغرب العربي كان المحرك للتعريب هو انفعال حماسي قومي ينادي بإعادة المكانة المقودة للغة العربية، وتوثيق أواصر اللحمة بين البلدان الإخوة. ومع جمال هذا الطرح فإن تطبيقه المشوه - ومن دون دراسة وتحضيركافين- لم

بلحق الأذي بالعملية التعليمية فحسب، بل أدى في بعض الأحيان إلى ارتكاس في علاقة هذه البلدان باللغة العربية، وبالشروع العربي على حد سواء. ولدى النظر في الوثيقة الختامية للقاء الأول حول «علوم الطب: المفاهيم والمصطلح-١٩٩٤» (١٦) نرى سيطرة الخطاب السياسي في كثير من المناحي، رغم أنه من المفترض في لقاء لبحث هذا الموضوع أن يكون أكاديميا وتنظيميا بالدرجة الأولى. فمن البنود ما يتحدث عن الأخطار والمؤامرات التي تواجه الأمة، والصراع المرير مع التيارات اللغوية المناهضة، واحتواء النزعات القطرية في وضع المصطلح العلمي والطبي، ومناشدة القيادات السياسية إصدار القرار السياسي بالتعريب، وهذه كلها تعكس تصورا سياسيا استاتيكيا لروح المشكلة، بمفرداته المعروفة من مؤامرات إلى هجمات شرسة إلى منعطفات تاريخية. ويديهي القول بأننا كلما أقللنا من هذه المؤامرات وركزنا على روح الشكلة نكون قد اقترينا من الحل. وفي هذه الوثيقة بالحظ أيضاً أن هناك توصيتين تشيران إلى ضرورة العمل على استصدار القرار السياسي بالتعريب، وتقديم الدعم اللازم له. وهذا يعطى الانطباع بأن القرار السياسي هو جوهر المشكلة، وأن صدوره هو الهدف. إن تقديم الكلمات وتأخيرها لايمكن أن بكون اكثر حيوية كما هو عليه في هذه الحالة فتقديم الدعم البلازم لقيام حركة ترجمة نوعية وتعريب نشطة بجب أن يسبقها قرار يتعريب التدريس وليس العكس. فتعريب التعليم الجامعي هي قمة الهرم الظاهر، والذي يجب أن يرتكز على قاعدة وإسعة من البني التي تضطلع بالهمات الضخمة التي يتطلبها هذا العمل. وهكذا فإن القرار السياسي رغم أهميته هو أسهل حلقات هذه السلسلة تحقيقاً. كما يسبهم المثقفون القوميون أنفسهم في إشاعة اعتقاد مفاده أن عملية نقل العلوم والمعارف من الضخامة بحيث يصعب تحقيقها من قبل كل دولة على حدة. وهنا نجد أنفسنا مرة أخرى أمام الخطاب الوحدوى الفج الذي يحاول أن يصور أن لاشيء ممكن التحقيق من دون دولة الوحدة الجامعة المانعة، وأن أي جهود متفرقة عن هذا المنحى ما هي إلا ضياع وقت ومال لايمكن أن تصب إلا في مصلحة «الاستعمار». إن جعل نقل العلوم والمعارف الأجنبية مشروعا مؤجلاً مشروطا بحصول لجتماع عربي، يحمل على الاعتقاد على ما نعلمه من الحال العربي اليوم بأنه يبخل في خانة المستحيلات «الأربعة». كما يتميز الخطاب السياسي بالاختزال والتبسيط الشديدين، وأيضاً بالابتعاد عن التدقيق بالتفاصيل وبالخطوات العملية الجزئية. ففي دراسة للدكتور عادل عوض الأستاذ بجامعة تشرين (إحدى الجامعات السورية التي تدرس

بالعربية) يقول: «إننا ننظر إلى اللغة العربية كعامل اساسى من عوامل تحقيق الوحدة العربية، والتدريس باللغات الأخرى سيكون دون شك عامل تجزئة وتفرقة، ... وسيجبرنا التعريب على أن تكون لدينا مؤلفات كثيرة ومختبرات للبحوث ومراجع علمية تزخر بها مكتباتناء (١٧). ما بالحظ هنا مرة أخرى تقديم الضرورات السياسية لعملية التعريب على الشروط الأكاديمية لإنجاجها، كما بالحظ عدم واقعية الطرح كله، فالكاتب لا يكلف نفسه على امتداد الدراسة عناء الشرح لنا لماذا سيجبرنا التعريب على أن تكون عندنا مراجع ومختبرات كثيرة، كما لا يشغل نفسه كثيرا بحساب النوعية. فمن دون شك ترافقت حركة التعريب في الجامعات السورية بازدياد هاتل في كم الكتب والمراجع العلمية المترجمة، لكن سوية اكثرها مع الأسف الشديد مخجلة. إن إجراء بحث بسيط في فهارس المقالات الطبية المنشورة في المجلات العلمية المحكمة خلال فترة عشر السنوات الأخيرة يين الندرة الشديدة للبحوث العلمية الصادرة عن الجامعات السورية (جميعها معرية). أما بالنسبة للجامعات التي كان التدريس بها بالإنطيزية ثم عربت كجامعة حلب فقد ترافق هذا التحول بانخفاض كبير في عدد ما ينشر منها من البحوث العلمية في المجلات العالمية المحكمة، رغم الازدياد الكبير في عدد أعضاء هيئتها التدريسية في عشر السنوات الأخيرة. ويبين الشكل٣ النسبة المئوية لحصم الدول العربية الأولى من حيث نشر البحوث العلمية بالنسبة لمجمل الإنتاج العالم، وهي بمجملها تقم في أسفل الترتيب العالمي. كما يتميز تسبيس العلم بتأليه الأرقام. فبدلاً من التركيز على دراسة وضع الجامعات من مختلف المناحي وعلاقتها بالإنتاج والتنمية، يتم التركيز على الأرقام المجردة كعدد طلاب الدارس والجامعات، وعدد الجامعات والكليات والمعاهد وغيرها. ومع أن هذه الأرقام كثيرا ما استعملت من قبل مختلف البلدان العربية كدلاتل على التطور والتنمية، فإنها لاتزال- حتى إذا ما اقتصرنا على حساب الأرقام-دون مستوى البلدان المتقدمة شكل(٤). بالإضافة إلى ذلك تتعاظم نبرة الخطاب السياسي التآمري، وهي مشكلة نعاني منها بشدة ليس في مجال الترجمة والثقافة فحسب، بل وفي مختلف جوانب حياتنا. فنحن حذرون وانتقائيون في كل مايخص النقل عن الآخر بدعوى الحرص على نقاء سياسي أو ديني أو أخلاقي مزعوم. وفي الواقع فإن كل هذا من مظاهر عقدة الدونية المضارية، فالأمة الراسخة حضاريا تفتم الأبواب على كل التيارات والرياح، تهضمها كلها لتتمثل مايلاتمها منها ويفيدها.



شكل ٣: النسب المثوية لما ينشر من البحوث العلمية المحكمة والمفهرسة في البلدان العربية بالنسبة لمجمل العالم.



شكل؛ مقارنة بين معدل عدد الطلاب الجامعيين لكل ١٠٠,٠٠٠ من السكان في الوطن العربي والولايات التحدة.

تعريب التدريس الجامعي، أضواء على تجربة من الواقع

لعله من الصنعب إعطاء تقييم موضوعي لكامل تجارب التعليم الجامعي المعرب في الوطن العربي، إنما سنّحاول التطرق إلى المشاكل التي تعاني منها إحدى التجارب الرائدة وهي تجرية التعليم الجامعي المعرب في كلية طب حلب إحدى الجامعات السورية المعربة كليا.

١- انخفاض نوعية الكتب والمراجع المعربة

وهو تدنى كبير في النوعية وليس تراجعاً بسيطا، ولهذا أسباب موضوعية. فقد بدأت عملية التعريب في سورية بقرار سياسي. ومع أن الجامعات المعنية نفذتها على مراحل، إلا أنها لم تكن مستعدة أبدا للتغير الكبير الذي يفرضه هذا التحول، مما أدى إلى ظهور ملخصات وكتب جامعية ريبيّة جدا علمنا ولغوبا. ولا أبالغ إذا قلت إن - فهمها بالعربية أصبعت من فهم الأصل الإنجليزي. وكثيرا ما كان الطلبة يعودون للأصل في محاولة لفهم مايقصد بالعربية. وهذا التدني لم يرافق فترة التمول نحوالتعريب فحسب بل استمر لاحقا نتيجة عوامل متعددة أهمها ضالة الحافق المادي المقدم للترجمة والتعريب مقابل جسامة المهمة، وقد يكون من المتع للقاريء أن يعلم أن تعويضات التأليف والترجمة للكتاب الجامعي في الجامعات السورية تتراوح ما بين ١٥٠٠٠– ٣٠٠٠ ليس. (بين ٣٠٠-٥٠٠). وإذا أخذنا بعين الاعتبار بأن عملاً كهذا يشارك فيه مؤلفون أو مترجمون عدة ، ويحتاج إلى أشهر طويلة من العمل المضنى سيظهر بمستوى لاتق. ومن المستغرب أن نعلم أنه على الرغم من كل هذه الأوضاع، قام البعض بتقديم جهود حقيقية وتضحيات كبيرة من أجل تقديم الكتاب المعرب الجيد للطلاب. إنما، ويسبب أن مثل هؤلاء هم من المعادن النادرة في كل زمان ومكان، بقت المعادلة خاسرة، وبقيت كمية الكتب والراجع والدوريات المترجمة ضئيلة جدا بالقياس إلى الكم الهائل الذي يصدر عالميا شكلا B. كما يتقادم بسرعة ماهو متوفر وتختفي الترجمات أو النسخ المعربة من الدوريات الطبية والعلمية، وهي تفوق أهمية المراجع كونها تحتري على آخر الدراسات، وكون الاطلاع عليها حاجة ماسة للعاملين في مجال البحث العلمي. والجدس بالذكر أن هذه الدوريات لاتوجد حتى بلغتها الأصلية لمن يريد الاطلاع عليها. وقد لا يكون لعملية التعريب علاقة بهذا، ومن الملفت للنظر أن هذه الدوريات أخذت تختفي تدريجيا من مكتبة كلية الطب مع الاتجاه نحو التعريب، وحلت محلها مجلة تدعى «مجلة البحوث الجامعية»، وهي مجلة بالعربية لا تتوفر فيها أي معابير للنشر العلمي. ومن المؤسف حقا أن طلاب كلية الطب

بطب لايزالون اليوم، وبعد حوالي عقدين على التعريب، يحضرون لامتحاناتهم في الكثير من المواد من اعمال جامعية مكتوبة بخط اليد، وبعيدة كل البعد عن شروط المراجع العلمية والكتب الدراسية.

٢ - فشل تعليم الإنجليزية كلغة ثانية رديقة

لتلافى الانتقادات بأن تعريب التعليم الجامعي الطبي سيحرم طلاب وخريجي هذه الجامعات من إمكانية الاطلاع على المنشورات التخصصية باللغات الأجنبية وخاصة الإنجليزية، تم استحداث خمسة مقررات لتدريس اللغة الإنجليزية الطبية على مدى خمس سنوات في كليات الطب السورية. أي أن هذه المادة أعطيت من ساعات التدريس ما لم تأخذه أي مادة علمية تفصيصية أخرى. وفي المصلة فإن نتيجة هذا كانت أصغرية، والأسباب هنا قد تختلف باختلاف ظروف الجامعة المنية. فمقررات هذه المناهج غير مدروسة، ومن يدرّسها هم في الغالب من غير المختصين في تدريس اللغة، بل هم مدرسون لمواد أخرى كلفوا بهذه المهمة بحكم تخصصهم في الخارج وإتقائهم للغة الأجنبية. والطلاب يتعاملون مم هذه المواد كمواد غير لازمة تدرس لكي تنسى بعد عبور الامتحان، لغياب الحاجة الحقيقية لاستعمال اللغة الأجنبية خلال سنوات الدراسة الجامعية. فمن دون الحاجة إلى استعمال مستمر للغة الأجنبية، ووجود ضرورة للقراءة والكتابة بها، خاصة اللغة العلمية فإن الفائدة من مناهج كهذه كفائدة كتب تعلم اللغة الأجنبية في سبعة أيام. ومن المناسب هنا أن أورد استطلاعا قام به المجلس الصحى الأمريكي الدولي لتقييم تجربة التعريب في كليات الطب السورية (١٨)، فطلب من ٤٦ طبيبا من خريجي الجامعات السورية الإجابة على مجموعة من الأسطة تتعلق برايهم في عملية التعريب من خلال تجربتهم العملية. صرح ٣٢ في المئة من هؤلاء بأن انتقالهم من اللغة العربية إلى الإنجليزية لاحقا (في أمريكا) كان سهلا، بينما واجه ٤٤ في المئة منهم صعوبة نسبية، وكان الانتقال بالنسبة لـ ٢٤ في المئة صعبا. ويعتبر ٤٢ في المئة من المشاركين بأن التجربة السورية في تعريب الطب ناجحة، و٣٤ في المئة أنها غير ناجحة، ولم يستطع ٢٤ في المنة أن يقرروا. وتوحى نتائج هذا الاستطلاع للوهلة الأولى بأن تجرية التعريب ناجحة بالمجمل، لكنها بحاجة إلى تطوير وتحسين، أما إذا طبقنا بعض المبادى، الأساسية في علم الوبائيات، لعلمنا أن استطلاعا كهذا مغلوط منذ البداية. فلكي تكون العينة المدروسة ممثلة للمجموعة الأوسع المختارة منها يجب أن تتساوى حظوظ الانتقاء للاشتراك بهذا الاستطلاع بين

الجميع. بمعنى أن تكون هناك فرصة متساوية لكل خريج من هذه الجامعات أينما كان موقعه لكي يساهم برآيه. أما أن يتم استطلاع الأطباء الموجودين في أمريكا، والذين هم أصلا أفضل الطلاب في اللغة الإنجليزية، والذين يعني تواجدهم في أمريكا نجاحهم المسبق في اختبارات المعادلة (حيث يشترط عموما على الخريجين السوريين النجاح في هذه الاختبارات للحصول على تأشيرة الدخول) أي أننا أنتقينا الحالات الناجحة لغويا، وسالناها عن رأيها في تجرية التعريب. يدعى هذا الخطأ الشائم في الاستطلاعات (تحيز الانتقاء) Selection bias، وهو يجعل النتائج غيرذات قيمة. ومع هذا فإن تجرية التعريب براي هؤلاء تعاني من مشاكل جدية.

٣ – عدم وجود قاعدة بيانات Database معربة

إن من يعمل بالحقل الطبي والعلمي يعلم كم هو مهم وحيوي وجود قواعد البيانات الطبية والعلمية مثل الميدلاين Medline والإم بيس EMBASE و(SCI). ويظروف التعريب يصبح توفر قاعدة بيانات علمية معربة ذا قيمة استثنائية، فهو يمكن من الاطلاع على آخر ما ينشر في المجلات العلمية بشكل ملخص لحين توفر الأصول الأجنبية أو تراجع لها. أما الأهمية الحقيقية لهذا الأمر فهي لوجستية في المرتبة الأولى، فتعريب الميدلاين مثلا يغنينا عن التخبط العشوائي في الإصدارات الطبية محاولة لتبين الصالح منها للترجمة. ونظرا لأن المقالات التي تحتويها قاعدة البيانات هذه هي في الأصل منتقاة من المجلات المحكمة الجيدة. أي يتيح لنا هذا الأمر - ومن خلال التعامل السهل مع منظومة واحدة- الحصول على نظام متكامل معرب يمكن بواسطته الأطلاع على أخر الأبحاث المهمة في جميم الاختصاصات الطبية. ولسنا هنا بحاجة لتأكيد حيوية هذا الأمر، نظرا لاستحالة متابعة ما ينشر في كل المجالات العلمية المهمة وترجمته عمليا. وهكذا يمكن أن يبقى الطالب والدارس والباحث على اتصال بجميع المستجدات في أي حقل ولو بشكل ملخص، مع إمكانية الحصول على البحث كاملا بلغته الأصلية إذا تطلبت الضرورة. ومن الجدير بالذكر أن معظم كليات الطب في أوروبا والتي تدرس الطب بلغتها الوطنية تحتوي على قواعد بيانات مترجمة للغتها، لتسميل عمل الطلاب والمدرسين، رغم إنقان هؤلاء للغة الإنجليزية. ولا يغيب عن البال أن القيام بعمل كهذا يختلف عن ترجمة الكتب والمراجع، حيث يتطلب عمالا ومالحقة يومية لما يصدر من الأبحاث تباعا لترجمته. أي يتطلب هذا المشروع إنشاء هيئات وإدارات مختصة.

٤ - عدم وجود مجلات علمية طبية محكمة باللغة العربية

إن تعريب التدريس الجامعي كلية يعني أن اللغة العربية هي لغة العلم المتبعة، أي يجب أن
تتوفر إمكانية كتابة البحوث ونشرها باللغة العربية، وترد هذه الضرورة أيضا في توجهات التقوير
الختامي للقاء الأول حول علوم الطب والمسطلح، والذي ينص البند الثالث من مبادئه على أن اللغة
العربية يجب أن تستخدم «تدريسا وبحثا وتأليفا وإعدادا للمصطلحات العلمية الطبية» (١٦). إلا أن
هذا غير ممكن، بسبب عدم توفر مجالات علمية بالعربية، وإن وجدت تكون غير معترف بها وغير
موردة في الفهارس العلمية العالمية، هذا يعني استحالة الاطلاع على نتائجها إلا بصورة مباشرة
من المجلة، وحتى في هذه الحالة فإن هذه النتائج غير ذات قيمة لأن المجلة لاتتوافر فيها شروط
النشر العلمي الاساسية. أي أن القيام بالبحث والنشر في مجلات كهذه هو جهد ضائع علميا،
كما أنه جهد ضائع على الصعيد الشخصي، فإن احتوت سيرتك الذائية على مائة بحث علمي
منشور في مجلة كمجلة البحوث الجامعية الأنفة الذكر لا يساوي أن تحتوي على بحث علمي واحد
منشور في مجلة كمجلة البحوث الجامعية الأنفة الذكر لا يساوي أن تحتوي على بحث علمي واحد
منشور في مجلة مطبة البحوث الجامعية الأنفة الذكر لا يساوي أن حتوي على بحث علمي امتية.
فما هر الدافع للبحث والنشر بالعربية في هذه الحالة؟!

٥ - ضعف أو انعدام البحث العلمي

ادى التحول إلى اللغة العربية إضافة إلى ما قد سبق ذكره من غياب مطبوعات ومراجع وقواعد بيانات، إلى الانقطاع شيئا فشيئا عن مسيرة البحوث العلمية الطبية. واصبحت الجهود في هذا المجال إما تكرارا مشوها لما سبق إنجازه، وإما اعمالا تنقصها ضوابط ومنهجية البحوث العلمية. إضافة إلى أن التعريب رافقه الاستغناء الكامل عن الخبرة الاجنبية، مما انعكس سلبا على عملية البحث العلمي، وعلى مستوى التدريس بشكل عام، ليس لأن الاساتذة الاجانب هم افضل من الخبرة المحلية، بل لأنهم من المتفرغين للتدريس قدموا خصيصا لأداء هذه المهمة، بينما يعمل أعضاء الهيئة التدريسية المحليين في أعمال آخرى خاصة تأخذ منهم جل وقتهم وجهدهم رغم أنهم متفرغون للتدريس أيضاء السبب بسيط إنما حيوي، وهو عدم كفاية الراتب الذي يتقاضونه من الجامعة للعيش حياة كريمة، أو حتى دون الكريمة. إذ يبلغ معدل راتب عضو الهيئة التدريسية (الحائز على شهادة PhD أو ما يعادلها حكما) في الجامعات السورية حوالي التدريسية (الحائز على شهويا (تقريبا ١٠٠٠دولار).

٦ - تخلف المصطلح الطبي المعرب عن مواكبة سرعة التطور العلمي

وهذه مشكلة عامة جامعية وغير جامعية. فرغم عشرات المؤتمرات والندوات واللجان والمجامع والتوصيات فإن المصطلح العلمي والطبي خصوصا لايزال يلهث للحاق بركب التطور العلمي ولا يدركه، ولا يزال يعاني من التعدد والتعقيد وعدم الدقة. فهو إن وضعه لغويون أتى غير دقيق علميا، وإن وضعه علميون جاء غير دقيق نحويا وإن اشترك الاثنان في وضعه جاء معقدا غير عملى. وحتى لو أتى على درجة من الكفاية فإنه يحتاج إلى المصطلح الإنجليزي بجانبه عند استعماله للمرة الأولى في النص منعا للالتباس، أي أنه لم يغننا تماما عن المصطلح الأجنبي. ومن الحدير بالتنويه هنا، أن كلبات الطب الأجنبية التي تدرس بلغاتها المحلية حافظت على المصطلحات اللاتينية والإغريقية، ولم تترجمها في معظم الأحيان. فعلم التشريح مثلا يدرس باللاتينية في كل كليات الطب العالمية. أما القائمون على تجربة التعريب العربية فلم يرتضوا أن يقال إن هناك ما هو غير قابل للتعريب، فعربوا علم التشريح بمجمله، ولم يقطعوا الاتصال التشريحي مابين طلابنا ونظرائهم في كل العالم فقط، بل قدموا لنا مجموعة من الصطلحات العربة، تتسم بالتعقيد والغرابة واللاعملية وفي مجال المصطلح، فقد زودتنا التكنولوجيا الحديثة بما يمكن أن يساعد اخبرا على الحل النهائي لشكلة تعريب وتوحيد المصطلح، عن طريق إنشاء بنك موحد للمصطلحات الطبية والعلمية موصول بشبكة الإنترنيت، وتشرف عليه هيئة دائمة تعمل على إغنائه وتطويره المستمرين، يقضى على حيرة العاملين في المجال العلمي والتعريب على وجه الخصوص. أي القواميس أفضل؟ وماهي البدائل المتاحة للمصطلح المعنى؟ من دون الخوض في قرارات وإصدارات هيئات ومجامع التعريب المختلفة والكثيرة. يسهل بنك كهذا الرصول إلى المصطلح العلمي المعرب بشكل كبير، كما أن إمكانية الاتصال من جميع الجامعات العربية بهذا البنك والقائمين عليه يتيح عملية تبادل الأراء حول المصطلحات المعربة، واقتراح الجديد منها ممن لم يرد ذكره، وتعديل المصطلحات الموجودة بغية جعلها أكثر تلاؤما وعملية. ومن دون مبالغة فإنني من الحماس لهذه الفكرة حيث أعتقد بأنها قادرة على أن تحل مشكلة المصطلح المعرب.

الخلاصة والنتائج

يتبين مما سبق أن هناك طريقاً طويلة وشاقة يتوجب قطعها قبل الوصول إلى التعليم الجامعي المعرب ذي السوية. فالتعريب بحالته الراهنة لا يحقق غايات التعليم الجامعي الطبي والعلمي! ورغم أن بعض المشاكل التي تعاني منها الجامعات السورية لا علاقة لها بالتعريب، فإن أكثرها مرتبط به أو ناجم عنه. وفي محاولتي المتواضعة هذه لإلقاء الضوء على هذه التجرية العملية توصلت إلى قناعة مقادها أن لا صبيغة سحرية لحل إشكالية المضي قدما في عملية التعريب مع المحافظة على السوية العلمية، ومواكبة التطورات الكبيرة التي تشهدها المؤسسات العلمية في كل العافظة على السوية العلمية، ومواكبة التطورات الكبيرة التي تشهدها المؤسسات العلمية في كل العالم. بل ربعا كان الاعتماد على صبيغة سحرية أو مجموعة حلول أو مقررات هو سبب المشكلة. ويبدو أن المطلوب هنا هو مرونة فائقة في التعامل مع هذا الموضوع، وأيضا إلى انفتاح عقلي يتجاوز كل عصبية قومية وسياسية أو ثقافية. فبالإضافة إلى اختلاف ظروف الجامعات العربية الذي يجعل استحداث سياسة تعريبية موحدة غير وأقعي، فإن نجاح خطوة بعينها قد يكون متفاوتا بين جامعة وأخرى بسبب مجموعة عوامل قد لا يمكن التنبؤ بها. لهذا فإن المحك أولا وأخبراً هنا هو الواقع ومعطياته.

لكن ما هي الثوابت التي يجب الأنبتعد عنها في محاولتنا لتعريب وتطوير التعليم الجامعي في الوقت نفسه؟

أولاً: التأكيد على أن الأولية هي للمستوى الأكاديمي والعملية التعليمية وليس لأي شعار براق مهما بدا مهما.

ثانياً: التأكيد على أن المدى الذي يجب أن تذهب إليه عملية التعريب هو موضوع نسبي ومختلف بحسب اختلاف الجامعات، وما تسمع به ظروفها من توفر المدرسين المؤهلين للشروع في عملية التعريب، إضافة إلى عوامل آخرى متعددة. وهذه النقطة الأخيرة مهمة جدا، حيث لا يجب أن يوضع هدف نهائي هو التعريب الشامل لمجمل التعليم الجامعي مهما كانت الخطة الموضوعة للوصول إليه تدريجية. فبحسب ظروف الجامعة قد لا يكون من المحبذ أبدا تعريب التعليم الجامعي بمجمله، أو قد تقرر جامعة ما التراجع عن مقررات سبق وعريت لتعاود التدريس بها باللغة الاجنبية، وقد ترتئي جامعة آخرى السبق إلى منتصف الطريق منذ البداية. وهنا أيضا فإن الضرورات الاكاديمية ومقتضيات العملية التعليمية هما الميار ولا شيء آخر.

ثالثاً: إعطاء الأولوية في تقرير الشؤون المتعلقة بالتدريس والبحث العلمي للاكاديميين المشتفلين في الجامعة لا لأي جهة أخرى، فبقدر ما تبتعد الجامعة عن الايديولوجيا بقدر ما تقترب من العلم. رابعاً: استحداث نظام تقييم سنوي لستوى الجامعة لمراقبة أي تراجع او تقدم يطرا عليها، سواء كان ذلك مرتبطا بالتعريب أو بعوامل أخرى، ودراسة اسبابه. ولنقل مثلا نظام يعتمد على عدد الأبحاث المنشورة في المجلات العلمية المفهرسة، أو إلى نسبة الناجحين السنوية من خريجي هذه الجامعة في امتحانات القبول الأمريكية أو الإنجليزية، أو مزيج من الاثنين.

خامساً: تقديم الحوافز المادية الملائمة الاعضاء الهيئة التدريسية للقيام بعملية الترجمة النوعية للعلوم، والمتفرغ للعمل الجامعي والعلمي، وإيجاد آلية غير متحيزة لتقييم ومراقبة نرعية الترجمة وخاصة في مجال الكتب الطبية الجامعية لضمان توفر المادة العلمية الحديثة وبمستوى الاتق. وأيضا القيام بنشر الأبحاث العلمية باللغة الإنجليزية.

سادساً: استحداث نظام تقييم لأعضاء الهيئة التدريسية يعتمد بشكل أساسي على نتاجهم العلمي المُحكّم، وعدم ممارسة المساراة في التعامل مع من يعمل ومن لا يعمل. وفي مجال التقييم قد يكون من الأفضل التعاقد مع جهة مستقلة عن الجامعة، لأن التجارب علمتنا -ضمن ظروف عمل جامعاتنا غير الصحية -أن أي فكرة أو هيئة يمكن أن تعطل مهما بدت ضرورية وجيرية.

سابعاً: إنساح المجال لظهور الجامعات الأهلية، وذلك للتشجيع على المنافسة التي لا يمكن أن تفضي إلى غير الارتقاء بمستوى التعليم الجامعي. فإذا لم تتنافس كليات الطب على الطالب والمستشفيات الجامعية على المريض، فإن أي أمل بتطور حقيقي تشهده هذه البنى العلمية يبقى ضئيلا.

ثامناً: الاستمانة بالخبرة الاجنبية في جميع مراحل العملية التعليمية والبحث العلمي ضروري جدا، وقد يستغرب البعض هذا الاقتراح لاننا نتحدث عن كيفية تحقيق تعريب الجامعات على الرجه الافضل، والذي يعني بحسب قاموس الجامعات التي سارت في التعريب الاستغناء كليا عن الخبرة الاجنبية، وفي الواقع فإن الخبرة الاجنبية لا غنى عنها في أي مؤسسة علمية اليوم، فكما قد أسلفت فإن المؤسسات العلمية جامعية أو غير جامعية أصبحت بغى متعددة الجنسيات في كل العالم، ولا أعتقد أن هناك مؤسسة علمية واحدة في الدول المتقدمة تخلو من باحثين أو مدرسين زائرين يأتون من الدول المتقدمة والنامية على حد سواء. وليس في استقدام الخبرة الاجنبية أي انتقاص من قدرتنا على النهوض المستقل بأعباء التعليم الجامعي. أما بالنسبة للتعليم الطبي فإن

ـــ عالمالفک

وجود الخبرة الاجنبية سيكون حيريا جدا للنهوض بمستوى التعليم والبحث والنشر باللغة الإنجليزية، وهي اللغة الاجنبية الأهم في مضمار العلوم والطب خصوصا كما أسلفنا.

تاسعاً: الاعتماد على الإنترنيت ووصل الجامعات العربية ببعضها عن طريق هذه الشبكة، واستحداث قاعدة بيانات علمية معربة وبنكا المصطلحات المعربة يمكن الوصول إليها من قبل جميع الجامعات العربية عن طريق هذه الشبكة، مما يمكن أن يسمم إلى حد كبير في توجيد المصطلحات وتطويرها بما يتناسب مع الاستعمالات المستجدة ومتغيرات العلم.

لقد علمتنا تجربة التعريب في الجامعات السورية درسين بالغي الأهمية، أولا من السهل جدا إعطاء المبررات المناسبة للقيام بعملية التعريب، خصوصا وأن الخطاب السياسي المعاصر يزخر بالمصطلحات الجنلة والعبارات الحماسية التي تخدم في هذا المجال. أما الدرس الثاني فهو أن الإيفاء بالمتطلبات العملية لهذه الخطوة بالغ الصحوبة. واسوء الحظ فإن واقعنا اليوم يفرز لنا فيضا هائلا ممن يشتغلون على الجبهة الأولى، بينما تأكل وقائع الحياة تدريجيا القلة التي تحاول أن تعمل بصدق لتأمين الحد الأبنى من متطلبات التعريب. وما لم تنقلب هذه المعادلة الخاسرة أصلا فسيظل هذا الموضوع محورا للمؤتمرات والندوات والاجتماعات لسنين عديدة قادمة.

المراجع

- (١) ابن النديم، الفهرست الطبعة الرحمانية مصر من دون تاريخ
- (٢) باصيف عبدالكريم الترجمة أهميتها ودورها من تطوير الأجناس الأدبية الوحدة ١٩٨٩، ١٢/٦١ ٥٠-١٧
 - (٣) صالح ماشير. دور الترجمة في تشكيل الفكر العربي للهامس الرجدة ١٩٨٩. ١٩٨١- ٢٠-٢٠
 - (٤) طرابيشي جورج الترحمة والايديولوجيا المترجمة الوحدة ١٩٨٩. ١٩٨٩. ٢٠-٣٠
- Le Page RB. The national language question. Linguistic problems of newly independent states. London Oxford University Press 1964.
 - (١) عسوس عمر التجاهات الجزائريين نحو التعريب الفكر العربي ١٩٩٤، ٧٨ ،١٩٩١
- Kodjo S. Educational strategy for cultural independence in West Africa. Journal of Asian and African Studies 1979, 14 (V)
 66-77.
- (A) تركي رابع أصواء على سياسة التعريب والإدارة وللحيط الاجتماعي في الحزائر معركة التعريب ١٩٦٧ ١٩٨٠ مجلة المستقبل العربي ١٩٨٤، ٧٧ - ٨٤ - ١٠٨٣
 - (٩) الحاح كمال يوسف في فلسفة اللعة دار النهار للبشر، بيروت ١٩٦٧ صدرت الطبعة الاولى من هذا الكتاب في العام ١٩٥٦
 - Abou S "Le Bilinguisme Arabe-Français au Liban essai d'antropologie Culturelle", P U.F. Paris 1962. (1-)
 - Sayad A "Bilinguisme et education en Algerie" in cahier du centre de sociologie europeene. Mouton, Paris 1967. (١١)
 - Chadly F Biculturalisme, Bilinguisme et education, Delachaw et Nieste 1983, (17)
 - (١٣) قبيسي حسن لفتنا والترجمة بحث في العلة وتسكينها الفكر العربي ١٩٩٤، ٥٧ ٦-٤٠
 - (١٤) مشترك واقع الترجمة في الوطن العربي اليسكو، تونس ١٩٨٥-
 - (١٥) إحصاء بيبليوغرافي قامت به المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم عما ترجم في الوطن العربي ما مين عامي ١٩٨٠-١٩٨٠
- (١٦) التقرير الختامي للقاء الاول عنول علوم الطب المفاهيم والمصطلح «الماضي التاملي والواقع العملي» العلوم ١٩٩٤، (١-٧) ٨٣-٨٢
 - (١٧) عوض عادل. تعريب العلوم والحاسبات قضية حضارة ومصير الوحدة، ١٢٨ -١٢٩ -١٤١
 - (١٨) تقييم تجرية تعريب الطب في الجامعات السورية مجلة الستجدات الطبية المجلد الأول / العدد الأول، ١٩٩٧

في طور التنفيذ : معجم جديد للترجمة من العربية إلى الإنجليزية

معبد معبد علمي هليل*

مقدمة

تعاني أقسام اللغات والترجمة في معاهدنا العربية من قصور شديد في المعجمات المعجمات العربية – الإنجليزية. ويزداد إحباطنا إذا ماقارنا هذه المعجمات المعجبية – الانجليزية بالمعجمات الإنجليزية – الفرنسية، والفرنسية، والفرنسية – الإنجليزية (Robert & Collins 1987)، أو الإنجليزية – الإلمانسيسة، والألمانية – الإنجليزية (Collins Klett 1983)، حفزنا هذا الوضع على القيام بدراسة استقرانا فيها أهم المعجمات العربية – الإنجليزية، ومنها المعجم الندي وضعه (۱۸۹۰) Salmone (۱۸۹۰)، ومعجم إلياس (۱۹۲۷)، ومعجم إلياس (۱۹۲۷)، ومعجم البعلبكي (۱۹۸۸) على الطلعنا على أحدثها (مجاني الطلاب ۱۹۹۵)، وقد أحصينا بعضا من مثالبها نوجزها في النقاط التالية:

^{*} قسم اللغة الإنجليزية - كلية الأداب - جامعة الكويت

___ عالمالفکر

 ١ - اقتصارها على تزويدنا بالكلمات العربية دون شرح كاف يحدد معناها بدقة للمترجم سواء كان من أبناء العربية أو من غير أبنائها.

مثال ۱ ندد : شنتت

(إلياس)

to scatter, disperse, diffuse, strew about, مثال ۲ بَدُد : فَرُق، شَنَتْت، ازال disband, separate, break up, dispel, drive away, to remove, eliminate, get rid of, do away with

(البعلبكي)

لا يَتَضح للمترجم مجال الاستعمال. فما الذي سيتفرّق أو يتشتّد؟ وهل سنُتَرْجم ندُد جُهُدُه بائٌ من هذه المقابلات؟

 ٢ - استخدام المترادفات الكثيرة كمقابلات إنجليزية للكلمة، أو التعبير العربي دون أي تمييز بين دالالتها وإبحاءاتها.

مثال: مُنْقَرِد - Solitary, alone, single, lone, sole, isolated, separate, sever- مثال: مُنْقَرِد - al. distinct. individual.

مما يصعب معه اختيار القابل المناسب للنص الذي يعالجه المترجم.

ترى كيف يختار المترجم المقابلات المناسبة في ترجمة العبارات التالية.

١- عزف منفرد. ٢- اجتماع (اتفاق) منفرد.

٣- حبس منفرد بذكائه.

٥- عاش منفردا. ١- منفرد برايه.

٣- غياب المتلازمات اللفظية في الشرقين العربي والإنجليزي فتزويدنا بالمقابل الإنجليزي غير كاف عياب المتعالى الإنجليزي أو الصفة مثلاً متعدد المعاني بتعدد كافرعلى الإجلازي أو الصفة مثلاً متعدد المعاني بتعدد استعمالاته مع فاعل أو مفعول أو مُلازم مُعين، ويكون المتلازم غانباً وهو الذي يُحدد المعنى، كماأن

المقابل يرد في مجموعة من المترادفات مما يجعل عملية الترجمة شاقة للغاية، مُضَمَّيُعة للوقت. والجهد

shining, sparkling, flashing, gleaming, glitering, glis- مثال نَرَاق الاميم tening, glimmering, shimmering, radiant, dazzling, bright, brilliant, refulgent, resplendent, beaming, shiny, lustrous

(المورد)

تُرى ايصلُح ايّ من هذه المترادفات لترجمة «وعود برّاقة» حيث يتحدّد معنى «برّاقة» بمتلازمها «وعود»؟

3- الاهتمام بالكلمات المُفْرَدة اكثر من الْمُركّبات الإضافية والتعبيرات الاصطلاحية كما يتضبح من القائمة (جدول ا) التي تضم ثلاثين مُركّبًا إضافياً وتعبيرا اصطلاحيا اخترناها عشوائيا من بعض النصوص، وكشفنا عنها في مُعْجَميْن عربيعين – إنجليزيّين، وتشيير العلامة (\checkmark) إلى وجود المركب أو التعبير في المعجم المقصود، وتشير العلامة (x) إلى غيابه.

 حـ تركيز هذه المعمات على المعنى الحرّفي للكلمة المصدر وتجاهلها للمعنى المجازي الذي يُشكّل عبنا على المترجم لغياب غياباً يكاد يكون كليا:

مثال : وَادُ المولود (a newborn girl) مثال : وَادُ المولود

وهو معنى وَاد الحرفي «أما استعمالها مجازيا فقد غاب عن واضع المعجم، وهذا بالضبط ما يحتاجه المترجم، فالاستعمال المجازي مرتبط بخصوصية اللغة. بل إنه في أبسط الحالات، وهو الفعل دخل، لم نجد أيّ مقابل يساعدنا على الترجمة بثقّة.

مثال: التعبيران المجازيان

He was imprisoned, put into prison, jailed, in carcer- : دخل السيجن - \ ated, locked up (coll).

۲- (الدولة) يُخلت الحرب (...The country) went to war with or against...) بخلت الحرب (... وحتى تتضع الصورة فضلنا أن نقوم بعرض سريع لمنهجية كل معجم من هذه المعاجم الخمسة:

ي عالمالفكر

البعلبكي	Wehr	المركب أو التعبير الإصطلاحي		
X	X	رأس الحكمة		
X	V	أهل اللغة		
X	/	أم القرى		
X	X	مناط الأمل		
X	X	أخوة السلاح		
X	X	فتيل الحرب		
X	X	علت أسهمه		
Х	V	مزُق شملهم		
X	X	فرق شملهم		
X	X	خقف الوطأ		
X	/	خفف من غلوانه		
X	7	وحد الكلمة		
1	X	رفع الكلفة		
X	X	دق طبول الحرب		
X	X	رجحت الكفة		
✓	X	قميص عثمان		
X	X	شعرة معاوية		
X	X	واد الفكرة في مهدها		
X	X	خطاب مفتوح		
X	✓	سلقه بلسانه		
X	X	ابن المدينة		
X	X	أبناء الوطن		
X	X	ابن الخطيئة		
✓	✓	ابن السبيل		
X	X	بيت الشباب		
\	X	بيت الزوجية		
X	Х	بيث المسنين		
/		بيت دعارة		
X	X	بيوت الله		
X	X	بدد الأوهام		
٥	٨	المجموع		
7.17	N. 87	النسبة المثوية		

جدول (١) : المركبات الإضافية والتعبيرات الاصطلاحية في معجمي Wehr والبعلبكي

١- المعاجم العربية - الإنجليزية

ا- معجم (1890) Salmone

يتبع نظام الجِذْر وبدلا من أن يضع تحت كل جذر الاسماء والصفات وغيرها يُحيل المستعمل إلى جداول وأشكال للأنماط الاشتقاقية العربية (انظر جدول ٢و٢).

ويزيد من تعقيد المعجم انتهاجه لرموز وأرقام عديدة منها:

١- في المصدر العربي يحيل إلى رقم لنمط معين في الجدول.

مثال: (صنعَد) والإحالة إلى الرقم والمختصرات n.ac 27

(Noun of action) (فَعُول) لنصل إلى (صنَّعُود) (انظر جدول ٢).

٢- استعمال a, b, c للإشارة إلى المعانى الختلفة للفعل أو الشكل المُشتق.

٣- استخدام الأرقام الرومانية .. I, II, III. لتمثيل تصريفات الفعل العربي (انظر جدول ٣).

 استعمال الأرقام العربية 1,2,3 وغيرها في فقرة جديدة في المدخل للإحالة إلى الاسماء والصفات التُشتقة (انظر شكل)

TABLE OF ARABIC DERIVED FORMS
DEVISED BY H. A. SALMONÉ.

1	فَعْل	مَثْعُل 10	ا فَأَعِلُ عَمْ	فُعْلُل 84
2	فعل	مِنْعَل 20	أَنْمَالُ 38	فُعَلِل 55
3	غُعْل	قاْعِل 21	إِنْعِيْل 30	فَعَلَّل 150
4	فَعَل	نَعْأَل 1 22	فأعول 40	فُعَلِّل 57
5	فَعِل	فِعَاْلِ 88	فُوْآعِلُ 14	فِعُكُلِّ 📧
٥	فُعُل	مُعَال عِهْ	42 1366	فَعْلَالِ الله
. 7	وتُعل	فَوِيدُل 25	43 114	فَعْلُوت ٥٥
8	ۇچل ئەر	ربه فعول 88	مَعَامِلُ عِنْهُ	تَنْعُلُل اه
°	فُعِل رو	روء فعول 27	معامِل عه مِفْعَال ته	تَنْعَال ع
10	ُ فُعُل مُعَد	مية فعال 28		تَعَانِّعل عم
11	فعل	ريم فعال 29 .	فَعَاثِلُ هُ	تَغَافِيل 86
. 12	رفعل ودين	نِعِيل 30	فَعَالِلُ 12	مُغَانِينًا 85
18	ورس قعل سست	بهه فعول 81	نَعُلُّل 48	
14	ا أفعل	بكه فعول 88	فِعْلَالُ 40	نَوَاْعِيْلُ 88 نَعَاْلِيْلُ 87
15	أنول	فعلان 88	فُمْلَالُ 50	
16	أَنْعَل	فِعُلَان 84	فَعُلُل الله	أُفْدِلَاءُ 88
17	مُغْعَل	فَعَلَانِ 35	نِعْلَل عة	أَفَاٰعِيْلُ ٥٥
18	مَغْمِل	فُعَلَّن 38	يعْلِل 53	فَعَاءِيلُ 70

Note—t, ya, yi, yit placed after any of the above numbers represent respectively مَرْكَ عَلَمْ اللهِ عَلَى اللهُ عَلَمْ اللهُ عَلَمْ اللهُ عَلَمْ اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ الل

جدول (٢) المِينَ العربيَّة المُفْتَدَّة من وَشْع Salmone

TABLE OF CONJUGATIONS. TRILITERAL (*)

TRILITERAL.(*)							
	NOUN ACTION	N. PATIENT	NOUN AGENT	IMPERATIVE	AORIST	PRCTERITE	[
	irregular	مُعُعُول	فَأْعِل	ٳؙؙڡٛٛۼؚؖڷ	ڔۿؠؘڡ۫۠ڡؚۘٞڶ	فَيِّلَ	
رو)تغملم	(١)تَعْعِيْل	مُغَعَّل	مُفَعِل	نُعِّلُ	يُغَمِل	فَعَلَ فعل	
ر2)مغَ عَلَمَ	(ا رِفعَال	مُفَاعَل	مُغَامِل	فارعل	يُناعِل	فَاعَلَ	
	أِفعَال	مُغْعَل	مفعل	أُفْعِلُ	يُغْمِل	أَنْعَلَ	1
	تَّغَعُّل	مُتَّفَعُل	مُتَفَعِّل	تَغَعَّلُ	يَتَغَعَّل	تَغَعَّلَ	v
	تُغَاعُل	مُتَّفَاعَل	مُتَّغَاعِل	تَفَاعَلُ	يَتَغَاعَل	تَغَاعَلَ	VI
	إنبغعال	مُنْفَعَل	مُنْفَعِل	إِنْغَعِلُ	يَنْغَعِل	إِنْفَعَلَ	1,11
	(فُتِعَال	مُغْتَعَل	مُقْتَعِل	إُمْتَعِلْ	يَغْتَعِل	إِفْتَعَلَ	/III
	أفعلال	-	مُثْعَل	إِفْعَلَ	يَغْعَلَ	ٳؙڣۼڶٙ	IX(†)
	إستيفعال	مُسْتَغْعَل	مُستَقعِل	استفعل	يَسْتَنْعِل	إستفعل	x
	ٳٞڡؙۼؚؽؙڵڵ	_	مُغْعَال	إِفْعَالَ	يَغْعَالَ	ٳۨڡ۫ٚۼٵڷ	X1(†)
	ٳٞڣؙۼؚؽۼٲڶ	-	مُقْعَوْعِل	إِنْعَوِعِلْ	يَغْعَوْعِل	إِنْعَوْعَلَ	XILT)
QUADRILITERAL							
(2)نعدر	(١) نَعْلَكُمْ	مُعَعْكل	مُقَعْدل	فَعْلَلُ	يُفَعِّلُ	فَعْلَلَ	1
	تَنَعْلُل	مُتَّفَعُكل	مُتَّغُعُلل	تُفَعَدُلُ	يَتُغَفَّلَل	تَغَمْلَلَ	11
	إفّعتكل	مُغْعَنْكُل	مُفْعَنْبِلل	إفْعَنْبِللْ	يَغْعَنْلِل	إنْعَنْكَلَ	111(1)
	إِنْعِلَال	مُغْعَلَل	مُنْعَدِلً	ٳؙۘۜڡؙ۫ۼڸؚڷٙ	يَغْعَلِلَ	ٳؙؖڣؗڡؘڵڷؘ	

جدول (٣) التمسريفات

^{(&}quot;) The 3d pers. mas. sing. is given throughout.

(**) The vowel-point of the and rad. of the Fret. & Ao. can only be found in the Dictionary. The Imperative takes the same vowel as the Ao.

⁽t) The IX is not often used, but the XI and XII are extremely rare. So are III and IV conjugations of the quadriliteral.

* صحت A (n. ac. 1) [FT], Searched into, investigated; ferreted, wormed out, grubbed, scratch-20 ed up.-(b) ['An], Sought for; inquired into .- III, Discussed, argued with .- V, see I(b) .--VI. see III .- X, see I(b). 1, (\$1. 88), Search, inquiry, 25 examination, investigation .-(b), Discussion, controversy .--(c), Mine .-- 17, (pl. 44), Research .- 24t, Earth, mould. Discussion, argument, 10 controversy.

شكيل: (١)

على الرغم من ميزات هذا المعجم وهي كثيرة وشُمُوله لعدد كبير من المعاني والمُشتقات وسلامة وسلاسة لغته الإنجليزية وبرائه في المترادفات فهو يفتقر إلى السياق المُوضَح للمعنى كما ينقصه الكثير من التعبيرات الاصطلاحية.

ب- معجم (1888) Wartabet

يعتمد هذا المعجم على الجِذْر أيضا، ويهتم بالفروق بين المعاني وفلِلالها (انظر شكل)، لكنه يلجأ إلى الفاصلة والفاصلة المنقوطة ليُبيّن القُرب أو البُعد في معانيها وليست تلك بالوسيلة الناجحة السهلة التي يُمكن أن يتبعها المُترجم في بحثه عن المعنى:

to be embellished, use courteous language. To bear pov- مثال ۱ : تُجِعِل erty with patience and silence.

a gatherer. Sinner, criminal. مثال ۲: جان

وقد يشير إلى مجال الاستعمال حينا:

عالمالفكر

مثال: بِسَطَ يَيْسُطُ بِسَعْط لَيُسَاط ، Open the مثال: بِسَعْط يَيْسُط بَسَعْط اللهِ hand. stretch out the arm.

سبط بسط ساطة: (Tobe free, without restraint (in speech

ويُهملِه في كثير من الأحيان:

سلم من: To escape, to be free from

ستلّم د : To admit, submit to

كم سيكون الأمر جَليًا إذا أضفنا (سلِّم من المرض/ الآفة/الخطر/الآذى) وسلم بـ (القدر) مثلا.

The scratch الله تَحْدُ الله والله الله والله الله والله وا

شكل: (١)

Discussion, controversy, disputation, Search for some

thing.

ج- معجم إلياس (١٩٣٣)

ما يتَّمَيز به هذا المعجم تحديد الكلمة العربية أن تفسيرها بكلمة عربية مرادقة لها تمهيدا لذكر المقابل الإنجليزي.

مثال:

ه أَنْكُ أَنْ فَي الوُّمَاوِعِ To investigate; search; look, or inquire, into. - الأثرا: ذرته To study; examine. To look, or search, for. nuscuss ه باخت مه في الأم بالله بالم To discuss a Research; careful search. Examination; investigation. Researcher: . كَتَأْتُهُ . باحث investigator. تُ جَزيرة : شبه جَزيرة Poninsula. Theme; a subject set for speculation or discussion. Research work. Discussion; argument; debate. شکل (۳)

وقد تقدم هنا إلياس بالمُعَجميَّة الثّنائية خُطوة إلى الأمام في إشارته في بعض الحالات لا كلّها إلى المتلازم اللفظي وتبقي حالات كثيرة بلا سياق يُحدُد معناها واستعمالها.

مثال : اید : عزز To support ; maintain

To confirm : establish : -

- : ساعد To help ; support

فما الذي سيُعَزِّز والذي سيُثْبَت؟ فالمستعمل يحتاج إلى سياق مُوَضِّح كان نقول ايِّد حكماً : اثبته، وأيَّد موقفا : دعمه ونصره.

د- معجم (1961) Wehr

يُعَدُ معجم (1961) Wehr ، وكذلك معجم البعلبكي (۱۹۸۸) أفضل وأشمل مُعجَمين من العربية للإنجليزية بالنسبة لمفردات اللغة العربية وعياريُتها (Phrascology) ، لكن يبقى الكثير مما يجب القيام به هذا إذا ما قارنا بين هذين المعجمين والمعاجم العربية - الفرنسية، والعربية - الروسية (انظر المنجد ،۱۹۸۰ ، والسبيل ۱۹۸۳ ، والقاموس العربي-الروسي ۱۹۹۳).

تنتظم المفردات في معجم Wehr ثبّعاً للجنّر العربي. ويستعمل المعجم النظام الاوروبي في تمثيل النظام الصرفي... J. H. H. H. (ص XII)، وتمثلي، كلّ صفحة منه بعدد مهول من المقابلات الإنجليزية بشكل يصعب معه على المترجم استعمال المعجم (انظر تعليق 1993). ويستعمل الفاصلة للتغريق بين التعريفات المترادفة، والفاصلة المنقوطة للإشارة إلى بداية التعريف في نطاق دلالي مختلف (انظر شكل ٤)، مما يزيد من صعوبة الاستعمال. كما يستخدم /S.thing وتحديد على التوضيح الاستعمال لكنها غير كافية إطلاقا فيلزم في الاستعمال تحديد (الشيء) وتحديد (الشخص)، وهذا هو ما تعاني منه أغلب المعاجم العربية وكثير من المعاجم الإنجليزية— الامريكية.

to decrease, diminish, reduce (هـ s. th.),

to lessen (e.g., قيمته the value of s. th.);

to disregard, neglect, fail to heed (هـ s. th.)

كما تُلاحظ في المهجم تعدّد المرافقات المُبتسرة من السياق:

bahala a (bah) to, look, search (a or of or s.th.), sook (a or os.th.); to do research; to investigate, examine, study, explore (a or os.th., loss frequently with of or os.), look into (a or os.); to discuss (a a subject, a question) III to discuss (a with s.o., os. a question) YI to have a discussion, discuss together; to confor, have a talk (a with s.o., os. about)

ابحاث , بحرثات , معرفات , معرف , معرف , معرف , معرف , معرفات , مع

ಿಡ್ baḥḥāṭ pl. -an scholar, research worker

baḥḥāṭa eminent scholar ماثة

mabhat pl. مباحث mabhat pl. مباحث mabhat pl. مباحث mabhat pl. مباحث mabahit² subject, theme, field of investigation or discussion, object of research; research, study, examination; investigation

ساحة mubāhaļa pl. at negotiation, parley, conference, talk, discussion

būḥif pl. - قد and الله buḥif scholar, research worker; examiner, investigator

مثال:

ringing, sounding, pealing

jingling, resounding reverbating,

echoing, humming, buzzing,

droning; whistle, buzzer (of a kettle);

تُرى أي كلمة نختارها من هذا الركام الترابغي لترجمة قصيدة طُنَّانَة أو كلمات طُنَّانَة، وأي مقابل إنجليزي سنستعمله مع (النحلة)، ومع (الجرس)، ومع (النباب)، ومع (اسم) في السياقات: نَطْلة طُنَّانة، جُرَس طُنَّان، نباب طُنَّان، واسم طُنَّان.

هـ - البعليكي (١٩٨٨)

يختلف المورد عن بقية المعاجم العربية – الإنجليزية فهو مُرتب ترتيبا الفبائيا وفق الحروف الأولى للكلمات دون الاعتداد بجنر الكلمة أو الإصل التُجرّد الذي اشتَقْت منه. وعندما يكون للكلمة العربية أكثر من معنى واحد فإنها تُقسّم إلى فروع يلي كلا منها تعريف أو شرح أو دليل بالعربية يُميّز بعضها عن البعض الآخر (انظر شكل ٥). وقد خطا المورد هنا في خدمة المترجم خطوة إلى الامام، وأولى عملية الشرح اهمية لاتجدها في Wehr ، وقد استوحى الفكرة من إلياس، ولكنه وقر في من المعاني مشكل ميزه عن غيره:

مثال: رفع : ازال to remove, take away, eliminate, lift, raise, end, put an مثال: وفع : ازال end to

to raise, increase, step up, hike up, scale up, jack up, sky- رفع : زاد، rocket, heighten, intensify, enhance. نَعْتُ (عن): فَتُشْنَ نَقَّ لِ to search for, look for, seek, مُعْتُ (عن): quest, hunt for, fish for, try to find; to grub for, rummage, search about; to prospect for, drill for, excavate

بَحْثُ: دُرُسُ to discuss: to consider, look into: to study, explore, inquire into, delve into, scrutinize, examine, investigate, inspect, check out; to deal with, treat; to research, do research

بَعْث (عن): تُفْتِيش، تُنْقب search for, quest of, search ing for, looking for, seeking, hunt(ing); prospection, drilling, excavation

discussion; consideration, looking into: study, exploration, inquiry, scrutiny, examination, investigation, inspection, checking: treatment, treating, dealing with

تَحْث: درَاتَ | research, research work; study; sur vev: report: treatise, paper نَخْنَا عِن

in quest of, in search for

نَعْتَ النَّحْثِ ، قَنْدُ النَّحْثِ under consideration, under discussion, on the tapis, on the carpet

شكيان: (ه)

وعلى الرغم من أن محاولة البعلبكي في إعطاء المعنى بالعربية هي محاولة جديرة بالثناء فينقصه الزيد من المعلومات الدلالية حتى يزول اللبس الذي يسببه العدد الوفير من المترادفات التي تفتقر إلى مُحدِّد ومُقْرَق بن معانيها، وإلا فكيف بهندي المترجم إلى ترجمة رَفَع الحصار عن المدينة، ورفع المُربِّب. ومثل معجم Wehr يَقْصِل بين الكلمات الإنجليزية المترابعة بفاصلة، أما الشَّوَّلَة المنقوطة فَتَقْصِل مِن الكلمات الإنجليزية ذات الدلالات المختلفة اختلافا يسيرا، أو بين ظلال المعاني المتقاربة، ولكن دون أن تكون مترادفة. وكل هذا لا يُستهل استعماله. مثال: باكورة firsfruits; firstling, first (early, earliest

produce or product or result; first sign,

first in diction, herald, harbinger, forerunner,

precursor; beginning, start, rise, dawn; first, initial, early

ويلاحظ في مثالنا هذا كثرة المرادفات كثرة تزيد عن الحد دون متلازمات لفظية تُعرَّق بينها، بل يلجأ في بعض الأحيان إلى إعطاء مترادفات دارجة في اللغة الانجليزية كإعطائه hike up, jack يلجأ في بعض الأحيان إلى إعطاء مترادفات دارجة في اللغة الانجليزية كإعطائه ap

۲ – معجم جدید

وحتى نتلافى أوجه النقص هذه نجد أن على المعجمية الثنائية التي اتخذت من الترجمة هدفا لها أن تُغيِّر من وسائلها، وأن تُعيد النظر في منهجيتها، من هنا تُولَدت لنا فكرة معجم الترجمة. وحيث إن الترجمة كما يقول (Hartmann (1989:9) - عملية معقدة تتضمن المقدرة على صدياغة معنى التعبير الواحد باللغة المصدر واللغة الهدف، فالجمع بين معجم عربي أحادي اللغة، ومعجم من نوع خاص هو من أفضل اليات الترجمة.

المقابلات بين اللغات، وأفضل التعريفات هي التي تركز على الصفات الميزة للمعنى إذ إنها.

(آ) توضّع المعاني المختلفة للكلمة.

(ب) تفرّق بين المعانى المتصلة.

وهذا بدوره بساعد على إيجاد القابل الإنجليزي.

١٠٢- السياق

قد لا يكون للكلمات في حد ذاتها أي معنى من المعاني، لكنها لديها القابلية أن تحمل معنى معينا، وتتحقق هذه القابلية في السياق اللغوي أو الاجتماعي. فمعاجمنا لا تهتم بما يطرأ على معنى الكلمة الإحالي (referential meaning) أو المرجعي، وما تكتسب من إيحاءات، بل هي

_ عالمالفکر .

تجرد المعنى. ومن ثم فالتعريف المقتضب فيها غير كاف، بل إن التعريف الكامل أيضاً بحتاج إلى تعزيزه بالسياق. فالكلمة يتلون معناها بتغير السياق (انظر60 : Jackson 1988).

مثال : خادم الحرَمَيَنُ (custodian) = القيِّم عليهما، الأمين عليهما، راعيهما.

مثال٢ : البيت العتبق (Kaaba) = الكعبة.

۲۰۲– الجذر

إن صيغة الكلمة في اللغة العربية، باعتبارها لغة سامية، تُبنى على قاعدة من السواكن والحركات عمادها الجِذْر، وهو هيكل من السواكن، وعلى النقيض من الانجليزية التي تعتمد على مروفيم الأساس (base morpheme) او الجِذِغ (stem) فالجذر العربي لا يكون كلمة في حد ذاته، بل هو مجرد سلسلة من السواكن يحمل معلومات دلالية عامة. والمعنى المحدد يمكن أن نصل إليه بشكل عام إذا رجعنا إلى الجذر فكل الاشتقاقات المكنة من الجذر تُعتلَّها في المعجم مداخل منفصلة لكنها مترابطة معجمياً إذ إن اللغات السامية، ومنها العربية، تتميز بأن الجذر هو الأصل المترعم الذي اشتقت منه الصيغ المختلفة في اللغة، وهو مُكون من السواكن فحسب، ولا يطابق أي صيغة مرجودة في تلك اللغة. من ثم نقترح اتباع منهج ابن فارس في معجم مقاييس اللغة (انظر خليل ۱۹۹۷) فيكون الجذر أو الأصول هاديا لفهم كل كلمة ومشتقاتها وينتظم المدخل العربي خليري كل مدخل كلمات مترابطة دلالياً.

مثال: رخص الراء والخاء والصاد أصل يدل على لين وخلاف شِدّة. من ذلك اللحم الرُحُص: هو الناعم ، ومن ذلك الرُّخص خلاف الغلاء. والرُّخْصة في الأمر: خلاف التُشديد.

[معجم المقاييس في اللغة ص٤٤٧]

٣٠٢- الأمثلة التوضيحية

إن الشواهد التوضيحية باللغة العربية والتي قد تأخذ أشكالاً عديدة فقد تكون شبه جملة أو متلازماً لفظيا أو جملة كاملة تعزز التعريف بالكلمة، كما تساعد على التقريق بين الكلمات المتقاربة في معناها، فالمترجم يبدأ عمله من الشبق العربي فيتعرف من التعريف على الصفات الدلالية الميزة للوحدة المعجمية سواء كانت كلمة أن أكثر، ثم يبدأ في اختبار مدى صلاحيتها لفهم النص. فإن لم يسعفه هذا لجا إلى الامثلة الترضيحية، فإن كانت هذه قد أُحْسِن اختيارها حَفَرَته على إيجاد الترجمة المناسبة. لذا وجب الاهتمام بوضع الشواهد وحسن اختيارها على الا تُتُقلُ بمعلومات زائدة عن الحاجة، أو تتوه في التفاصيل، أو أن تكون مبتوره موجزة فتثير حيرة المترجم (في الامثلة واختيارها انظر 1992 Minaeva). ونضيف أن استعمال المرادف لشرح معنى الكلمة العربية كما تفعل بعض المعاجم الثنائية الإلكترونية الارساعد كثيرا على فهم المعنى المراد.

مثل : طرح: ١-اقتطع ٢- رمى ٣- خلع

[المعاجم: القاموس الناطق]

مثال؟ : برز: حدث to occur, happen, take place

باخ: كان بانخا

[البطبكي]

ويختلف معجم الترجمة الذي نقترجه عن هذه المعجمات التعليمية فالقصد منه هو حفز المترجم على فهم اللغة المترجم منها فهما دقيقاً في سياق معين، وإعطاء المقابل المناسب باللغة المترجم اليها في سياق مماثل، وتنبني المقابلات على السياق المحدود أي التلازم اللغظي اساساً، كما تنبني على التلازم النحوي أو ما يعرف بر colligation كارتباط الاسم بحرف جر معين، أو الفعل بحرف جر معين، ومعجمنا في واقع الحال يغني عن معجمين يرجع إليهما المترجم في انتقاله من اللغة العربية إلى اللغة الإنجليزية: معجم عربي – عربي، ومعجم عربي – إنجليزي. إذ يعد المترجم بمطومات دلالية في كلتا اللغتين، فالتمييز الدلالي ضروري في حالة الفهم وكذلك التعبير. والشق العربي في المهجم يخدم التعبير في الوقت نفسه.

وترتكز خطتنا في تنفيذ هذا المجم على بعض العناصر المعجمية الوثيقة الصلة بعملية الترجمة وأهمها:

٤٠٧ - التعريف

إن المعجم أو الشق العربي على وجه التحديد في معجمنا لاغنى عنه فهو عماد المترجم في
تطليل كلمات النص الاساسي لأنه يُعرِّف معاني هذا النص داخل اللغة التي كُتب بها، وحيث إن
إحدى المهارات التي نستثمرها في عملية الترجمة هي القدرة على التعبير عن معنى الشيء في
إطار اللغة المصدر فالتعريفات ينبغي أن تكون دقيقة وكاملة وواضحة فهي على حد قول Stein (1978:8) :«التي تُدكن المستعمل من تَعرُّف خصائص معاني الكلمات، فالتعريفات في المعجم
الأحادي (الشق العربي) ضرورية لانها هي أول ما يحفز المترجم على إيجاد المقابل إذ إن الكلمات
العربية للنص المصدر يجري صمياغة معناها في هذه التعريفات وصياغة المعنى هذه من أكثر
الطرائق شيوعاً.

إن معجم الترجمة الذي نبتغيه سيكون عونا على تفكيك معنى اللغة المصدر أو اللغة الأم (العربية) [1/]، وإعادة صبياغته باللغة الهدف (الإنجليزية) أو اللغة الأجنبية (ال/). إن المترجمين سيفيدون كثيراً من الوعي بأهمية الدور الذي يلعبه المجم الجديد بالنسبة لعملية الترجمة. وأقصد سنا نوعين من المترجمين الطالب الذي يتم تدريبه وإعداده ليكون مترجماً في المستقبل (المرحلة الجامعية في أقسام الترجمة)، والمترجم الذي يعارس مهنة الترجمة. ويلجأ الدارس في أغلب الأحوال إلى المعجم الثنائي ليستعين به في عمله الترجمي، أو على فهم اللغة الإجنبية ولا سيما في المرحل الأولى لتعلّمها، وقد ظهر حديثاً نوع جديد هجين مؤلد من معاجم الدارس يجمع حسنات كلً من المعجم الأحادي والمعجم المثنائي، ويعرف بالمعجم شبه الثنائي، وتبعر المنافية المتنبية لتكييف (bilingualised/semi)، أو المعجم «المشروح» لأنه جاء نتيجة لتكييف المعجم الأحادي اللغة للغة الأجنبية كالإنجليزية مثلا لسد حاجات الدارسين المتحدثين بلغة اجنبية كالإسبانية مثلاً، وقد مثل منه المعاجم شبه الثنائية ذات الأغراض العامة للمتحدثين باللغات العربية والصينية والفرنسية واليونانية والعبرية والاسبانية وقد زيدت عليها حديثاً اللغة والبيانانية والنابانية والسلافية والشراك المسلافية والسلافية والسلافية والسلافية والمسلافية والإسلافية والإسبانية وقد ويدت عليها حديثاً اللغة

وفيما يلي (شكل) نعرض مثالين لهذا النوع من المعاجم: النوع الأول (كلمة El drag)، وهو من الإنجليزية إلى الإسبانية وبه عمودان والمعاني فيه مرقمة ومعها تعريفات بالانجليزية ومقابلاتها على اليمين باللغة الإسبانية مع جمل توضيحية بالإنجليزية. أما النوع الثاني (E2) فيقتصر على إعطاء المقابل بالإسبانية لكل من المعاني المرقَّمة والمعَرَّقة بالشرح باللغة الهدف (انظر في الإنجليزية-العربية معجم (Harrap 1980)، ويترك الأمثلة الإنجليزية بلا ترجمة ويختار مقابلاً واحدا بالإسبانية، ويجمع المعجمان بين ميزة الشرح والأمثلة باللغة الهدف، وتزويد الدارسين بترجمات مباشرة لها باللغة الأم.

E1 drag [drag [---erb dragged, dragging 1. To draw or pull along with force. 2. To move or go too slowly.

3. To truit or cause to trul along the ground. 4. The search the bottom of a rover or lake for anisher objects.

drag terlo 1. Haler a tirst oon fuerta, errastrus. 2. Morence o undas cun dimanada leutistid, demorance, retriadane, si a la siga Hia speech dragged on hance dragged to bland the other gods, at James dragged on James dragged bland the other gods, at James dragged la stage de las soons cheese. 3. Attrastruse o err tarsatrada por el sucolo: Her così d'ingre behand the pois err dematil is too long. — Su obrigo le arrastra por err dematil is too long. — Su obrigo le arrastra por err dematil is too long. — Su obrigo le arrastra por err dematil is too long. — su obrigo le arrastra por err dema-

(DICCIONARIO INGLÉS, ed. F. de Mello Vianna, Voluntad/NTC/ Houghton Mifflin 1982: 141)

 \mathbb{E}_2

drag [dræg] n. 1 what a drag!, (slang) how boring!

12 (slang) wearing of women's clothes by a man; he

was in drag. U distrazado de mujer # v. (he dragged) 1 to pull something heavy along: he was dragging a claim behind him; she dragged her children into the shop. U arrastras

2 to hang back/to stay behind, to go slowly: the lawsuit is dragging. U demorarse 3 to drag a lake, to pull a net along the bottom of a lake to try to find something. U dragar

drag on v. to continue slowly: the war dragged on for years. L. prolongarse drag out v. to pull out: I had to drag him out of hed. U sacar de la cama

شكل: [٦]

(PASSWORD ENGLISH DICTIONARY FOR SPEAKERS OF SPANISH, comp. P.H. Collin, transl. R. Sainz-Ezquerra, Harrap/Kernerman/Ediciones SM 1980/91: 154-155)

٥٠٧- الاستعمال المجازي

معظم الكلمات من اسماء وصفات وأفعال وأفعال جُرِّيَّة يمكن أن تتسع في معانيها أو تُستَعْمل مجازياً، وهنا تكمن صعوبة ترجمتها فالاتساع والاستعمال المجازي يعكسان حضارة اللغة التي ننقل منها أو إليها. ومن ثم وجب أن نشمل في معجم الترجمة هذه الاستعمالات بوجه خاص، ولنأخذ التعبير التالي كمثال «دخلت الثورة عامها الرابع». حاولنا البحث عن هذا المعنى المجازي للتعبير «نَكَلَ الجامعة» والتعبير «نَكَلَ الجامعة» والتعبير «نَكَلَ الجامعة»

٦٠٢- المعنى الغرضي (pragmatics)

قد تحتاج بعض الكلمات العربية إلى أكثر من جملة أو عبارة شارحة فنحن نستعمل الكلمات لتأدية أمور عديدة منها التعبير عن المشاعر أو تأكيد مانقول أو دعوة شخص أو نصحه أو الاعتذار إليه أو تهنئته أو تحذيره أو التعهد له بالقيام بعمل ما وغير ذلك. وحتى تكون الترجمة الاعتذار إليه أو تهنئته أو تحذيره أو التعهد له بالقيام بعمل ما وغير ذلك. وحتى تكون الترجمة فعالة لابد وأن ننقل هذا الجانب الغرضي (pragmatic) إلى اللغة المترجم إليها. كل ذلك ظلّ بمعزل عن معاجم الترجمة، بل وحتى عن المعاجم الأحادية. وقد أولى معجم -Collins CO بمعزل عن معاجم الخديرة (١٩٩٥) اعتمامه لهذه الناحية، واستخدم لها علامة محددة. تدور الغرضية حول. كيف ومتى ولماذا نستعمل الكلمة أو التعبير. والمثال التالي يوضح الطريقة التي يمكن أن نلقي ضوءا على غَرضية تعبير من التعبيرات.

مثال\. مستشفى استثماري: تعبير يطلق على المستشفيات التابعة للقطاع الخاص في مصر ليعني خدمة افضل بكثير من التي تُقدمها المستشفيات الحكومية. يُنْظر باستهجان إلى لفظ «استثماري» من كثير من المتحدثين باللغة العربية في مصر. مثال\! شُهد الله أنِّي لم اتقاض أجرا: يُستعمل للتأكيد أو القَسْم.

۷۰۷ – المقاملات

تهدف بعض المعاجم الثنائية إلى تزويدنا بمقابلات لكلمات من اللغة المصدر ويسود الاعتقاد بأن هذا هو قمة العمل المعجمي، وأن هذه المقابلات يمكن بسهولة إحلالها في النص المترجم كما هي بلا تحوير أو تغيير (انظر 1970 Zgusta)، وتلك فكرة خاطئة في الأساس لم تول السياق ومتطلباته وغرضيته حقها، بل ترى أن نقتصر على مقابل واحد، والحجة في ذلك هي السعي نحو الدقة وعدم إرباك المترجم، وفي الطرف الأخر نجد معجما مثل Wehr وكذلك من بعده البعلبكي يزودنا بعدد هائل من المترادفات دون تمييز، ويزيد من حيرة المترجم في الحالتين أن المقابل الذي يزيده به المعجم الثنائي هو في أغلب الأحوال غير مفهوم لأنه منزوع من السياق، وكذلك الكلمة الرئيسية للمدخل هذا إذا لم يعززها السياق. من هنا جاءت أهمية السياق في معجم الترجمة المقترح أي أن المحور الذي ينبغي أن يبنى عليه هو الموازنة بين سياق وأخر، أو إيجاد المقابل الني يتغير بتغير النص. إذا فنحن نؤيد هنا فكرة تعدد المقابلات التي

تنقل كل ظلال المعاني حتى يختار المترجم من بينها (انظر Munning 1990:163) شريطة أن يعدل منه اللغظي. وكما يقول (Cruse 1986:53) «إن المعنى الواحد يمكن أن يعدل منه السياقات المختلفة وبطرق لاحصر لها، وكل سياق يؤكد صفات دلالية بذاتها ويخفي معالم أخرى السياقات المختلفة وبطرق لاحصر لها، وكل سياق يؤكد صفات دلالية بذاتها ويخفي معالم أخرى وويحجبها وانظر Walter وتعييزه بين المترادشات: / walter وغيرها). لذا يصبح لزاماً على واضع المعجم أن يطرح عددا من المقابلات العربية غير منفصلة عن سياقاتها حتى يمكن للمترجم أن يختار من بينها ما يتفق والنص، هذا إذا وجد، (Kussmaul 1995).

قارن بين spreading, dissemination, propagation; grief, sorrow بث

(Wehr)

واقتراحنا التالي.

بث: البد [الإداعي]، البث [التلفـزيوني] : الارســال brnadcast/ telecast.

مث [العرفة] propagtion/ dissemination of knowledge

spreading disorder, the news, rumours [الخبر] و [الاشاعة] spreading disorder, the news, rumours من الاضطراب] الخبر] و الاشاعة]

مث [الأسرار] divulging secrets

يث [الرعب] striking terror into (the hearts of people). إبث [الرعب]

بث: حزن شدید .sorrow, grief, sadness

٨٠٢ - الوحدات متعددة الكلمات

على الرغم من أن المعاجم الثنائية قد اهتمت إلى حد ما- ولاسيما معجمي Wehr والبطبكي-بالوحدات متعددة الكلمات فلا تزال قاصرة في ثلاث خلواهر:

- (أ) المركبات الإضافية (ب) المتلازمات اللفظية
 - (ج) التعبيرات الاصطلاحية

أ - المركبات الإضافية

للركبات الإضافية التي نقصدها هي مجموعات من الكلمات لها شكل ثابت لا يتغير، ومعنى خاص بها، وهذه يجب أن نوليها عناية خاصة.

مثال. بيوت الله - بنت الليل - بنت الشفة- بنات الأفكار- عرق النسا- صاحبة العصمة- عقدة النكاح- حروف العلة.

وتمثل هذه المركبات صعوبة في الترجمة، وذلك لأننا لا يمكننا بحال من الأحوال أن نترجمها ترجمة حرفية. وقد تميزت المعاجم الثنائية الإلكترونية بثرائها في هذه الظاهرة، وحداثة التوثيق فيها، ومنها المعاجم والمترجم وفرانكاين.

ب - المتلازمات اللفظية

في تعريفنا لمسطلح «التلازم اللفظي» في هذا البحث سننهج نهج نهجمعات معجمية لكلمتين أو اكثر (1979), (1986) فنُعرف التلازمات اللفظية بأنها تجمعات معجمية لكلمتين أو اكثر جبرت المعادة على تلازمها وتكرر حدوثها وترابطها دلاليا. وعلى النقيض من التعبيرات الاصطلاحية (idioms) نجد أن كل مكون فيها يستعمل بمعناه غير الاصطلاحي بمعنى أنها شفافة تماماً، وكل مكون من مكوناتها هو مكون دلالي له كيانه ومعناه.

مثال ١- أسماء وصفات وأفعال

جريمة نكراء - حلقة مفرغة - جامعة عريقة (اسم + صفة)

ب) رأس المال - فاتحة الكتاب - رفاق السلاح - صناديق الاقتراع (اسم + اسم)

ج) أحرز نصرا - ساق حجة - بذل جهدا (فعل + اسم)

مثال ٢- الفعل والحال: ارتعد فزعا

مثال ٣- الفعل وحرف الجر والاسم: خفق بشدة

وهذه المتلازمات لاتحدها قيود نحوية ودلالية فحسب، بل قيود قابلية التجمع والاستعمال وخصوصية اللغة واللغة العربية تزخر بالمتلازمات اللفظية في كل أجناسها الكتابية والمحكية، في الفصحى والدارجة، وتمثل هذه المتلازمات عقبة كاداء بالنسبة للمترجم، وذلك لصعوبة توقع أجزائها. فالنطاق المتلازمي للكلمة يختلف باختلاف الحضارات (انظر 1988, 1990) وصدقت (Telia et al 1994 حين تقول: «إن تفضيل تجمع لفظي على آخر ليس أمراً عفوياً عرضيا أو اعتباطياً، لكنه تفضيل له معناه تدفع إليه العقلية القرمية لابناء اللغة الواحدة».

إن ترجمة المتلازمات اللفظية تستغرق من المترجم العربي وقتا طويلاً، وتستنفد جهداً كبيرا حتى يصل إلى المقابل الإنجليزي الصحيح، ولابد أن يتسرب أثر اللغة الأم إلى الترجمة، ولا يمكن بحال من الأحوال أن يكون المترجم هكما على صحة المتلازم الأجنبي الذي يقترحه مقابلاً للمتلازم العربي إن التداخل أو التسرب في الترجمة يحدث لا على مستوى الكلمة، بل على مستوى التلازم اللفظي. وللاسف الشديد أهملت المعاجم الأحادية العربية والثنائية المتلازمات اللفظية (انظر 1993 Hoogland وهليل ١٩٩٧ وتجاربهما على هذه المعاجم).

تتركز أهمية التلازمات اللفظية في كونها الطريقة الطبيعية للتعبير عن معنى معين Heid (1994، ولهذا السنب تتسم النصوص المترجمة التي تحوي متلازمات خاطئة أو تعبيرات تم تأليفها نصوصاً عفير طبيعية، ومن ثم لابد أن يهتم معجمنا المقترح بشكل خاص بالمتلازمات العربية فهي التي تحدد:

مثال: حلقة بحث/ حلقة مفاتيح - seminar/ Key ring

مع الأخذ في الاعتبار أن هناك حدودا لما يمكن لمعجم الترجمة أن يحويه من متلازمات لفظية ونقترح هنا إبراز الملازم في الشقين العربي والإنجليزي من المعجم بوضعه بين أقواس مربعة حتى يرى المترجم أثر التلازم على كل معنى من معاني الكلمة العربية ومقابلها باللغة الانطبزية.

_ عالمالفکر .

مثال: [يعقد] صفقة: strike] a bargain

[تعاطى] المخدرات: [abuse] drug

ج - التعبيرات الإصطلاحية

يشير التعبير الاصطلاحي إلى سلسلة من الكلمات التي تقيدها عوامل دلالية وتراكيبية تجعل منها وحدة واحدة. ومن الناحية الدلالية لايمكن الجمع بين معانى هذه الكلمات منفردة لفهم المعنى الاصطلاحي للتعبير ككل. أما من الناحية التراكيبية، فهذه الكلمات تتسم إلى حد بعيد بالثبات، ولا تسمح بالتنوع والتغير الذي يظهر في سياقات أخرى (Crystal 1985:152) مثال ذلك ضرب به عرض الحائط. والتعبيرات الاصطلاحية أو التعبيرات «المسكوكة» كما يقول الحناش (٢٢:١٩٩٦) تعنى الثبوت أو جمود أحد العناصر في مكانه حيث يستحيل استبداله بعنصار آخر، كما أنها لايمكن استخلاص دلالتها من العناصر المؤلفة لهاء بل بعول في فهمها على تجربة الفرد مع لغته وطريقة توظيف المجتمع لهذه التعابير في مقاماتها المناسبة»، ومن ثم نشأت صعوبة ترجمتها بمقابل اصطلاحي أو غير اصطلاحي إلى الإنجليزية. ويزيد من صعوبة ترجمتها أنها معتمة دلاليا على عكس التمابير اللغوية التي تتميز بالشفافية والظهر اللاتاليفي -non) (compositional) (الحناش، ١٩٩١). أضف إلى ذلك أنها مرتبطة إلى حد بعيد بالحضارة التي نشأت فيها مما يضيف إلى صعوبة نقلها من لغة لأخرى. فقد تتحول العبارة عن معناها الحرفي التي تعنيه عناصرها المغتلفة إلى معنى مختلف كل الاختلاف فيما تشير إليه. مثال ذلك: حس النبض التي يمكن ترجمتها في معناها العادي بـ feel the pulse ، أما في معناها المجازي بمعنى (سيرغور فلان) فنترجمها بـ sound s.body out . ونوصى هذا بالإشارة إلى الاستعمال المجازي لبعض العناصر الداخلة في تركيب التعبير الاصطلاحي أي شرح البنية الداخلية الدلالية للتعبير، وذلك بالإشارة إلى أصل التعبير والقاء الضوء على مرجعيته الحضارية:

مثال: رجع بخُقي حُنَين/ طاهر الذيل/ قلب ظهر المِجَنُّ (للمزيد انظر أبو سعد ١٩٨٧) وصيني وآخرون ١٩٩٦)

ونقترح هنا الشكل التالي في الشق العربي للتعبير الاصطلاحي:

مثال\: شَرُوَى نقَير الشرُوَى: المثل

النقير: الشق الذي في نواة الثمرة

التعبير كناية عن القِلَّة

مثال؟: قُلُب له ظُهْرَ الْحِرُن: الْيُحِنُّ: الترس

عاداه بعد مودة

ويزيد من أهمية التعبيرات الاصطلاحية كثرة وروبها في اللغة المحكية والمكتوبة فهي تكون دمالا يقل عن ٤٠/ من الرصيد اللغوي المخزن في كفاية المتكلم العربي ذي التكوين الثقافي المتقدم (الحناش، ١٩٩٦).

كل هذه التجمعات التي تتآلف من اكثر من كلمة بشتى أنواعها من مركبات إضافية ومتلازمات وتعبيرات اصطلاحية استمدت وجودها من الحضارة والبيئة العربية الإسلامية، ولاتزال هية نستعملها حتى يومنا هذا، ولايد أن ينعكس هذا الواقع في معجم أعد خصيصاً للترجمة.

٣- خلاصة

ينبني معجمنا المقترح على محورين أساسيين:

١- الترجمة الناجحة تعتمد اعتمادا كبيرا على فهم النص الذي نقوم بترجمته من اللغة العربية، ووسائلنا المعجمية في ذلك تنحصر في اللجوء إلى ما من شأته أن يساعد على دقة الفهم من شرح معنى الجذر الذي يدور حوله المعنى العام، والتعريف الدقيق الشامل الواضح، والاعتماد أساساً على كلمات أو تعبيرات تعيش في سياقها لا كلمات مجردة من السياق.

٢- إن فكرة القابل تنبع من فكرة ضبيةة عن التكافؤ اللغوي والمعجمي لأن واقع الحال يضحد الفكرة. فليس ثمة تقابل بين كلمات اللغة التي نترجم منها واللغة التي نترجم إليها. من ثم فالمعجم المقترح لايطمح في تزويد المستعمل بالمقابل اللغوي، ولكنه يزوده بالمقابل النصبي لأن معنى الكلمة أو التعبير لا ينفصم عن السياق، بل هو رهين به.

لن يكون معجم الترجمة المقترح مرجعا للمقابلات الجاهزة الاستعمال كما توسي به المعاجم الثنائية المتاحة، بل إنه يساعد المترجم أو يحفزه على إيجاد المقابل المناسب ولكن بعد مقارنة سياق بسياق لا كلمة بأخرى.

المراجع

أ- المراجع العربية

- العناش، محمد (۱۹۹۱) ملاحظات حول التماييز للمكركة في اللغة المربية» (مخطوطة) (۱۹۹۹) مللماجم وبنوك الصطلعات الصاسديية؛ وقائم معاضرات ندوة العربيب والحاسريب (۱۹۰۹) ديسمبر ۱۹۹۱)، الهممية الطمية السورية المطوباتية ويميّة المواصفات والمقايس العربية السورية مدشق
 - خليل، علمي (١٩٩٧) مقدمة لدراسة التراث العجمي العربي بيروت. دار النهضة العربية
- هليل، مهمد علمي (١٩٩٧) «الاسس النظرية لوضع معجم المتلازمات اللفظية العربية» ورقة قدمت إلى ندوة المعجمية الدولية
 الرامعة حول اسس للمجم النظرية، تونس (٢-٥ مابو ١٩٩٧)

ب- المراجع الأجنبية

- Assenstadt, E.E. (1979). "Collicability Restrictions in Dictionaries" in R.R.K. Hartmann, (ed.) Dictionaries and their Users, 71-75. Exeter: University of Exeter.
- Benson, M. (1985). "Collocations and Idioms". In R. Ilson (ed.), Dictionaries, Lexicography and Language Learning.
 ELT Documents, 61-68. London: British Council
- Cruse, D.A. (1986) Lexical Semantics. Cambridge. Cambridge University Press.
- Crystal, D. (1985) A Dictionary of Linguistics and Phonetics London: Basil Blackwell
- Hartmann, R.R.K. (1989). "Lexicography, Translation and the So-called Language Barner". In Mary Snell-Homby,
 E. Pohl and B. Bennani (eds.) Translation and Lexicography. London: EURALEX.
- Heid, U. (1994) "On Ways Words Work Together Topics in Lexical Combinatorics". In EURALEX 1994
 Proceedings. The Netherlands: Amsterdam
- Heliel, M. H. (1988). "The BBI Combinatory Dictionary and Arabic English Translation". EURALEX Bulletin 5 (1)
 6-8.
- (1990) "Lexical Collocations, and Translation". In M. Thelen and B. Lewandowska-Tomasczyk (eds.).
 Translation and Meaning (Partl), 129-139. Maastricht: Euroterm.
- Hoogland, J. (1993) "Collocation in Arabic (MSA) and the Treatment of Collocations in Arabic Dictionaries". The Arabist Budapest Studies in Arabic 6-7: 75-93.
- Jackson, H (1988) Words and Their Meaning. London: Longman.
- Kernerman Dictionary News. No. 5, July 1997.
- Kussmaul, P (1995) Training the Translator. Amsterdam: John Benjamins
- Manning,A. (1990) "The role of Dictionaries and Context in the Translation Process, the Canadian Connection". In M.
 Thelen and B. Lewandowska-Tomasczyk (eds.) Translation and Meaning (Part I). 159-166. Maasuricht: Euroterm.
- Minaeva, L. (1992) "Dictionary Examples: Friends or Foes?" In EURALEX '92 Proceedings, part 1, Tampere: Department of Translation Studies.
- Rubiseva, N. (1996) "Linguistic Competence and Translation in Cross-Cultural Applied Perspectives" A paper presented at the Second International Conference on Current Trends in Studies of Translation and Interpreting, 5-7 September, 1996, Budapest, Hungary.
- Stein, G (1979) "The Best of British and American Lexicography" Dictionaries 1:1-23
- Telia, V et al (1994) "Lexical Collocations: Denominative and Cognitive Aspects" In EURALEX 1994 Proceedings.
 The Netherlands: Amsterdam.
- Walter, E. (1992) "Semantic Set-defining: Benefits to the Lexicographer and the User" In EURALEX' Proceedings, part! Tampere: Department of Translation Studies.
- Zgusta, L. (1971) Manual of Lexicography. The hague: morton.

٣- معاجم أشير إليها في البحث

أ– عرمية:

- ابن فارس، أبو الحسين حمد بن زكريا معجم القابيس في اللغة

تحقيق شهاب الدين أبو عمر. بيروت دار الفكر (١٩٩٤)

أس سعد أحمد (۱۹۸۷) مجوم التراكيب والعبارات الاصطلاحية العربية القديم منها والمولد بيروت دار العام للملايين
 صعبي، محمود اسماعيل وأخرون (۱۹۹۱) للعجم السياقي التعبيرات الاصطلاحية (عربي - عربي) بيروت مكتبة لدنان

ب- إنجليزية:

Collis COBUILD English Dictionary. New Edition (1995). London: Collins,

هـ- عربية - إنجليزية:

-إلياس، إلياس انطون (١٩٢٧) القاموس العصري عربي - إنجليلزي القاهرة المطيمة العصرية -البطلبكي، روحي (١٩٨٨) المورد قاموس عوبي-إنجليزي بهروت دار العلم للملايين

- مجاني الجيب معجم عربي - إنجليزي (١٩٩٥) بيروت. دار المجاني

- Wartabet, W.T.et al. (1888) Arabic-English Dictionary Cairo: Muqtataf Press.
- Salmone, H.A. (1890) An Arabic-English Dictionary on a New System. London: Trubner. 2 vols.
- Wehr, Hans (1961) A Dictionary of Modern Written Arabic, ed. (and tr, from German) by J. Milton Cowan, Ithaca, N.Y.: Cornell University Press.

د- معاجم فرنسية - إنجليزية، وانجليزية - فرنسية:

Robert & Collins Dictionary English - French, French -English Dictionary (1987), second edition. Eds. B.T. Atkins, et al London, Glasgow: Collins

ه- معاجم إنجليزية- المانية:

The Collins-Kiett English-German Dictionary. (1983) Eds. R. Breit & P. Terrell London & Glasgow. Collins

و- معاجم إلكترونية.

المعاجم القاموس الناطق ٢٠٠٠ - TEA صنع شركة راما انترناشونال المصدودة، تايوان (عربي - إنجليزي - عربي) المترجم الناطق (عربي - إنجليزي - فرنسمي) قاموس اكسفورد الناطق باللغة الإنجليزية الناطقين بالعربية (فرانكية) (عربي - إنجليدي - عربي)

ز- معاجم عربية - فرنسية:

Mounged Classique Arabic-Francais. Beirut, 1980. As-Sabil, Dictionaire Arabe - Francais. Reig, D. Larousse, 1983

معاجم عربية- روسدا:
 تأموس عربي- روسي مدرسي شريا توف، غريفوري، بيروت شركة الطبرعات للترزيم والنشر، ۱۹۹۳

ط- معاهم إنجليزية- عربية:

Harrap's English Dictionary for Speakers of Arabic (1987) Toronto Kernerman



العولمة: الآثار البشرية

تألیف: زایجمونت باومن مرض وتحویم: د. تغیقهٔ بستکی

Globalization The Human Consequences by Zygmunt Bauman (Cambridge: Polity Press 1998)

يتضمن الكتاب خمسة فصبول بالإضافية إلى مقدمة، ويقع في المراد عنه الكتاب خمسة في المراد المرد المراد المراد المرد المراد ا

عرض الكتاب

يهدف الكتاب إلى التحذير من الماسي البشرية المترتبة على العولمة، ومن ثم التعرض للعوامل الاجتماعية السلبية التي تفرز، في مقابل ظاهرة العولمة، ظاهرة الانكماش المحلى الرافض لكل ما تقدمه العولمة

^{*} عرض وتقويم. د. شفيقة بستكي - قسم الفلسفة جامعة الكويت .

من معالم الاختزال الزماني والمكاني. فإذا اتفقنا مع افتراض المؤلف في ان الاختزال في بعديه الزمني والمكاني يختصر تحولا متعدد الوجوم لمؤشرات الوضع البشري. وإذا تفحصنا الأسباب الاجتماعية للاختزال والنتائج المترتبة عليه، تبين مدى افتقار مسيرة العولمة إلى الوحدة المُفترضة في الآثار. فالعولمة في رأى المؤلف تفرق بقدر ما توحد، إنها تفرق عندما توحد. اسباب الفرقة هي ذاتها الاسباب التي تعزز التماثل العالمي، فإلى جانب المسار العالمي المنبثق من مجالات إدارة الأعما ل والمال والتجارة والمعلومات، ثمة مسيرة محلية تعزز المكان. وبين المسارين وبهما تتحدد الشروط الوجودية لمجموعات سكانية متكاملة، والفئات العديدة ضمن كل مجموعة. فما يبدو عولمة عند البعض، يعنى المحلية عند البعض الآخر، ومؤشر الحرية الجديد عند البعض، ينزل قدرا محتوما قاسيا على البعض الأخر. القدرة على الحركة ترقى إلى أعلى المستويات في سلم القيم. حرية الحركة، وهي بضاعة نادرة ومرغوبة، وغير متساوية التوزيع في العالم الجديد، تصبح العامل المؤثر في التدرج الاجتماعي. (ص٢). فالمحلية علامة على البعوز والانحطاط الاجتماعي في العالم الجديد. وذلك لأن الحياة المحلية تفقد القدرة على إعطاء المعنى والتفاوض عليه، وتصبح معتمدة على سلوكيات لا تحكمها مبددة بذلك أحلام مثقفى العولمة في التكامل العالمي بين البشر. إن ما يثيرالقلق أن الفجوة الاجتماعية في الاتصال والأخذة في الاتساع بين النخبة العالمية والبقية المطلية جزء لا يتجزأ من مسيرة العولمة.

يتناول الفصل الأول، وهو بعنوان (الزمن والطبقة)، الارتباط بين الطبيعة المتغيرة تاريخيا للزمن والمكان من جهة، ونمط التنظيم الاجتماعي وتوازنه من جهة آخرى. ويبحث بشكل خاص في الآثار المقترنة بالاختزال الزمني/الكاني على تنظيم الجتمعات والمجموعات وبنيتها. فمن أهم هذه الآثار الشكل الجديد لغياب الإقطاعية حيث تتحرر النخبة من السلطة الثقافية والسياسية للوحدات المحلية، وتفقد الوحدات المحلية نفوذها. وتتمثل أسباب هذا الانفصال بين القمة والقاع في التنظيم المغير للمكان والمغنى المتغير للسمة المحلية في المدينة المعاصرة.

يبدأ الفصل الأول بمقولة مشهورة لألبرت دنلب مفادها أن الشركة تنتمي إلى المستثمرين فيها، لا إلى العاملين ولا إلى الموردين، ولا إلى الحل الذي تقع فيه، هذه المقدمة الاساسية تعتبر المستثمر هو صانع القوار الذي له الحق في نبذ المصادرات التي قد يعمل في ظلها موظفو الشركة والمتعاملون معها، فالمستثمر هو صانع القرار الحقيقي الذي يحل ويربط ويمنح ويمنع مايشاء بغض النظر عما يراه العاملون والموردون والمدراء من الجماعة. لقد أصبحت هذه المقولة من الحقائق التي لاشك فيها، والتي تفسر العالم دون أن تكون بحاجة إلى تفسير.

القضية الثانية التي تستعمل في إثبات جوهر مسالة الفصل الأول أن الحراك المستمر أصبح أهم عامل استراتيجي في بناء الطبقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية وإعادة بنائها. هذه المقدمة الثانية تبين أن قابلية الانتقال أصبحت هي المادة المحركة لبناء المراتب والطبقات الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية. لقد اكتسب المستثمر بفعل القدرة على الحركة والتنقل بين الاسواق العالمية حرية، منقطعة النظير، من الواجبات الاجتماعية نحو المساهمة في الحياة اليومية واستمرار حياة الجماعة.

ومن هاتين المقولتين نحصل على حقيقة ثالثة وهي أن حرية الحركة التي حصل عليها المستثمر
تعني التحرر غير المنظور وغير المشروط من الواجبات والسؤوليات المترتبة على قراراته. وهذه اهم
جائزة يحصل عليها رأس المال الحر غير المقيد محليا من قابلية الحركة. الحرية الجديدة لرأس
المال تعيد إلى الذاكرة حرية الإقطاعي الغائب في إهمال حاجات الفلاحين العاملين على توفير
القوت لهم. بيد أن الحرية الجديدة المتمثلة في حركة رأس المال السائل لا تواجه الموانع الحقيقية
الثابئة التي تفرض الالتزام.

إن تجربة النخبة في السلطة غير المرتبطة بمحل ما تثير الرهبة، وتجمع بين الأثيرية والقدرة المطلقة من جهة، واللامادية والقدرة على تكوين الواقع من جهة أخرى. ويتمثل ذلك في عالم الفضاء الإلكتروني. (ص ٢-٢١).

_ عالمالفکر _

يتناول الفصل الثاني وهو بعنوان (حروب المكان) المراحل المتعاقبة للحروب الحديثة التي قامت لتأمين الحق في تحديد معنى المكان المشترك وتعزيزه، وفي ضوء هذه الفكرة، تحلل المغامرات الماضية في التخطيط الشامل للقرية، والتوجهات المعاصرة في التصميم الجزئي، والبناء من أجل تحقيق العزلة، وأخيرا يفحص المصير التاريخي الذي ألت إليه ظاهرة (مراقبة الكل) البانابتكون، وهي النمط الحديث المفضل للسيطرة الاجتماعية وخصوصا وضعها الحالي المهمل ونهايتها المتدرجة.

بيدا الفصل الثاني بمقولة إن البدن البشري كان منذ الأزل مقياسا لكل شيء، ثم يحدد هدف حرب المكان بتسخير المكان الاجتماعي لخريطة معتمدة ومدعومة من قبل الدولة، وهي مهمة موازية لرفض كل مجهود منافس اخر لتأويل المكان، ومن ثم تقويض المؤسسات التي تعمل على رسم المخرائط إن لم تكن ماذونة من الدولة أو مدعومة منها أو مرخصة منها. إن دراسة الملاقة بين المكان والخريطة تعكس علاقة غير متماثلة بين الاثنين لقد كانت الخريطة في الماضي تسجل تضاريس المحل وتعكسه. أما الآن فقد جاء دور المحل ليكون انعكاسا للخريطة، وليرتفع إلى صف الشفافية المنظمة التي تسعى الخريطة إلى تحقيقها. لقد تشكل المكان وفقا لقرار راسم الخريطة، وليس العكس كما كان الحال في الماضي. إن العمل بمبدأي الانتظام والاطراد في تخطيط المدن يكرس المصادرة بالتسخير العملي للحلول الهندسية والسكانية لحاجات المدينة – ككل – دون اعتبار للفروقات التي تفصل الاسر القاطنة أو الجماعات والطبقات الاجتماعية فيها.

إن الالتزام بمبداي الانتظام والاطراد في وضع الخرائط، ومن ثم في تنظيم المكان، آدى إلى المبدث بحياة الناس الحقيقيين من أجل تحقيق خطة مجردة للنمو والتجديد. ولاشك في أن الاطراد يفرز الطاعة، وعدم التسامح هو الوجه الآخر للطاعة، ففي المحل المتجانس يصعب اكتساب خصال الشخصية والمهارات اللازمة للتعامل مع الاختلاف بين البشر والظروف المتقلبة، وفي حال غياب هذه المهارات يستسهل الخوف من الغير لأنه غير مفهوم وغير متوقع، ومن هنا ينشأ الخوف من الغير، وتنشأ الحاوة وحراسها بينشأ الخوف من الغير، وتنشأ الحاجة إلى مراقبة الغير، عندما يقوم ممثلو الدولة وحراسها بمراقبة الجميح، وهي الظاهرة التي يطلق عليها اسم البانابتكون Panopticon أو مراقبة الكل. وولية أورويل (الف وقد شاعت الإشارة إلى هذه الظاهرة في روايات عديدة منها على سبيل المثال: رواية أورويل (الف وتسعمائة وثمانون واربعة) حيد يمثلك كل شخص جهازا تلفزيونيا خاصا به، ولكن لا يسمح له

بإغلاقه، ولا يتمكن الشخص من معرفة اللحظة التي يستعمل فيها الجهاز كالة تصدير من قبل القائمين على البث. ظاهرة مراقبة الكل تتحول إلى ظاهرة مراقبة القلة أي السيناويتكون -Syn القائمين على البث. ظاهرة مراقبة القلة أي السيناويتكون pticon في عصر العولة. والمراقبون (بفتح القاف) في هذا العصر هم (المشهورون) النخبة الذين ينتمون إلى العولة. ويتحقق ذلك عن طريق متابعة مشاهدتهم على شاشات التلفزيون والإنترنيت. وهكذا يتقابل على الرغم من انفصالهم وافتراقهم المحليون المشاهدون (بكسر الهاء) والعالميون المشاهدون (بغتح الهاء)، وذلك عبر أجهزة وسائل الإعلام في الفضاء (ص ٢٥-١٤٥).

يتناول الفصل الثالث وهو بعنوان (ماذا بعد الدولة الوطنية؟) مستقبل السيادة السياسية للمجتمعات المطية، وخصوصا حكمها الذاتي، ويستورها الذاتي في ظل ظروف العولة في الاقتصاد والمال والمعلومات. فالملاحظ اتساع الهوة بين مؤسسات اتخاذ القرار ومراكزه من جهة، والعالم الذي تنتج فيه المصادر الضرورية وتُوزع وتُمثلك وتُنشر، مما ينعكس سلبا على قدرة الحكومات المطية في إدارة المجتمع، واتخاذ القرار وتطبيقه.

يبدأ الفصل الثالث مكذا: «في الجيل الماضي، كانت السياسة الاجتماعية مبنية على الاعتقاد بأن الأمة ومن ضمنها الدينة قادرة على التحكم بمقاديرها، أما الآن، فثمة شق فاصل بين الامة ومن ضمنها الدينة قادرة على التحكم بمقاديرها، أما الآن، فثمة شق فاصل بين السياسة والاقتصاد» (ص ٥٥). لقد كان العالم مقسما بين كتلتين قادرتين على تحديد النظام العلمي للأشياء من خلال تزويد كل جزء منهما مهما تناهى في الصغر بدوره المقدر المهم ضمن المجموعة الكبرى. لقد كان العالم كلاً، فلكل جزء أهميته الخاصة. أما الآن فلا سيطرة لأحد على قدراته، بل لا يمكن تحديد معنى التحكم والسيطرة في ظل الظروف الجديدة. في هذا الفصل أيضا يتم تحديد المعنى العميق للعولة وهو: السمة غير المحددة وغير المحكمة والمدفوعة ذاتيا لشؤون العالم، ويعبارة أخرى، العولة تعني غياب المركز وغياب مكتب التحكم وغياب مجلس الإدارة. العولة تعني الفوضى العالمية الجديدة. هذا التصور للعولة يختلف اختلافا مطلقا عن تصور الكوننة. في التصور الأخير، نلمس الأمل، والنية، والتصميم على جعل النظام كليا عالمي المدى بالفعل. فتصور الكوننة يتضمن النية في تحسين ظروف المعيشة لكل البشر في كل مكان، وربعا المساواة المطلقة فيما بينهم. أما تصور «العولة» فيشير إلى الآثار العالمية غير المتوقعة، وبالتالي تنفي المبادرة العالمية وفعاليتها. فكرة العولة تشير إلى القوى المجهولة التي تقم خارج حدود السيطرة.

في هذا العالم الجديد يصعب الحفاظ على التمييز بين السوق المحلى والعالمي، بل بين الداخل والخارج بالنسبة للدولة إلا بالمعنى المختص بالبلدية والشرطة المستخدمة في مراقبة السكان. فالنظام العالمي الجديد يحتاج إلى المحافظة على الدول الضعيفة التي تقوم بدور الشرطة المحلية لتيسير عمل المؤسسات التجارية العالمية دون أن تخشى عرقلة حرية الشركات العالمية. ومن المباديء التي يستخدمها المؤلف في تأكيد تصوره السلبي للعولة، البدأ البيروقراطي الداعي إلى أن كل سيطرة تتضمن استراتيجية واحدة: احفظ أكبر قدر ممكن لحرية الحاكم، وافرض أكبر قدر من القسر على حرية قرار الحكوم. لقد طبقت هذه الاستراتيجية بنجاح من قبل حكومات الدول التي تجد نفسها الآن في مكان المحكوم. وبهذه الاستراتيجية يتحالف التجزيء السياسي مع العولمة الاقتصادية. فالعالم يشهد اليوم ترتيبا طبقيا جديدا للتدرج الاجتماعي والثقافي على المستوى العالمي وهكذا يتم اختيار مستخدمي الشبكة العالمية للمعلومات التي تعتبر بوابة الحرية ومبدأ المساواة القادمة، ويقل روادها خصوصا في العالم الثالث. فالعولة مفارقة. إنها مفيدة جدا للأقلية، بينما تهمل ثلثي سكان العالم. إن الثروة الجديدة بدأت أخيرا في التحرر من معوقاتها الأبدية المتمثلة في المواد المصنعة وخلق الوظائف وإدارة الناس. الأغنياء الجدد ليسوا بحاجة إلى الفقراء. وتساهم وسائل الإعلام في تعزيز صورة العولة المعنية بمعاناة الفقراء والمحتاجين. فتقام الحفلات الخيرية، وتبرز صور المساعدات التي تقدمها الدول الغنية في الأزمات والمجاعات والكوارث الطبيعية هذه المظاهر تساهم في تحصين الذات العالمية بحزام واق ضد الشعور بتأنيب الضمير فينام النظام العالمي قرير العين بأنه ساهم في رفع المعاناة عن الجياع والمساكين! (ص (V7-00

يرصد الفصل الرابع وهو بعنوان (السواح والمشريون) العواقب الثقافية للتحولات السياسية والاقتصادية السابقة. ويفترض أن التأثير العام هو التشعب والاستقطاب في التجرية البشرية مع رموزها الثقافية المشتركة التي تخدم تفسيرين متمايزين تماما. فلقابلية الحركة المستمرة معنيان متعارضان تماما للقمة والقاع، بينما يتأرجع الباقي في الوسط بين الطرفين متحملا بذلك نتأثج هذا الصراع ومعاناة القلق والخوف والتنبذب. ومن القضايا التي يؤكدها هذا الفصل أن محاولات تخفيف المعانلة وتحييد عدم الرضا عامل قوي بدوره في تقسيم معنيي القابلية للحركة.

يرصد المؤلف في الفصل الرابع حالة التنقل التي تكتنف حياة المرء في عصر العولة. والتنقل ليس بالضرورة في المكان، فمن المكن أن تنتقل على شبكة المعلومات من موقع إلى أخر دون أن تتحرك من مكانك. المرء يعيش في دائرة غريبة مركزها في كل مكان ومحيطها خارج المكان. إن فكرة السكون تفهم فقط في عالم يبقى ثابتا، صلب الجدران، ومتماسك الطرق، ومحدد العلامات.

ويتمثل التنقل أكثر ما يتمثل في مجال الاقتصاد، حيث بأخذ الإنتاج شكل السراب الضياس المتغير والمتذبذب. فقد تقلصت الخدمات والمنتجات كمّاً وكيفا لصالح ما هومؤقت ويعتمد على الدوام الجزئي المرن. فالصناعة تكرس في إنتاج ما يغرى ويجذب باستعمال مبدأ «استبعاد الانتظار من الرغبة لاستبعاد الرغبة من الانتظار»، وذلك في إطار مجتمع استهلاكي يعتبر القيام بدور المستهلك فيه واجبا أساسيا لأعضائه. إن التنقل في مجتمع الاستهلاك بحثا وتنقيبا عن البضائع الاستهلاكية غير المتوفرة ليس مرضا، لا شفاء منه، يصيب المستهلك، بل هو الإحساس الواعد بالنشوة بعينها. فالرغبة لاترغب الإشباع، بل ترغب الرغبة ذاتها. إن حالة التنقل المتواترة تفرز تجربتين لأعضاء مجتمع الاستهلاك. التجرية الأولى هي تجرية السائح المتجول الذي يضع الحنين إلى الوطن فوق أسباب الراحة في الوطن لأنه يريد ذلك إما لأن التجول أفضل استراتيجية متاحة له في الحياة الآن، وإما لأنه لم يقاوم جاذبية حياة جامع اللذات الحقيقية أو الخيالية. التجرية الثانية هي تجرية المشرد الذي يتجول لأنه دفع من الخلف بعد أن تم تجريده من الارتباط الروحي بالمكان الذي لم يعد واعدا له بشيء فالسائح يبقى في حالة التجول والتنقل لأنه يرغب في ذلك، أما المشرد فهو على علم بأنه غير باق في المكان ذاته لفترة طويلة، مهما رغب في ذلك، لأنه لايلقى الترجاب في أي مكان السائح يتنقل لأنه يجد العالم جذابا فيقبل عليه، أما المشرد فإنه يتنقل لأنه يجد العالم المحلى معاديا لا يحتمل. السائح يسافر لأنه يريد ذلك، والشرد يسافر لأن الخيار الأخر لا بطاق.

العولة مسخرة لتحقيق أحلام السواح ورغباتهم والتأثير الجانبي الثاني المحتوم هو تحويل الأخرين إلى مشردين. المشرد هو المسافر الذي حرّم عليه مكانة السائح، كما حرّم عليه البقاء في مكانه أو البحث عن مكان أفضل. والنتيجة هي الضوء الأخضر للسائح والضوء الأحمر المشرد. المشرد هو الأنا الآخر للسائح. المشرد هو المعجب الأكبر بالسائح، ففي عالم اللاسكون تكون السياحة هي الشكل البشري الوحيد لللاسكون. لقد تحول السائح إلى مستهلك، والمشرد إلى مستهلك، ولمشرد إلى مستهلك، ولمشرد إلى في ذيادة الثروة، لأن الاقتصاد تحول إلى اقتصاد سياحي.

إن عصر الاختزال الزماني والمكاني هو أيضا عصر السقوط التام للاتصال بين النخبة المتعلمة والعامة. فليس لدى الفئة الأولى، وهي المُحْدِثة من دون حداثة، من شيء تخاطب به الفئة الأخرى. فلا تفاعل في ذهن الفئة الأولى كصدى لتجربة الفئة الثانية وتوقعاتها. (ص ٧٧-٧٠).

في الفصل الخامس وهو بعنوان (القانون العالمي والنظم المحلية)، تحدد فكرة المرونة باعتبارها مثل القيم الأولية العليا التي تخفى العلاقة الاجتماعية فالمرونة تتطلب إعادة توزيع السلطة، وتستلزم مصادرة سلطة المقاومة عند المتصلبين المطلوب هزيمتهم تتظاهر المرونة بأنها المبدأ الكلي للعقلانية الاقتصادية الذي يقبل التطبيق بنسبة متساوية على جانبي العرض والطلب في سوق العمل إن ذاتية الحد تخفى جوهرها المختلف على طرفى التقسيم فالمرونة في طرف الطلب تعني حرية الحركة إلى مواقع أفضل، وترك النفايات والفضلات في الخلف لكي تنظف وتعقم من قبل المطيين. المرونة تعنى التملص من كل اعتبار إلا ما يكون اقتصادى المعنى. أما معنى المرونة على طرف العرض فهو أن يكون عرض العمل متصلبا غير مرن، وذلك بالحد من حرية الاختيار بالقبول أو الرفض، وانعدام فرض القواعد الخاصة بالعمل. فعندما نضع اختيار المستثمر في إطاره العالمي في مقابل الحدود المحلية المفروضة على خيار عارض العمل، يتبين عدم التماثل بين الاثنين مما يؤكد سيطرة الأول على الثاني. لقد بيّن المؤلف في كتابه ما بعد الحداثة والاستياء منها (١٩٩٧) أن عالم النفس الشهير فرويد، سواء كان على صواب أم خطأ، اعتبر المتاعب النفسية وآلامها في عصر الحضارة الحديثة نتيجة لمبادلة جزء كبير من الحرية الشخصية في سبيل تحقيق الأمن المضمون جماعيا. أما اليوم في مرحلة ما بعد الحداثة فإن الاتجاه المعاكس هو السائد إن النزعة في مبادلة قدر كبير من الأمن في مقابل إزالة المعوقات التي تحول دون ممارسة الاختيار الحرهي التي تولد الشاعر السائدة من القلق والخوف. ولفهم تحول القلق هذا، ينبغي أن يوحد ما فرقته اللغة بين كلمات الأمن والأمان والثقة في تجرية واحدة وهي تجرية الطمأنينة.

إن وجود اليرم ممتد عبر العالمي والمحلي حيث الحرية العالمية في الحركة ترمز إلى الترقية الاجتماعية، والنجاح والتقدم، وحيث السكون يرمز إلى الهزيمة والحياة الفاشلة والتخلف إلى الوراء. فالحرية تعني قبل كل شيء حرية الاختيار، والاختيار اكتسب بشكل ملفت للنظر بعدا مكانيا. ففي زمن الاختزال الزماني/المكاني، ثمة مشاعر لم تجرب من قبل تدعو من بعيد إلى ازدياد الاستمتاع بالوطن في تجرية الشوق إليه من بعيد.

لقد قبل إن النظام الجزائي يضرب قاع المجتمع لا قمته. وفي محاولة علماء الاجتماع تفسير هذه الحقيقة تُرصد اسباب عدة تتكرر مناقشتها. السبب الأول هو النوايا المختارة للمشرع المعني بالمحافظة على نوع من النظام. فالأفعال التي يرتكبها المسحوقون هي التي نظهر في نصوص قانون العقوبات. أما سرقة ثروات الأمم، وسرقة الأسر من أسباب أرزاقها فلا تدخل ضمن قائمة الأنعال التي يعاقب عليها القانون. السبب الثاني هو صعوبة سير أغوار الجرائم التي يرتكبها الكبار في القمة، وبالتالي صعوبة تفريقها عن الأعمال اليومية للشركات والمؤسسات. السبب الثالث هو أن عزيمة العامة في ملاحقة الجرائم العليا متذبذبة ومؤقنة وأحيانا غير موجودة. أما الثالث هو أن عزيمة العرائم العليا تنم، في التحليل الأخير، عن القلق الوجودي الذي يعاني منه مجتمع ما بعد الحداثة. وأخيرا فهناك الميزة الكبيرة التي تطيعها النخبة عندما تواجه القائمين على النظام: القوانين محلية، أما قوانين السوق الحرة التي تطيعها النخبة فهي عبر المطيات. هذه الاسباب مجتمعة تؤدي إلى نتيجة مشتركة وهي تجريم الفقر وتحديد الجريمة بالفقراء المطيين، فمصادر محلية.

إن رفض الرافضين يؤدي إلى تعزيز تحول المحل إلى قلعة حصينة، فكلتا المهمتين تعزز الأخرى، وتؤكدان فيما بينهما أن الانحلال والاغتراب في القاع شقيقان توامان للعولمة في القمة. (ص ١٠٠-١٣٧).

مناقشة نقدية

الانطباع العام الذي يخرج به قارى، هذا الكتاب هو أن العولة شر مستطير في تأثيره على عامة البشر، وأن الغير كله يأتي بمحاربة هذه الغوضى التي تبثها في أرجاء المعمورة قلة نخبوية غير مسؤولة دون وازع من ضمير. فالآثار البشرية التي تنشأ عن العولة تكرس الاتقسام والاستغلال والتسلط والسخرة والقلق والتذبذب وعدم التسامح والتشرد والضياع. فالعولة في اثارها البشرية انقلاب شامل على القيم، وانحسار مطلق للمثل العليا، وتكريس متشعب للوضيع والحقير في نفوس البشر. يرصد هذا الكتاب الآثار السلبية فحسب، ويتنكر تماما لاي آثر إيجابي على مجموع البشر. فالكتاب الذي بين أبينا كتاب ناقص لا يغي الموضوع حقه من رصد لظاهرة العولة بمنهج علمي مجايد يتناول النتائج على البشر كافة دون تحيز أو محاباة للظواهر المؤيدة العولة بمنهج علمي مجايد يتناول النتائج على البشر كافة دون تحيز أو محاباة للظواهر المؤيدة

للفرض المطلوب اثناته على حسباب الظاهر ، المغندة للفرض المطلوب اثباته. ومِن ثم فالحاجة ماسة إلى كتاب أخر يستكمل ما قام به هذا الكتاب فيرصد الآثار الإيجابية للعولة على حياة البشر إن الكتاب الآخر الذي نقترح على المؤلف كتابته، وبالتالي استكمال كتابه عن العولمة سيكون قادرا على تفسير أهم مفارقة كان ينبغي تحليلها، وتفسير عدم توقعها من قبل علماء الاجتماع والاقتصاد والسياسة الذين ينتمي إليهم مؤلف الكتاب وهذه المفارقة: هي أن العولمة التي أنجبتها الرأسمالية في نهاية القرن العشرين هي القائمة على تحقيق أحلام الشيوعيين في وحدة البشر، وتحرير الحصول على المعرفة من الارتباط بالمقدرة المالية. المعرفة بفضل العولة متاحة بالتساوي للجميع فلا فرق بين الفقير والغني، ولا العالمي والمحلى، ولا الشمالي والجنوبي، ولا الشرقي والغربى لقد طمست هذه الحقيقة اللامعة من مظاهر العولة وهي في رأبي جوهر مسيرة العولة وماهيتها. فإن لم يكن للعولمة إيجابيات أخرى لكفي بها تحرير العقل البشري من حدود الزمان والمكان لينهل ما يشاء من المعرفة التي يساهم في خلقها البشير في كل مكان وزمان. فطالب الدرسة في اقاصي الأرض قادر على الاتصال بمكتبة الكونجرس الأمريكي (أكبر مكتبة في العالم) للحصول على ما يشاء من المعرفة بغض النظر عن مكانته الاجتماعية والطبقية والثقافية. فمن أهم عنوب هذا الكتاب أنه يتجاهل رصد الآثار العلمية للعولة على الرغم من زعمه أنه يتناول الأثار على البشر. والأن من العموميات إلى تحليل المقدمات التي يفترضها الكتاب في فصوله الخمسة وصبولا إلى النتائج التي تسجل عيوبا في العولة.

يفترض المزلف في الفصل الأول ظهور طبقتين متنافرتين تحددان المراتب الجديدة في بناء الطبقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية، وهما طبقتا المستثمر والعامة من البشر، بما في ذلك العمال في المصانع والفلاحون في المزارع والمدراء والموردون في الشركات. ولما كان الاستثمار حرا في الانتقال من مكان إلى آخر فهو غير ملزوم بأي واجبات اجتماعية نحو المساهمة في الحياة اليومية واستمرار حياة الجماعة. وثمة خطأن منطقيان في هذا القياس: الأول هو اعتبار الفنتين متنافرتين، والثاني هو أن الحرية في تنقل الاستثمار هي تحرر من القيود والواجبات الاجتماعية نحو استمرار الجماعة.

إن فئة المستثمر في عالم اليوم لا تشكل طبقة اجتماعية سياسية ثقافية اقتصادية متجانسة السمات منافرة لفئة العامة، بل هي فئة متغيرة العناصر والسمات. ولذلك لا تتحقق فيها شروط الهوية التي تحدد سماتها. فالشخص المستثمر اليوم قد لا يكون كذلك في الغد. ومن ينتمي إلى فئة المستثمرين قد ينتمي في الوقت نفسه إلى فئة العامة بمعنى أنه ربما كان عاملا في مصنع أو فلاحا في مزرعة أو معلما في مدرسة

ومن جهة أخرى فإن اللزوم بين حرية الحركة في الاستثمار والتعلص من الواجبات الاجتماعية ليس تطيليا ولم يبرهن عليه إن الحديث عن حرية المستثمر في تحريك استثماراته من مكان إلى أخرى الايعني على الإطلاق الحرية من القيود التي تُفرض في المكان الذي يتعامل معه ولا القيود التي تفرضها التنظيمات العالمية لتأميز التعامل المنصف. فالقيود الضريبية والتعامل مع المطليين في أسواق المال المختلفة تزمن التزام المبادى، والقيم التي اقتنع بها العالم المعاصر وأصبحت قيما عالمية إن تصوير المستثمر العالمي كما لو كان خارجا على القانون المحلي والعالمي مجاف للحقيقة لأنه في نهاية المطاف يعتبر العالم سوقا للمنتجات التي يستثمر فيها. فإذا لم يلتزم المستثمر بمتطلبات السوق في موقع م\ وم٢ وم٢، لم ينجع في تحقيق المردود المطلوب لاستثماره. وبذلك تسقط المقدمان الاساسيتان في الفصل الاول

ناتي الآن إلى الفصل الثاني الذي يدرس علاقة المكان بالخريطة التي تعكس علاقة غير متماثلة. وبعد أن كانت الخريطة انعكاسا لتضاريس المكان، أصبح المكان انعكاسا للخريطة، وتحقيقا لنوايا المخطط التي تتمثل في العمل بعبداي الانتظام والاطراد. وبهذا يسمى المؤلف إلى إثبات مقولته وفق القياس التالي:

- ١- تخطيط المكان وفق الخريطة المجردة يكرس مبادى، الانتظام والاطراد.
 - الالتزام بمبادئ، الانتظار والاطراد يفرز الطاعة.
- ٣- الطاعة لما هو سائد تفرز التجانس الذي يساوي عدم التسامح مع المختلف.
 - ٤- الخوف من الختلف بستلزم مراقبته.

إذا كان هذا القياس تعبيرا عما يرصده المؤلف في فَصلُهِ الثّاني، فنحن امام نظرية المُؤامرة في أبهى صدورها، فالخريطة المجردة أدت إلى سقوط قيم التسامح والتواصل، وذلك لأن الخريطة إما أن تكون انعكاسا للمكان، أو أن يكون المكان انعكاسا للخريطة. هذا التصور يهمل بديلا ثالثًا بحثه فلاسفة العلم للتعبير عن العلاقة بين القوادين والواقع فتصبورها بمثابة العلاقة الوظيفية ا القائمة بين الخريطة والمكان عندما تستخدم الخريطة كوسيلة للوصول إلى المكان المطلوب. لا تغدو الخريطة وسيلة لتحقيق للؤامرة الكبرى على عامة الناس، بل مجرد اداة نافعة يستفيد منها العامة في تسيير أمور حياتهم اليومية.

ومن جهة أخرى نجد في المتسلسلة التي تتبعناها في القياس ١-٤ مبادى، يصعب قبولها لانها لا تستند إلى أدلة الدراسة التجريبية المتأنية، ولا إلى مبادى، تحليلية. فالقول بأن التجريد مولد لقيم معينة يمكن تفنيده بالإشارة إلى افتقار الصورة إلى المحتوى، وافتقار نظرية المنطق (وهي نموذج التجريد بعينه) إلى القيم الإيجابية أو السلبية إلا إذا تم تحليل الصدق كقيمة أخلاقية.

والمبدأ الأخر الذي يصعب قبوله أن الالتزام بمبادى، الانتظام والاطراد يفرز الطاعة. لا أدري إن كان هذا مبدأ سيكولوجيا عاماً وضع نتيجة لدراسة أمبيريقية، أم أنه مبدأ في علم الاجتماع طبق على مجتمعات مختلفة وثبين أنها جميعاً تلتزم بهذا المبدأ. وأغلب الظن أنه ينتمي هو الآخر إلى سيل التعميمات الفارغة التي تفتقر إلى البرهان العلمي الرصين.

في الفصل الثالث نحصل على تعريف جديد للعولمة، وهو أن عصر العولمة هو عصر فقدان السيطرة على المقدّرات، وبالتالي فالعولمة تكافىء غياب السيطرة وفلتانها. واستنادا إلى هذا التعريف يميز المؤلف بن العُولة (globalization)، والكُرْبَنة (Universalization).

فالكوننة تصور إيجابي لتحقيق الوحدة والالفة والتكامل بين البشر درن اعتبار للعرق أو الثقافة أو الطبقة الاجتماعية أو الخلفية السياسية. بيد أن التساؤل الأساسي الذي لا نجد له جوابا في هذا الفصل هو ما المبرر أو المسوّغ المنطقي الذي يعتمد عليه المؤلف في تقديم هذه المعانى؟

إن التصورين المطروحين لا يستندان إلى تحليل لغوي ولا تحليل منطقي، بل يمكن القول إن هذه مصطلحات جديدة لا تاريخ لاستعمالها لأنها تفرض ظواهر جديدة غير مسبوقة في تاريخ البشر، فإذا اختلفنا مع المؤلف في المعاني التي يسندها إلى التصورين فلكل الحق في الاحتفاظ برايه دون الاتفات إلى الحوار لحسم المسالة علميا.

القضية الأخرى التي يؤكدها هذا الفصل هي أن العولة تهمل ثلثي سكان العالم لأنها ليست

بحاجة إليهم. إن العولة في مجالها الاقتصادي والإعلامي لا تملك إلا أن تهتم بالمستهلكين في أسواق العالم الكبرى التي تكتظ بالسكان، لأن العالم أصبح سوقا مفتوحة يسعى المستثمرون إلى أسمول إلى أكبر عدد منهم بالدعاية والإعلان لتحقيق مردود أعلى وعائدات أكبر ولذا فالعولمة لا تملك إهمال المستهلك المكن أي ثلثي سكان العالم، بل إن الهجمة الإعلامية التي تتعرض لها دول أسيا المكتفة بالسكان مثل الصين والهند لتأميز الوصول إلى اسواقها لخير دليل على ذلك

وأخيراً فهناك المبدأ البيروقراطي الذي يدعو إلى إفساح المساحة الواسعة لحرية الحاكم ورفضه للمحكوم في عالم العولة والحق أننا نجد صعوبة بالغة في تحقيق هذا المبدأ في عصر العولة. يقدم الكتاب صورا لتطبيق هذا المبدأ في زمن الدولة الوطنية عندما تتحقق للحكومة كل الحرية وتحدد الحرية للمحكومين أي عامة الناس. أما في زمن العولة، فالحكومة الوطنية تجد نفسها مقيدة بانظمة وقوانين تسعى إلى تأمين حرية حركة رأس المال والاستثمار العالمي، وشل ساعد الحكومة الوطنية نواين تسعى إلى تأمين حرية موكة رأس المال والاستثمار العالمي، وشل محكوما. فنقع المسؤولية عليها في توفير الحماية الداخلية لرأس المال والاستثمار العالمي الذي أصبح حاكما. بيد أن هذه الصورة تعجز عن إدراك حقيقة مهمة، وهي أن العولة شراكة بين الدول الطبئية جميعا لتحقيق الصالح العام. فهر عقد تدخل فيه الدولة الوطنية طواعية لتحقيق مصلحتها المشتركة مع المتعاقدين الأخرين. فكما يتخلى الفرد طواعية عن بعض حرياته الشخصية عندما لتأمين ممالح عليا لا تتحقق إلا بالدخول في المنظومة العالمية التي تنظم مستويات العمل العالمي المشتري.

في الفصل الرابع، يستعرض المؤلف فنتخ متنافرتين تتقاسمان إنسان عصر العولة، وهما فئتا السواح والمشردين الفئتان تعبران عن طبقتين اجتماعيتين وثقافيتين لا تراصل بينهما، ولا تبادل بينهما، فئة السواح سعيدة متنظلة تفعل ما تشاء، وتحقق رغباتها الآن وهنا، وطبقة المشردين تعيسة تبقى في مكانها الذي لم يعد يرحب بها.

بيد أن حقيقة الأمر هي أن الفنتين تمثلان أدوارا متغيرة يمكن أن يقوم بهما شخص واحد ينتمي أحيانا إلى هذه الفئة، وينتمي أحيانا أخرى إلى الفئة الثانية. فالشخص الواحد يمكن أن يقوم بدور السائح في مجال ما، وفي ظروف معينة، ويقوم بدور المشرد في مجال آخر وفي ظروف مغايرة. فريما كان الشخص سائحا في مكان أقام فيه في الماضي، وتعرف على ثقافته والاساليب الاجتماعية السائدة فيه، ويصبح مشرداً نظراً لتغير وضعه الاقتصادي. إن مفهومي السياحة والتشرد غير واضحين. فنحن لا نعرف متى يكون الشخص مشرداً، ولا نعرف متى يكون سائحا. فشروط الهوية التي تحدد التشرد من جهة، وتلك التي تحدد السياحة، غير محددة. هل من شروط التشرد أن يفقد الشخص مسكنه مثلا؟ أو أن يكون مهاجراً من بلده مثلا؟ إن عدم الترحيب به في المكان لا يمكن أن يكون سيكولوجيا أو اجتماعيا او عرفياً أو مهنياً أو أي امر اخر.

يبدو لنا أن مجتمعي السواح والمشردين ليسا مجتمعا واحدا، بل هما مجتمعان لا سبيل إلى الانتصال بينهما، بيد أن المؤلف يؤكد أنهما ينتميان إلى مجتمع الاستهلاك الذي يعتبر الاستهلاك واجبا على كل مواطن، فكلما زاد استهلاك (س) عن استهلاك (ص) ارتفعت قيمة (س) ووزنه في المجتمع عن مكانة (ص) وأهميته في المجتمع ويموجب هذا المعيار ترتفع مكانة السائح لأنه اقدر على الاستهلاك من المشرد الذي لا يساهم شيئا في مجتمع الاستهلاك.

في الفصل الأخير من الكتاب، يطرح المؤلف عددا من المبادى، العامة المستقاة من مصادر متنوعة لإثبات أن العولة تسخر النظم المحلية في خدمة القانون العالمي، وهي مبادى، بحاجة إلى تسويغ عند تطبيقها خارج إطارها الخاص بها.

المبدأ الأول هو مبدأ المرونة الذي يشبه بالقيم الأولية العليا من حيث إخفاء العلاقة الاجتماعية.
فعند تطبيق المرونة على طرفي العرض والطلب من سوق العمل، يبين المؤلف أننا أمام معنيين
متعارضين على الرغم من استعمال الحد ذاته في حالتي التطبيق. فالمرونة في طرف الطلب تعني
«حرية الحركة إلى مواقع أفضل، وترك النفايات والفضلات في الخلف لكي تنظف وتعقم من قبل
المحليين». المرونة تعني التملص من كل اعتبار إلا ما يكون اقتصادي المعنى، والمرونة على طرف
العرض تعني «أن يكون عرض العمل متصلبا غير مرن، وذلك بالحد من حرية الاختيار بالقبول أو
الرفض، وانعدام فرض القواعد الخاصة بالعمل» (ص٤٠١). لأشك أن الفصل بين معنيين
متعارضين لمبدأ واحد يستلزم الاستشهاد بأدلة من الاستعمال اللغوي الفعلي. فلا يمكن أن
نحترع المعاني المتعارضة للفظ واضح الاستعمال من دون ميرر. فلا يمكن أن نسند إلى المرونة
معنى حرية الحركة في حالة (س) ونسند إلى المرونة معنى التصلب وتقييد الحركة في حالة

(ص)

المبدأ الثاني، وهو مبدأ سيكولوجي وضعه فرويد – عالم النفس الشهير – في إطار تفسيره المبدأ الثاني، وهو مبدأ سيكولوجي وضعه فرويد حالم النفسية بنقلب رأسا على عقب في هذا الكتاب، ينص مبدأ فرويد على أن المتاعب النفسية تنشأ عن التضحية بالحرية الشخصية في سبيل تحقيق الأمن المضمون جماعيا أما في هذا الكتاب، فالمتاعب النفسية تنشأ نتيجة للاستعداد السائد في عالم اليوم للتخلي عن الأمن المضمون اجتماعيا في سبيل إزالة المعوقات التي تحول دون ممارسة الحرية كيف أثبت المؤلف المنافون السيكولوجي الجديد؟ لقد بنى فرويد تعميمه السببي نتيجة لملاحظة عدد كبير من المرضى النفسين الذين كان يعالجهم على امتداد فترة طويلة. أما مؤلف كتابنا هذا فلاشك انه الامارس مهنة الطب النفسي، وبالتالي لا يجوز اعتبار قانونه أكثر من تعميم عرضي لا يستند إلى دعم الدليل العلمي.

المبدأ الثالث هو أن نظام الجزاء يضرب عامة الناس، ولا يتعرض للجرائم التي يرتكبها أهل القمة. ولتفسير هذه الظاهرة» ترصد الأسباب الاجتماعية التي ذكرت في عرض الكتاب (ص٥) بيد أن المؤلف يختار السبب الأهم، وهو في رأيه أن الجرائم التي يرتكبها أهل القمة تعبير عن القلق الوجودي في مجتمع ما بعد الحداثة. بيد أن التفسير المقدم هذا لا يفسر التشريع الذي أدى إلى «الظاهرة» في كل قطر على حدة، ومن جهة أخرى لايمكن اعتبار «الظاهرة» عالمية بععنى أن المجتمعات كافة تمر بالتطور الاجتماعي ذاته الذي أدى إلى التعبير عن القلق الوجودي. لاشك أن المبتمعات المختلفة، ومن الصعوبة بمكان أن نسلم بأن الدساتير كافة متفقة في التحليل الأخير على تجريم الفقر، علما بأن أغلب الدساتير جات نتيجة لثورات الفقراء لإنصاف المظلومين. لا أدري كيف يمكن أن نحمل العولة مسؤولية «الظاهرة» التي تضمن ظهور جرائم المسحوبين في نصوص قوانين الجزاء. ولا يمكن أن ننفق مع المؤلف في أن كل الجرائم التي يرتكبها أهل القمة تناى عن العقاب، لأنها تحتمي بقوانين العولة في مخالفتها للقوانين المحلية، ولائها تخالف الفرض الذي فرضه المؤلف نفسه عندما اعتبر في مخالفتها للقوارة على تدوين الجرائم العليا في نص القانون.

بين التذوق والنقد المسرحي

دراسة تحليلية لجماليات التلقى المسرحي

د. احيد ميتر*

يعتقد الشراح والمنظرون للدراسات النقدية أن قضيتي التنوق (۱) والنقد من القضايا التي لم تحسيم في النقيد المسرحي. ذلك أن التنوق شخصي، وكذا النقد، إلا أن الفيصل بين الاثنين أن التذوق يظل عملية استيعابية شخصية للمتلقي المسرحي لا تتطور إلى ما تتطور إليه عملية النقد المسرحي التي تتطلب من الناقد الموسوعية في الاطلاع والمعرفة لكي يتمكن من إرساء القواعد الاساسية في عملية التلقي المسرحي التي تعد مهمة جدا نظرا لما للناقد من دور مهم وحيوي في دفع العملية المسرحية تقدما سواء في مجال الكتابة أو التمثيل أو التمثيل أو

^{*} استاذ مساعد في قسم الدراما والنقد السرحي - المهد العالي للفنون المسرحية بدولة الكويت.

إذا كنا نتحدث عن قضيتين من القضايا المهمة التي تشغل المتنوق العادي وكذا المتخصصين من النقاد، فإننا لا ننسى حقيقة مهمة مؤداها أن القضيتين تتداخلان تداخلا كبيرا، والفاصل بينهما يتمثل في أن المتنوق قد لا يتعدى تقوقه حدود الذات أو المجموع المتمثل في لقاء الاصدقاء والمقربين حيث بيدي كل منهم رأيه فيما شاهده، وهو بطبيعة الحال رأي شخصي مبعثه الذوق الشخصي لصاحبه، وهذا يأتي بخلاف الناقد الذي يستطيع أن يتذوق، وأن يترجم هذا التذوق ليصبح رأيا نقديا يجب عليه حين يعلي به أن يدرك أنه سوف يحدد ويبلور الكثير من الحقائق، بل وسوف يؤكد بعض القيم ويرفض البعض الأخر.

إذا كان الأمر كذلك فإننا نقف عند هاتين القضيتين لنبين حدودهما ومجالات وجودهما.

تحدث الكثير من علماء الجمال والمتخصصين عن الذوق، وبرغم تعدد التعريفات وتنوعها إلا إنها تأتى متفقة في كثير من جوانبها.

وعليه هنا أعرض بعضا من هذه التعريفات الخاصنة بمصطلح التذوق بشكل عام والتذوق الفني والمسرحي بشكل خاص محاولا بعد ذلك أن أوضح جوانب الاتفاق والاختلاف بين التذوق والنقد.

تحدثنا د. أميرة حلمي مطر عن التذوق بقولها: «إن التذوق ليس مجرد عملية تقبل سلبي، وإنما يفترض القيام بعمليات إيجابية، لانه يفترض القدرة على الاختيار والانتباه لعناصر الجمال، ولخصائص العمل الفني، لاننا عندما ندرك عملا فنيا معينا لا نراه دفعة ولحدة، بل نأخذ في تعديل رؤيتنا وننتقل تدريجيا من زاوية إلى أخرى. وتذوقنا للعمل الفني يعتمد على خبرتنا السابقة، (⁷⁾، أي أنها تشير إلى طبيعة التذوق الذي يميل بطبيعة الحال إلى العمل الفني، والاستمناع به دون وضع مجموعة من الأحكام أو المعابير بشكل مسبق.

اما عن علاقة التذوق بالخبرة الجمالية فتحدثنا الدكتورة/ وفاء محمد إبراهيم عن الخبرة التي تضم بداخلها بطبيعة الحال الحقيقة الجمالية والذاتية الإنسانية، وترى أن: «موقف التذوق هو الأساس الذي يبدع من خلاله شخص استطاع أن يحول بحساسيته الجمالية مادة تذوقه إلى مادة جمالية تجسيدية في عمل فني، موسيقى أو تصدوير أو نحت أو شعر، وشخص آخر أصدر حكما بالقيمة من خلال خبرة متشابهة في فاعليتها لخبرة الإبداع» (٣).

هنا نجد أن عملية التذوق لا تأتي من فراغ. ذلك أن الكثير من المهتمين بالذوق سواء علماء الجمال أو علماء النفس قد آشاروا إلى عملية الإيداع وعملية التذوق، وقالوا إن «المتلقي يفتقر إلى كثير من الحرية التي يمتلكها المبدع، من حيث الإلفاء والحذف وسهولة الإعادة والإضافة.. إلخ. أما المتلقي فهو مقيد بما قدم له في وحدة تشكيلية عليه أن يجول في حدود قيمتها وكيفياتها، ومن

هنا يصاب المتفوق المتمكن أحيانا بالإحباط عندما يجد أن ثمة تغيرا أو تحريرا كان ينبغي أن يتم، ولكنه لم يحدث. ولذلك فإن المتذوق للعمل هو خالق من وجهة نظره الخاصة، ولكنه خلق من المرتبة الثانية، أي كانه يعمل على قماش آخر أسبق من قماش العمل للعروض أمامه، ⁽¹⁾.

وفي مجال التذوق الغني يعرفنا الدكتور/ حسن محمد حسن على جانب آخر من جوانب التذوق، ويقصد به فن التصوير بشكل عام وكيفية تذوقه فيقول إن: «أول خطوة في مجال التذوق الغني هي أننا لا نكتفي بالنظرة العابرة للعين، بل يجب أن نعيش في الأشياء التي نلاحظها ونشاهيها أمامنا» (°)

إن التذوق بمعناه العام هو قدرة الإنسان على مشاهدة إبداع فني ما، ثم استيعاب هذا العمل. ومن خلال التذوق المتمرس الخبير والمستوعب لأصول التقنية الفنية يستطيع المتذوق أن يصدر حكما غالبا ما يدور في فلك الذاتية التي مرجعها دون شك ذات المتذوق إلا أن هذه المرحلة مرحلة انتقالية سرعان ما تتراجع الذات بعد أن يسيطر المتذوق على الموضوع.

إن المتلقي سواء كان متذوقا أو ناقدا يبحث في جوانب التجربة المبدعة عن جماليات الت**لقي** الفني عموما، والمسرهي بوجه خاص، مما يترتب عليه نجاح هذا الإبداع الفني في فتح جسور التواصل مع المتلقى المسرحي.

ويضيف د. مصطفى يحيى للتذوق تعريفا يقول فيه: «التذوق هو عملية اتصال وتواصل بين اعمال الفنان، وبين المتذوق أو المستمتع بها، والمتفاعل معها برؤية تأملية، وأيضا هناك تواصل في اتجاه عكسي نتيجة لرد فعل الجمهور واستجابته لأعمال الفنان، وبذلك نرى أن عملية التذوق واستجابته لها من جهة أخرى،(⁽⁾).

إن حكمنا على الإبداع (لوحة - مسرحية - فيلم سينمائي أو غير ذلك) بالجمال معناه أننا قد نفذنا إلى دواخل هذا الإبداع وتنوقناه، وحدث نوع من الألفة والتلاقي بيننا وبين هذا العمل المبدع. إلا أن هذا لايعني أننا حينما نتحدث عن التذوق فإننا نقصد نوعا من الانغلاق الداخلي القاصر على الذات، بل إننا نقصد بالتذوق أن: «الذات خلال لحظات التذوق تتعاطف مع المرضوع لإبراك معناه، والكشف عن تراثه الفني، ومدى ما يتكشف فيه من اتحاد بين الشكل والمحتوى أي بين المادة والصورة» (أ).

وهذا يجعلنا ندرك أن المتنوق يعيش تجربتين لا تجربة واحدة فهو يعيش تجربة المبدع سواء كان هذا مؤلفا مسرحيا يكتب إبداعا دراميا يتمثل في معالجة موضوع معين من خلال نص درامي، أو كان مخرجا يقوم بتنفيذ هذا الإبداع النصيء ليصبح رؤية متكاملة الإبعاد عن طريق وضع خطوط لتنفيذ هذا النص بواسطة المئلين والفنين. وبذلك نستطيع القول إن المتذوق هنا

__ عالمالفکر .

سوف يمر بمرحلة إبداع هذا النص، وما يقدمه من قضية شغلت ذهنه، وكيف استطاع المخرج بترجمة هذه المعالجة على خشبة المسرح أن يقدم لوحة فنية جمالية تحمل الكثير من نواحي التجريةالفنية الناجحة.

يتحدث علماء الجمال عن التذوق بقولهم إنه يجعل المتذوق يمر بالعديد من المواقف والخطوات المتنالية أو المتداخلة التي تجعل الإحساس بجمال الموضوع وتذوقه يكتمل، وقد افترضوا مراحل عدة:

- ١ التوقف للثول شيء غير مألوف أمام الذات.
 - ٢ العزلة: استئثار الموضوع بكل انتباهنا.
- ٣ إحساسنا بأننا ماثلون أمام ظواهر الحقائق.
- 3 الموقف الحدسي: أي الموضوع الماثل أمامنا.
- ويدفعنا إلى الحدس المباشر فنميل إلى الموضوع أو ننفر منه.
- الطابع العاطفي أو الوجدائي: المرضوع الفني الماثل أمامنا بثير فينا أحاسيس وانفعالات خاصة بسيطة.
 - ٦ التداعي: تثير هذه الانفعالات ذكريات ماضية لنا فنشعر بالتأثير.
- التقمص الرجداني: نضع أنفسنا، موضع الأثر الفني فتتعقق بيننا وبينه مشاركة وجدانية
 أو محاكاة باطنية، وهذا هو الذي يجعلنا نشعر بالألم لأبطال المسرحية، ويظهر على قسمات وجوهنا ما يشير إلى تقمصنا لمواقف أبطالها (⁽⁾).

ونظرا لاختلاف طبائع الناس مما يترتب عليه اختلاف النواقهم، وعليه فإننا سنجد انفسنا امام اكثر من حكم على العمل الفني الواحد، وطالمًا أن الإنسان يصدر حكما شخصيا فإنه بذلك بحاجة إلى الاقتراب بما يسمى تربية الذوق الجمالي.

تربية الذوق الجمالي

إن تربية الذوق الجمالي عملية ضرورية من اجل تكوين نشء على دراية تامة تمكنهم من حسن استخدام حاستي السمع والبصر اللتين يعتمد عليهما في الإحساس بالجمال، وهذا يجعلنا نفكر بأن الأمر بحاجة إلى أن نبدأ في مرحلة مبكرة فيستطيع الطفل أن ينمو ويكبر ويصبح له ذوقه الخاص به الذي يميزه عن أقرانه.

«إن التفاوت الملاحظ بين الأفراد بصدد أحكامهم الجمالية، وإن كان يستند إلى حد ما إلى

تأثير قدراتهم الخاصة التي يمكن قياسها سيكولوجيا سواء كانت فطرية او وراثية او مكتسبة، إلا أنه قد تأكد لدى علماء التربية أن قسطا كبيرا من هذا التفاوت إنما يرجع إلى نقص في التربية الجمالية فينسحب بدرجة أكبر على البيئة بمعناها الواسم» (^{٩)}.

وما ينسحب على العام - أي الذوق الجمالي العام - ينسحب بطبيعة الحال على الخاص، وأقصد به تربية ذوق مسرحي يستطيع من خلاله مشاهد خشبة المسرح أن يتذوق الأعمال المسرحية التي تقدم، والتي تختلف بطبيعة الحال وفقا لاختلاف المدارس والمناهج والاتجاهات معا يترتب عليه تعويد وتدريب المتذوق المسرحي لكي يتعود منذ حداثة سنه على مشاهدة أعمال مسرحية تجعله عندما يكبر يألف مثل هذه الأعمال، ويترتب عليه بطبيعة الحال القدرة على التمييز بين مسرحية وأخرى معتمدا بذلك على حصيلة مشاهداته التي تجعله يتمتع بمخزون وفير يجعله قادرا على تذوق الأعمال، وإصدار أحكام تميزها الحكمة والدراية.

إن تربية الذوق قضية مهمة مؤادها -- كما سبق وذكرنا -- أن الذوق لاتحده حدود، وإنها معياره الاساسي الرأي إذا غابت المعايير، إلا أنه رغم ذلك لا يحل محل المعايير التي يعتمد عليها النقاد في التقييم، إلا أنه - أي الذوق -- يتذبذب حسب الحالة النفسية والمزاجية للمتذوق، ومع ذلك نؤكد على إمكانية تطوير الذوق. ذلك لأنه فطري فهر «في أصله هبة طبيعية تولد مع الإنسان، يعبرون عنها بصفاء الذهن وخصوبة القريحة منذ الطفولة إلى كل فن من الفنون الجميلة دون غيره ممن سلبون هذا الاستعداد، وبعد ذلك يأتي التهذيب والتعليم، فليس من شك أن الدراسة تنعي الذوق وتهذبه وتسمو به إلى درجة محمودة، فالاديب ذو الفطرة الذواقة يغير من قراءة الأدب، ومعالجة الفنون فنزاه بعد قليل مصقول الذهن والذوق، يضع يده على العبارة البليغة، والخيال الجميل، ويدرك صدق العاطفة» (١٠٠).

اما عن الشروط التي تتحكم في تربية الذوق بعد أن أدركنا أنه مكتسب من خلال القراءة والاطلاع والمشاهدة، وغيرها من صنوف التلقي فقد حددها الاستاذ/ أحمد الشايب (١١) في خمسة مؤشرات بها تتحقق تربية الذوق وهي: البيشة.. «الزمان، الجنس، التربية»، الشخصية الفردية أن المزاج الخاص.

فيقصد بالبيئة هنا العصر والظروف التي تحيط بالمتذوق سواء كانت اجتماعية أو ثقافية فجميع هذه الظروف تؤثر على النوق ويحدث التفاوت. ويقصد بالزمان نمط الحضارة والتطور والتطور والرقي الذي يشهده المجتمع حيث تزداد مساحات التقدم والاطلاع على ثقافات الآخرين، وهنا يتغير النوق بعد أن تكون وتهذب وترقى. العنصر الثالث يقصد به الجنس، ويعني العادات والطبائع المشتركة عند أمة من الامم مما يجعل لهذا الشعب مجموعة من السمات التي يتوارثها

الأبناء عن الآباء، وتصبح جزءًا من وجودهم. والتربية وهي العنصر الرابع ويقصد بها ما يحصل عليه الفرد داخل الأسرة الواحدة من معلومات ثقافية وبراسية، وقدرا من الصقل والتهذيب مما يوجد قدرا من الثقاوت بين أفراد الأسرة الواحدة. أما العنصر الأخير فيقصد به الشخصية الفرية أو المزاج الخاص، وهو أهم هذه العناصر لأنه دائما المرجع الأكيد حينما نحتكم إلى النوق الشخصي.

وريما انتقلنا هنا إلى نقطة مهمة كثيرا ما تثار على ساحة المسرح المصري والعربي، بل والعالمي، وهي:

لماذا بتذوق المشاهد العربي عامة والمصري خاصة تلك النوعية من المسرحيات المحمية واسياسية والميلودرامية والرومانسية والكرميدية، على حين يقف المتدوق أمام مسرحيات العبث واللامعقول والمسرحيات الفكرية وذات الاتجاهات الوجودية من أعمال سارتر وغيره، يقف أمامها على غير انسبجام مما يترتب عليه عدم اندماج المشاهد، وهو ما يجعل متذوقي مثل هذه المسرحيات يجدون ما يعوقهم عن تذوقهم، وربما يرجع ذلك إلى اللغة التي كتبت بها، هذا إلى جانب افتقاد بعض جمهورنا لخلفيات هذه المسرحيات الفكرية والثقافية، مما يترتب عليه رفضها، وهو ما يثير رفضا على طول الخط.

إن مشاهدي المسرح اليوناني بمختلف طوائفهم وعلمهم وثقافتهم قد تنوقوا أعمال كتاب المسرح اليوناني، وهو ما تحقق ايضا عند متنوقي اعمال كتاب عصر النهضة وعصر عودة الملكية، وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على أن التنوق المسرحي لا يخص فئة واحدة، وإلا لماذا شاهدت فئات الشعب كلها في المسرح اليوناني ومسرح عصر النهضة – كما سبق وذكرت – هذه الاعمال وتنوقتها.

وفي هذا الصدد يضيف د. محمد صدقي الجباخنجي إلى ما سبق قوله: إن التنوق الجمالي في الفن يتأتى نتيجة تدريب حواسنا على تقبله، بينما نجد باقي انواع التذوق (واستعمل هنا كلمة «تذوق» مجازا وبديلا لكلمة «تغيير») يواجه الحقائق التي لاتحتاج إلى تدخل المدارك الجمالية أمام مشتهيات النفس» (١٦)

الذوق المسرحي

كثيرا ما نسمم أن رواية كذا أو قصة أو مسرحية هذا الكاتب، لم تلق قبولا أو استحسانا، أو نسمم ما يقول إن عرض مسرحية كذا قد استحوذ على إعجاب الجمهور من المشاهدين وعندئذ يتبادر إلى الذهن هذا التساؤل: للذا فضل القراء أو الشاهدون أو الستمعون هذا عن ذلك؟

- ولماذا اجتمعت الآراء كلها على هذا العمل؟

إن الإجابة على مثل هذه الأسئلة عسيرة جدا لأنها تشبه التساؤل الذي يقول: لماذا يذهب المشاهدون في وقت معين إلى مشاهدة أفلام الكاراتيه أو أفلام العنف دون غيرها من الأعمال الاخرى؟

إن رقي الذوق عند هذه الجماعة من الناس جعلهم يتفقون على تفضيل هذا العمل على ذلك، ومرجع هذا إلى توافر العديد من الخصال والسمات التي جعلت هذا العمل الفني يجتنب هؤلاء الناس، ويجتمعون معا لتتوحد أذواقهم رغم اختلاف ظروفهم الميشية وظروف نشاتهم الاسرية واختلاف كثير من الطبائم، ومع ذلك فقد التقوا وترحد ذوقهم، الأمر الذي يؤثر في نجاح هذا العمل واكتساب شرعيته عن طريق جمهور الشاهدين.

وهنا نتسامل على قدرة وسطوة هذا الذوق. هل من المكن أن يرتقي ليصبح وسيلة مشروعة مثما هو الحال مع النقد للحكم على عمل فني ما؟

إن قضية الذوق المسرحي أمر لا يزال يحير الكثير من الدارسين والباحثين، ذلك أننا نتفق على أن الذوق المسخصي غير مؤهل في كل الأحرال ليصبح خاليا من الهوى، وبعيدا عن شاطحات النفس، وكل هذا دفع الكثير من النقاد إلى ضرورة إخضاع النقد للمذاهب العلمية الموضوعية النفس، وكل هذا دفع الكثير من النقاد إلى ضرورة إخضاء النقد للي تحاول أن تضع معايير وأحكاما تلزم الناقد كي يلتزم بها، ولا أقول أن يطبقها حرفيا، ولكنها مثل معايير كتابة النص المسرحي يعرفها المؤلف، ويهضمها ثم يتركها جانبا ليكتب مسرحيته دون أن عقوة هذه القواعد أو المايير، ولكن مع ذلك نستطيع أن نرصدها وأن نحدها إن أردنا ذلك.

وإذا أردنا طرح قضية إخضاع التذوق عامة، والتذوق المسرحي - الذي هو موضوع بحثنا - للمناهج العلمية، ونفترض اننا قادرون على أن نفصل ذواننا، وأن ننعزل كلية كما يحدث معنا عند العناهج العلمية، ونفترض اننا قادرون على ذلك، فهذا معناه أننا ننكر ونلقي إقدامنا على تقرير حقيقة علمية، إذا أفترضنا بأننا قادرون على ذلك، فهذا معناه أننا ننكر ونلقي حقيقة مؤكدة وثابتة في مجال الفن عموما، وهي أن الذائية والتثيرية «هي المنهج الوحيد الذي يمكننا من الإحساس بقوة المؤلفات وجمالها، فلنستخدمه في ذلك صراحة، ولنعرف مع احتفاظنا به كيف نميزه ونقدره، ونراجعه، ونجده، وهذه الشروط الاربعة لاستخدامه، ومرجع الكل هو عدم الطلط بين المعرفة والإحساس، واصطناع الحذر حتى يصبح الإحساس، وسيلة مشروعة للمعرفة، أنا

ومما سبق نستطيع القول إن التذوق المسرحي من المكن أن يتطور ويرتقي لكي نستطيع من خلاله الحكم على الأثر الفني، وذلك في حالة ما تتوافر الخبرة والدراية والحاسة، عندها نقول إن هذا الحكم النابع من قبل المتذوق صحيح لاستناده على العديد من الأسانيد التي تصح ويتقبلها الكثير من الناس، إلا اننا قد نجد من يعارضها – من قبل متذوقين آخرين – بأسلوب آخر، ويقنعنا أيضا، وهكذا يكون الذوق المسرحي قد تربى ونضح لتصح وزاه. وهنا يأتي رأينا متفقا مع رأي أستاذنا الدكتور/ محمد زكي العشماوي الذي يرى: «أن الرجوع إلى الذوق أمر لا مفر منه في الحكم على الأثر الفني وتقديره (١٤٠).

بيد أنه لا يقصد بطبيعة الحال الإحساس السطحي، أو اللذة وحسب، وإنما يقصد الذوق المرب البصير.

أما عن النقد والعلاقة بينه وبين التذوق فقد تحدث الكثير من النقاد والدارسين عن تعريف النقد. وقد تعددت التعريفات، إلا أنها برغم ذلك تتكامل، فمنهم من يعرف النقد بقوله إنه يعني المحكر^(۱۱)، أما الدكتور/ محمد حافظ دياب فيعرف النقد عامة والنقد الأدبي خاصة بأنه يعني المعييز والتقويم والتاريخ ^(۱۱)، وهو ما يتفق مع رأي د. عز الدين إسماعيل في قوله إن النقد يعني «الحكم الأدبي» (۱۱). ومهما اختلفت التعريفات فإنها تنفق في أن مجال انطلاقها واحد، ورأي الدكتورة/ أميرة حلمي مطر قريب من حديثنا فيما يتعلق بالعلاقة بين التذوق والنقد، فهي ترى ان: «التذوق والنقد، فهي ترى ان: «التذوق والنقد، منهي ترى انا.

إن النقد المسرحي ميدانه المسرح، كما أن المسرح هو المادة الأساسية للنقد المسرحي الذي يقوم بتحليل عناصر العمل المسرحي حتى يظهر وقع هذا العمل في نفس الشاهد.

إن النقد المسرحي عملية تحدث بعد أن يكتب المؤلف ويخرج المخرج هذا الإبداع، ويعدها يأتي الناقد الذي يعيد تقييم هذا العمل بعد أن كتب وقدم معتمدا على ذاتيت، وكذا على الجوانب الموضوعية، وعلى مقارناته.

أما عن النقد ووظيفته، وهل من المكن تربية الحس النقدي، فإننا ندرك من خلال ما تناولته أقلام عدة أن النقد المسرحي لون من ألوان النقد الأدبي، جاء متأخرا إلى ساحة النقد، ارتبط في مجيئه بظهور وظيفة المخرج وهي وظيفة مستقلة عن العمل المسرحي الذي ارتبط منذ نشأته بالخريجوس ذلك المسؤول عن تقديم العمل المسرحي ككل، ولم يكن له مسمى المخرج، ولكن كانت له وظيفة المخرج – كما اعتقد – وقد اهتم – ولم يكن النص قد طبع بعد – بمحاولة تقديم هذا العمل إلى المشاهدين، ونحن نعلم أن أرسطو قد عاصر هؤلاء الكتاب إذ إنه كتب كتابه «فن الشعر» في أعقاب كتابة هؤلاء الكتاب لمسرحياتهم، وتقديم الخريجوس لها

إن كتاب «فن الشعر» لأرسطو اختلف عليه الكثير من الشراح والنظرين، ولكنني أتسامل عن حقيقة هذه الدراسة التي كتبها أرسطو. هل حقيقة هي دراسة تحلل ما شاهده مما قرأه من اعمال، أم هي لا تتعدى أن تكون «نقدا تقنينيا كان يضع أسسا معينة (الفن كمحكاه – الحبكة كروح – والبطل المأساوي كوسيط بين الخير المطلق والفساد المطلق) ويقيم تصانيف وفروقا مختلفة (الحبكة البسيطة في مقابل الحبكة المعقدة وإنواع الإدراك)، ولكنه لم يكن يقوم بتفسير النص أو استكشاف مستويات معينة، (١٠)

وهنا نعرض الإشكالية اخرى ذات صلة مباشرة بموضوع الدراسة وأقصد بها الفروق الجوهرية بين التلقي المسرحي والتلقي الأدبي، أي جمالية التلقي عند مشاهد العمل المسرحي وعند قارى، وسامع الإيداع الأدبي. إن التلقي المسرحي يتم بعد مشاهدة عمل مسرحي، وهو أمر يجعل من حق المتلقي للعمل المسرحي أن يستنبط – سواء كان ناقدا أو قارئا عاديا – من العمل الذي امامه ما يشاء من المفاهيم والمدلولات وأن يضيف إلى تفسيرات الآخرين الذين شاهدوا العمل ما لم يُذكر من قبل، والدليل على ذلك أننا إلى اليوم نضيف ونعاود الشرح من جديد إلى مسرحات شكسدر

أما عن التلقي الأدبي لرواية أو قصة أو شعر فإن الأمر يتحقق بالكيفية نفسها. غير أن قرامة هذه الأجناس الأدبية تتم في أجراء تختلف عن جو المسرحية، فالعمل المسرحي برغم وجود نص درامي إلا أنه تحول على خشبة المسرح ليصبح أداة واحدة ضمن مجموعة أدوات إبداعية آخرى، وعليها يتفير الوسيط مما يترتب عليه تعدد الأراء واختلافها، وهو يختلف عن الرواية أو القصة أو الشعر الذين يتميزون بصفة الثبات كنتاج، إلا أنه أيضنا يعطي للمتلقي الحق في أن «يستنبط من العمل الأدبي الذي إمامه ما يشاء من المفاهيم والمدلولات والقيم ما دامت طبيعة العمل تحمل هذا. والمتلقي – في مثل هذا الصنيع – أشبه بمن يغوصون في أعماق البحر، فقد يستخرج أحدهم اللؤلؤ، وقد يعود الآخر بالرجان، وقد يرجع ثالث بالمعدف وغيره، (٢٠).

وعليه يختلف أيضا التذوق للسرحي عن التذوق الأدبي طبقا لطبيعة النتاج، غير أنني أرى أن النقد الأدبي يختلف عن النقد المسرحي. ذلك أن النقد المسرحي تبلور وظهر في نهايات القرن التاسع عشر، وهو يختلف عن النقد الأدبي كونه يكتمل باكتمال رؤية المسرحية مجسدة على خشية المسرح.

إن النقد المسرحي جنس من اجناس الايداع الادبي عامة، ولكنه يزيد عليه في كونه يكتمل بعرض العمل المسرحي على جمهور المشاهدين، وبعد أن نجد أنه على مستوى النص قد تتشابه الرواية مع المسرحية، إلا أنها تختلف عنها كما سبق وأسلفت في كون الرواية فنا مكتمالا بمجرد طبعها، بخلاف المسرحية تظل فنا ناقصا إلى أن يرى النور على خشبة المسرح.

وعليه فإن تعريف النقد المسرحي بذلك يأتي هو الآخر بعد أن ينتهي الكاتب من إبداعه

المسرحي النصي، ثم يأتي النقد ليحكم ريقيم ويحلل ريوجه هذا الإبداع سواء اكتفى بالنص وجده أم إنه استكمل عمله كناقد – وهذا هو المنهج الصحيح – بالعرض المسرحي.

وعليه نقول إن للنقد وظائف عديدة منها: «الحكم أو النقد أي الاهتداء إلى مبررات تؤيد حكم القيمة. غير أن للنقد وظائف أخرى. فهو يحاول أن يفسر أو يوضم العمل الفني، (٢٠٠).

إذن تتحدد بعض من وظائف النقد في ضرورة الحكم والتفسير، وهو – أي الناقد – يهدف من وراء ذلك إلى ضرورة الاقتراب بعمل الكاتب المسرحي، وكذا المخرج – أي العرض المسرحي ككل – من جمهور المشاهدين ليتفهموا هذا العمل وأبعاده، وما خفى فهمه على الجمهور.

ويذلك نقترب من النقطة المهمة مثار حديثنا، وهي هل من المكن أن نطور الحس النقدي عند الناقد المسرحي؟ إن الاجابة على هذا الاستفسار ليست بالأمر العسير، وخاصة إذا علمنا أن النقد المسرحي قد استفاد من العلوم والفنون وخاصة في مجال الإخراج، وذلك «اننا لا ينبغي أن ننكر الدور المؤثر الذي لعبه كل من (الفريد جاري وانتونان آرتو) على المستويين العملي والنظري في هذا الصدد، (٢٣).

وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على الاستفادة الكبيرة التي استفادها النقد المسرحي من على البخراج في وقتنا الراهن، وهر ما يؤكد قدرة الناقد المسرحي على تربية حسب النقدي بالمسافدة والاطلاع، ذلك ان القرن العشرين شهد «تطورا هائلا في كل المجالات، ولاسيما العلوم الإنسانية التي نذكر منها علم الاجتماع وعلم النفس واللسانيات بكل فروعها، والفلسفة والتاريخ والانثريولوجياء (١٣). وكان طبيعيا أن يستفيد النقد المسرحي من تطور هذه العلوم.

وهنا نعود فنقول: إن النقد يسهم دون شك في «تطوير حاسة التذوق» (¹⁷¹ هذا من ناحية، ومن ناحية آخرى علينا أن ندرك أننا من خلال الدراسات الجمالية والنقدية فإننا نقترب من الفاظ عدة تستخدم جميعها في مجال التذوق وعليه فإننا «نستخدمها ونعني حيننذ أشياء مختلفة طبقا لوجودها في النص، أو في السياق العام للمعنى «فمن المكن أن تعني الإعجاب أو الإدراك -Phi preciation ، ولكن من المكن أن تعني denigration ، ومن المكن أن تعني معنى فلسفي -Phil ، ومن معنى فلسفي -coophical ، ومن المكن أن تعني معنى فلسفي -vical .

إذا كنا قد أدركنا وظيفة النقد، وكيف أنها لا تعد مرحلة للاستمتاع باللذة أو التذوق، ولكنها تتخطاها إلى مرحلة يستطيع فيها الناقد أن يحكم على الأعمال الفنية حكما سليما لا يخالف أحكام الآخرين مخالفة الأبيض للاسود، إذا كنا قد علمنا هذا فإننا نتيقن من قدرة هذا الناقد على أن يستوعب هذا العمل الفني، وأن ينزله منزلته، وهو هنا على يقين من علاقة هذا العمل بالعصر الذي كتب فيه، ثم قدرته على مقارنته بالأعمال الأخرى التي كتبت في هذا العصر، ثم الدراية بتحديد القيم الجمالية لهذه المسرحية أو تلك.. وهي أمر يجعل الناقد قائداً على أن يصنف أعمال
الكاتب المسرحي الواحد، ويضع كلا منها في مرتبة تتقدم على الآخر أو تتآخر عليه، فإذا قلنا إن
الناس اللي تحت والناس اللي فوق وعيلة الدوغري، أعمال مسرحية تحمل الكثير من القيم
الفنية والفكرية والجمالية، وتحتل مكان الصدارة بين أعمال نعمان عاشور، هنا يأتي هذا الحكم
معتمدا على أسانيد ومبررات تقوي كلامنا، وهو رأي يأتي متفقا مع رأي أستاذ الأجيال محمد
زكي العشماوي في درته الثمينة (قضايا النقد الأدبي) قولة: وليس من شك في أننا حين نضع
كل واحد من هؤلاء – يقصد دانتي وشكسبير وصوفوكليس وجيته – في مكانه الخاص من هذا
السلم –يقصد سلم القيم – إنما نستند في ذلك إلى أسانيد، إن لم تكن لها دقة الأرقام العلمية
فليس ينبغي أن يكون فيها سعة التفاون، (٢٦).

ومما سبق نستطيع القول إن هذا التقدير والتقريب الذي نسعى الى تحقيقه لتقييم عمل فني ما، يجب الا ننسى عند قيامنا بذلك أن نضعه من وجهة نظر شخصية تقريبية مؤداها اتفاق راي الجماعة وذوقهم، والأمر قد مر قبل وصوله إلى هذه المرحلة بجدل طويل، وهو امر طبيعي دولكنه لا ينبغي أن يكون إلا بدرجات متقاربة حتى يصبح من المكن أن يتحقق الميزان النقيق في النقد، (٢٠٠).

إن ما تسعى إليه العلوم الإنسانية حين تحدد بعضا من السمات التي تميز التذوق، أمر يأتي مختلفا حين تسعى العديد مهام الناقد المسرحي الذي لابد وأن يستمتع بقدر ما افترضه ت. س. اليوت حين تحدث عن تذوق الشعر، ولا أرى هنا مخالفة في أن ينسحب هذا الرأي على المسرح اليما إذ يقول «إن الاساس في النقد هو القدرة على اختيار قصيدة جيدة، مسرحية جيدة مثلا، وإمال أخرى ردينة، وإن أي اختبار يتعرض له الناقد إنما هو في مقدرته على تفضيل قصيدة ويدة، وفي الاستجابة الصحيحة لخلق فني جديد، وإن الخبرة التي تتطور وتنعو في الشخصية الواعية الناشئة عن رؤية القصائد الجميلة. فإن الثقافة الشعرية إنما تتطلب تنظيما خاصا لهذه التجارب (١/١).

إن التمييز بين الناقد والمتنوق يتحقق في مجال بحثنا ألا وهو موقف كل من الناقد والمتنوق من الإبداع بشكل عام. ذلك أن الناقد عندما يتعامل مع إبداع ما هنا نجد أن مهارته هي «مهارة تكنيكية تستند إلى معايير مستمدة من مذاهب فلسفية مختلفة، وقدرته تكمن في نجاحه في التطبيق الجيد لفرض البداية الذي اختاره ويرع في استخدامه» (⁷⁷⁾. أي أن الناقد يختلف عن المتنوق في أنه يعتمد في تقييمه وإصدار أحكامه على مجموعة من العايير والقواعد التي لاتلخذ

مكانها الطبيعي عند المتنوق الذي «لا تحكمه – في أحكامه – إلا حصيلة ثقافية ومهارة إدراكية، مما يترتب عليه الميل إلى تقديم افضلية ما في درجة التنوق لعمل واحد، (^{۳۰)}.

إن الفارق بين الناقد والمتذوق في تعامله مع الأعمال الفنية إنما يتحدد في أن «موقف الناقد ينبغي أن يكن متسلحا بأدوات كثيرة اولها الممارسة الجيدة للأعمال الفنية من خلال تذوقها وفهمها عن طريق الإلمام التام بتاريخها وتطورها ومواقفها المختلفة من العصر الذي وجدت فيه (٢١). وهو أمر يختلف في حالة المتذوق وموقفه من الإيداع، ومدى خبراته الجمالية التي تتجلى من خلال أقواله. فالمتذوق يستجيب للإبداع، وفي استجابته تتحدد نوعية وطبيعة التجربة التي بعشها.

إن خبرة المتنوق واستجابته إنما هي «بدورها تجربة مماثلة وشبيهة بتجربة الفنان المبدع، أي هي عملية إعادة خلق للعمل الفني» (^{۲۲)}. إذن يعتمد المتذوق في أحكامه على إعادة تنظيم وتأليف أبعاد العملية الإيداعية التي مر بها الفنان المبدع لها.

إن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن الناقد إنما هو متذوق مر بالعديد من التجارب، واختزن الكثير من الخبرات وتدرب وتمرس حتى اصبح قادرا على إصدار حكم به الكثير من الضيرات وتدرب وتمرس حتى اصبح قادرا على إصدار حكم به الكثير من الصحة، وهو بذلك ابتعد عن المتذوق الذي قد يخطى، في بعض الأحيان نظرا لوقوعه في شرك وضلالة العلم، إذ يخدع بأنه على علم ويدلي بدلوه، وهو في كثير مما قال قد عرض نفسه للخطأ. واسوق مثالا على ذلك مسرحية الكاتب الإنجليزي الشهير هارولدبنتر «لفة الجبل» حيث إنها تقدم موضوع حظر التعامل بلغة معينة، وهي لغة أهل الجبل بين الأكراد بتركيا، ومن الوهلة الأولى فإن الكثير من النقاد انساقوا وراء ما بهذه المسرحية من سياسة، واعتبروها تتويجا مسرحيا لنشاطه السياسي والاجتماعي، على حين وجدنا عددا قليلا من النقاد لم يفته إدراك مدى سياسية مسرحيات «بنتر» أن يأتي بين الجد والهزل – احكاما نقدية مسرحياته، كما أن بعضهم فهم كيف اعتاد «بنتر» أن يلقي – بين الجد والهزل – احكاما نقدية مساخرة يتلقفها كتاب الصحف والنقاد والدارسون فيقتلونها بحثا وتمحيصا واستخراجا للمعاني الكامنة خلف المعنى الغالم... إلى المن المائية قدرة «بنتر» على الهزل احيانا (⁽⁷⁷⁾).

وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن كثيرا من الأعمال السرحية تحمل وراء معناها الظاهر الكثير من المعاني التي قد لا يلتفت إليها الكثير من النقاد مما يترتب عليه انقسام النقاد إليها الكثير من النقاد مما يترتب عليه انقسام النقاد إلى اكثر من فريق، مما يترتب عليه أيضا وقوع القارى، في حيرة من أمره بينهم.. أيهما صاحب التفسير الصحيح. ذلك أن وبنتر، وغيره من الكتاب مثل «صيمونيل بيكيت – وكافكاء قد اهتموا

اهتماما بالغا بقضية الفرد المطارد من المجهول(نظام الدولة أو أي قوة مائية أو الوان من القهر والاستعباد) كل هذه جعلتهم حسب قول «مارتن اسلن» يقتربون ليصبحوا أصحاب قضية واحدة، وهي بطبيعة الحال قضية فكرية، وقد تكون فكرية واقعية، أو قد تكون مجردة، إلا أن هذا لا يجعل النقاد مع ذلك يقربون بينهم ليصبحوا جميعا من حيث الشكل من كتاب مسرح العبث.

وهذا الأمر قد يختلف عندما نقرا أو نشاهد مسرحية آخرى مثل مسرحية «لعبة النهاية» لمصيمية مبينات السرحية التي تحتاج من النقاد والدارسين أن يبصبوا قرامنا ومشاهدينا بهذه النوعية من الأعمال التي تبتعد كثيرا عن التقاليد المسرحية من حيث الكتابة أو ومشاهدينا بهذه النوعية من ما الكتابة أو المحرض، والتي طلبا تعود عليها جمهور المشاهدين. هنا يأتي دور النقاد في تبصيرهم بهذا الاتجاه، ومحاولة إيجاد مرتادين له، وألا نكتفي بالأعمال المسرحية السيلة بحجة أن هذه الأعمال بها الكثير من التداخل والصعوبة بحيث تفهم من قبل جمهورنا، وعليه يجب أن «نفيد منه ما استطعنا من وجهة نظر دعاته، ومن وجهة النظر الإنسانية، ما دمنا نسلم بداعة أنهم لا ينتجون هذا الأدب عبثا، على حين يصفون به العبث. فمن وراء التصور للموقف في حلكته المروعة بعث قوي على التفكير في خطورته، ومن هنا تتعدد المخارج منه» (٢٤).

إن البحث عن المعاني الفامضة في بعض النصوص مهمة تخص الناقد المتخصص والمتذوق لهذه الاعمال، بحيث يستطيع أن يؤدي بعضا من مهامه في نتبع مراحل كتابة نص معين - كما حدث في تعرفنا على نص لغة الجبل - والظروف التي كتب فيها العمل محققين في ذلك المنهج التاريخي في عملية النقد، والذي لخصه مقال لـ «فيلييس م. جونز» جاء فيه: «إن أول مهمة يؤديها الناديخي في التي يضح لنا المبهم فيما نقرا، وأن ينظم النص تنظيما يضرجه من الفوضى التي ربعا كانت تسوده نتيجة لبعد العهد الذي كتب فيه، وكثرة الآراء التي تضاربت في أصله وتفسيره، (۲۰)

ونستطيع أن نستقيد من تطبيق هذا المنهج على الأعمال المسرحية العالمية والمحلية التي مضى عليها الزمن، ولم يدون لها أو يكتب عنها من قبل النقاد، وبذا ينقصها الكثير من التفاسير لكي بضح مابها من غموض أو التباس، وهو ما يساعدنا في إجلائها وإبعاد الأراء المضللة التي تفسر وتشرح دون علم بأصول ومعطيات هذه الأعمال. وهي مهمة شاقة تساعدنا مثلا في التعرف على كثير من أعمال كتاب المسرح الكلاسيكي، وتفسرها - كما تعرفنا - بكثير من ميراثنا المسرحي الذي كتب في نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ولا نعرف عنه الكثير. تلك مهمة يقوم بها النقاد وهم بذلك يتجنبون هذه الأعمال مفية التحريف والتغيير.

علاقة التذوق والنقد ببعض المدارس الأدبية والفلسفية وكذا المناهج النقدية

١ - المدرسة الكلاسيكية وموقفها من التذوق والنقد

تميزت المدرسة الكلاسيكية بقدرة ادبها على الخلود على مر الأزمان، كما يتميز هذا الأدب بانه يركز على محاكاة الآداب اليونانية والرومانية، وقد استمرت الكلاسيكية حتى القرن السابع عشر، وتمثلت في اعمال «كورني وراسين وموليير» إلى أن وصلنا إلى القرن العشرين، ولا تزال الكلاسيكية تمارس مهامها من خلال محاولة الكثير من الأدباء والفنانين المحافظة على مجموعة من المعايير كـ «الرصانة والتوازن، والقوة، واحتواء المثل الإنسانية الخالدة، ومن هنا يمكن وصف أسلوب اليوت بالكلاسيكية (٢٦). أي أن الأدب الكلاسيكي لا يعني اداب اليونان والرومان وحسب، بل وينسحب على بعض من النتاج الأدبي والفني والمسرحي في القرن العشرين

إن إطلاق مصطلح كلاسيكي على بعض الأعمال المسرحية والأدبية والفنية بشكل عام قد ينسحب أيضا على «كل كاتب يجيد التعبير اللغوي – نظرا لحرص الذهب الكلاسيكي على جزالة التعبير اللغوي ونصاعته – وحتى وإن لم يكن من أنصار المذهب الكلاسيكي المتقيدين بقواعده وأسسه الفنية والفكرية» (٣٠).

لابد وإن نعي في البداية أن الاتجاه الكلاسيكي في الادب والمسرح قد صحبه اتجاه نقدي كلاسيكي أيضا عرف باسم النقد بواسطة القواعد، وهو الذي اعتمد على القوائين الصارمة التي وضعها أصحاب هذا المبدأ و على راسهم أرسطو، وظل العمل بهذه القواعد دون الالتفات إلى محاولة إدخال التغيير عليها، إلى أن وصلنا إلى القرنين السادس والسابع عشر، حيث اهتم الكثير من نقاد هذه المدرسة باتباع ما سجله أرسطو وهوراس، إلا أنهم سعوا إلى إبخال بعض التعديلات عليها، وقد «انحصر اهتمام الكلاسيكية الجديدة في موضوعات عدة وهي: نقاء النماذج المرامية.. أهداف الدراما.. مفهوم محاكاة الواقع أو الايهام به، ومفهوم اللائق، ثم وحدات الحدث والمكان والزمان. أما الأشكال الدرامية المعترف بها فقد اقتصرت على التراجيديا والكرميديا، على ان يكن كل منهما شكلا قائما بذاته لايسمح بالخلط بين الاثنين، وعلى أن تكون لكل منهما القواعد والقواذين الخاصة بها» (٢٨).

استمرت الكلاسيكية بعد ذلك، وانبعثت مرة آخرى في القرن التاسع عشر محاولة أن تنظر إلى الامرد «نظرة تجمع بين الموضوعية الجامدة للكلاسيكية القديمة، والذاتية المتطرفة للرومانسية الجديدة، (^(۲) أي أنها حاولت قدر الإمكان تقليص مساحة الكلاسيكية القديمة بما تفرضه من قوانين صارمة، قد يقول البعض إنها سعت مابين توازن العقل، والشعور توازنا واعيا يكون الحضور الاكتف فيه للمقل، بالإضافة إلى حضور العنصرين الأخرين، (⁽¹⁾).

وبنقاد هذا الاتجاه يسعون سعيا حثيثا من أجل الإقلال من سيطرة العقل، وكذا التقليل من حدة التقاليد، وهم يقدرون أن التقاليد الأدبية دمفيدة عندما تكرن في خدمة التشكيل الفني للعمل الأدبي، فالتقاليد ليست مجرد قوالب صماء تفرض قسرا على العمل الفني، لأن العكس هو الذي يحدث (13)، وهو ما يتحقق عندما يحدث التطور الحياتي الذي ينعكس بطبيعة الحال على العمل الأدبي، والذي يصل تأثيره إلى النقد ليستجيب لهذا التطور. الأمر الذي لا يجمد المعابير أو القوانين التي تخصص لنقد العمل المسرحي.

ان ما سبق ذكره يأتي متفقا مع ما ذكره مجيروم ستولنتيزه فيما يختص بالدروس التي يجب ان يتعلمها الناقد حين يتعامل مع هذا المنهج القائم على المعايير أو القوانين، إذ يضيف قوله: «إن الناقد ينبغي أن يظل متيقظا للتجديد في الفن، وينبغي أن يكون على استعداد للتخلي عن المعايير التقليدية عنده، والتي لا تكون صالحة للحكم على اعمال جديدة مختلفة، (٤٠).

وعليه فإن علاقة هذا النهج النقدي بقضيتي التنوق والنقد بحاجة إلى تحديد وبلورة، نلك ان مشاهد أو قارى، العمل الكلاسيكي عليه - أي المتنوق - أن يدرك ما يتضمنه العمل من طبيعة متميزة تفجر حواس المتنوق فينفعل ويحزن ويفرح، مما يجعله يقترب من روح المؤلف فينفعل بشخصيات مسرحياته وأحداثها، وهو ما يسعى إليه الكاتب الكلاسيكي. أي أن المتنوق لابد أن يدرك موطن الجمال في هذا العمل دون أن يشغل نفسه بتحليله إلى جزئيات.

إذا كنا نذكر ذلك للمتذوق قلا ندعي بضرورة أن يلتزم - وكذلك الناقد - بحرمان أحاسيسه ونوازعه من الانطلاق. ذلك أنه - وكذلك الناقد - إذا سجنا أنفسهما في سجن القواعد مما ينتج عنه أن يكون الناقد «عاجزا نتيجة لاتباع هذا المنهج عن تنوق قيمة العمل، ويطيش نقده، سواء كان تقديريا أو تفسيريا، عن الهدف تماما، (٢٠).

مما سبق نستطيع القول إن منهج النقد بواسطة القواعد يحتضن المدرسة الكلاسيكية بمراحلها الثلاث، هذا إلى جانب أنه يحتضن وينسحب كذلك على منهج النقد التفسيري، وكذلك منهج النقد التقديري (الحكمي) هذا إلى جانب منهج النقد المرضوعي الذي يعتمد على القواعد والأصول النقدية التي قال بها أرسطو، ومن أتوا بعده من المنظرين والشراح للحكم على العمل الفنى من منطق القواعد.

٢ - علاقة التذوق والنقد بمذهب الفن للفن

إذا كان لنا أن نتعرف على مكانة التنوق الفني والمسرحي وكذا دور النقد في علاقته بأصحاب مذهب الفن للفن، أو كما يسمى أحيانا بد المدرسة التعبيرية، فإن أول ما يقابلنا في طبيعة تعاملهم مع التذوق الفني للعمل المبدع إنما هو امر لا يشغلهم كثيرا وكل مايشغل اصحاب هذه المدرسة
هو رفضه لأن «يخضع الفن لقواعد الأخلاق والدين، وقد عرف هذا المذهب باسم (مذهب
الطبيعيين)، وقد جاء هذا المذهب كرد فعل للرأي الذي يربط بين الخير والجمال. انشآ هذا المذهب
(بلزاك)، وتبعه (أميل زولا)، وكان من المتابعين لهذا المذهب الشاعر الفرنسي (بودلير) ومن أتباع
مذهب الفن للفن أيضا (تواستوي)» (13).

إن اعتماد مذهب الفن للفن على ضرورة تقليص مساحة الحض على الفضيلة، والترغيب في النبل، أمر ربما يأتي متفقا مع رسالة المسرح عامة، والادب خاصة، إذ لا يمكن بأي حال من الأحوال تقليص دور التذوق المسرحي، ومن ثم النقد المسرحي نظرا لاننا سوف نتخلى حيننذ عن رسالة المسرح والأدب وفي عالم التذوق الفني، والمهارة في البناء، (14).

إن مساحة التذوق من منطلق هذه المدرسة سوف تقل أو سوف تقتصر على ضرورة إخضاع انواق الشاهدين لوتيرة ومبدأ واحد هو ضرورة تحقيق هذا العمل للفضيلة والخير والنبل، وهو ما تنافى مع إبداعات كتاب المسرح اليوناني، رغم حرصهم عليهما – الخير والنبل – إلا انهم اهتموا بضرورة أن يصل الفن إلى مرتبة عالية، ولايدنو فنهم من هذه المكانة وإنما تركوها «لمن هم أدنى منهم مرتبة من الكتاب والشعراء، (٤٦)

إن اصحاب مذهب الذن للذن بعد أن سعوا إلى ضرورة عدم إخضاع الذن للقواعد الصارمة التي تلزم المبدع مراعاة الدين والفضيلة. بعد هذا كان عليهم أن يبلوروا رسالتهم بشكل معقول ومقبول، إلا أن هذه المدرسة لم تستطع أن تمنع نفسها من طفيان الشكل والصورة الذي يجرد الفن من كل مضمون لا يثير الإحساس بالجمال في نفس الإنسان(⁽¹⁾). مما سبق يتضح لنا أن الرسطو بذلك قد رفض أن يتحول الفن – الشعر – إلى خطابة ووعظ وإرشاد، لأنه أدرك أن ذلك سموف يسلبه صمفة الخلق الفني، وقال أرسطو: «إن العقل غير الناضج الذي يفتقر إلى ملكة الابتكار على استعداد دائم لأن يتلقى الحكمة عن الآخرين، (⁽¹⁾)

إذن يدعو أرسطو إلى المحافظة على ما للشعر من قيم جمالية تنمي حاسة التذوق الفني والجمالي للمتذوق وكذا الناقد، وهي ما ساد طوال عصور الأدب والمسرح – تراجعا أو ازدهارا – إلى القرن العشرين حيث اعتبر النقاد نظرية الفن للفن «دفاعا مستميتا عن الفن حتى لا يستخدم في الأغراض النفعية المؤقتة، ولكن كان من اعداء النظرية من حاول دفعها بالهروب من الارتباط بالحياة وترجيه مجرى الأمور اليومية» (⁽²⁾).

إن كثيرا من المهتمين بحركة الأدب عامة والسرح خاصة قد فهموا دنظرية الفن للفن»⁽⁻⁹⁾ فهما خاطئا إذ اعتبروها هروبا من الحياة ومن الناحية النفعية، والانغراق في عوالم الضبياع والتشتيت والغموض، وربما هذا يعطي فرصة كبيرة لازدياد مساحة التذوق الإبداعي، إلا أنه من ناحية أخرى يفقد الإبداع الصلة المباشرة – أي الفن القائم على الخطابة والوعظ – بينه وبين الجمهور، لانه سيتحول – أي الفنان – إلى مصطلح اجتماعي ينشفل فقط بالتركيز على ترسيخ المبادى، والقيم العليا.

مما سبق نصل إلى حقيقة مؤداما أن المتذوق المسرحي أو الناقد المسرحي لابد وأن يعي جيدا أنه امام مثل هذه الاتجاهات – اقصد الاتجاه الفلسفي المثل لذهب الفن للفن – وعليه أن يستغيد من تركيز هذ المذهب على الجانب الجمالي والابتعاد عن الناحية النفعية، وهو ما يساهم في نعو حواس المتذوق أو الناقد، وتربية ذوقه إلى أن يصل إلى مرحلة التعلم والقدرة على التقييم لهذا الإبداع الفني الجمالي المبتعد عن الناحية النفعية، وهو ما اعتقد أنه يؤخذ على أصحاب هذه المدرسة الذين «يعتقدرن أنهم – بذلك – حماة الفن من السوقية والدعاية والإسفاف، وهم في الوقت نفسه من أعداء الفن لانهم يمنعون عنه الهواء المتجدد، ويقطعون شريان الحياة الذي يعده بالموقية من المجتمع، (10).

وإذا نحن اقتربنا من المنهج الذي يصلح الناقد في تقييمه لأعمال هذه المدرسة فإننا سنجد أن المنهج التأثيري (الانطباعي) – الذي هو أيضا مدرسة أدبية وفنية – يحتضن مذهب الفن الفن، المنهج التأثيري (الانطباعي) – الذي هو أيضا مدرسة أدبية وفنية – يحتضن مذهب الفولية وكذا الرومانسية، مرورا بالواقعية ثم الرمزية، والطبيعية، والتعبيرية، والعدمية، والوجودية، وأخيرا المبثية. وعليه نستطيع الفول إن هذا المنهج وإن كان قد «ظهر في التاريخ القديم، الذي صاحب ظهرر فنون الادب المختلفة ويخاصة فنون الشعر، ولكن هذا المنهج كما قلنا لم يختف قط بل ظل قائما وضروريا حتى اليوم، وكل ما طرا عليه أنه قد أصبح يعتبر مرحلة ضرورية وأساسية وأولية في النقد، ولكنه لا يمكن الاكتفاء به والوقوف عنده، (٢٥).

٢ - المدرسة التأثيرية وعلاقتها بالتذوق والنقد المسرحي

إذا كنا قد أدركنا ما لذهب الفن للفن من مقصد صديح في الإعلاء من شأن الجمال والابتعاد عن القوانين المعقلية البالية التي سادت وسيطرت على الكلاسيكية، فإننا هنا أمام المدرسة التأثيرية -- الانطباعية -نقترب من مذهب الفن للفن في كونها تحدد مقيمة العمل الأدبي أو الفني بعدى ما يستطيع هذا العمل أن يثيره فينا من عاطفة وإحساس غير عابئين بعا يتضمنه العمل من أي مقوم من مقومات الحياة الإنسانية، (¹⁹⁾.

مما سبق يتحدد المنهج النقدي لهذه المدرسةالتأثيرية التي تعلي من شأن الإحساس بعقدار ما يتركه فينا العمل من أثر يحرك حواسنا، الأمر الذي يجعل للمتلقي سواء كان متذوقا أو ناقدا حرية التعبير الشخصي والذاتي لرد فعله، وهو ما عاب عليه الكثير. إذن كيف نعتمد على إحساس الناقد، وانطباعاته في تقييم العملية الإيداعية؟ إنهم بذلك يتركون العنان لكل من يتحول دون مقدمات إلى فنان وهم - أي الانطباعيين - «جروا وراء التسجيل الحرفي للانطباع، ونسوا القيمة الجمالية، والضرورة الدرامية اللتي تحتمان وجود الشكل الفني الذي يحول هذا الانطباع المجرد إلى جسم فني جميل من خلال العمل الادبي، (60).

إنني لا اعترض على المنهج التاثيري الانطباعي في مجالي التذوق أو النقد، ذلك أنه في مجال التنوق يعد المنهج الاساسي الذي يعتمد عليه المتدوق، وكـذا على خبراته الحسية في استقبال ما يقرؤه أو يشاهده. أما فيما يختص بالنقد فإن هذا المنهج الذي يركز على ذات الناقد وعلى ما يقرؤه أو يشاهده. أجل الانتقال فيما بعد إلى مرحلة أخرى «موضوعية يفسر ويبرر فيها الناقد انطباعاته بحجج موضوعية يستطيع الغير مناقشتها» (**)، وهو ما يزكد عليه د. محمد غنيمي هلال في أهمية هذا الاتجاه التأثيري الذي يتمثل في كونه يسعى إلى «الإلماح على ضرورة تذوق الجمال الانبي، والحرص على الشعور بالمتعة الفنية، في وجه غلوا، المقيدين التقريريين الذين قصر إدراكهم، فوقفوا عند النظريات المحدودة بها وهم عبيد لها» (**).

مما سبق نصل إلى حقيقة مؤداها أن المنهج التأثيري في النقد منهج برغم كونه تأثيريا أنطباعيا فإنه يتضمن قدرا من الذاتية التي هي جزء أساسي عند المبدع سواء كان كاتبا مسرحيا أو قصيصيا أو روائيا. إذن لا ننكر جانب الذاتية في حياة المبدع أو الناقد، على أساس أن هذه المدرسة – أي الانطباعية – إنما هي أتجاه «يدخل في جميع المدارس الادبية دون استثناء حيث الانطباع عنصر أولي في خلق أي عمل فني، ولكنه ليس كل شيء كما نادت الانطباعية الخالصة. لذلك اندثرت عندما أقتصرت على تسجيل الانطباع كهدف في حد ذاته، ولكن مع ذلك يظل الانطباع المادة الضام التي يتشكل منها أي عمل فني ابتداء من الرومانسية ومارا بالواقعية والرمزية والطبيعية والتعبيرية والعدمية والوجودية والعبية» (**).

٤ – المدرسة الإنسانية وما بعدها ومنهج النقد السياقي

إن الحديث عن المدرسة الإنسانية إنما يأتي متفقا من حيث النشأة مع المدرسة الكلاسيكية، إذ الإنسان كان ولا يزال محور الفن، وإن قلت المساحة بين مذهب أو مدرسة وأخرى إلا أننا مع ذلك لانستطيع «تحديدها بزمن معين، أو نتبعها في منطقة معينة أو ربطها برواد يعود إليهم الفضل في تحديدها وبلورتها كمذهب أدبي له ملامحة الخاصة، وخطوطه العريضة التي تسهل مهمة التعرف عليه بين بقية الذاهب المتعددة (٩٠٩).

إن المدرسة الإنسانية - بظهورها محددة المعالم في العصر الحديث - تشمل العديد من المدرس والمذاهب الأدبية التي جاءت منذ القرن الثامن عشر - مع بداية المسرح الأوروبي الحديث - في محاولة منها للتقليل من حدة سيطرة القوانين والاصول الأدبية النقدية - المعيارية التي وضعها ارسطو، إلا أنهم أدركوا أن الفن لا يمكن أن يحيا اعتمادا على الموهبة، أو الذات الداخلية فحسب. ذلك أن الكثير أعاب من قبل على منهج النقد التأثيري - الإنطباعي، واكتفوا بالنظر إليه على اعتبار أنه مرحلة تؤدي إلى النقد الموضوعي الخاص للقواعد والمعايير، وعليه اشتغل القرن التاسع عشر كله بالبحث عن مناهج ومذاهب للأدب والفن تشعبت تلك المذاهب والمناهج تشعبا لم تشهد الإنسانية مثيلا له من قبل، حتى ليصح القول بأن القرن التاسع عشر، ثم القرن العشرين من بعده قد كانا عصرى ظهور الذاهب والمناهج الأدبية والفنية، وتنوعها تنوعا كبيراء (**).

إن تعدد المدارس والمذاهب والاتجاهات الأدبية يقتضي بطبيعة الحال التعدد في مناهج النقد على انتقد على انتقد على انتي أرى أن الإنسانية وما احتضنته من مدارس قد شملت المدرسة الماركسية (⁽¹⁾ والمدرسة المرويدية وكذلك احتضنت أراء المؤرخ والناقد الكبير «هيبوليت تين»، والناقد «بروينتير»، والناقد «سانت بيف» الذين اتبعوا منهج النقد التفسيري، وقد احتضن كل هذه المذاهب الأدبية والنقدية منهج النقد السياقي.

إن النقد السياقي، وكما هو واضح من لفظه سياق يشمل «الظروف التي ظهر فيها العمل، وتأثيراته في المجتمع، ويشمل بوجه عام جميع العلاقات، والعلاقات المتبادلة بين العمل وبين الأشياء الأخرى باستثناء حياته الجمالية.

فالإدراك الجمالي يتركز على العمل مأخوذا على حدة، غير أن العمل، إذا ما نظر إليه بطريقة غير جمالية، كان بوجد في سباق، (٢٠).

إن النقاد الذين ينتمون إلى النقد السياقي، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر كابل ماركس، ومن أتى من بعده من النقاد الاجتماعيين أمثال «هيبوليت تين» براعون جميعا في نقدهم السياقي التطليق نواحي كثيرة، قلما تؤدي إلى إبراز النواحي الجمالية في العمل المسرحي حين التناول.

إنني اعني بذلك أن غرص هؤلاء الاجتماعين وراء الظروف الاجتماعية في محاولة منهم لتحديد الأطر الاجتماعية في محاولة منهم لتحديد الأطر الاجتماعية وتفسير البيئة التي أفرزت هذا الإنتاج، هذا إلى جانب محاولة تضييق الخناق على أنفسهم باستخدام المعايير الاجتماعية التي يحددونها كمعايير للحكم على هذا الإيداع المسرحي خاصة - والفني عموما - مما يؤدي إلى صدرف المتذوق أو الناقد بعيدا عن القيم الجمائية التي يتضمنها الإيداع، مما يؤثر سلبا على أسلوب التناول عند كل منهما، ولا شك أن

انتهاج المتذوق السرحي لهذا المنهج في تنوق وتلقي العمل طبقا لفاهيم مبدعية سوف يحدد ويضيق الخناق على المتذوق لتحقيق متعته الحسية في تنوقه لهذا العمل، وعليه لا أجد في النقد السياقي من منطلق النقد الماركسي الاجتماعي التحليلي (^{۱۲)} سبيلا صحيحا لإبراز النواحي الجمالية للمتذوق، وسوف يتحول الامر إلى نجاح المؤلف فقط في الانتصار للفكر الماركسي اجتماعيا عن طريق الثورة التي تطبح بالكيان الاجتماعي المتردي. (^{۱۲)}

أما فيما يختص بالناقد الماركسي (¹⁴⁾ «فبرغم أنه يستخدم منهج التحليل المعتمد على محاولة التعرف على السياق الذي يجمع بين المبدع والمجتمع، فإنه دون شك سوف ينحصر في حدود المعايير والقواعد، وهو خطأ كبير يجعل أنصار هذا الاتجاه دائما – كما حدث مع تين -يحولون «الفاهيم الواقعية السياقية إلى معايير للتقديرء (¹⁰⁾.

إن المجتمع بشكل عام وقضاياه الاجتماعية والاقتصادية بشكل خاص هي الاساس الذي يشغل الناقد الماركسي وعليه نجد أن الاهتمام بهذه النواحي يقلل من الاهتمام بإبداعات المؤلف المسرحي، وهو إن وجد كما في إبداعات إبسن، فإن الناقد الماركسي السياقي إن طبق عليه هذا المسرحي، وهو إن وجد كما في إبداعات إبسن، فإن الناقد الماركسي السياقي إن طبق عليه هذا المنتج النقدي فلن يبرز النواحي الجمالية في التجرية المبدعة، وما ينسحب على تين ينسحب ايضا على الناقد «سانت بيف» (١٦) الذي يركز – مع اعتناقه لآراء فرويد – على الفرد في محاولة لتحليل التجرية المسرحية المقدمة من منطلق التركيز على نظرية علم النفس، ودراسة العلاقات النفسية بين الشخصيات اكثر من التركيز على التجرية الجمالية، ويتلكد هذا ببساطة من مجرد اهتمام الناقد بالتركيز على المفدمون بطبيعة الحال بدراسة العلاقات من وجهة نظر نفسية. ولنافذ على ذلك امثله من مسرح شكسبير في مسرحيته «هاملت» أو «ماكبث» «أو عطيل» إذا ما ولنافة الناف سوف يركز كثيرا على العلاقة بين هاملت – على سبيل المثال – وامه، أو على العلاقة بين هاملت – على سبيل المثال – وامه، أو على كان من المرت الجمالية في العمل، والتي

إننا باتباعنا هذا المنهج النقدي ننسى كمتنوقين او كنقاد أن العمل الفني المبدع من جانب الكاتب المسرحي على وجه الخصوص والمبدع الفني عموما، في الإمكان أن نتنوقه، وأن نطلك، وأن نقده جماليا دون أن نقترب من شخصية الكاتب المبدع، غير أننا لابد وأن نعي أن النقد السياقي يكتفي من منطلق وجهة نظر «سانت بيف» النقدية بالنظر إلى النواحي النفسية أكثر من النظر إلى إدارك الإبداع الجمالي في التجربة الفنية، وهو ما جعل البعض يعلن أن هذه المدرسة - أقصد الإنسانية - مدرسة تين - سانت بيف - قد حولت الانتباه بعيدا عن الفن إلى التاريخ أو علم النفس.

ه – حركة النقد الجديد

مما لا شك فيه أن القرن العشرين – وخاصة بعد انتصافه – شهد تطورا ملحوظا في جميع فروع العلم والمعرفة والحياة بشكل عام، وانعكس بطبيعة الحال على الفنون والآداب – موضوع حديثنا – وعلى الدراما والنقاد بشكل خاص، إذ لم نعد نجد الكتاب – بل والنقاد المسرحيين أيضا – الساعين إلى التمسك بتناول الموضوعات التقليدية، مما ترتب عليه وجود الكثير من النقاد الراضفين الاستحانة بمناهج النقد التقليدية القديمة، وهو ما يعني أننا سنواجه بالعديد من المدارس الأدبية التي سنبحث عن صبغة نقدية جديدة توائمها.

سعت حركة النقد الجديد – التي تميزت بالدقة والعمق البالفين في تطيلاتها – إلى ضمرورة الابتعاد قدر الإمكان عما تميزت به المدارس النقدية سالفة الذكر، فهي ترفض النقد بواسطة القواعد، على اعتبار انه يعيق حركة الإبداع والنقد، وكذلك رفض النقد الانطباعي الذي يترك العنان كاملا للناقد ليدلي بآرائه الشخصية المنبعة من ذاته دون إخضاعها للنظرة الموضوعية، بل هم يسمعون «إلى تفسير العمل وإيضاحه. وإذا وجدت عندهم تقديرا فإن ذلك لا يكون عن طريق تطبيق قواعد، إذ إن النقاد الجدد، الذين يعرفون تاريخ النقد، يشكون في القواعد. وهم يكرسون جهودهم لتحليل أعمال محددة، ويجعلون التقدير ينبثق من التفسير» (^(۱)).

إن النقاد الجدد يركزون على العمل من الخارج ولا يرون في العمل انعكاساً للمجتمع، ومن ثم فإن الناقد أو المتدوق للموضوع الجمالي في العمل يأتي منفصلا بحيث لا يخضعان كل أعمال المبدع للنقد أو التقييم، بل يركزون عملهم عادة على «قصائد أو روايات منفردة على حين أن النقد السياقي يتجه إلى جمع كل أعمال المؤلف الواحد أو العصر الواحد سويا» (١٨).

إن الناقد - وكذلك المتذوق - في راي حركة النقد الجديد اقترب في وظيفته فيما هو سائد على مساحة الفن والادب العالمية، بمعنى أنه حدث تغير في مهامه ووظائفه إذ إنه أصبح مطلوبا منه الا يبحث في بواطن العمل، وإنما يركز على اللغة وما تحمله اللغة والألفاظ من معاني ودلالات، وهو اتجاه نقدي يسمى بالبنائية structuralismme ويسلم «النقاد البنائيون بأن القرى الاجتماعية تترك بصماتها على نفس الفنان، وتحدد الأبنية والعوالم، والموضوعات التي قد تكشف عنها هذه النفسية من خلال الأعمال التي تصوغهاء (١٠).

إن «رولان بارت» Roland Barthes رائد النقد البنائي تحدث عن دور اللغة، وكيفية التعامل معها، وهو ما «احتل مساحة من أفكارنا عن دور اللغة، وبالتالي عن العمل الذي أصبح يستمد وجوده الظاهري الآن من اللغة» (۲۰).

وهو يعني بذلك آننا لابد وأن نحلل العمل دون أن نضمع لأنفسنا نظما قائمة سلفا. ولكن اللغة بواسطتها الاساس الذي يحمل الكثير من الدلالات والعلامات سوف يعتمد عليها الناقد في تحليل العمل، وهو ما أكد دعوة «بارت» إلى الإعلاء من شأن اللغة.

إن التقدم الذي حدث للغة ولوظيفتها استحضره «بارت» في مجال النقد ليطبقه على المسرح» إذ هو يعلن أن العمل المسرحي – على سبيل المثال – قد يكون للغته عند التحليل أكثر من معنى. ذلك أن منح العمل «معنى معينا قد يكون مكتوبا وقد يكون صامتا، وبالتالي يتحتم الفصل بين قراءة العمل ونقده. العملية الأولى مباشرة. أما في الثانية فتلعب اللغة – كتابه الناقد - دور الوسيط، علم - نقد - قراءة – تلك هي الكلمات الثلاث التي تنسج حول العمل هائة من اللغة» (١٠).

مما سبق ندرك أن حركة النقد الحديث قد شعلت النقد البنيوي، والنقد السيميوطيقي (السيميولوجي) ^(۷۷) والتفكيكية، وسنقصر حديثنا هنا على البنيوية كنظرية أدبية نقدية تمخضت كما ترى د نهاد صليحة إلى تيارين متمايزين.

التيار الأول: يمثله «ياكبسون» وأتباعه. واعتمد في نظرته إلى العمل الفني على عنصري
 الوظيفة والبناء مفسرا إياها تفسيرا لغويا صرفا.

 التيار الثاني: فهو يرد العمل الفني في معناه وقيمته إلى الأنماط اللغوية التي تكونه، ولكنه أيضا بربط هذه الأنماط بالواقع الإنساني في إطار تاريخي متغير (^{٧٧}).

مما سبق ندرك أن أصحاب التيار الأول يبتعدون كثيرا عن المجتمع الخارجي الذي يحيط بالإبداع المسرحي، ولا يعتقدون أنه تعبير عن المجتمع أو انعكاس له، بل يركزون على العلامة التي يتضمنها النص، ويقصدون بها الكلمة المكتوبة، والدلالة ويقصدون بها مفهوم الكلمة المكتوبة، وهما معا يشكلان نظاما من العلامات التي تقيم علاقات متشابكة بن الكلمة وما تشير إليه.

أما التيار الثاني فهو لا يفصل العمل عن المجتمع المحيط به، بل هو ينتع إفرازا له وتعبيرا عنه، مما يقربهم من المدرسة الهرمانيوطيقية الألمانية، ومدرسة النظوية الجمالية في الاستقبال.

وعليه نستطيع القول إنه على كتاب المسرح طبقا لمفاهيم هذه المدرسة البنيوية أن يغيروا في كثير مما اعتاد عليه الناس في اساليب وطرق كتابة النص المسرحي، مما يترتب عليه إحداث تغيرات في طرق استخدام المؤلف لأدواته في كتابة النص وخاصة فيما يتعلق بمفهوم الكاتب لمناهج وطرق الكتابة التقليدية التي وفضها النقاد كما أنهم رفضوا «فكرة التسجيل الواقعي، التي تفترض اسبقية الموضوع على وجود الكتاب، وما يترتب على هذه الفكرة من صفات الصدق والإخلاص والأمانة التي تنسب عادة إلى الكاتب الجيد. وكذلك هم ينبذون مبادىء الإلهام، والخلق الأدبي، ورسالة الكاتب، والعمل الفني، ويعتقدون أن الإيمان بهذه المبادى، يؤدي في النهاية إلى إلغاء النص والقضاء على وجوده المادي الكثيف، كما يؤدي إلى انقراض الفن الأدبي أو التضحية بأهم متطلباته وخصائصه» (^{۷۷)}.

إن هذا التطور الذي حدث في أساليب صياغة النص المسرحي ينسحب بطبيعة الحال على المتحدود للجدوق وكذا الناقد إذ إنهما أصبحا أمام إنتاج يعتمد كثيرا على إفساح المجال لإظهار خبرات وتجارب ليس فقط المؤلف وحده ورؤيته الأحادية، بل أيضا المتلقي أو المستقبل للعمل الفني ، ذلك ما أشارت إليه د. نهاد صليحة فيما يتعلق بالمدرسة الهرمانيوطيقية، وكذا مدرسة النظرية الجمالية في الاستقبال إذ تؤكد هذه النظرية على «نسبية ومعنى قيمة العمل الادبي، وعلى دور القارى» في ماساغتها» (٧٠).

وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أن النظريات النقدية في القرن العشرين تركز على دور المتلقى متذوقا كان أم ناقدا في تناول العمل الفني المبدع وهو – أي المتلقى – قادر على أن يتفحص هذا الإبداع ويتنوقه بناء على خبراته الشخصية التحصيلية، وهو ما يدل على أن المدارس النقدية المعاصرة في القرن العشرين تركز على جانب التنوق ولا تلغيه، بل إنها تسعى المدارس النقدية المعاصرة في القرن العشرين تركز على جانب التنوق ولا تلغيه، بل إنها تسعى بالناقد، ذلك أن المعاديد بدعو الناقد إلى ضرورة تقييم العمل المسرحي والحكم عليه اعتمادا على البحث عن المعاني الداخلية، من أجل تحديد الأبنية الكامنة فيه دون أغفال الواقع الحيط بهم، أي لا يفصلونه عن المجتمع، وعليه نجد أن الناقد البنيوي قادر على تحليل العمل تحليلا بنائيا لوين أن يعتمد في ذلك على نظام مسبق، بل نجد أن لكل عمل نظمه المتضمنة فيه، وهو ما جعل البنائيين يؤكدون على تعدد المعاني للعمل المبدع، وهو ما اثارته د. سامية اسعد بقولها وإن العلاقة بين النقد والعمل علاقة شكل بمعنى لا يمكن أن يزعم الناقد (ترجمة) العمل لأن ما من شيء أوضح منه. كل ما يقدر عليه هو (إيجاد) معنى معين مشتق من شكل معين (شكل معين (شكل معين (شكل معين (شكل العمل)). يعدد الناقد الماني، ويخلق لغة ثانية تسبح فوق لغة العمل الأول، بعبارة آخرى، يمنح الناقد العمل الملامات، (^(٢)).

المراجع

(١) ورد في القاموس المحيط، والمعجم الرسيط، وتاج العروس استخدام لفظة الذوق والتذوق فجاء في تاج العروس أن كلمة ذوق تعني ذاته ذوقا، وذواقا ومذاقا ومذاقه اختبر طعمه وأصله قيما بقال تناوله فإن ما يكثر منه يقال له الاكل (واثقته أنا) اذاقه. قال المنصف. وقال بعض مشايخنا· الذوق حباشرة الحاسة الظاهرة أو الباطنة، ولا يختص ذلك بحاسة اللهم في لغة القرآن، ولافي لغة العرب

ر(ما ذاق نواقا) إى (شيئا) والنواق فعال. بمعنى مفعول من الذوق، ويقع على المصدر والاسم، وفي الحديث. ءلم يكن يذم نواقاء -وتذوقه أي (ذاقة مرة بعد مرة) وشيئا بعد شيء واستذاق الأمر لفلان. إنقاذ له، ولا يستذيق لي الشعر إلا فلان. ودعنى أتذوق طعم فلان

وتذوقت طعم فراقه، وكل ذلك مجاز وكتابة (للمزيد راجع ص عن ٢٢٩: ٣٢٦ من تاج العروس من جواهر القاموس للسيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، الجزء الخامس والعشرون تحقيق مصطفى حجازي، وزارة الإعلام، الكويت ١٩٨٩ للمزيد أيضا راجع المعجم الوسيط، الُجِرء الأول - الطبعة الثالثة ص ٣٣٩ وكذلك القاموس المحيط للعلامة مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي الشيرازي، الجزء الثالث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٩، ص ٣٣٧ وعليه نستطيع القول إن الذوق فطري وهو احدً الحواس الخمس التي منحها الله للإنسان أما التذوق فياتي في المرحلة التالية بعد الذوق وهو يطبيعة الحال مكتسب من خبرات الإنسان (تنوقه أي ذاته مرة بعد مرة ويعني أيضا سعة الإنسان وأطلاع) إذن التذوق يختلف من شخص إلى أخر فينمو عند هذا اكثر من ذاك بخلاف النوق

- سيرد خلال حديثنا انتقال الكلام من التنوق إلى الذوق من دون اصطناع الصواجر أو التميزات الصادة بينهما نظرا لانهما يتواجدان في مجال واحد رحب

(٢) د أميرة حلمي مطر. مقدمة في علم الجمال، دار الثقافة للنشر والتوزيع القاهرة (د. ت) ص ٩٥.

(٣) د وفاء محمد إبراهيم. علم الجمال قضايا تاريخية ومعاصرة، مكتبة غريب، القاهرة (د. ت)، ص ١٣٢.

(٤) المرجع السابق، ص ١٣٥ وللمزيد راجع د مصطفى حتورة، سيكولوجية التفوق، ص ٧٣.

(°) د حسن محمد حسن. الأصول الجمالية للذن الحديث، دار الفكر العربي، القاهرة، (د. ت)، ص٤٤.

(٦) د. مصطفى يحيى: التذوق الفنى والسينما، دار غريب للطباعة، القاهرة ١٩٩١، ص ١٩.

(٧) د محمد عزيز نظمي سالم: علم الجمال، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية ١٩٨٦، ص ٥٧.

(٨) الرجع السابق، ص ٩٥.

(٩) د. محمد على ابوزيد. فلسفة الجمال، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٨٧، ص ١٠٧.

(١٠) د إبراهيم علي أبو الخشب في محيط النقد الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥، ص ٣٣.

(١١) للمزيد راجع المرجع السابق، ص ٢٦: ص ٢٦

(١٧) د. محمد صنقى الجباخنجي: الحس الجمالي، دار المعارف ١٩٨٠، الطبعة الأولى، ص ٤٨- ١٩.

(١٣) محمد مندور في الميزان الجديد، القاهرة ١٩٤٤.

(١٤) د. محمد زكي العشماري قضايا النقد الأدبى، دار المرقة الجامعية، الإسكتبرية، ١٩٩٠، ص ٣٨٦.

(١٥) بول موى النَّطق وقلسفة العلوم، ترجمة فؤاد حسن زكريا، مكتبة نهضة مصر، القاهرة ١٩٦٢، ص ٧٧

(١٦) محمد حافظ دياب النقد الأدبي وعلم الاجتماع، مجلة فصول، للجاد الرابع، العدد الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ۱۹۸۲، ص ۹۰

(١٧) د. عز الدين إسماعيل. الأدب وفنونه، دار الفكر العربي، القاهرة، ط. ١٩٧٣، ص. ٦٦.

(١٨) د. أميرة علمي مطر. مقدمة في علم الجمال، مرجم سبق ذكره، ص ٩٠.

(١٩) برناردف ديك النقد السينمائي (النظرية والتطبيق) مكتبة الشباب، الهيئة العامة لقصور الثقافة العدد /٣٠/١٩٩٥، ص٧٠.

(٢٠) بـ وليد القصاب. دراسات في آلنقد الأدبي، دار الطوم، الرياش، ١٩٨٢، ص ٢٧ – ٢٨

(٢١) حيروم ستولنيتز النقد الفني، الهيئة المسرية العامة للكتاب، ترجمة د. فؤاد زكريا، القاهرة ١٩٨١، ص ٢٣٧.

(٢٢) د سامية أحمد أسعد النقد المسرحي والعلوم الإنسانية، مجلة فصول، للجلد الرابع، العبد الأول ١٩٨٣، ص ١٥٥.

(٢٢) الرجم السابق، ص ١٥٦

R - Peacok: criticism & Personal taste clarendon Press Oxford 1972, P. 3 (YE)

(٢٥) المرجم السابق، ص ٢

(٢٦) قضاياً النقد الأدبي، مرجع سبق ذكره، ص ٣٨٣.

(٢٧) الرجع السابق، ص ٣٨٣

T. S Elost: selected Prose, london - 1953, PP, 50 - 51 (YA)

(٢٩) د وفاء محمد إبراهيم: علم الجمال، ص ١٣٥.

(٣٠) الرجع السابق، ص ١٣٥

```
(£2) علم الجمال، مرجع سبق نكره، عن ٧٠
                           (٤٥) د. محمد زكي العشماري: دراسات في النقد الأدبي الماصر، دار المرفة الجامعية، ١٩٩٢، ص ٧٠
                                                                                           (٤٦) المرجع السابق، ص -١٧.
                                                       (٤٧) د محمد مندور في الأدب والنقد، القاهرة (د. ت) مس ١٧٤ – ١٢٥
                                                    (٤٨) المذاهب الأدبية من آلكلاسيكية إلى العبثية، مرجع سبق ذكره، ص ٧٤.
                                                                                            (٤٩) الرجم السابق، ص ٨٢
(٥٠) لزيد من التفاصيل راجع ارنست فيشر ٠ ضرورة الفن ترجمة اسعد عليم، الهيئة المسرية العامة الكتاب، القاهرة، ١٩٨٦، ص
                                                                 (٥١) د. تبيل راغب. النقد الفتي، دار المارف ١٩٨١، ص ٣٨
                                    (٣٧) د صعد مندور الأدب وقنونه، دار تهضة مصر الطبع والتشر، القاهرة ١٩٨٠، ص ١٢٨.
                                                          (٥٣) دراسات في النقد الأدبي للعاصر، مرجع سبق ذكره، ص ١٧١.
                                            (٤٤) الذاهب الأدبية من الكلاسيكية إلى العبثية، مرجم سبق ذكره، ص ١١٥ – ١١٦.
                                                                              (٥٥) الأدب وانتونه، مرجم سبق نكره، ص ١٣٩
                     (٩٦) د. محمد غنيمي هلال: قضايا معاصرة في الأدب والنقد، دار نهضة مصر للطبع والنشر (د. ت)، ص ١٠٦
                                            (٥٧) للذاهب الأنبية من الكلاسيكية إلى العبثية، مرجع سبق ذكره، ص ١٢٠ – ١٣١.
                                                                                             (٥٨) المرجع السابق، ص ٥٨
                                                                             (٩٩) الأبب وقنونه، مرجع سبق ذكره، ص ١٣٢.
                                                              (٦٠) للمزيد عن المسرسة الماركسية والفرويدية وتين وبيف راجع:
                       د. سامية أحمد أسعد: في الأنب القرنسي الماصر، الهيئة الصرية العامة للكتاب ١٩٧٦، من ٨٦ – ٩٢.
                                                              (٦١) جيروم ستولنيتز. النقد الفني، مرجع سبق نكره، ص ١٨٠.
                                                                          (٦٢) راجع في النقد الماركسي وعلاقته بتذوق القيم.
                                      Terry Eagleton: criticism & I - deology verso, Editian, Iondon 1978, 162 - 178 .
                                     (٦٣) للمزيد من الأمثلة والاستشهادات، راجع جيروم ستولنيتز النقد الفني، ص ١٨٥ - ١٨٧.
                                                                                                      (۱٤) المزيد راجع:
                                    Terry Eagleton. - circicism & I - deology verso, Editian, Iondon 1978, 162 - 178.
                                                              (٦٩ ) جيروم ستولنيتز. النقد الفني، مرجم سبق ذكره، ص ١٩٧
                         (٦٦) للمزيد راجع. د. إبراهيم حمادة. مقالات في النقد الأدبي، دار للعارف، القاهرة، ١٩٨٧، ص ٩٠ – ٩٣.
                                                                                           (٦٨) المرجع السابق، ص ٧٣٠
                                                               (٦٩) في الأدب الفرنسي للعاصر، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٠.
                                            Josus V. Harari: Textual strategies, Methuen & Co. 11 d, cornell univ. (V1)
                                                                (٧١) في الأدب الفرنسي الماصر، مرجم سبق ذكره، ص -١٢
(٧٢) تناول الباحث منهج النقد السيميراوجي في دراسة بعنوان ومقدمة تحليلية في ماهية النقد المسرحي مع التطبيق على النهج
                                                                                                      السيميولوجىء
                         (٧٢) د. نهاد صليَّحة للسرح بين الذن والفكر، الهيئة المسرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٦، ص ١٥ – ١٧.
  (٧٤) د. محمد على الكروي النقد البنيوي بن الأيديولوجيا والنظرية، مجلة فصول، الجاد الرابع، أكتوبر، نوفمير، ديسمير، ١٩٨٢، ص ١٤٦.
                                                                     (٧٥) المسرح بين الفن والفكر، مرجع سيق ذكره، حس ٦٨
                                                                       (٧٦) في الأدب القرنسي، مرجم سيق ذكره، ص ١٣٧٠.
```

(٣١) الرجع السابق، ص ١٢٧

(٤٣) المرجع السابق، ص ١٧٨.

(٣٢) د. أميرة حلمي مطر: مقدمة في علم الجمال، ص ٦٩

(٤٠) د ميشال عاصي الفن والأدب بيروت، طائنية ١٩٧٠، ص١٩٠
 (٤١) المذاهب الأدبية من الكلاسيكية إلى العبثية، مرجع سبق نكره، ص ١٧
 (٤٢) جيروم ستوانينز النقد الفني، مرجع سبق نكره، ص ١٧٨

(۱۳) د محسن مصيلهي مقلمة مصريحة لقا الجيار، مجلة السري القند (١٩/٨٠/ من ١٩٠٠ م. ١٥) (١٤) . مصني مصين مصيلهي مقلم السريحي، دار نهضة مصر، القاهرة ١٩٥٠ م. ١٥ و (١٩) . مصني (١٩) مضية شهي طلال، والسريد راجع (١٩) م. الإمامي العالمي والسريد راجع (١٩) م. الواحد العالمي والسريد المجل (١٩/١ م. الواحد) العالمية والسريد المجل المساسية العالمية العالمية العالمية (١٩/١ م. المحد مندور الكلاسيكية والأصول الفنية للراما، دار نهضة مصر للمج والنشر، القاهرة، ١٩٨٧ من ١٠ (١٨) د. رشاه رشاعة العالمية ١٩/٨ من ١٨ (١٨) د. رشاه النامة العالمية ١٩/٨ من ١٨ (١٨) د. رشاه العالمية العالمية ١٩/٨ من ١٨ (١٨) د. رشاه العالمية العالمية ١٩/٨ من ١٨ (١٨) د. رشاه العالمية ١٩/٨ (١٨) د. رشاه العالمية العالمية ١٩/٨ (١٨) د. رشاه العالمية العالمية ١٩/٨ من ١٨ (١٨) د. رشاه العالمية ١٩/٨ (١٨) د. رشاه العالمية العالمية ١٩/٨ (١٨) د. رشاه العالمية العالمية ١٩/٨ (١٨) د. رشاه العالمية ١٩/٨ (

ملخص

علم النفس والتحكم: نظرة للحرب الباردة

ه. مبر خليفة*

هدفت الدراسة الحالية إلى كشف بعض المفارقات العالمية في تطبيقات علم النفس، ما بين العالم الغربي والعالم العربي، من خلال مفهومي «التحكم بالجملة»، و«التحكم بالقطاعي». وحاولت الدراسة تتبع تاريخ علم النفس وتاسيسه في المانيا، في ظل علاقة محكمة مع الاستعمار. واظهرت الدراسة انه بالإضافة لمعمل لايبزج الشهير لعلم النفس تطورت الابحاث الخاصة بالشعوب البدائية والمتخلفة في المعهد الاستعماري بهامبورج. وبينت الدراسة علاقة علم النفس الوثيقة بالانثروبولوجيا، واستخدام كلا العلمين لخدمة اهداف الامبراطورية الألمانية والبريطانية، وبينت الدراسة ان المساهمة الاكثر فعالية، وأكثر إمبريالية في تطبيقات علم النفس، هي ان المساهمة الاكثر فعالية، وأكثر إمبريالية في تطبيقات علم النفس، هي

كلية التربية - قسم علم النفس - جامعة البحرين .

المساهمة الأمريكية، والتي طورت البحث في علم النفس يصبورة خيالية. وتوقع لعلم النفس بأن بلعب دورا مهماً في الحرب الباردة، خصوصاً بعد إعادة الغرب لنظرته للحرب التقليدية، أو حرب الاقتتال. ولقد تفوق الاتحاد السوفييتي بادىء الأمر في أبحاث التحكم، خصوصاً غسيل الدماغ وإعادة تشكيل التفكير، والتي اعتمدت على تجارب بافلوف الفسيولوجية الشهيرة على الكلاب. ولقد أزعج هذا التفوق الهائل علماء النفس في أمريكا، وتبعا لذلك، قامت المخابرات، والرابطة النفسية الأمريكية بمحاولة سد الفجوة الكبيرة بينها وبأن الإتحاد السوفييتي في تطبيقات علم النفس، ولقد تم تقديم الدغم السخى لعلماء النفس ليتتبعوا تطور علم النفس في الاتحاد السوفييتي، وقامت محموعة منهم بمسح علم النفس، وزيارة الاتحاد السوفييتي. ومن بين أكثر التطبيقات التي دعمتها وطورتها المخابرات أبحاث تقنيات غسيل الدماغ، واستخدام المقاييس النفسية، والتنويم ، وتقانة التجسس. وانتشرت بعدها تطبيقات علم النفس الهائلة في محطات المخابرات، وفي المؤسسات البعسكرية، وفي السجون، ورئاسة البوليس. وكشفت الدراسة عن توظيف علم النفس في إطار العلاقات الإسرائيلية - العربية، وتمثل ذلك في الحرب النفسية، وفي الدبلوماسية، وفي المفاوضات، واستغلال الجمعيات السبكولوجية العالمية، وفي صوغ مفهوم سيكولوجي مفارق للإرهاب، يستخدم بفعالية في أعمال الردع ضد العرب. وتناولت الدراسة في الجزء الأخير تطبيقات علم النفس بالقطاعي أو بالتجزئة في العالم العربي. وتم طرح بعض التساؤلات المهمة عن ما هية علم النفس، وما هي الاستجابة المناسبة لتطبيقات الأخرين له بالحملة. وخلصت الدراسة إلى أهمية هضم واستبعاب علم النفس المعاصر، وتفجير الروح الخلاقة والفعالة فيه من قبل علماء النفس العرب، ومن قبل الاستخطاطيين، لأن السلاح النفسي الآن بعتبر من أهم الأسلحة الاستراتيجية في العالم.

مقدمة

في محاضرة ألقيتها في جامعة العلوم والتكنولوجيا بالأردن، ضمن فعاليات الفائزين بجوائز عبد الحميد شومان للباحثين العرب الشبان لعام ١٩٩٦، تحدثت عن تاريخ علم النفس وعلاقته بالاستعمار، والامبريالية، والمخابرات كمقدمة أساسية للمحاضرة. وقد تم توجيه الدعوة إلى نخبة من علماء النفس في الأردن لحضور هذه المحاضرة. وكان رئيس الجلسة ومقدمي في المحاضرة هو د عبد الرحمن عدس، أحد كبار علماء النفس في العالم العربي، وأقوم شخصيا بتدريس كتبه لطلابي في علم النفس بالجامعة، وقد قرأ عبد الرحمن عدس ورقتي المسومة «مأزق علم النفس في العالم العربي» قبل المحاضرة، وقدمني لهذه النخبة المختارة من علماء النفس بالأردن بنبرة بدت عندي غاضبة، قائلا. «إذا جاز لي في عجالة بسيطة، الدكتور يرى أن علم النفس في العالم العربي في مأزق، فهو خرج عن الأصول واهتم بالقشور» ولقد فهمت من قول عدس أن الحديث عن الاستعمار، والامبريالية، والمخابرات، وغلاقة ذلك بعلم النفس أنه من القشور والسؤال الذي تبادر إلى ذهني منذ تلك المحاضرة وإلى الأن هو: أين اللباب في علم النفس؟ أهو الاكتفاء بكتابة «مداخل إلى علم النفس» والحديث المكرر لدرجة الرتابة، والملل، والسبام، والضجر في هذه «المداخل» و«المقدمات»، و«الأسس» عن ما هية علم النفس، والأسس البيولوجية للسلوك، وعلم النفس التطوري، وطبيعة التعلم، والتذكر والنسيان، والإبراك، والدافعية، والتفكير واللغة، والذكاء والقدرات الخاصة، والشخصية، وفهم النفس أو الذات، وعلم النفس الاجتماعي، والعلاج النفسي في تقديري، إن الحصير الضيق لعلم النفس سبيء بالنسبة لتطور العلم وللنظرة الاستراتيجية لتطبيقاته.

قد يرفض بعض علماء النفس العرب تقبل الفكرة القائلة بالتزاوج بين الاستعمار وعلم النفس، وبين الامبريالية وعلم النفس، وبين المخابرات وعلم النفس. ولكن مهما كان الرفض فهناك علاقات شائكة التداخل، ومعقدة التفاعل بين هذه القوى. إذ تحتاج هذه العلاقات لقراءة فاحصة وباقدة لكشف الحساب. ولشحن أو لتعزيز فيض من الذكريات لأخذ الدروس والعبر منها ويمكن القول إن روح الاستعمار والامبريالية قد سرت في أوردة وشرايين علم النفس، وأن عظمة وعملقة علم النفس تقف من خلفها المخابرات بدعمها السخي لتطور مفاهميه، ونظرياته، ومناهجه، وتقانته. فيأترى، متى يصل علماء النفس العرب إلى تلك النقطة المحددة التي يقبلون فيها سوء استخدام

علمهم بواسطة رفقائهم من علماء النفس في جزء آخر من العالم؟ والسؤال المحير هو كيف نقرا
وندرس ونبحث في علم النفس دون الإحساس بهذه السيطرة؟ مع العلم بأن الإحساس باب مهم
من أبواب علم النفس العام! وإنه لأمر عجب، إذ إن كبرياء بعض علماء النفس العرب، لا تود أن
تجرح علم النفس الغربي، مع أن اسكنر نفسه عبر عن تجريح علم النفس لمرية وكرامة الإنسان،
وحسب تعبيره «إن الناس قد تم التلاعب بهم». ويعترف عالم الإنسان مالينوسكي قائلا: وبعد
عشرين عاما من العمل الانثروبولو جي وجد نفسه كما كانت في موقفها الخاص، بمحاولة دراسة
الإنسان بطريقة تسىء للإنسان، تجرح إنسانيته، تماما كما جرحت الفيزياء والكيمياء والطبيعيات
الطبيعة في السنوات السابقة (لكلرك، ١٩٩٠). إن المحاولة الهروبية لدفن الرؤوس في الرمال لعدم
المواجهة، أو النظرة البريئة الوديعة لتطبيقات علم النفس، والقول بأنه علم طاهر، وعفيف، ونقي،
وتقي، هي من العوامل التي حولت علم النفس في العالم العربي لكي يكون «بلا لون، وببلا رائحة،
وبلا طعم».

يعتمد البحث الحالي على النظرة القائلة إن واحدا من اهم جوانب التطبيقات العالمية لعلم النفس وضوحا هو المغارفة بين عملية «التطبيق بالجملة»، و«التطبيق بالقطاعي». وتعني العملية الأولى الاستخدام الأكبر لعلم النفس في السياسة الدولية، وخصوصاً في الحرب الباردة بقصد التحكم، واستخدامه في الخابرات بصورة خفية ومستورة، بينما تعني الثانية الاستخدام الأصغر لعلم النفس في العال التربوي، والعالجي، والمهنى، وتبعا لهذا التعريف يبدو أن علماء النفس في العلم النفس في الغرب في حالة من الاستعداد المهنى. لتطبيق علم النفس بفعالية بالجملة (الماكرو)، وبالقطاعي (المايكرو) على السواء، وبتعبير أخر، استخدام مزدوج يقوم بكلا الدورين، أو يلعب على الصبلين، بصورة واعية وهادفة. لذلك كانت نتائج علم النفس في الغرب أكبر من طموحاته لأنه يقوم بأداء كل من «الفرائض، والنوافل» بجدة. وبالمقابل، ربما يمكن القول إن هناك عدم تهيئة نفسية لعلماء من «الفرائض، والنوافل» بجدة. وبالمقابل، ربما يمكن القول إن هناك عدم تهيئة نفسية لعلماء الخس بغي العالم العربي لتطبيق علم النفس بفعالية، حتى على مستوى القطاعي (المايكرو). بمعنى الخرب يقوم علم النفس في العالم العربي في تحقيق طموحاته المذكورة في مقدمات كتبه وهي: الفهم، ينجع علم النفس في العالم العربي في تحقيق طموحاته المذكورة في مقدمات كتبه وهي: الفهم، والتنبؤ، والتحكم. وجانب ثان من جوانب المغارفة، هو محاولة علماء النفس العرب شرنفة علم والتنس داخل قوقعة صغيرة لا تسمن ولا تغني من جوء، وهذه الشرنقة جعلت علماء النفس العرب شرنفة علم النفس داخل قوقعة صغيرة لا تسمن ولا تغني من جوء وهذه الشرنقة جعلت علماء النفس العرب

يتعرضون اكثر من اي مجموعة اخرى من علماء النفس في العالم لعملية غسيل الدماغ بعلم النفس نفسه، مما عزز زيادة التهميش وتعميق الهزائم النفسية في العالم العربي. ومن جهة اخرى، ساعدت هذه الرؤية الضيقة والتقليصية لعلم النفس على حصول انتصارات لضالح قوى تعرف كيف تطبق علم النفس بصورة فائقة الفائدة. وجانب ثالث من جوانب المفارقة هو ممانعة علماء النفس في الغرب من الالتزام بالمعايير الأخلاقية لتطبيقات علم النفس، وتبعا لذلك يتم تطبيقه في كثير من الأحيان بمدورة «إجرامية»، وتسامح علماء النفس العرب بمراعاة هذه المعايير، وتطبيق علم النفس بصورة «قديسية». وفي هذا الجانب اقتبس ما عبر عنه اسكنر بقوله: «إن تكنولوجها السلوك تعتبر من الناجية الأخلاقية محايدة، ويمكن استخدامها من جانب المجرمين أو القديسين، ويكلمات أخرى، إن رؤية الشفقة والرحمة لدى علماء النفس العرب تقابلها في أحايين كثيرة رؤية القسوة والعدوانية عند علماء النفس في الغرب. ولكي نفهم طبيعة العلاقة بين التطبيق بالجملة، والتطبيق بالقطاعي، هناك أهمية لتتبع تاريخ علم النفس الخمارب بجذوره العميقة في الاستعمار، خصوصاً ارتباطه بالامبراطوريتين: الالمانية والبريطانية. ويعتمد البحث على النظرة القائلة إن مفاهيم ونظريات ومناهج علم النفس بلغة أنثروبولوجية، هي عبارة عن أسلاف غائرة في الاستعمار، وبلغة نباتية، أن زهرة علم النفس المعاصرة ثقف على جنور شجرة عميقة في الامبريالية. وهناك اهمية بأن ندرس طبيعة الحلف بين علم النفس وعلم الإنسان وتهليلهما للتحكم والسيطرة، وزيادة قبضة الغرب على اللاغرب. إن هذا التهليل ساعد على تعزيز تطبيقات علم النفس بصورة مبرمجة واستراتيجية لكي ما «يستعمر»، و«يأمبر» بصورة غائرة. لذلك لابد من سبر هذه الأغوار الاستعمارية، والجذور الامبريالية لعلم النفس. أولا، بوسعنا القول إنه من دون قراءة عميقة غائصة في تاريخ علم النفس وتأسيسه «البحت» في ألمانيا، وتأسيسه «التطبيقي» في بريطانيا، وتطوره «التعلمي الكلاسيكي» في روسيا، وارتقائه «الامبريالي» لقمة إفرست في أمريكا، سوف نفشل في تحديد علاقة علم النفس الاستراتيجية بالحرب الباردة، وهو هدف مركزي للدراسة الحالية. وثانيا، بوسعنا القول كذلك، إنه من غير قراءة ذكية لأبحاث غسيل الدماغ، والقياس النفسي، والتنويم المغناطيسي، وتقانة التجسس، ومعرفة القوة الخفية وراء تمويل هذه الأبداث سوف نفشل في «فك شفرة من شفرات» علم النفس في استذدامه المستور في المخابرات. وثالثًا، بوسعنا القول كذلك إنه من غير قراءة موسوعية لمعرفة دور علم النفس في إطار

العلاقات العربية الإسرائيلية من خلال كيفية صياغة الحرب النفسية، وتنظيم العمليات الإرهابية، واستغلال الجمعيات العالمية السيكولوجية، سوف نفشل في وعي أو تشخيص بعض أسباب الهزائم النفسية أمام إسرائيل. ورابعا، بوسعنا القول إنه من غير قراءة نقيقة لأهداف علم النفس، كما هي في كتب للقدمات، والمبادىء، والمداخل، والأسس، سوف نفشل في تحديد ما المقصود بداتحكم بالقطاعي، وهو هدف مركزي للدراسة الحالية.

علم النفس والاستعمار

يعتبر فونت الأعلى مقاما في تاريخ علم النفس، وهو أول شخص، من غير تحفظ، يمكن أن يطلق عليه «عالم نفس» فقد قام بإنشاء أول معمل لعلم النفس في جامعة لايبزج عام ١٨٧٩ وهو العام الذي يؤرخ فيه لاستقلال علم النفس عن الفلسفة. وكتب فونت في بداية اهتماماته «علم النفس التجريبي»، ومن ثم «علم النفس الاجتماعي»، و«ما وراء الطبيعة العلمية». ولقد أكد فونت أن العمليات العقلية العليا إنما تدرس عن طريق دراسة الإنسان الطبيعي عن طريق علم النفس الشميي (بورنج، ١٩٥٧)، ونتيجة لذلك كتب في السنوات الأخيرة من حياته مجلدات عدة عن علم النفس الشعبي أو الفلكلوري. ويذكر فونت أن العمليات النفسية الفردية يمكن دراستها في المعمل، بينما النماذج الثقافية لا يمكن أن تدرس في المعمل (كيم ويري، ١٩٩٣). وتبعا لذلك فقد أدرك فونت أن المنهج التجريبي في علم النفس مناسب لبحث العمليات العقلية الأساسية، ولكنه غير مناسب لدراسة الظواهر التي تتأثر بالثقافة (برى، ١٩٩٣) ولقد بين بذلك أوجه قصور المنهج التجريبي (دانزقار، ١٩٨٣)، ومن ثم أشار إلى أن التفكير يتأثر بصورة كبيرة بمجال اللغة، والعادات، والأساطير، وهي مجالات لعلم النفس الثقافي أو الفلكلوري (دانزقار، ١٩٧٩). في أثناء الحرب العالمية الاولى قال فونت إن العقل الجمعي في المانيا هو أرفع مقاماً من العقل الجمعي للاعداء. ويؤكد المجتمع الألماني على البطولة، والواجبات، والمثل الروحية (كندار، ١٩٨٧) من ناحية تاريخية، فقد ارتبط إنشاء علم النفس الشعبي، أو علم النفس الفلكلوري، لدراسة المجتمعات البدائية ارتباطا وثيقا بإنشاء الأنثروبولوجيا.

عرفت الانثروبولوجيا عام ١٨٦٠ تقريباً طفرة جديدة، تعتبر في الواقع بداية هذا العلم (لكارك، ١٩٩٠). فبين عامي ١٨٦٠ - ١٨٨٠ ظهرت معظم مؤلفات المدرسة التطورية: ومنها «حق الأمومة» لباخ أو فن، و«القانون القديم، لماين عام ١٨٦٠ كتاب لتيلور بعنوان «أبحاث

في التاريخ المبكر للجنس البشري»، اتبعه عام ۱۸۷۱ مكتابه «المجتمع البدائي»، هذا إلى جانب مورغان عن «نظم القرابة» عام ۱۸۲۹ وكتابه عن «المجتمع القديم» عام ۱۸۷۷. وعلم الإنسان، كتاب مورغان عن «نظم القرابة» عام ۱۸۲۹ وكتابه عن «المجتماعية تواشجا بالاستعمار» إذ كثيرا على حسب قول ادوارد سعيد، (۱۹۹۷) هو اكثر العلوم الاجتماعية تواشجا بالاستعمارين حول عادات الشعوب الأصلانية وأعرافها ومسالكها، وتنمي مجموعة المقالات المتازة، التي حررها طلال أسد عام ۱۹۷۳ وعنوانها «علم الانسان والمواجهة الاستعمارية»، الصلات إلى ما هو أبعد من ذلك ويتحدث معظم مؤرخي الامبراطورية عن «عصر الامبراطورية» بوصفه ببدأ رسميا حوالي عام ويتحدث معظم مؤرخي الامبراطورية عن «عصر الامبراطورية» بوصفه بندأ رسميا حوالي عام ۱۸۷۸، من «التزاهم بالمناكب لامتلاك افريقيا». وازدهر علم الاجتماع (بإلهام من لو بون)، وعلم الانسان طبعا، في العقود التالية لعام ۱۸۷۸، وتوج العديد منها بمؤتمرات استعمارية عالمية (۱۸۱۸، ۱۹۶۶، إلخ) أو بجماعات صحددة (كالمؤتمر العالمي لعلم الاجتماع الاستعماري عام ۱۸۸۰، ومؤتمر علوم الاعراق الوصفية في باريس عام ۱۹۸۲).

وفي المانيا، تمت دراسة علم النفس المناسب، والذي يتطابق مع المساريع الاستعمارية مباشرة بعد استقلال علم النفس عن الفلسفة عام ١٨٧٩. ولقد ركزت بعض الابحاث النفسية المبكرة على توظيف الامبراطورية الالمانية لعلم النفس، وخاصة علم نفس الاعراق البشرية (بروبست، ١٩٩٦). وعندما انتقدت سياسة المانيا في المستعمرات، حاول السكرتير الاستعماري للدولة إحداث إصلاح من خلال استخدام دوسائل محافظة اكثر من الوسائل المدمرة، (قروندر، ١٩٨٥)، وتبعا لذلك تم اعتبار العلوم، وخاصة علم النفس، ادوات صالحة للتحكم «لا يستطيع الفرد عمل أي شيء من غير أن يدرس خصوصية اللغات في المستعمرات، أو يدرس نفسية السكان المحليين، (ديرنبيرج، غير أن يدرس خصوصية اللغات في المستعمرات، أو يدرس نفسية السكان المحليين، (ديرنبيرج، العمار). وقد أريد لعلم نفس اعراق الشعوب أن يكون جزءا من مناهج المعهد الاستعماري في المنبورج الذي تم تأسيسه عام ١٩٠٨، والذي يقوم بتدريب رجال الخدمة المدنية ورجال الأعمال الذين يعملون في المستعمرات (هاملتون، ١٩٩١). واستخدم مفهوها علم النفس الشعبي، وعلم الأعراق، وكلاهما تأسس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهي مقدرا مقترامنة مع بداية الاستعمار. وهناك عالمان ساهما مساهمة كبيرة في تطوير علم الأعراق، فترامنة مع بداية الاستعمار. وهناك عالمان ساهما مساهمة كبيرة في تطوير علم الأعراق، فترامنة مع بداية الاستعمار. وهناك عالمان ساهما مساهمة كبيرة في تطوير علم الأعراق فترامنة مع بداية الاستعمار. وهناك عالمان ساهما مساهمة كبيرة في تطوير علم الأعراق

البشرية هما: فونت وبثورنديك. واعتبرت مساهمة فونت في علم نفس الأعراق تمثل خلفية معرفية معرفية معرفية معرفية معرفية تساعد رجال الخدمة المدنية في فهم أفضل لعقلية السكان المطيين في المستعمرات. أما علم نفس الأعراق البشرية الذي اسسه ثورنديك فإنه يهتم بدراسة العلاقات الوظيفية بين الفرد وإهاره الثقافي الاجتماعي، واعتمد ذلك العلم على مفهج الملاحظة والمسوحات التي أجريت في الثقافات الاجنبية (المستعمرات). وتبعا لذلك فقد تم تعلوير مجموعة كبيرة من المقاييس النفسية في معهد براين لعلم النفس التطبيقي لاستخدامها في دراسة الشعوب البدائية.

ولقد صمم مشروع دراسة الشعوب البدائية أساسا لأغراض البحث التي يقوم بها المكتشفون في المستعمرات، وكذلك بالنسبة للمبشرين والمطمين ورجال الخدمة المدنية والأطباء الذين يعملون في المستعمرات، وشمل مقياس الشعوب البدائية مجالات واسعة من الوظائف السيكولوجية مثل الإدراك، والذكاء، والعلاقات الاجتماعية، والقيم وغيرها. وتبعا لذلك فقد تم توظيف علم النفس كاداة فعالة لتوظيف الى الاستفادة من قوة كل كاداة فعالة لتوظيف الى الاستفادة من قوة كل عرق بشري حسب قدرته، وهذه هي المنظومة الجديدة التي أدخلها الاقتصاد الأوروبي من خلال التحكم في عضلات السكان المطيئ في المستعمرات (بروبست، ١٩٩٦). وصورة السكان المطيئ في المنيال الغربي هي صورة الإنسان الكسول الذي يحتاج لعملية تعزيز أكبر لتفجير طاقته العضلية. وتعبر دراسة (العطاس ١٩٩٧)، (سعيد ١٩٩٧) الممتازة عن: «أسطورة الإمساني الكسول: وهي دراسة لصورة الماليزين، والفلبينين، والجاوبين من القرن السادس عشر إلى القرن العشرين ووظيفتها في عقائد الراسمائية الاستعمارية، وهي تعبر عن صورة الإنسان في المخيال الغربي.

وبإمكان أي عالم نفس أن يلاحظ الآن أن هناك علمين للنفس في ألمانيا أنعكسا في معملين متقابلين: «معمل حديث» أنشىء في لايبزج عام ١٨٧٩ في السنة التي استقل فيها علم النفس عن الفلسفة واختص هذا المعمل بالمساهمة الأولى لفونت في علم النفس التجريبي أو علم النفس البحت. وأرجو ألا يفهم بشكل خاطىء إذا قلت إن هذا المعمل ارتبط بالإنسان الغربي أو الإنسان في أوروبا أو الإنسان «المتحضر» وربما يتوجب علي أن أضيف أن هناك معملا أخر لعلم النفس الشعبي، أو علم الفلكلوري، أو علم نفش أعراق الشعوب وكان في المعهد الاستعماري في هامبورج الذي أنشىء عام ١٩٠٨ واختص بالمساهمة الأخيرة لفونت في علم النفس الشعبي، التي

تم توظيفها بفعالية لخدمة الأهداف الاستعمارية، واختص هذا المعهد بالشعوب «البدائية» في المجتمعات غير الغربية، وساهم علم النفس مساهمة كبيرة في إشعال وقود الاستعمار والامبريالية، أو «التلاعب التحكمي» كما يعير إدوارد سعيد ويفهم من ذلك بأن علم النفس كانت بواعثه استعمارية منذ مرحلة تاريخية مبكرة، ويمكن التساؤل: هل مهد علم النفس لتدعيم الاستعمار؟ أم أن الاستعمار مهد لتدعيم علم النفس؟ فيا ترى أيهما السبب؟ وأيهما العرض؟

وربما كان من الأنسب القول إن آلمانيا كمؤسس لعلم النفس «البحت» أو «التجريبي» لعبت دورها الريادي في سياسة ارتباط علم النفس بالاستعمار، لأن علم النفس تم اعتباره «اداة صالحة للتحكم» حسب تعبير ديرنبيرج وان بريطانيا، كمؤسس لعلم النفس الفارق أو التطبيقي، لعبت دورها الريادي كقوة عظمى في سياسة توظيف علم النفس في المستعمرات التي لا تغيب عنها الشمس. ويتجلى هذا الدور من خلال إسهامات معمل جامعة كيمبردج الذي قام علماء النفس فيه بإجراء القياسات، وتسجيل الملاحظات السيكولوجية عن الشعوب البدائية، وكذلك من خلال العهد الافريقي العالمي، والذي كان يقدم النصح بالنسبة للإدارين البريطانيين في المستعمرات كما يمكن الإشارة بصورة اتهامية إلى أن بعض علماء النفس هم باحثون واستعماريون، أو علماء وامبرياليون. وقد يصعب في هذه الحالة الفصل بين الوظيفتين. وتبعا لبورنج (١٩٥٧) قام هادون، وامبرياليون بجامعة كيمبردج، بوضع خطة لحملة أنثروبولوجية والسيكولوجية، والملاحظات عن الشعوب ميز وماكدوجال لعمل بعض القياسات الانثروبولوجية والسيكولوجية، والملاحظات عن الشعوب البدائية، وبالفعل قاما بقياس الحواس والإدراك، وكانا على وعي بانهما يؤديان عملا اكثر كمالا مما قام به جالتون. وشارك علماء النفس في بريطانيا بفعالية، كعلماء نفس في الحرب العالمية الثنائية، وكان معمل علم النفس في جامعة كيمبردج رائدا في ذلك، ولاسيما من خلال التقارير التي تم إصدارها ونشرها.

إن الحملة الاستكشافية التي قامت بها جامعة كيمبردج إلى منطقة توريس استريتز (ريفرز، 194) تعتبر من ناحية تاريخية واحدة من المحاولات عبر الثقافية الباكرة، وكان هدفها جمع معلومات منظمة عن ثقافة غير غربية، ومقارنة هذه المعلومات بالمعلومات الموجودة لموضوعات عدة، ولم يسبق لها أن تم تماثلها من وجهة نظر علم النفس عبر الثقافي، ولقد تضمنت هذه الحملة بعض الاسماء، والتي تصبحت فيما بعد مثارا المنقش السيكولوجي مثل ريفرز، وسليقمان.

وميرز، وماكنوجال. ولقد درس كل من ريفرز وسليقمان الخداع البصري عن طريق تطبيق الخداع الأفقى - الرأسي، وخداع مللر لاير. ولم يكن لدى الباحثين أي فكرة عما إذا كانت الخداعات البصرية التي توجد عند السكان في الغرب لها وجود عند السكان المطيين في الأماكن النائية من العالم، ومدى قوتها في حالة وجودها. ولقد اقترح ريفرز بخصوص نتائج الخداع البصري، أن استجابة الأفراد في الغرب للأشكال نظرة كلية، بينما يركز الأفراد في الأماكن النائية على الانتباء كعامل مهم. ولقد مدد ريفرز (١٩٠٥) أبحاثه عن الخداع للسكان «التداس» الذين يسكنون في جنوب الهند، وأظهرت نتائج دراسته أن التداس كانوا أكثر عرضة للخداع من الرجال الإنجليز، والنساء، والأطفال. وأن الأحوال الفسيولوجية، وأثار الخبرات في الحياة المتحضرة أظهرت أن الخيرات المستمدة من دراسة الأشكال الهندسية والرسومات تؤثر على تقليل وإضعاف الخداع (ديريقووسكي، ١٩٨٠). ويمكن القول إن هذه الحملات التي انطلقت من جامعة كيمبردج كانت تخدم بعض الأهداف الاستعمارية. ويمكن أن نتلمس المركزية العرقية البريطانية من خلال تعبير مثل «الأماكن النائية»، أي نائية من المركز البريطاني، وأن نتلمس النظرة الاستعلائية في عملية «تماثل المعلومات في الغرب وفي غير الغرب». وكان من بين أهداف الدراسة معرفة قوة الخداعات في هذه المجتمعات. وريما كانت هناك أهداف خفية غير الأهداف العلمية في معرفة نقاط الضعف في هذه المجتمعات، لأنها مجتمعات تنظر بصورة تجزيئية للموضوعات بينما ينظر الأفراد في بريطانيا بصورة كلية. إن النتائج التي تم التوصل إليها هي أن الأفراد في الأماكن النائية «أكثر عرضة للخداعات»، وعلى الرغم من أن تعبير خداع يقصد به من ناحية سيكولوجية بحتة «الخداع البصري» في رؤية الأشياء، لكن ربما يمكن تأويل هذا التعبير بصورة أخرى. أي إحكام عملية السيطرة على المجتمعات عن طريق خداعها.

لقد تأسس علم النفس في بريطانيا بصورة تطبيقية من خلال إسهام فرنسيس جالتون خلافا لتأسيسه في المنايا بصورة بحتة من خلال إسهام فونت. وكان علم النفس التطبيقي على علاقة وثيقة بالانثروبولوجيا والمشاريع البريطانية الاستعمارية. ويعتبر المهد الافريقي العالمي، الذي أسس عام ١٩٢٦، من أنشط الأجهزة وأكثرها أهمية من بين الأجهزة العالمية – الإدارية التي تأسست أثناء قيام الانثروبولوجيا التطبيقية. ولقد جاء في بيان المعهد التأسيسي أن أهم أهدافه «القيام بتقريب كامل بين المعرفة والبحث العلمي من جهة، وبين الأمور التطبيقية من جهة ثانية، ثم

بدات قطاعات استعمارية جديدة بدورها الاهتمام بالأنثروبولوجيا، ففي عام ١٩٤٤ انشى، المجلس البريطاني للبحث الاجتماعي في شؤون المستعمرات. وعهد إليه إسداء النصح إلى سكرتارية الدولة في المستعمرات بخصوص «المسائل التي تتعلق بالعلوم الإنسانية، وتكون في خدمة الامبراطورية الاستعمارية» (لكارك. ١٩٩٠).

لا تكاد الفروع الدراسية، التي يطلق عليها الغرب «العلوم الاجتماعية»، تبلغ من العمر قرنا من الزمان، وتشمل تلك العلوم في معظم الجامعات خمسة فروع تتمثل في علم الاجتماع، وعلم الإنسان، وعلم النفس، والعلوم السياسية، وعلم الاقتصاد، والتاريخ، ويوجد فرعان اخران من الإنسان، وعلم النفس، والعلوم السياسية، وعلم الاقتصاد، والتاريخ، ويوجد فرعان اخران من الدراسة يتمتعان بمرتبة مزدوجة هما: الجغرافيا وعلم النفس. فحين يعنى علم النفس بدراسة الاشخاص يتم تصنيفه ضمن العلوم الطبيعية، ولكنه إذا عني بدراسة الجماعة يصبح حيننذ علما لجنماعيا (الفاروقي، ۱۹۷۹). وعندما تأسست العلوم الاجتماعية، في القرن التاسع عشر، كانت عبارة عن ممارسات توجد في دول قليلة، وهي بالتصديد: بريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، وإيطاليا، والولايات المتحدة. وأن ظهور هذه العلوم ويصورة خاصة التاريخ، والاقتصاد، والعلوم السياسية، وعلم الاجتماع، كانت مهمتها بصورة اساسية بالحقيقة التجريبية لهذه الدول الخمس، ويصورة اكر كانت تهتم بالغرب. وفي ذلك الوقت انتبه علماء العلوم الاجتماعية إلى أن «الغرب» ليس هو الكلية في العالم، وانتهبوا إلى أن «اللاغرب» هو «اللاحديث»، ولذلك فهو مختلف بصورة جذرية عن الغرب. ولقد طرح حينها السؤال، كيف تتم دراسة الشعوب المدعوة بالبدائية، عن هذا السؤال فقد تماسيس علوم خاصة، وهي «علم الإنسان» لدراسة الشعوب المدعوة بالبدائية، و«الاستشراق» لدراسة الدعوة بالحضارات العليا، مثل الصين والهند والعالم العربي (والرستين، ۱۹۹۷).

ولا ينبغي ان نخطى، عملية الإدراك، إذ إن معظم العلوم الاجتماعية هي انعكاس للمقيقة الاجتماعية والثقافية في الدول الغربية التي انتجتها (ادوارد سعيد، ۱۹۹۱، اسماعيل الغاروقي، ۱۹۷۹، علي مزروعي، ۱۹۷۸، عمل الغربية التي انتجتها (يوارد سعيد، ۱۹۹۹). ولقد تاسست الانثروبولوجيا والاستشراق لدراسة المجتمعات غير الغربية (لكلرك، ۱۹۹۰، وللرستين، ۱۹۹۷)، والتي من بينها العالم العربي (الحبابي، ۱۹۸۷). ولقد تأسس هذان العلمان على علاقة وثيقة مع الاستعمار والامبريالية، وانتهاء الاستشراق، وتحول حضارات الشرق من موضوع إلى ذات، وتصحيح الاحكام التي القاها الوعي الاروبي، وهو في عنفوانه عن حضارات الشرق.

فالاستشراق بكشف عن طبيعة العقلية الأوروبية ونظرتها إلى الآخر اكثر معا يكشف عن الموضوع المدروس، فهو موضوع دراسة وليس دراسة موضوع (حسن حنفي، ١٩٨٥) وهو يعبر عن مصالح الغرب ورؤيته لمجتمع الشرق اكثر معا يكشف الحقيقة الاجتماعية والثقافية والسيكولوجية في الشرق. كما يعكس صورة الشرق في ذهن الغرب.

وبين إدوارد سعيد، في دراسته الشاملة حول الاستشراق، بوضوح أن الشرق كما يعرف به المستشرقون «هو اختراع أوروبي» فهو لايتكلم عن نفسه بل يتم الكلام حوله بالنيابة عنه وليس بموجب واقعه، بل بموجب مصالح الغرب ورغباته في تسويق سياسته الاستعمارية. لذلك جاء الاستشراق في جوهره ممارسة في السيطرة، ورؤية سياسية تصر على التفوق الغربي (حليم بركات، ١٩٨٤). يقول كمال أبو ديب في مقدمته لكتاب الاستشراق لادوارد سعيد (١٩٩١): إن الكتاب يمثل ثورة جديدة في الدراسات الإنسانية وتتكلف في هذه الثورة منطلقات متعددة، لعل أهمها تكوّن مفهوم جديد للقوة والشبكة الخفية من علاقات القوة التي تنسجها المعرفة، متجسدة في الإنشاء الكتابي، ومفهوم سياسة العلاقات الانسانية بكل أشكالها، وسياسة المعرفة، وسياسة البحث .. وينصب هذا التثوير للمعرفة حتى الآن على رج الثقافة الغربية، وكشف ألية السلطة، والسيطرة والقوة والتلاعب التحكمي فيها.

أما بالنسبة لعلم الإنسان، فقد ركزت التحليلات النقدية المبكرة كالدراسات التي اهتمت بالخطاب الستعمل في الانثروبولوجيا والتاريخ والميادين المعرفية المتصلة بهما، على موضوعات عامة كالعلاقة مثلا بين السيطرةالاستعمارية أو الهيمنة السياسية، وتمثل المجتمعات المهيمن عليها (ايكلمان، ١٩٩٠). ولقد كان علم الإنسان وهو اكثر العلوم جراة نظرا لان موضوع دراسته – وهو المجتمعات «البدائية» المنتمية للعالم غير الغربي – كان حقيقة جامدة، غير قادرة على رفع إصبح واحد بالانتقاد لاساتذتها، ولقد تم تكوين النظرية تلو الأخرى لإيجاد صبياغة لتلك الحقائق التي كانت تعد جزءا لا يتجزأ من الرأي الغربي عن العالم (الفاروقي، ١٩٧٩).

يقول لكلرك (١٩٩٠): إن مجال علم الإنسان ظل، وكما هو معروف إلى الآن، محصورا بماضعي المجتمعات التي اطلق عليها المجتمعات «المتوحشة»، أو «البدائية» أو «التقليدية» أو «غير الغربية» أو «العالم الثالث». ولقد وصفت المجتمعات بتلك الأوصاف لأنها ببساطة كانت صالحة للخضوع السبطرة الاستعمار. وفي علم النفس العاصر كثيرا ما تستخدم مصطلحات «التثاقف»، و«المثليل الثقافي» سواء في علم النفس عبر الثقافي، أو علم النفس الاجتماعي، أو في القياس النفسي. وترتبط الجذور التاريخية لهذه المصطلحات بالفترة الاستعمارية. لقد ظهرت كلمة «التثاقف» عام المسات الميني الانثروبولوجيين الأمريكين، أي في قمة سيطرة الغرب. ويشير المفهرم إلى انتقال مؤسسات أو ممارسات أو عقائد ثقافية ما (أو مجتمع) إلى أخرى، وتحت هذا ألمعنى المجرد والعام يختبى المعنى الحقيقي، الذي ليس شيئا أخر سوى الاستعمار. وكل الدراسات المختصة بالتثاقف ليست سوى دراسات لبعض مظاهر الاستعمار. وتعني في الواقع دراسة الاحتكاك الثقافي الفربي بسائر الثقافات. إن مجال مفهوم التثاقف مساو تماما، بل يتماهي كليا مع مجال الثقافي الفربي بسائر الثقافات. إن مجال مفهوم التثاقف مساو تماما، بل يتماهي كليا مع مجال التماثل إنما تستند إلى مبادى، التطورية الخطية فهو يقول: «تقوم سياسة التماثل على حجج مفرية». ولكن «حتى نتمكن من من تحقيق التماثل مع أعراق تختلف عن أعراقنا، علينا أن نكون مقتنعين بقابلية تلك الأعراق للتماثل، أي علينا الاعتقاد بالوحدة التكوينية الطبيعة الإنسانية» مقتنعين بقابلية تلك الأعراق للتماثل، أي علينا الاعتقاد بالوحدة التكوينية للطبيعة الإنسانية «تكوينا عقليا ذهنيا» ورأى في الجذع التطوري الوحيد عددا من التشعبات المتميزة (لكلرك، ١٩٧٠)

إن العلوم الاجتماعية تمثل اداة فعالة في تحقيق السيطرة على الإنسان والمجتمع. ولقد كانت التصورات ووجهات النظر السياسية، التي صاغتها، وتحكمت بها تلاعبيا وسائل الإعلام، على قدر بالغ من الأهمية في ذلك كله. وفي الغرب، كانت تمثيلات العالم العربي ولا تزال منذ حرب عام قدر بالغ من الأهمية في ذلك كله. وفي الغرب، كانت تمثيلات العالم العربي ولا تزال منذ حرب عام لا يترك مجالا للربية. لكن رغم ذلك تستمر في التدفق الأفلام والعروض التلفازية التي تصور لا يترك مجالا للربية. لكن رغم ذلك تستمر في التدفق الأفلام والعروض التلفازية التي تصور عقوب عمال، دنينين، وإرهابيين، وبشيوخاء أثرياء إلى درجة تثير الاشمئزاز. فعلى مدى عقوب عديدة، لا تزال تشن في أمريكا حرب ثقافية ضد العرب والإسلام: وتوحي الشخوصات الساخرة (الكاريكاتورية) العنصرية المروعة للعرب والمسلمين، بأنهم جميعا إما إرهابيون أو شيوخ نفط، وأن المنطقة خراب قاحل شاسع لا يصلح لشيء إلا لجني الأرباح أو الحرب (سعيد، ١٩٩٧) إن الثقافة أو النتاقف ترتبط بالجنور التاريخية لتأسيس علم الإنسان وعلم النفس، وتتعزز هذه إلى المثافنة التي تمثل وترسم صورة الآخرين بتصدير الفاهيم والمناهج والنظريات الخاصة بهذه

العلوم، أن استيراد علم النفس إلى العالم العربي يمثل نرعاً من المثاقفة تجاه الغرب. والمساة ان هذه المثاففة، كما يقول الزغل (١٩٩١) تتم في ظروف يبدو فيها التبادل غير متكافى، وغير متبادل، إنها نمط من المثاقفة الشبيهة بتلك القائمة بين النموذج والتلميذ في وضع يفرض فيه النموذج على التميذ قاعدة سماها علماء النفس «القيد المزدوج» أي الإرامية المزدوجة والمتناقضة، أنه مثل الأب الذي يطلب من ابنه أن يقتدي بمثله في الحياه، لكن يعاقبه عندما يشرع الابن في التدخين أو في إطلاق شاريه ليشمعر برجولته. يمكن تجاوز وضع الإرزامية المزدوجة دون أضرار جسيمة، لكن الإيقاء عليها قد يؤدي إلى حالات من العصاب أو ردود فعل عنيفة، يصعب السيطرة عليها، إن الذين يقلحون في تجاوز هذه الوضعية المزدوجة هم الذين تمكنوا من تطبيق الإرامين المتناقضين للقيد المزدوج «كن مثل النموذج رلا تكن مثله» في مجالين مختلفين. وفي هذا الصدد يبدو أن الاسيوبين، وخصوصاً اليابانين، يتمتعون بملكة التمييز بين المجالات التطبيقية لمختلف النماذج المثقافية التي يبثها العرب في التقافية التي يبثها الغرب؟

علم النفس في أمريكا

ويتوجب علي الآن أن أضيف إلى ما كتبته عن ارتباط علم النفس بالامبريالية العالمية المساهمة الأمريكية في هذا المجال، وهي امتداد طبيعي للمساهمة الألمانية والبريطانية. وقد يكون من الأمريكية في هذا المجال، وهي امتداد طبيعي للمساهمة الألمانية والبريطانية. وقد يكون من المناسب معرفة علاقة علم النفس في أمريكا بعلم النفس الجديد في جامعات ألمانيا. فقد بدا وليم جيمس علم النفس في أمريكا مع إدراكه بأهمية علم النفس الفسيولوجي الجديد في المنيا بوكنه كان يؤمن بالتجريبية، وقدمها إلى أمريكا بعد أن وضع عليها الختم الأمريكي من خلال تأكيده على المنى الوظيفي للعقل. وعمل جيمس على تفسير علم النفس الجديد في المانيا ونقده وإدانته، وكان متسقا دائما مع الروح الوظيفية لعلم النفس الأمريكي. ويصعب القول ما إذا كان جيمس قد قام بتجديد هذه الروح أم هو مجرد انعكاس لها؟ (بورنج، ١٩٥٧). يذكر سوكال (١٩٩٧) أن مؤسسي الجامعات الأمريكية نظروا إلى اوروبا، ومن ثم تبنوا النموذج الألماني كقاعدة للبحث في جامعة كورنيل (١٨٦٥)، وجامعة جون هريكنز (١٨٩١) وجامعة شيكاجو (١٨٩١)، وجامعة استانفورد (١٨٩١) المريكنا ما توافد عليه الطلاب ليدرسوا في وعندما أسس فونت معمله في ليبزج عام (١٨٩٧) سرعان ما توافد عليه الطلاب ليدرسوا في وعندما أسس فونت معمله في ليبزج عام (١٨٩٧) سرعان ما توافد عليه الطلاب ليدرسوا في

المعلى، وينالوا درجة الدكتوراه في هذا الفرع الجديد من العلم، وضم معمله خلال العشرين عاما الأولى اسماء برزت بعد ذلك في تاريخ علم النفس، وكان أبرز ما يميز هذه القائمة من الاسماء المساء برزت بعد ذلك في تاريخ علم النفس، وكان أبرز ما يميز هذه القائمة من الاسماء لتضمينها لعدد كبير من الامريكيين الذين الذين عادوا جميعا ليدرسوا علم النفس في بالدهم، وقام الكثيرون منهم بتأسيس وتوجيه معامل علم النفس (فلوجل، ١٩٨٨). والتدريب المنهجي الذي لقنه فونت إلى تلاميذه الامريكيون وترجموه إلى تقنيات بحيدة لاستلتهم الخاصة في داخل وخارج المعمل، وتبعا لذلك قام طلبة فونت بنشر الاتجاهات العلمية في علم النفس في أمريكا، وربما نجحوا في ذلك أكثر من أي محاولة آخرى في العالم (بنجامين واخوين، ١٩٩٢).

ومن المناسب الآن أن نتتبع التطور الهائل لعلم النفس في أمريكا، التي قامت بأكبر مساهمة في إنتاج وتصدير علم النفس للعالم، ومن بينه للعالم العربي. لقد نال هول أول دكتوراه في علم النفس عام ١٨٧٥ من جامعة هارفارد، وكانت أول دورية لعلم النفس باللغة الإنجليزية هي المجلة الأمريكية لعلم النفس، التي أسسها هول عام ١٨٨٧. وفي عام ١٨٨٦ ألف جون ديوي أول كتاب مدرسي «علم النفس» وهو أول محاولة لمؤلف أمريكي لكتابة كتاب لعلم النفس الجديد، كما أنه الأول من نوعه باللغة الإنجليزية. وقامت الرابطة النفسية الامريكية بتنظيم أول اجتماع سنوى عام ١٨٩٢ في جامعة بنسلفانيا (كاتل ١٨٩٤)، ولقد حضر الاجتماع ١٨ من بين ٣١ عضواً وتم تقديم ١٢ ورقة علمية عن تطور علم النفس ومنذ عام ١٨٩٥ تعقد الرابطة اجتماعاتها بانتظام مع جمعيات أخرى منتسبة، وذلك بمساعدة الجمعية الأمريكية للطبيعيين (سوكال، ١٩٩٢). وبحلول عام ١٩٠٠، وبعد ١٧ سنة من إنشاء معمل علم النفس في جامعة جويز هويكنز بواسطة هول تم افتتاح ٤٢ معملا في الجامعات الأمريكية، والتي استخدمت المناهج العلمية لعلم النفس الجديد. إن ١٣ من هذه المعامل تم افتتاحها بواسطة طلبة فونت من جامعة لايبزج (بنجامين وأخرون، ١٩٩٢) وقد بحثت هذه المعامل علم النفس الذي بدأ عملية التكيف مع البيئة الجديدة (سوكال، ١٩٩٢). ويمكن القول إن علم النفس الأمريكي قد ورث خصائصه الجسدية من التجريبية الألمانية، ولكنه أخذ عقله من داروين، حيث تعامل علم النفس الأمريكي مع العقل في حالة استخدام. وفي عام ١٩٠٠ تقبل علم النفس الامريكي كلا من علم النفس التجريبي للإنسان، وعلم نفس الحيوان والقياس العقلي، وبدأ يكتشف فرويد. وفي ذلك الوقت كان بعض المحافظين من الفونتيين ويعض الراديكاليين من الوظيفيين، أما غالبية علماء النفس فكانوا في منتصف الطريق. وفي تلك الفترة كان الجو مهيئا لواطسن، الذي أوجد السلوكية في جامعة هوبكينز في ربيع عام ١٩٩٣، بورقته المعنونة «علم النفس كما يراه السلوكي»، وأصبحت علم نفس المثير والاستجابة (بورنج، ١٩٥٧).

ومن التطورات الأخرى في علم النفس هجرة مجموعة من علماء النفس من اورويا إلى أمريكا مثل ماكدوجال، وكوفكا وكان تأثير المدرسة الفونتية والفرويدية والجشطالتية والبياجيتية قويا في الولامات المتحدة.

وأثناء الفترة النازية هاجرت مجموعة آخرى من علماء النفس الاوروبيين إلى أمريكا وكذلك مجموعة من علماء النفس روروبزويجن إلى أمريكا وكذلك مجموعة من علماء النفس أفواجا إلى الولايات المتحدة من كل أرجاء العالم، وخصوصاً من غرب أوروبا علماء النفس أفواجا إلى الولايات المتحدة من كل أرجاء العالم، وخصوصاً من غرب أوروبا بالطريقة نفسها، وللسبب ذاته، الذي دفع الرسامين أسرابا إلى إيطاليا في القرن السابع عشر، وإلى فرنسا في بداية القرن العشرين. وفي الحقيقة إن عالم النفس الأوروبي لايشعر بأنه اكمل دراساته، أو امتلك الحق في التحدث بصورة رسمية وموثوقة في الشؤون السيكولوجية إلا إذا قضى زمنا في إحدى الجامعات الأمريكية (بيرلاين، ١٩٦٨) ومنذ عام ١٩٨٠ تمنح نحو ٢٠٠٠ شهادة دكتوراه في علم النفس سنويا في الولايات المتحدة، وهي اكثر من أعداد الدكتوراه في بقية أجزاء العالم

والولايات المتحدة اكثر تطوراً في علوم النفس، لم تتاثر بالاضطرابات، مقارنة مع الدول الأخرى. ففي الولايات المتحدة هناك نحو ٥٠٠ عالم نفس و١٤٠ باحثا في علم النفس لكل مليون نسمة. وفي الدول الصناعية الأخرى غير الولايات المتحدة هناك ٢٤٧ عالم نفس و٨٠ ٢ من باحثي علم علم النفس لكل مليون نسمة، أما في الدول النامية فهناك ٨٤ عالم نفس و٨٠ ٣ من باحثي علم النفس لكل مليون نسمة وللدول الصناعية حوالي أربعة اضعاف علماء النفس مقارنة بالدول النامية. وبالنسبة لأعداد باحثي علم النفس، فهم يشكلون عشرين ضعفا من الباحثين في هذا المابال بالدول النامية. والعلاقة بين القوة الاقتصادية والصناعية للدولة، وتطور علم النفس علاقة قوية على المستوى العالمي (روزونزويج، ١٩٩٤).

وبمرور عام ١٩٣٠ انفتحت العلاقة بين علم النفس والوضعية النمساوية الجديدة، وتحول حينها علم النفس الوضعي إلى سلوكية أو إجرائية، وتم استزراع علم نفس الجشطالت في أمريكا وذلك لعدم تسامح النازية في آلمانيا. وعندما سافر الأمريكيون إلى لايبزج لتمام عام النفس الجديد من فونت، رجع هؤلاء بكمية من الحماس لعلم النفس الفسيولوجي وعلم النفس العملي، ولكنهم في امريكا حوروا نموذج النشاط في علم النفس من الوصف والتعميم إلى تقييم القدرة أو الطاقة ألله أمريكا حوروا نموذج النشاط في علم النفس من الوصف والتعميم إلى تقييم القدرة أو الطاقة إلى فونت، ولكن الإلهام يرجع إلى جالتون وهنا يطرح السؤال، ولماذا؟ والإجابة بكل بساطة أن نظرية التطور هي التي حتمت هذا التفيير (بورنج، ١٩٥٧). وحسب نظرية التطور فإن المشكلة نتلخص في أن البيئة نعمل بطريقة غير جلية، فهي لا تدفع أو تسحب، أنها تختار وتصطفي. ولقد نظلت عملية الاصطفاء الطبيعي، طيلة الأف السنين من تاريخ الفكر الإنساني، تجري وتسير وهي غير مرنية رغم أهميتها غير العادية، وحينما تم اكتشافها في النهاية أصبحت، بالطبع، المفتاح غير مرنية رغم أهميتها غير العادية، وحينما تم اكتشافها في النهاية أصبحت، بالطبع، المفتاح لنظرية التطور (اسكنر، ١٩٨٠). ولقد قبد أمريكا نظرية التطور بشراهة، وتبعا لذلك يمكن القول إن علم نفس التوافق وقيم البقاء كان النتيجة. إن أمريكا أصبحت مستعدة للنشوئية أكثر من المانيا وإنجلترا. وأمريكا هي الدولة الرائدة الجديدة، فإن البقاء عن طريق التوافق مع البيئة هو الملبوحات بالنسبة لثقافة المالم الجديد. وفيسفة أمريكا الجديدة تعتمد على الفرص والطموحات الفردية، وهي الفلسفة المسؤولة عن تطور الذرائعية والوظيفية في داخل علم النفس وخارجه، ودوح العصر كانت تتطلب ذلك (بورنج، ١٩٥٧).

والتطور الهائل لنظرية التطور، والبقاء للإصلح، وتطور علم نفس الترافق في امريكا لعب أدوارا كبيرة في عطيات التمثيل الثقافي للبلاد البوتقة، وفكرة «البلاد البوتقة». وإن الفلسفة السياسية بالنسبة التمثيل الثقافي تتطابق تماما مع نظرية علم النفس الاجتماعي في التشابه والتجاذب (بايرن، ١٩٧١) ولقد اظهرت أبحاث علم النفس الاجتماعي أنه كلما كان هناك فردان متشابهان في ناحية الاتجاهات والنشاطات والمعتقدات والمجموعة العرقية صارا يميلان ويحبان بعضهما (كاندل، ١٩٧٨) وبالنسبة لاسكنر، فإنه من الممكن إحداث تغيير ثقافي، بل أكثر تحديدا، تصميم الثقافة التي نريد. وبنفس كيفية التحكم في الفرد يمكن التحكم كذلك في كل البيئة الثقافية. وقد عبر بقوله: «وبالنظر إلى أن علم السلوك وتكنولوجيا السلوك يعملان على وضع تصميم أو تخطيط أفضل، فهما «تغييران» مهمان في تطور الثقافة. وإذا كان هناك غاية أو أتجاه في تطور الثقافة، فإن ذلك لابد أن يكون له علاقة بوضع الناس تحت تحكم المزيد من نتائج

سلوكهم (اسكنر، ١٩٨٠) ولقد ساهم علم النفس الاجتماعي المرتبط بعلم النفس الشعبي أو الفلكلوري أو الثقافي، في فهم وإحداث التمثيل الثقافي للمجموعات العرقية. وتم التعبير عن المنهج التاريخي للاتصال عبر الثقافي بين المجموعات المختلفة من خلال الصورة الرومانسية «للبلاد البوتقة» التي ينصهر فيها المهاجرون. إن الفكرة الأساسية من وراء ذلك هي أن الاقليات الثقافية يجب أن تهجر وتتخلى عن «طرقها القديمة» وموروثاتها الثقافية. وأن تتبنى «الطريقة الأمريكية» إذا تم توجيه وتعريض حرارة كافية للبوتقة فإن الفروقات الثقافية بين المجموعات سوف «تنصهم» وكل فرد يصبح من ناحية ثقافية «أمريكيا» (مقدم، تيلر ورايت، ١٩٩٧)

بمكن أن تخلص في هذا الجزء من الدراسة للقول إن أمريكا قامت بتكبيف علم النفس في تربتها، وذلك لإيمانها العميق بنظرية البقاء للأصلح في الداخل للأفراد والجماعات الكونة للمجتمع الأمريكي، والبقاء للأصلح في الداخل يرتبط بالبقاء للأصلح في الخارج بالنسبة لأمريكا الدولة العظمي. ولقد تم تكييف عدة نماذج مختلفة ومحاولة المزج بينها مثل علم النفس التجريبي من المانيا، والقياس النفسي من بريطانيا، والوضعية من النمسا، وتعززت هذه المدارس المستوردة والمتبناة ولكن الموطنة والمكيفة مع السلوكية والوظيفية والذرائعية، ويذلك تم ختم ما هو مستورد بالدمغة الأمريكية. ولم تكن استجابة علماء النفس الأمريكيين لعلم النفس في أوروبا استجابة نقلية، بل كانت استجابة ناقدة. إذ تعلم الطلاب الأمريكيون التقنيات العلمية في المانيا، لكن روح العلم الجديد كانت روحا أمريكية. ولقد تحوات قبلة علم النفس من لا يبزج إلى أمريكا وأصبحت أمريكا- تبعا لذلك التحول- مركز الكون لعلم النفس، وأصبحت الجامعات الأمريكية هي الأماكن التي يحج إليها علماء النفس من العالم عامة والعالم العربي خاصة. وأصبح النموذج الأمريكي لعلم النفس هو الأكثر تأثيرا في العالم. فالكم الهائل من المصادر، وأمهات الكتب، والدوريات، والمجلات، والبرامج، والمؤتمرات، والجمعيات والمنظمات، والأدوات والتقانة المتعلقة بعلم النفس منتوج أمريكي يصدر للعالم أجمع، ومن بينه العالم العربي. وتم تعليب المفاهيم وتغليف النظريات وتصميم المناهج بصورة تسلب العواطف، وتأسر العقول، وتغسل الأدمغة، وتجعل علماء النفس-وبخاصة العرب منهم- في حالة من اللاوعي. ويوسعنا الافتراض بأن الحرب الباردة هي أكثر العوامل التي جتمت هذا التطور الهائل لعلم النفس. وهناك أهمية في التحقق من صحة هذا الافتراض.

علم النفس والحرب الباردة

عندما خرج الألمان من الحرب العالمية الأولى منهزمين، فكروا في بحث سبل الهزيمة وتعبئة الشعب الألماني تعينة نفسية للقتال والأخذ بالثار مرة أخرى، ويذلك اتجهت الأنظار إلى علم النفس (فرج وعطية، ١٩٨٧). وعندما كانت النازية تعد ثلانيا إعدادا شاملا للحرب، نشأ الاهتمام بعلم النفس الحربي كجزء من خطة عامة أقامها النازيون لتعبئة الدولة كلها تعبئة نفسية للقتال، وبذلك اتجهت أبحاث الألمان إلى دراسة عميقة لكثير من الظواهر النفسية والاجتماعية، وخصوصاً ما تعلق منها بفن القيادة (السياسية والعسكرية)، والروح المعنوية (المدنية والعسكرية أيضًا)، وسيكولوجية القتال والدعاية استطاعت المانيا أن تستفيد من نشاط علم النفس المهني على أوسع نطاق في بناء قوتها المسلحة، وقدمت العديد من الأبحاث في مجالات متعددة مثل: الاختبارات النفسية للانتقاء، الروح المعنوية الدفاعية، الروح المعنوية الهجومية، وشؤون التعبئة وسيكولوجية الحياة العسكرية (السعيد، ١٩٥٩) ويعتبر علم النفس العسكري أحد الأفرع التطبيقية لعلم النفس، وهو يعني بتطبيق مبادىء علم النفس في مجال الجيش بغرض رفع مستوى كفاءة أفراده، وذلك بوسائل عدة مثل انتقاء وتوزيع الأفراد على التخصصات والمهن العسكرية المختلفة، مستخدما في ذلك أساليب القياس النفسى ويهتم هذا العلم أيضاً بتطبيق مبادى، التعلم على برامج التدريب العسكري، لضمان نجاح هذه البرامج وتحقيق أهدافها. ويهتم كذلك بدراسة سبكولوجية الحواس، والتأثير المتبادل بين الفرد ومجتمعه العسكري، وتشخيص وعلاج المصابين بصدمات نفسية ناشئة عن أهوال القتال، ويإرشاد وتوجيه العائدين من القتال، ولاسيما المشوهون منهم، وتأهيلهم للحياة المدنية (فرج وعطية، ١٩٨٧) وساعد علم النفس العسكري بمهارة فاثقة في تشكيل وتصور جديد بالنسبة للحرب، وكيفية إخضاع الشعوب. وينبغى أن يبقى في بالنا أن ألمانيا كما كانت أول الركب في ارتباط علم النفس الوثيق بالاستعمار، كانت أول الركب كذلك بارتباطه بعلم النفس العسكري، وبالحرب النفسية خاصة. وكانت بريطانيا ثاني دولة في تأسيس علم النفس، وهي ثاني دولة في ربط علم النفس بالعمليات العسكرية.

وفي المضابرات البريطانية لا يجري رجال الاستخبارات العسكرية بشكل كثيف في العمليات المستورة، وبتلام العمليات الهجومية المستورة اكثر مع وحدات «خدمات الطيران الخاصة»، وتقوم وحدات «العمليات النفسية» أو (بسايريس Psyops) بتنظيم الدعاية لدعم الحملات العسكرية. وفي العام ١٩٧١، كان للجيش البريطاني فرع للحرب النفسية يضم ٣٠ شخصا، وكان رجال العمليات النفسية موزعين على ثلاثة مقرات عبر البحار، وكانت هناك وحدة آخرى مقرها في وزارة الدفاع ويجري التدريب على العمليات النفسية في «مؤسسة الحرب المشتركة» وتميز المؤسسة بين نوعين من الدورات، أحدهما لضباط الإدارة، والآخر لضباط الوحدات التي سيكون عليهم تخطيط العمليات النفسية وتنفيذها، وتشمل الدورات محاضرات حول ممارسة الدعاية الشيوعية، وحول عصابات المدن، وتقنيات الإعلان الحديث، والخبرات التي اكتسبت من العمليات النفسية الأخيرة. وفي عام ١٩٧٦ اكدت وزارة الدفاع أنه كان قد تم تدريب ١٨٥٨ ضابط جيش، و٢٣٦ من كبار المؤلفين المدنيين، خلال السنوات الثلاث السابقة، على استخدام التقنيات النفسية الأغراض الامن

على الرغم من أن الوحدات القتالية للحرب النفسية قد تكون صغيرة من حيث العدد، فإن الجيش البريطاني يتوقع لنفونها أن يكون واسع النطاق إلى حد بعيد. وبالعمليات النفسية، الكمسبت القوات المسلحة ومؤسسة الدفاع – أو هي ستكسب سريعا – القدرة على شن حملات سياسية لملاحقة أهداف عسكرية كلياً، بشكل مستقل عن النظام السياسي، أي من دون الإشارة إليه (بلوش وجيرالد، ١٩٨٧). وفي تقرير معنون «الرأي العام والخدمات المسلحة، نشر في الدسن دي تايمز، بتاريخ ٢٢ أكتوبر ١٩٧٨، أكد بالمر أن قدرة بريطانيا على الدفاع عن نفسها قد تعتمد على كيفية تأثر الرأي العام بالإعلام، أكثر مما تعتمد على قوتها من حيث عدد الجنود، وكميات السلاح والعتاد العسكري، إن الاستخدام الأكثر فعالية واتساعا للعمليات النفسية سوف يمكن العسكريين من الغلبة السياسية في أحيان أكثر (بلوش وجيرلاد، ١٩٨٧). وتعمل هذه العمليات النفسية على فهم طبيعة التحكم المراد تطبيقه في الإصفاع الواسعة بلا حدود، والتي يمكن العمليات النفسية بلا حدود، والتي خلالها علم النفس لأغراض الحرب الماردة.

وعموما فإن الغرب قد أعاد النظر في استراتيجيات الحرب، وخطط لاستراتيجية جديدة تهتم بالعامل السيكولوجي، وبذلك يمكن القول إن الحرب الفعلية اليوم هي حرب سيكولوجية (كرم شبلي، ١٩٧٣) وهي خلافا عن الحرب التقليدية أو حرب القتال. ومن أمريكا، يعتقد روزفلت مثلا أن الحرب العالمية الثانية هي مقياس حقيقي لمعركة العلم والتنظيم، وتكمن الفكرة في حشد وقحريك العلم لخدمة الدفاع (ماركس، ١٩٧٩). ومن بريطانيا، يقول تشرشل: «كثيرا ما غيرت الحرب النفسية وجه التاريخ» ومن فرنسا، يؤكد ديجول: «لكي تنتصر دولة ما في حرب، فإن عليها أن تشن الحرب النفسية قبل أن تتحرك قواتها إلى ميادين القتال». ومن ألمانيا، يضيف روميل «إن القائد الناجح هو الذي يسيطر على عقول إعدائه قبل أبدانهم». وتبعا لذلك فلقد استخدمت مصطلحات وتقنيات كثيرة للحرب النفسية منها، حرب الأعصاب، حرب المعنويات، حرب الأهنكار، حرب الإرادات، حرب الدعاية، الحرب الباردة، حرب الإشاعات، غسيل الدماغ أو غسيل الماغ أو في المسلك الماغ أو أن المسلك ال

ولقد لعبت الحرب الباردة بين امريكا والاتحاد السوفييتي كامم رمز للحرب النفسية أو السيكولوجية دورا كبيرا في تطور أبحاث علم النفس. وتأسست دجمعية البيئة الإنسانية، في المريكا لدعم ابصات علم النفس، وتتبع هذه الجمعية المخابرات الأمريكية، وهي تقدم دعما ماليا كبيرا الإبحاث علم النفس لخدمة المخابرات، وكانت المظلة لتقديم هذا الدعم وتحديد علماء النفس هي الرابطة النفسية الأمريكية (ماركس، ١٩٧٩). وهنا يمكن أن نقف قليلا عند طبيعة العلاقة بين الرابطة النفسية الأمريكية والمخابرات الأمريكية. ويمكننا في هذا الجزء من الدراسة القول إن علم النفس في حقيقته قد تطور جزء كبير منه بواسطة المخابرات. فإن تطور أبحاث علم النفس قد لعب علي الحرب الباردة، وربما تطرح المسألة بصورة معكوسة بأن الحرب الباردة ساعدت على تطور علم النفس، ربما يصعب علينا تحديد ايهما السبب، وايهما النتيجة ومهما يكن فإن علم علم النفس، ربما يصعب علينا تحديد ايهما السبب، وايهما النتيجة ومهما يكن فإن الذاكرة الاستعمارية حية في بالنا، وأن تبقى متقدة اكثر بالتطبيقات الهائلة لعلم النفس في مجال المخابرات. فهناك تواصل متدرج بين دور الأمبراطوريات الغربية في تطبيقات علم النفس، واستمرار دور الأمبريالية في هذه التطبيقات بعد الاستقلال. سوف انتقي في الجزء اللاحق من الدجاب المهانب المتراتيجي.

ولقد عقد في موسكو عام ١٩٣١، المؤتمر الدولي السابع لعلم النفس التطبيقي (علم النفس التقني)، وكان ذلك فرصة للمندوبين الغربيين للإعجاب ببعض المنجزات المهمة في مجال علم النفس الفارق، مثل مصلحة الانتقاء المهني للسكك الحديدية، حيث المختبر المركزي الذي يحتوي على مجموعة مؤلفة من الأطباء وعلماء النفس التقنيين والإحصائيين والستخدمين (روكلن، ١٩٨٣). ومنذ الحرب العالمية الثانية كان هناك اهتمام كبير من قبل علماء النفس الأمريكيين بمتابعة تطور علم النفس في الاتحاد السوفييتي. وقام عشرة من هولاء العلماء بزيارة للاتحاد السوفييتي في صيف ١٩٦٠، تحت دعم كامل من جمعية البيئة الإنسانية. وكان هدف الزيارة، كما يقول بوير، هو تعزيز التواصل بين علماء النفس في البلدين (بوير، ١٩٦٢). ولم بكن لدي تسعة من هؤلاء العلماء فكرة عن علاقة تلك الرجلة بالمخابرات. كما دعمت الجمعية مؤتمرا وكتابا عن «بعض الآراء عن علم النفس السوفييتي» الذي نشرته الرابطة النفسية الأمريكية عام ١٩٦٢، وقام كل واحد من أولئك العلماء العشرة بكتابة باب عن أحد المجالات في علم النفس (ماركس، ١٩٧٩). ولقد شكر علماء النفس الأمريكيون الذين قاموا بزيارة الاتحاد السوفييتي جمعية البيئة الإنسانية التي وفرت لهم الدعم السخي. وتبعا لقول بوير فإن هدف زيارة علماء النفس الأمريكيين المستحاد السوفييتي هو «تعزيز التواصل بين علماء النفس في البلدين» ولكن يبدو أن الأجندة الخفية لهذه الزيارة تتمثل في تفكير استراتيجي أمريكي ببداية الحرب الباردة لانها أكثر مناسبة لروح العصر. وريما يكون من ضمن الأجندة تجنيد عملاء من علماء النفس السوفييت لكي يساعدوا علماء النفس الأمريكيين في عرض الأبحاث النفسية المتقدمة، خاصة في مجال تقنيات التحكم في السلوك والتفكير التي طورها السوفييت.

بعد هذه الزيارة المكشوفة المستورة في الوقت نفسه ظهرت مجموعة كبيرة من المقالات والكتب الخاصة بعرض وبراسة علم النفس السوفييتي، او علم النفس في السوفييت خلال الخمسينيات والستينيات. ولقد حدث توثيق دفيق لكل أبحاث علم النفس السوفييتي، والكيفية التي يتم بها فهم سلوك حل المشكلات، والصحة العقلية، وتطبيقات علم النفس في الصناعة وطرق التنشئة، وعمل علماء النفس الأميركان بنلك على فهم نقاط القوة والضعف في البناء النفسي للافراد والجماعات والدولة في الاتحاد السوفييتي، ومن المسوحات التي تمت لعلم النفس مثلا: علم النفس الروسي والدولة في الاتحاد السوفييتي، ومن المسوحات التي تمت لعلم النفس (رازران، ١٩٥٧)، وعلم النفس السوفييتي وفسيولوجيا النفس (رازران، ١٩٥٩)، وعلم المعاصر (رازران، ١٩٥٥)، وعلم

النفس السوفييتي (وين، ١٩٦٦)، وعلم النفس في الاتحاد السوفييتي (سايمون، ١٩٥٧)، والعلاج النفسي في السوفييتي (بوير، ا١٩٦٧)، وبعض وجهات النظر عن علم النفس السوفييتي (بوير، ١٩٦٧) وبعض الأبحاث السوفييتية في التفكير وحل المشكلات (ريتمان، ١٩٦٧) والمراسات السوفييتية لنمو المشخصية والتنشئة الاجتماعية (برونفينبرينر، ١٩٦٧)، والبحث والعمل الاكلينيكي وسط الأطفال (براكبيل، ١٩٦٧)، وملاحظات حول علم النفس التربوي والصناعي في الاتحاد السوفييتي (فليشمان، ١٩٦٢)، ووجوانب حول علم النفس وفسيولوجيا النفس في الاتحاد السوفييتي (ميلر وبفافمان، واسكلسبيرج، ١٩٦٧)، والحياة السوفييتية وعلم النفس السوفييتي (ريتمان، ميرفي وميرفي، ١٩٦٧) والملاحظة الدقيقة توضح تزامن مصطلحات: تشكيل الدماغ، والإنسان الجديد، والقاتل المبرمج، والحرمان الحسي، والعزلة الحسية، وسيكولوجيا الاستجواب، وسيكولوجيا الاستجواب، ويتوقع لعلم النفس السوفييتي، ويدوقع لعلم النفس أن يلعب دورا كبيرا في ويداية الحرب الباردة بن أمريكا والاتحاد السوفييتي، ويتوقع لعلم النفس أن يلعب دورا كبيرا في فهم سيكولوجيا القيادة السوفييتية، وفهم كيفية صنع القرار، وفهم البناء النفسي للروح فهم سيكولوجيا القيادة السوفييتية، وفهم كيفية صنع القرار، وفهم البناء النفسي للروح الجماعية، وذلك إيذاناً ببداية الحرب الباردة أو الحرب النفسية، بدلا من الحرب التورية أو البيرلوجية أو الكيميائية إن واحدا من أبرز رموز الحرب الباردة هو الاتتان المهم بعملية غسيل الدماغ.

غسيل الدماغ

بوسعنا القول إن الدور الخطير لعلم النفس هو الذي قاد المفابرات الأمريكية لدعم وتطوير الابصات النفسية ذات الصلة بموضوع الدفاع والحرب الباردة، خصوصا غسيل الدماغ (انظر بوير، ١٩٦٢، بيدرمان وزيمر، ١٩٦١، ماركس، ١٩٧٩). ويعرف غسيل الدماغ بنانه كل محاولة للسيطرة على العقل البشري، وتوجيهه لغايات مرسومة بعد أن يجرد من نخيرته ومعلوماته ومبادئه السابقة (الدباغ، ١٩٧٠). ويعرف كذلك بأنه عملية إعادة تشكيل أو إعادة تعليم وتحويل الإيمان او العقيدة إلى كفر بها ثم الإيمان بنقيضها (نوفل، ١٩٨٩). لقد نشرت جريدة «أخبار ميامي» في سبتمبر ١٩٥٠ مقالا كتبه إدوارد هنتر بعنوان «غسيل الدماغ»، وهو أول استخدام لهذا المصطلح في كل اللغات، وأصبح يستخدم بسرعة في الحرب الباردة. وهنتر هر عميل في مجال الدعاية بعمل تحت مظاة الصحافة، وقد صاغ المصطلح من كلمة صينية معناها تنظيف

الدماغ، وليس للكلمة اي دلالة سياسية في اللغة الصينية ويعتقد هنتر أن للشيوعيين تقنية
تستخدم في وضع عقل الفرد في حالة من الضباب تجعله يخطى، ويعتقد بأن ما هو مصحيح هو
غير صحيح، وما هو محقيقي هو خطأ، ومالم يحصل قد حصل، حتى يصبح الفرد في نهاية
الأمر مجرد ربوط أو إنسان الي بالنسبة للشيوعية. وهناك اعتقاد بأن التقنية السوفييتية في مجال
التحكم في العقل تعتمد اعتمادا كليا على عملية الضغط النفسي المكثف، والكشف على نقاط
الضعف في الإنسان. ويبدر أن هناك بعض الفروقات بين النظام السوفييتي والصيني في عملية
غسيل الدماغ، ويعتمد نلك على خصوصية المروث الثقافي. إذ يعتمد السوفييت على إجراء عملية
الغسيل في مراحل العزلة، ثم الترويض، ثم الخضوع والتخفيف، بينما يشبه النظام الصيني
مجموعة مهرة من خبراء الوخز بالإير يوخزون في بعض اعتمادا على الضغط الجماعي والعقيدة
والتكرار (ماركس، ١٩٧٩) وسوف نفسح المجال في الجزء اللاحق من الدراسة لعرض تطبيقات
مساهمة بافلوف العملاقة في أبحاث غسيل الدماغ وكيفية استجابة علماء النفس في أمريكا لهذه
الإبحاث الغامضة والموجة في الوقت نفسه.

لقد قام الخبراء الشيوعيون في مجال «إعادة تشكيل التفكير» بخلق فكرة « الإنسان الجديد» كهدف، من خلال التغيير الحقيقي في المعتقدات والقيم. وكان ذلك التطور في مجال التحكم قد ازعج الأمم الغربية، واحتارت لهذه الممارسات الشيوعية (بيردر مان وزيمر، ١٩٦١). واستخدمت تقنية غسيل الدماغ في مجال التحكم في سلوك الأفراد، خصوصا في الحرب الباردة. وكان تطوير هذه التقنية من جانب المخابرات الأمريكية كرد فعل على اعتقاد أمريكا بأن للروس والصينيين مهارات عالية في مجال التحكم في العقل. ويقول هنتر- عالم النفس بالمخابرات الأمريكية- إن السوفييت قاموا بعملية غسيل الدماغ بطريقة التشريط ذاتها، أو الفعل المنعكس، التي قام بها بافلوف في تجاريه على الكلاب. ويفهم من قول هنتر التخوف والقلق من التطور الهائل لعلم النفس في الاتحاد السوفييتي. ولكن الاستجابة الهستيرية لعلماء النفس في أمريكا كانت ذات فائدة في تطور أبحاث علم النفس. وقد يصعب علينا تصور استمرارية أبحاث بافلوف من غير إسهام اسكنر في مجال تكنولوجيا السلوك.

إن العلاقة بين بافلوف واسكنر كعلاقة العاج والابنوس- كما تعبر إحدى الاغاني الغربية-فهما يذكران دائما مع بعض لدارسي علم النفس، وبخاصة في مجال نظريات التعلم، ويشرح اسكتر (۱۹۸۰) – العالم السلوكي الأكثر شهرة – دور بافلوف في بناء هذا العلم الجديد، وإمكانية بناء أفعال منعكسة جديدة بواسطة عملية التكييف ولد من ذلك علماً سيكولوجياً كاملاً قائماً على المثير والاستجابة، أو على المؤثر ورد الفعل. وعلى ضوء هذا العلم اعتبر السلوك كله بمثابة ردود أفعال على منبهات أو مثيرات، وإن نجاحات الحرب العالمية الثانية أعادت الثقة إلى مبادئ، باظوف، ومن ثم عاد بافلوف إلى الصورة، وأصبح من العلماء المفضلين.

وفي أحد الأيام، وبعد جهد مضن ولسنين طويلة في حياة شاقة، استدعي بافلوف إلى الكرملين لقابة لينين كرئيس دولة، واستقبل استقبالا حافلا، وطلب منه لينين فورا أن يشرح له بالتفصيل نتيجة أعماله. وقد ذكر له في أثناء الحديث بأنه لم يكن شغوفا بأبحاثه الأولى عن الجهاز الهضمي، ولا بدراساته عن الدورة الدموية، ولكن ما يهتم به هو تجاربه على الكلاب. وطلب من بافلوف أن يكتب ملخصا وأفيا عن كل اعماله المتصلة بالكلاب وسائر الحيوانات، ولكن من ناحية إمكان تطبيقها على الأدمين، طلب منه أن يكون دقيقا في التفاصيل فيما يختص بالأبحاث المتصلة بالبنس البشري، وعندما أتم بافلوف كتابة حوالي أربعمائة صفحة بخطه، قابل لينين الذي كان قد قرأ هذه الأبحاث بعناية، وقال له بحماس كبير، «اقد أنقذت الثورة، وأن ما قمت باكتشافه ليضمن مستقبل الشيوعية الدولية». ولقد كانت تجارب بافلوف على الإنسان والحيوان الركيزة التي أقام مستقبل الشيوعيون عملية تطويع الإرادة الحرة وتسخيرها لإرادة الحزب والثورة. ومع أن الاقدمين استخدموا وسائل ميتافيزيقية وسيكراوجية للسيطرة على عقول الناس لتحويل معتقداتهم، فإن الجديد في نظرية بافلوف أنها تعتمد على الرسائل الفسيولوجية أكثر من غيرها (صلاح نصر، ١٩٨٨). يبدو أن لينين قد استوعب بصورة متناهية الدور الذي يمكن أن يلعبه علم النفس في تشكيل وصياغة السلوك. وتعتبر تجارب بافلوف المذيرة والمخيرة بمثابة «سفر التكوين» لأبحاث غسيل الدماغ، وربما أنشطة الكي. جي بي البالغة النكاء والخفاء

لقد لاحظ بافلوف أن الكلاب، عندما كانت تتعرض لتوترات تجريبية، أو مواقف صدام متشابهة، فإن ردود الفعل والاستجابات التي كانت تحدث لها تختلف من كلب لآخر، حسب اختلاف أمزجتها، كما كان علاج كل كلب من الانهيار يتوقف أولا على نوعه الوراثي، وفي الحرب العالمية الثانية ثبتت هذه القاعدة بالنسبة للأدمين الذين أصيبوا بانهيار عصبي مؤقت نتيجة المعالية، أو بسبب التوتر الناجم عن الغارات الجوية، وقد اختلفت الجرعات التي أعطيت لهم اختلافا كبيرا، طبقا لأنماطهم المزاجية (صلاح نصر، ١٩٨٨). ولقد وجد دليل إضافي على صلاحية اكتشافات بافلوف عن الكلاب في تطبيقاتها على المشكلات السيكولوجية للإنسان، إذ استجاب المرضى للعلاج استجابة كاملة. ويؤكد سارجنت (١٩٦٣) بأنه وجد الشيء نفسه في المتجاب المرضى الذين اعطوا مهدنا من مهدنات الطوارى، في خط الجبهة الأمامية حينما كانوا يصابون الموضى الذين اعطوا مهدنا من مهدنات الطوارى، في خط الجبهة الأمامية حينما كانوا يصابون كبية المهدى، التي يحتاجون إليها تتفاوت تفاوتاً كبيرا. وتطبيق اكتشافات بافلوف في الكلاب على ميكانيكية انواع عديدة من التحول الديني والسياسي في الكائنات البشرية توجي بأنه لكي يكون مكانيكية انواع عديدة من التحول الديني والسياسي في الكائنات البشرية توجي بأنه لكي يكون التحويل مؤثراً يجب أن تستثار انفعالات الشخص حتى يصبل إلى درجة شاذة من درجات. الخصب، والخوف، أو النشوة، فإذا أمكن الاحتفاظ بهذه الحالة،أو أمكن زيادة حدتها بوسيلة أو بأخرى، فقد ينتهي الأمر بالنسبة للتخلص إلى حالة من حالات الهستيريا، وحينئذ يصبح الإنسان اكثر استعداداً لتلقي الإيحاءات التي قد يتقلها في الظروف العادية على الإطلاق، وقد يحدث دانهيار لذلك مرحلة من المراحل «المتعادلة» أو «المتناقضة» أو «شديدة التناقض» أو قد يحدث «انهيار امناء يغضى على كل المتقدات السابقة.

لقد أثبت بافلوف أن قدرة كلب على مقاومة التوتر الشديد تتذبذب تبعا لحالة جهازه العصبي وصحته بصفة عامة، ولكن بمجرد أن يحدث لخه «توقف كامل» فإن تغيرات غريبة للغاية تحدث في وظائف مخ الكلب.

والواقع أن الجهاز العصبي للإنسان مثل الجهاز العصبي للكلب، يكون في حالة من الاتزان الديناميكي بين الإثارة والتوقف الوقائي، ولكنه إذا تعرض لاستثارة شديدة، فإنه يصل إلى الحالات نفسها من الإثارة الشديدة أو التوقف الكامل التي وصفها بافلوف، فيصبح المخ حينئذ عاجزا مؤقتا عن تأدية وظائفه العادية. ويبدو كذلك أن حالة «الامتناع الوقائي» التي لاحظها بافلوف على كلابه تحت وطأة التوتر الحاد ظهرت في جرحى الحرب، وكانت تتملكهم حالة الاستسلام الهادى، أو يصابون بفقد الذاكرة، أو بعجز يقعدهم عن استعمال اطرافهم، أو بنوبات من الغيبوبة. ولقد نجح بافلوف في تجارب متكررة في إثبات أنه يمكن تكييف الكلب، مثل الإنسان، على كراهية من كان يحبهم سابقاً، أو حب من كان يمقتهم قبل ذلك (صلاح نصر، ١٩٨٨). ويذكر إدوارد هنتر اقتران اسم بافلوف، استاذ علم وظائف الأعضاء الروسي، بعملية «غسيل الدماغ»

نتيجة تجاريه المتقدمة على غرائز الحيوانات وسلوكها، وقد ركز بافلوف في أبحاثه على «نظام الإشارات»، وهو ما يقصد به الحس الغريزي الموجه الذي يصل مباشرة بين الحواس، وبين العقل. وانتهت المرحلة الحاسمة من أبحاثه بتجارب على الحيوان والإنسان لإثبات نظرية «الفعل المنعكس وانتهت المرحلة الحاسمة من أبحاثه بتجارب على الحيوان والإنسان لإثبات نظرية «الفعل المنعكس الشرطي» وتعني القيام بسلوك معين نتيجة لؤثرات خارجية، مثل سيل اللعاب عند رؤية الطعام، أو عند حدوث أي أثر متقرن بالطعام كما توصل بافلوف إلى أنه بتغيير بيئة الإنسان يمكن تغيير بيئته الذاتية. والواقع أن أبحاث بافلوف كانت هي المشاعل التي أنارت الطريق أمام الشيوعيين للتوسع في عملية «غسيل المغ» وبرنامج غسيل المغ ليس بجديد تماما، ولكن الشيوعيين جاموا للمنهجهم في ضوء أكثر شمولا وتنظيما، كما أنهم استخدموا فيه مجموعة من الاساليب الفنية السيكولوجية المترابطة ويمكننا القول بثقة إن مساهمة بافلوف التي ترجع لهذه المرحلة الباكرة من السيكولوجية المترابطة ويمكننا القول بثقة إن مساهمة بافلوف التي ترجع لهذه المرحلة الباكرة من تطور علم النفس والتحكم بالجملة، والاقتران الطميق بين علم النفس والتحكم بالجملة، والاقتران اللصيق بين علم النفس والتحكم بالجملة، والاقتران المسيق بين علم النفس والتطبيق الأكبر، أي بصورة «مايكروية» في السجون، وفي الاستجواب أو الاستنطاق، وفي انهيار المقاومة النفسية، وفي المخابرات بقصد «التلاعب التحكمي»، كما يعبر إدوارد سعيد.

وإن النتائج التي توصل لها بافلوف كانت لها تطبيقات في كيفية إحداث انهيار للمقاومة النسبية السجناء، وكان علماء النفس العسكريون (انظربلوش وجيرالد، ١٩٨٧) يعتقدون، منذ أمد طويل، أن الطريقة الأكثر فاعلية في كسر مقاومة السجين للاستنطاق هي إجباره على تسبب الألم لنفسه، ومن هنا جاست تقنية جعل السجين يقف، وقد باعد بين ساقيه، قبالة حانط يستند إليه منحنيا – على رؤوس أصابع يديه، لفترات طويلة، ولاشك في أن تغطية العينين، ومنع السجين من النوم، والتبدلات الكبيرة في حرارة الزنزانة، وإخضاع السجين له «ضجيج أبيض» بشكل دائم، كلها من الأمور التي تسرح في انهيار مقاومته وفي المغابرات البريطانية، كانت مهمة الاستنطاق، باستخدام هذه الطرق قد أوكلت إلى أربع «فرق جنائية إقليمية» تابعة له «شرطة الستر الملكية» في العام ١٩٧٦، وكان رجال هذه الفرق، البالغ عددهم ٨٩ رجلا، قد تلقوا تدريبا على استخدام هذه التقنيات من ضباط الاستخبارات العسكرية، واستخدمت نتائج أبحاث علم النفس بفعالية في مجال الاستجواب. وهناك اعتقاد بأن التقنية السوفييتية في مجال التحكم في العقل تعتمد ما علمادا كليا على عملية الضبغط النفسي المكثف، والكشف على نقاط الضعف في الإنسان. وبعد

فترة من القلق المستمر، ويتطبيق بعض الاساليب الأخرى يبدأ الاستجواب. ومن المحتمل أن يتحطم الإنسان تلقائيا وبدرجة ملموسة نتيجة القلق والتفكير الطويل فيما يعترف به، ويصبح في حالة يأس وتعاسة. وغالبا ما يناله الضعف والوهن نتيجة هذه الآلام الطويلة، وما يصاحبها من ضعف فسيولوجي، حيث يصبح عقله ملبدا بالغيوم، فلا يستطيع أن يميز أي شيء يهبط إلى قراره نفسه، أو أي أيحاء يقدم إليه بواسطة الإجبار أو الحيلة.

يؤكد بافلوف أن الإنسان «كبير الشبه بالكلب»، ولكن كان ذلك خطوة إلى الأمام. ورغم أن الإنسان أكثر تكثير من الكلب، لكنه مثل الكلب يقع في مجال التحليل العلمي. فالإنسان ألة بمعنى أنه نظام معقد يسلك طرقاً لها مباديء وقوانين، غير أن التعقيد فيه تعقيد غير عادي (اسكنر، ١٩٨٠) والواقع أن الجوع يلعب دورا أساسيا في عملية غسيل المخ، لأن الانسان لا يستطيع ان يستمر في حياته العادية دون أحوال بيولوجية معينة، منها الغذاء اللازم لبناء خلاليا الجسم وتجديدها. ولقد استخدم التجويع بهذا المعنى كعنصر من عناصر غسيل الدماغ، إذ كان يعطى للسجين ما يكفيه من أطعمة تمكنه من البقاء على قيد الحياة، وليس بالكمية التي يتطلبها الجسم لجعل ذهنه يؤدي وظائفه بدرجة كافية (مسلاح نصر، ١٩٨٨). فالطعام لا يكون معززا إلا في حالة الحرمان، ومن يحتاج شيئا للأكل فقد يحس بأجزاء من تلك الحاجة، كوخزات الجوع مثلا. ومن يحتاج إلى الدفء فمن الفروض أن يشعر بالبرد. ومن المكن أيضا الشعور بالظروف المرتبطة بالاستجابة القوية الاحتمال إلى جانب الشعور بجوانب من المناسبة الحالية الشبيهة بالجوانب التي كانت موجودة في مناسبات ماضية كان السلوك فيها معززا. ولكن الرغبة في شيء ليست شعورا به، وليس الشعور هو السبب الذي يجعل المرء يتصرف للحصول على ما يريد (اسكنر، ١٩٨٠). أن النظرة البافلوفية في مجال التحكم يبدو أنها قد فهمت فهما صحيحا في أمريكا وأثرت تأثيرا عملاقا في ابحاث علم النفس بالريب. ويمجى، السلوكية، خصوصاً مساهمة اسكنر، حدث تعديل في المناخ السيكولوجي العام، وعلاقته بالتحكم بمزيد من تكنولوجيا السيطرة على السلوك بواسطة السيطرة على البيئة، ومهما يكن، فإن قدرة بافلوف البحثية الفائقة هي التي حتمت هذا التعديل، أو بلغة أصبح، التغيير.

وإذا كان بافلوف أعظم فسيولوجي من روسيا ساهم في تطور أبحاث التحكم، وعلاقته بالحرب الباردة، فإن اسكذر هو أعظم سلوكي ساهم في تطور كيفية تشكيل السلوك وكيفية التحكم في

البيئة. لقد نال اسكنر الدكتوراه من جامعة هارفارد ١٩٣١، ودافع في رسالته عن الافتراض القائل إن علم النفس يجب أن ينظر إلى الاسترجاع بأنه علاقة ارتباطية بين المثير والاستجابة، وتبعا لذلك تجاهل اسكنر وجود أي رابط فسيواوجي دخيل، كما عند بافلوف. وفي عام ١٩٣٨، ألف اسكنر «سلوك الكائنات»، والذي يجتوى على مجموع أبحاثه واعتقاداته في تلك الفترة يقول كوستلر (١٩٦٧): « إن اهم تجربة في التنبؤ بالسلوك، والتحكم فيه تتمثل في تدريب الحمام، بواسطة التكييف الاختياري على السير في زهو واختيال برؤوس مرفوعة عالية بشكل طبيعي». وهو يعيد صبياغة نظرية التعلم بالشكل التالي: «تبعا للنظرية السلوكية يحدث التعلم كله بطريقة التجرية والخطأ، أو الضرب وعدم إصابة الهدف». ويتم العثور على رد الفعل (الاستحابة) الصحيح على مثير معين بطريق الصدفة، ويكون لرد الفعل الصحيح تأثير مشجع، أو معزز، كما تتطلب الرطانة السيكولوجية أن تقول: وإذا كان التعزيز قويا أو متكررا بدرجة كافية، فإن رد الفعل «ينطبع في الذهن»، وتتكون رابطة بين المثير ورد الفعل (استكثر، ١٩٨٠). واقتبس اسكثر قول جليرت سلدز (١٩٢٨). «إن الإنسان هو ابن الظروف، وأنك لو غيرت بيئات ثلاثين طفالا من الهوتنتوت (شعب في جنوب أفريقيا)، وثلاثين طفلا من أرستقراطيي الإنجليز، فسيصبح الأرستقراطيون هوتنتوت من كل النواحي العملية، وسيصبح الهوتنتوت محافظين صغارا» وحسب تعبير اسكنر فإن التحليل التجريبي ينقل مسؤولية تحديد السلوك من الإنسان المستقل إلى البيئة، وتصبح البيئة هي المسؤولة عن تطور الجنس البشري، وعن الذخيرة التي يكتسبها كل عضو. ويقول اسكنر بأن قوتنا هي العلم والتكنولوجيا، وأننا بحاجة إلى إحداث تغيرات واسعة في السلوك الإنساني، ولن يتأتي لنا ذلك بمساعدة الفيزياء أو البيولوجيا فقط، وما نحتاجه هو تكنولوجيا السلوك. ولقد ثبت أنه يمكن التأثير على البيئة والتلاعب بها

إن المشكلات السلوكية المراد حلها في العالم اليوم هي بلا شنك اكثر تعقيدا من الاستخدام العلمي للانشطار النووي. فإن العالم السلوكي لا يحصر نفسه في جداول التعزيز التي تحدث بالصدفة في الطبيعة، بل هو يبني تشكيلة كبيرة من الجداول التي قد لا يظهر بعضها مصادفة فقط. ومن الممكن الوصول إلى الظروف والطوارىء. وحين نفهم العلاقة ما بين السلوك والبيئة، فإننا نكتشف طرقا جديدة لتغيير السلوك. ولقد اتضحت الآن الخطوط العريضة للتكنولوجيا، وتوصف المهمة بانها سلوك يراد إنتاجه أو تعديله، ومن ثم ترتب الظروف والطوارى، الملائمة وقد

تدعو الحاجة إلى تتابع مبرمج للظروف. لقد نجحت التكنولوجيا نجاحا كبيرا، حيث أمكن تحديد السلوك بسهولة نسبية، وحيث أمكن بناء الظروف والطوارى، المناسبة مثلا في رعاية الطفل، والمدارس، وإدارة المعاقين، ودور المجانين. لكن المبادى، نفسها تطبق الآن في إعداد المواد التعليمية على كل المستويات التعليمية، وفي العلاج النفسي الذي يتجاوز أمور الإدارة، وفي إعادة التأهيل، وفي الإدارة الصناعية، وفي تخطيط المن، وفي ميادين الحرى كثيرة من السلوك البشري وهناك الكثير من أنواع «تعديل السلوك المختلفة، والكثير من الصبيغ المختلفة، ولكتبها تتفق على النقطة الاساسية التالية: السلوك مكن تفييره بتغيير الظروف التي يكون هذا السلوك من صنعها. مثل هذا المتكزلوجيا تعتبر من الناجمة محايدة. ويمكن استخدامها من جانب المجرمين أو القيميان، وليس في أي منهج شيء يقرر القيم التي تحدد استعماله

إن طرق تغيير السلوك بواسطة تغيير العقل قلما تغفر حينما تكون فعالة بشكل واضح، حتى حين يكون من الواضح أن التغيير موجه إلى العقل فقط، إننا لا نصفح عن تغيير العقول حينما يكون الخصمان غير متكافئين، فذلك «تأثير غير ضروري»، كما لا نصفح عن تغيير العقل خفية. فإذا كان الشخص لا يستطيع رؤية ما يعمله الشخص الأخر في تغيير عقله، فإنه لن يستطيع النجاة منه، أو القيام بهجوم مضاد عليه، إنه يتعرض لتأثير «الدعاية» وإن الذين يتغاضون عن تغيير العقول حسب تعبير اسكنر يحرمون عملية «غسيل الدماغ» ولذلك سبب بسيط، هو أن السيطرة هنا واضحة. ومن الوسائل الشائعة في «غسيل الدماغ» حالة بغيضة قوية (مثل الجوع أو فقدان النوم) تم تخفيضها لتعزيز ودعم أي سلوك «فيه موقف إيجابي» نحو نظام ما سياسي أو ديني، ويبنى «الرأي» المرغوب فقط عن طريق تعزيز ودعم البيانات المؤيدة المرغوبة. وقد لا يكون هذا الإجراء واضحا للذين يستخدم عليهم، ولكنه واضع جدا للأخرين، بحيث لا يمكنهم تقبله كطريقة مسموح بها لتغيير العقول. إن الطرق المتعددة لتغيير السلوك بتغيير العقول ليست مباحة فحسب، ولكنها تمارس بقوة من جانب بعض جماة الحرية والكرامة. هناك الكثير مما يمكن ان يقال دفاعا عن تقليل التحكم الذي يمارسه أناس أخرون، ولكن هناك إجراءات أخرى لا تزال تتم، والشخص الذى يستجيب بطرق مقبولة لأشكال التحكم الضعيفة ربما كان قد تغير بواسطة طوارى، وظروف لم تعد فعالة وحين يرفض حماة الحرية والكرامة الاعتراف بتلك الإجراءات وهذه الظروف، فإنهم يشجعون إساءة استعمال الممارسات التحكمية، ويسدون التقدم نحو تكنولوجيا للسلوك أجدى وأكثر فعالية (اسكتر، ۱۹۸۰). وعندما كان اسكتر يتربع على عرش السلوكية، ومع بلورة أفكاره في التحكم في السلوك عبر التحكم في البيئة، تزامن ذلك مع تكوين المخابرات الأمريكية «لجمعية البيئة الإنسانية» لدعم أبحاث علم النفس، ويمكن أن نتأمل في «بيئة» اسكنر، وتشكيل السلوك، و«بيئة» المخابرات لأغراض دعم أبحاث علم النفس لتعزيز الحرب الداردة.

ان الهدف النظري لعلم النفس هو عملية التنبؤ والتحكم في السلوك. وهناك اعتقاد بأن القوانين والمباديء التي اكتشفها علماء النفس يمكن ان تستخدم في التلاعب بالإنسان ولقد تبلور اهتمام كبير في الخمسينيات والستينيات بتطور الأبحاث والتقنيات السيكولوجية بالجملة في مجال التحكم في السلوك، وكان ذلك لخدمة أهداف الحرب الباردة. وكانت الحرب العالمية الثانية مؤشرا لنهاية العزلة الأمريكية، ووجدت الولايات المتحدة أن هناك فجوة كبيرة بينها وبين أعدائها تتمثّل في تطبيقات تكتبكات الحرب والعمليات الخفية، واستخدمت بريطانيا العمليات السرية لثات السنوات لربط الامبراطورية أما الألمان والفرنسيون والروس فلهم استخدامات واسعة لهذه اللعبة السرية، ولكن ليس هناك من يجيدها مثل البريطانيين. وتكمن الفكرة في حشد وتحريك العلم لخدمة الدفاع، ونتيجة لذلك تم تشكيل شبكة للبحث تهتم بمجالات واسعة من تشطير الذرة، إلى منع الانهبار العقلي أثناء المعركة (ماركس، ١٩٧٩). وللاستخبارات البريطانية دور عريق في «العمليات المستورة»، بل ربما كان الأعرق بين أجهزة الاستخبارات الامبريالية والاستعمارية الأخرى كافة، وإن كان هذا الدور قد تراجع في السنوات الأخيرة، بعد أن تعملق دور الاستخبارات الأمريكية، وتضخم حجم عملياتها المستورة إلى حدود شبه خيالية، وأصبحت عمليات الاستخبارات البريطانية هي التي رعت ولادة وترعرع الاستخبارات الأمريكية في مرحلة ما بعد نهاية الحرب العالمية الثانية مباشرة ومن بين أعمال أجهزة المخابرات الإمبريالية جمع المعلومات وتنسيقها وتحليلها والخروج منها باستنتاجات محددة تلعب دورا كبيرا في رسم السياسات العليا، الداخلية والخارجية للبلاد، تجاه التحركات الداخلية، وتجاه البلدان الأخرى (عفيف الرزاز، ١٩٨٧). ويستنتج مما سبق بأن هناك قدرا كبيرا من التأخي بين الاستخبارات في بريطانيا وأمريكا في تطبيقات علم النفس في مجال التحكم، وعن طريق العمليات الخفية أو الستورة.

وقد بدأت المفابرات الأمريكية ببعض الأبحاث المبدئية في مجال العقاقير والتنويم بعد تكوين المغابرات مباشرة عام ١٩٤٧ وفي صيف عام ١٩٤٩، قام رئيس المغابرات العلمية بزيارة خاصة إلى غرب أوروبا للبحث عن العمليات التي يقوم بها السوفييت أثناء الاستجواب. وكان هناك خوف بأن السوفييت رئيا الستخدمو المغاقير والتنويم بالنسبة للسجناء. ولقد استخدمت المغابرات الأمريكية التقنية نفسها بالنسبة لللجئين والسجناء العائدين من شرق أوروبا. وبدأ برنامج العصفور الأزرق للتحكم في العقل عندما كان ستالين حيا في سطوته، وعندما كانت ذكرى متلر حية، والخرف من الحرب النووية قائما. وعندما قام السوفييت بإخضاع معظم دول شرق أوروبا، وقام الحزب الشيوعي بالتحكم في العسين، بدأت الحرب في كوريا. واتصف المزاج بجنون البارانويا في السياسة الخارجية والداخلية (ماركس، ١٩٧٩). وقامت الاتمار الصناعية وأجهزة التجسس الإلكترونية بجمع كافة المعلومات الحربية الضرورية من كل من الاتحاد السوفييتي والحسين، وهما الدولتان الوحيدتان اللتان تشكلان تهديدا للولايات المتحدة، وفي الوقت ذاته الجرب الدراسات السيكرلوجية السرية عن الدمنين في أوروبا والفصاميين في آسيا. ويبدو ذلك كمفارقة تاريخية بالنسبة للحرب الباردة (رولنق استون، ١٩٧٤)، كما أجري العديد من ابحاث علم كلفارقة تاريخية بالنسبة للحرب الباردة (رولنق استون، ١٩٧٤)، كما أجري العديد من ابحاث علم النفرية لتعزيز نتائج الدراسات السيكولوجية الأخرى.

المقاييس النفسية

تطور علم النفس كثيرا في الحرب العالمية الأولى والثانية من خلال حركة القياس النفسي. ولقد صعم اختبار الفا ١٩١٧ – ١٩١٨، واعقبه اختبار التصنيف العام، الذي اعتمد على قدرات شرستون الأولية الأربع، والتي يتوقع أن تقيس النجاح العسكري. وطور كل من الجيش والبحرية نسخة منفصلة من اختبار التصنيف العام، واصبحت الخدمات الأخرى تحتاج لقياس القدرات والاستعداد. ومابعد الحرب احتاجت الصناعة للاختبارات التي اخذتها من علماء النفس، كذلك احتاج لها علماء النفس الاكلينيكيون، وصمم المهندسون للماكينات لكي تتناسب مع مشغليها من الميكنيكيين، ويتطلب ذلك اختبارهم لمعرفة ماذا يناسبهم، ويقوم أصحاب العمل باختيار المشغلين وذلك بقصد تدريبهم لاستخدام الآلات (بورنج، ١٩٥٧) ولقد شرع علماء النفس في استخدام مهاراتهم في حل المشكلات العملية الملاح، القي خلقتها الحرب العالمية الثانية. فإن تعبئة المنبين في قوة محاربة على درجة عالية من الكفاءة الآلية قد تضمن مهام اختيار الأفراد لما يصلحون له،

على نحو لم يسبق لضخامته مثيل، وطلب من الأخصائيين النفسيين اختبار قدرات المجندين وتحديد أهليتهم لجميع أنواع المهام ابتداء من طياري المقاتلات إلى الطهاة. كذلك فإن التطورات الهندسية الحديثة، كحلول عصر السفر في الفضاء، والأساليب الجديدة في استكشاف قيعان البصار، إنما تتطلب اختبارات لقياس الاستجابة للتغيرات في قوة الجاذبية والانعزال الحسي والتوترات الأخرى غير المالوفة (فلوجل، ١٩٥٨).

وكانت المقابيس النفسية اكثر الأدوات استخداما في مجال المخابرات والتحكم. واستخدم مقياس وكسلر لذكاء الراشدين بفعالية لخدمة أغراض المخابرات في الداخل والخارج، ويعتبر أحد العضلات التحتية التي تم استعراضها بقوة وفعالية في جمع المعلومات للمخابرات من جهة، ومن جهة أخرى جمع المعلومات من الخبرين انفسهم بصورة مستورة. وعندما يتم تجنيد بعض العملاء الأجانب لعمليات التجسس لصالح المخابرات عادة ما يجلس العميل لأداء مقياس وكسلر الكامل، ويقوم مكتب واشنطن بتحليل نتائج العميل في المقياس، وتقارن نتائج وكسار بمكشاف الكذب ونتائج اختبار الشخصية. ولقد أجريت الدراسات الارتباطية بين نتائج مقاييس الذكاء ونتائج مقاييس الشخصية بالنسبة لاختيار ضباط وعملاء المخابرات والمجندين في الجيش. وقد ساعد علماء النفس الأمريكان في عملية اختيار الضباط في كثير من الدول غير الغربية ولقد عمل مجموعة من علماء النفس في خدمة المخابرات الأمريكية، مثلا عمل جتنقر، عالم النفس بالمخابرات، على خلق نظام فرويد لقياس الشخصية والتنبؤ بالسلوك الستقبلي، وسمى ذلك «نظام قياس الشخصية» والمشهور مخابراتيا بمصطلح «الباص» وكان هذا النظام يعطى نتائج ممتازة عندما يقارن بنتائج مقياس وكسلر للذكاء، وتم اعتبار ذلك مفتاحا مهما لكل أعمال المخابرات السرية. وعندما نشبت أزمة الصواريخ الكوبية تم استدعاء عالم النفس جتنقر للبيت الأبيض لكي يقدم استشارة عن كيفية التنبؤ برد فعل خروشوف للضغط الأمريكي وتكمن أهمية نظام «الباص» بأنه يتوجه لفهم طبيعة العلاقة بين ضابط المضابرات الأمريكي والعميل الأجنبي، وهذا ما يقع في قلب عملية التجسس. ولقد استخدم نظام الباص كذلك لمعرفة استجابة الأفراد بعد تناول الكحول. وتم التوصيل إلى أنه في حالة معرفة أداء الفرد في اختبار رموز الأرقام في مقياس وكسلر يمكن التنمؤ بردود الأفعال في حالة تناول الكحول (ماركس، ١٩٧٩). ولقد ازدهرت أبحاث مقاييس وكسلر للذكاء دون هوادة، وكذلك كشف علاقتها الارتباطية مع بعض المقابيس الأخرى، خصوصا التي طورتها المغابرات لأغراض الحرب الباردة.

_ عالمالفکر _

وتعاونت المخابرات الأمريكية مع الحكومة الكورية لتأسيس وكالة المخابرات الكورية، وطلبت محطة سيول من رئاسة المخابرات في أمريكا إرسال خبراء قياس نفسى لاختيار كادر جديد من ضياط الشرطة والحربية (ماركس، ١٩٧٩) واستخدم مقياس وكسلر الكوري المعدل على ٢٥ - ٣٠ ضابطا، وتمت كتابة تقرير في نصف صفحة عن كل فرد يتضمن نقاط القوة والضعف والقدرة على اتباع النظام، والإبداع، والاضطرابات النفسية، والدافعية، قدمت نتائج الاختبارات للسلطات الكورية التي اختارت المجموعة المناسبة بناء على توصية الخبير النفسي. وفي العام ١٩٦٦ عمل ضباط الخابرات مع أحد علماء النفس في اختيار ضباط وحدة الشرطة في أرجواي وفي قسم مكافحة الإرهاب الذي يحارب عصابة حركة تومباردو. وطبق مقياس وكسلر على ٢٠ مرشحا، وأوصت الدراسة بتقديم توجيه صارم للمجموعة. ويبدو أن مساعدة علماء النفس في عملية اختيار ضباط الشرطة السريين في كل من كوريا وأرجواي لم يكن القصد منه هو مجرد اختيار رجال المباحث والمستجوبين المتازين في هاتين الدولتين ولم يكن الهدف هو مجرد المساعدة في الاختيار، وإنما المقصود منه تحديد عينة الأشخاص الذين يمكن أن يستسلموا في المستقبل للمخابرات الأمريكية. وتوضع عملية التعاون هذه نوعية التبادل والاتصالات بين علماء النفس في المركز الأمريكي وفي اللاغرب. وقد يتم التساؤل عما إذا كانت هناك علاقة بين علماء النفس في أمريكا وعلماء النفس في العالم العربي؟ وبدقة أكبر من غير تحفظ بين سيكولوجيي المخابرات الأمريكية وسيكولوجيي المخابرات العربية؟

ومن المجالات التي اهتمت بها جمعية البيئة الإنسانية (ماركس، ١٩٧٩) أبحاث خط اليد، وتم
توظيف نتائج تلك الأبحاث كملحق بالنسبة لنتائج الباص، وتم دعم بحث عن الطبرعات الألمانية في
هذا المجال، وهناك اهتمام بهذا الموضوع في المانيا اكثر من الاهتمام به في الولايات المتحدة. وتم
توظيف نتائج دراسات خط اليد مع نتائج الباص ونتائج مقياس وكسلر. وليس من السهولة إجراء
مقياس وكسلر على دبلوماسي روسي في أمريكا أو أي فرد أخر كان هدفا للمخابرات. وفي
الحرب العالمية الثانية واجهت المخابرات الأمريكية مشكلة في دراسة شخصية هتلر، وطلب من
أحد العلماء عمل صفحة نفسية عن القائد الألماني. ولقد تم كذلك توظيف تقنيات التحليل النفسي
لفهم شخصية هتلر، ومعرفة نقاط ضعفه التي يمكن استغلالها، وبرزت لدى علماء النفس فكرة
بأن هتلر ربما تكون له ميول أنثوية، وتم اقتراح محاولة لوضع هرمونات انثوية في طعامه. ولقد تم

بالفعل عمل تحليل لكل المعلومات المجمعة عن هتار بواسطة المخبرين مع عينة من خطيده وسلوكه ونماذج تفكيره التي تتطابق مع الخصائص المجمعة لنتائج عينة من ٢٩٠٠٠ إجروا اختبار وكسلر ويسمى ذلك بالقياس غير المباشر. بالإضافة لذلك فقد تم دعم دراسة اخرى تتعلق بمقارنة نتائج خط اليد، ونتائج مقياس وكسلر للذكاء على عينة من المرضى النفسين، والمجرمين، وعارضات الازياء، واللواطين والسحاقيات. ولقد قام أحد علماء النفس المتقاعدين من المخابرات بتطبيق مقياس وكسلر للذكاء على ممرضة أمريكية نذرت جسدها لخدمة دولتها، وكانت المخابرات تريد منها أن تنام مع أحد الروس لفترة من الزمن، فإما أن يقع هذا الدبلوماسي في حبها ويتم استمالته، أو ابتزازه بفضيحة جنسية. واستخدم الجنس – ويستخدم بفعالية في عمل الاستخبارات وعن طريقه يمكن تدجين وابتزاز العملاء أنفسهم لحد الاتهيار النفسي، وكما عبر الاستهبارات وعن طريقه يمكن تدجين وابتزاز العملاء أنفسهم لحد الاتهيار النفسي، وكما عبر غرنكورد (١٩٦٠، اسكنر، ١٩٨٠) ويستطيع المرء أن يدجن شعبا كما يدجن الاسود بالاستمناء،

وإن علاقة الجنس بعلم النفس، او بصورة معكرسة، علاقة علم النفس بالجنس، وعلاقة الجنس بالمخابرات علاقة لا يخطئها التمحيص الدقيق، أو حتى الملاحظة العابرة. ويتعزز علم النفس المخابرات علاقة لا يخطئها التمحيص الدقيق، أو حتى الملاحظة العابرة. ويتعزز علم النفس الغربي بوقود ذكرري قد يكون ساديا لا يجد تنفيسا حقيقيا إلا في أنوئة مازوكية، وحينها تتجاذب أقطاب المغناطيس المتنافرة في نوع من المناكحة السيكولوجية، التي تتوفر فيها عناصر التضاد والطباق والقابلة المكمل بعضها للبعض الأخر. قد تقوم بعض الحسناوات أو المومسات اللائي تدرين بتكنولوجيا السلوك، أو اللائي رزقن بمواهب عظيمة في الغولية المستعيلة وعلاقتها بالغة التعقيد بالمعرفة، وتؤدي إلى مناكحة وحشية باطشة يستخدم فيها العدوان النفسي الضاري، والعدوان الجسدي المروع في بعض الأحيان بصورة مفترسة وعاتية. وقد يتم التساؤل كيف تعمل الاستخبارات قد يتسائل أحد بصورة غير مستورة، كم من حسناه المانية، أو إنجليزية، أو روسية، أو امريكية، أن إسرائيلية نذرت جسدها وأظهرت شيقها لتقديم خدمات جليلة لبعض العرب في الأماكن أو المناصب الحساسة؟

ولقد اقتضى ترتيب الجنسيات تبعا لتطور التراتيب في تطور علم النفس وعلاقته بالحرب الباردة، وأن «المناكحة السيكولوجية المعلوماتية» تقع في قلب عملية التجسس والحرب الباردة. وقد أدت هذه المناكحة لعشرات الاغتيالات، فمثلا صار ضحيتها يحيى المشد، العالم المصري

_ عالمالف*ک*ر _

والعبقرية الفذة، الذي كان يعمل في المفاعل النووي العراقي، والذي سافر لفرنسا لاستلام بعض المواد المشعة، وفي إحدى فنادق باريس العامرة باستخباراتها زهقت روحه بهدو، وببراعة مع حسناء فرنسية، أو «مومس فاضلة». قد يكون العدوان عدوانا متدرجا بصورة إيحائية فائقة من غيبوية الشعور، غانصا في أعماق اللاشعور، حيث تذهب بعدها الروح مع الريح بصورة مغناطيسية.

التنويم

واستخدم التنويم في الاستخبارات عند بعض الدول على نطاق واسع، وأن أحسن الاسرار في بعض الأحيان تستحضر عن طريق تنويم شخص والطلب إليه الإتيان بالجواب. وليس هناك تقنية في مجال التحكم العظمي جذبت الانتباء العام أكثر من التنويم (عام الجواسيس، ١٩٩١). وكان أول من ترصل إلى إيجاد حالة النوم الهاديء «الغيبوية»، وهي الحالة التي تعتبر جانبا أساسيا في التنويم هو المركيز بيسجور أحد تلاميذ مسمر، فبينما كان يحاول إحداث الهزة العصبية الهستيرية العادية لشاب راعي غنم يدعى فيكتور باستخدام طريقة التنويم، اكتشف المركيز أن فيكتور راح في نوم هاديء لم يستيقظ منه إلا بعد وقت طويل، ولم يستطع فيكتور أن يتذكره بعد لا يستلزم الإيحاء بها للشخص المنومة مي حالات شانعة من حالات الغيبوية العميقة، وهي حالات لا يستلزم الإيحاء بها للشخص المنوم، ولكنها حالات تعتبر نتيجة تلقائية لحالات الغيبوية العميقة، فإذا لم تكن حالة الغيبوية عميقة بالدرجة الكافية، وجب على المنوم أن يوحي إلى الشخص المنوم بضرورة نسيان كل ما حدث، وعادة ما تطاع مثل هذه الأوامر بسهولة. ولذلك فإن هناك استمراراً بين اللحظة الأخيرة قبل أن يروح الشخص المنوم في غيبوية، وبين اللحظة الأولى عندما يستيقظ وهو لا يذكر تماما أي شيء حدث بين اللحظة الإخياد.

وفي أوائل الحرب العالمية الثانية في أثناء علاج حالات الأمراض العصبية الحادة الناجمة عن
توترات الحرب، أصبحت قيمة بعض العقاقير المعينة واضحة في مساعدة المرضى على التخلص
من الانفعالات التي علقت بأنهانهم نتيجة المحن المخيفة التي تسببت في انهيارهم العصبي. وكان
قد سبق أن اقترح وليم براون أن التفريخ الانفعالي غالبا ما يكون وسيلة أكثر فعالية بكثير في
شفاء نورستانيا الحرب عن مجرد الإيحاء تحت تأثير التنويم، فالإيحاء يزيل الأعراض ولكن

التخلص من الانفعالات يزيل أسباب الأعراض، إذ تحدث إعادة للارتباطات المساحبة بشكل كامل، ومع ذلك فإنه يجوز أن يكون للإيحاء دور مهم في الشفاء، بواسطة التخلص من العقد والرغبات المكبوتة بعملية التفريغ الانفعالي. وفي العام ١٩٤٤ استخدم «الأثير» بدلا من البريتيوريت لإحداث عمليات التخلص من الانفعالات فلوحظ تحسن مباشر في سلوك المرضى. ويصف سارجنت ذلك بقوله: «في أغلب الحالات أحدث «الأثير» انفجارا انفعاليا بدرجة أكبر بمراحل عما سبق ملاحظته باستخدام العقاقير الأخرى، وكان من نتيجة ذلك أن اتخذ المرضى في سردهم للحوادث شكلا دراميا أو محزنا»، وكانت هناك ملاحظة أخرى تثير الانتباه وهي أن حالات الانهيار المفاجيء بعد الانفجارات الانفعالية يتكرر حدوثها وتستمر أكثر مما يحدث من استخدام التنويم أو البريتيوريت (صلاح نصر، ١٩٨٨). وفي أواخر الأربعينات، اختبرت وكالة المخابرات المركزية التنويم وجربت اجتماع مخدرين، مثل سيكونال ونبتوثال الصوديوم ويتبعهما امفتامين قوى، مثل دكسرين اوديزوكسين. وكانت الفكرة المحافظة على عالم متألق من الشعور واللاشعور. ولقد تم تعليق زجاجات تحتوى على مخدرات تدخل عن طريق الأوردة، لها ساعد وصيمامات للتحكم بالتدفق، بجيث بمكن المحافظة على الشخص في الحالة المرغوبة والمطلوبة، وأدى هذا البحث في التحكم بالسلوك إلى اختيار الهروين والمورفين والميثادون والكوكايين وحامض اللسيرجيك وتم بحث مخدر الحقيقة وهو المخدر الذي يوصل إلى الحقيقة أو إلى اعتراف صريح من قبل الستجوب. تستعمل المخدرات مع التنويم والإكراه، وعندها لن يحتفظ الشخص الستجوب بأي سر لفترة طويلة (بوست، ١٩٩٠).

ولقد تم التساؤل مل من المكن إقناع الأشخاص تحت تأثير التنويم بارتكاب الجرائم أو السلوك، بما يتعارض مع اخلاقهم ومعتقداتهم؟ وفي إحدى التجارب التي أجريت على جندي السلوك، بما يتعارض مع اخلاقهم ومعتقداتهم؟ وفي إحدى التجارب التي أجريت على جندي أمريكي وضع في حالة غيبوية في حضور ضباط برتب كبيرة من الجيش، ووقف ضابط برتبة عقد أمام الجندي وعلى مسافة ١٠ أقدام منه ثم وضع الجندي حيننذ في حالة غيبوية، ووجه إليه هذا الإيحاء: «سوف تقتح عينيك بعد بقيقة سوف ترى أمامك جنديا يابانيا، إنه يمسك بالسونكي، وهو يستعد لقتلك إذا لم تبدأ بقتله، عليك أن تخنقه بيدك، وفتح الجندي عينيه، ويدا يزحف للأمام ببط، وأخيرا قفز قفزة سريعة وأوقع الضابط، ويدا يضرب رأسه ويختقا ببيديه. وتطلب الأمر ثلاثة

رجال لشده وإبعاده عن الضابط، ولم يعد إلى هدوئه إلا بعد أن استطاع المنوم أن يرسله في سبات عميق. ولقد قال الضابط إن هجوم الجندي عليه لم يكن تمثيلا، وأنه كان من المكن أن يقتله أو يصيبه بإصابات خطيرة لولا أن هب الآخرون لإنقاذه، ولما كان ضبرب ضبابط في الجيش مخالفة خطيرة فإنه يتضح لنا أن المنوم الماهر يستطيع بسهولة أن يؤثر على المنوم، ويحثه على الإتيان بأعمال خطيرة (صلاح نصر، ١٩٨٨). يبدو أن علماء النفس بالمخابرات يبحثون عن مقدار أكبر وأروع من التحكم وتشكيل سلوك الإنسان كسلوك الآلة. وتوضح التجرية التالية حالات الغيبوية التي يمكن أن توظف بصورة درامية في أعمال المخابرات.

في الأيام المبكرة للحرب الباردة حاولت المخابرات الأمريكية استخدام التنويم، وتنبأ بعض الخيراء بأن هذه التقنية سوف تقود إلى تقدم هائل في مجال التجسس، ووضح بأن الافراد تحت عملية التنويم يمكن أن يتعرضوا لجالات من الشبهة والفضيحة والابتزاز. ولقد تم إجراء إحدى التجارب عن التنويم سميت بـ «مرشح منشوريا» أو «القائل المرمج». ولقد قام خبير التنويم في المخابرات بعملية تنويم لإحدى السكرتيرات في حالة من الغيبوبة العميقة، وطلب منها الاستمرار في النوم حتى بأمرها بطريقة أخرى، ثم قام في الوقت نفسه بتنويم سكرتيرة ثانية وأوحى لها بأنها لا يجب أن تتردد في القيام بعملية قتل، وترك مسدسنا بالقرب منها فما كان من هذه إلا أن أخذت المسدس وأطلقت النار على صديقتها النائمة. وعندما قام الخبير بإيقاظ القاتلة من غيبوبتها كانت قد أصبيت بحالة من فقدان الذاكرة وأنكرت أنها قتلت أحدا. ولقد تم التساؤل من قبل الخبير النفسي إلى أي حد يمكن أن يقوم التنويم بنفس النتائج المذهلة والدراماتيكية في عمل المخابرات؟ وهل يمكن أن يحدث خبير التنويم شخصية منفصلة تماما بالنسبة للعميل؟ وإلى أي حد يمكن إرسال العميل في مهمة لا يتذكر عنها شيئا حتى يرجع ويوحى إليه المنوم بأن دوره قد انتهى؟ وإلى أي حد يمكن خلق «مرشح منشوريا» الذي يقوم بعملية قتل مبرمج في أي مكان، ثم لا يعرف من أمره بذلك في حالة انتهاء مهمته؟ ربما تعبر هذه المحاولة بدقة متناهية عن وجود علماء نفس أو أفراد يستخدمون علم النفس بصورة مذهلة، وربما بقساوة أقسى ممن يجرون حبل المُسْتقة أو قاطعي الرؤوس بالسيوف. إن قدراً كبيراً من علم النفس، هو بلا ربي، قدر من الفظاعة في استخدام تقنياته بصورة هائلة. ولم تكن التقنيات النفسية أو السلوكية، بلغة أدق، وحدها التي تطورت، ولكن قد تطورت كذلك بموازاتها تقانة دقيقة من نوع أخر.

تكنولوجيا التجسس

يقع عالم التجسس بين الحقيقة الصعبة والغيال الغريب. عرفناه في شخصية لورنس العرب المحيرة والغامضة، وكذلك في شخصيات جون فيليبي، وإبليا كوهين، ورافت الهجان. وفي هذا المجال أخذتنا روايات أغاثا كرستي إلى عالم بوليسي ملي، بالاعمال القذرة يتجلى فيها بطل خارق يكشف عن الجرمين، ويعمل كمحقق رعميل وجاسوس في أن واحد. وجاست روايات أرسين خاري يكشف عن الجرمين، ويعمل كمحقق رعميل وجاسوس في أن واحد. وجاست روايات أرسين لوبين شخصية خيالية للص وليس جاسوسا ابتكرها الكاتب الفرنسي موريس لبلان، وكذلك روايات جيمس بوند التي انتقلت إلى السينما وذاع صبتها في جميع أنحاء العالم، وبات العميل رقم ٧٠٠ مثلا للصغار والمراهقين وموضع اهتمام الكبار وإعجابهم (بوست، ١٩٩٠) لقد تزامنت التطورات الكبيرة في مجال علم النفس بتطور آخر في مجال التقنيات التي تستخدم في عمل المخابرات والتجسس. وقد استخدم المخبرون والجواسيس الكثير من الأدوات الدقيقة والمذهلة والتي نشاهدها في المسلسلات وفي الأفلام بقصد جمع المعلومات، ومعرفة الإسرار، وفي الاغتيالات، وتعزز هذه التقنيات الإمكانيات المحدودة للحواس الإنسانية ويراد لهذه الحواس أن تعمل بفعالية وبصورة خارقة. وكما يعبر بروست، لقد بات السمع والنظر العاديان غير كافيين، ومصارت الحاستان مدعومتين بالآلات الدقيقة

لقد اخترع جراهام بل الهاتف عام ١٨٦٨، وتطور الهاتف واصبح اكثر الآلات الإلكترونية انتشارا في العالم، كما أصبح هدفا أساسيا للذين يرغبون في الاطلاع على اسرار وخصوصيات الأخرين، ويمكن التنصت على المحادثات الهاتفية التي تجرى في الغرفة التي يوجد فيها الهاتف، والخرين، ويمكن التنصت على المحادثات الهاتفية التي تجرى في الغرفة التي يوجد فيها الهاتف، التجسس - أفلام جيمس بوند - وتستعمل أيضا في العالم الرمادي وهو العالم الذي تكون فيه القوارق ضبابية بين الإرهابي والمقاتل من أجل الحرية، وبين الجاسوس والخائن. ويتضمن عمل المعقبة السوداء ثلاثة أنواع: السطو، وتدمير المتلكات، والاغتيالات. وتطورت تقنيات أخرى المتجسس، مثل زرع أدوات استرقاق السمع مثل الميكرفون البلوري، شرائط التسجيل، أدوات الاسترقاق الراديوية، وتعديل التردد كما استخدم علم الاخفاء، والذي يحتوي على الشفرة والرمون، آلات الخفاء مثل اللغز والارجوانة. ومن الادوات البدائية للاتصالات، الحبر السري مثل الحضوي، والحبر الكيميائي المشم، وحبر الرصاص الفرعي، الميكروفيلم والنقاط الصغيرة.

ويمكن وضع المسدسات في الاحذية وفي الأقلام وفي الادوات الموسيقية والكاميرات مثلما يمكن وضع لعبة «سام السرى» للاطفال في حقيبة صغيرة (بوست، ١٩٩٠).

بالإضافة لذلك يمكن تركيب هذه الأجهزة الصغيرة في الحيطان، وفي قطع الأثاث، وحتى تحت البلاط، وفي قلب سماعة الهاتف، بل كذلك دسها في أحد الكتب، أو حتى في الزر الذي يضاء به المصباح الكهريائي أو حتى تحت منفضة السجائر. والاستعمالات كثيرة جداً وكلها ممكنة سبب صغر حجم الجهاز ونوعه. وهناك أجهزة أصغر، وهي على شكل زر الجاكيت أو الخاتم أو مركبة في ساعة اليد أو موضوعة في كعب الحداء أو في القلم أو في ولاعة السجائر الصنفيرة وتم اختراع ألات التصوير بساعة البد، الولاعة، العدسة المكبرة، كاميرات التصوير من خلف الجدران، زرع الأذان في الحيطان، الحذاء القاتل، والمسدس الصامت. وريما كانت الطائرة الملقبة بعجمامة عصرية» هي أغرب وأذكى وسائل نقل الوثائق والمعلومات وكانت تلك الطائسرات صغيرة بحيث لا يلتقطها رادار ولا تراها العبن المجردة، ويستحيل إيجادها بعد أن تحط على الأرض. ولقد أطلق جنود فرنسيون أعيرة على حمام طاثر واكتشفوا أنه يحمل آلات تصويرية موجهة نحو الأرض، بحيث تلتقط صورا واضحة أثناء تنقل الطائر. لقد أعطت هذه الأدوات رخصة للأيدى الشريرة لاستخدامها بالنسبة للأعداء، وريما الخصوم أو المعارضين. وحمام النصف الثاني من القرن العشرين هو طائرات يقودها جواسيس الجو (عالم الجواسيس، ١٩٩١). كما استخدمت الشفرات الدبلوماسية، والترميز وتقنيات التصوير من ارتفاعات عالية، والتصوير الاستطلاعي، الذي يستخدم بصورة ذكية، ويسهل بواسطته الحصول على معلومات دقيقة وإجراء اتصالات في غاية من السرية، وقد تستخدم أحيانا في عمليات مستورة ويصورة رزينة، كما حدث في محاولة اغتبال خالد مشعل بالأرين.

دعم المخابرات للأبحاث

لقد ذكرت جريدة «رولنق استون» في عددها الصادر يوم ١٨ يوليو ١٩٧٤، أن وكالة المخابرات الأمريكية تستخدم بعض المنظمات الخاصة للقيام بدراسات نفسية لبعض العملاء الجدد والقدامى في مجال التجسس.

ويؤكد جتنقر أن شركة زملاء القياس النفسي التي تتخذ من واشنطن مقرا لها، تعتمد اعتمادا

كليا على دعم المخابرات الأمريكية وتقوم الشركة بتقييم الأشخاص ولا تستهدف الشركة المواطنين الأمريكين. ولا يرى جتنقر أن هناك مشكلة أخلاقية في دراسة نقاط الضعف في الناس، ولاسيما إذا كان ذلك يساعد المخابرات الأمريكية في الحصول على معلومات مهمة. ولقد اعترف جتنقر أن شركته قد قامت بأبحاث عدة لحسالح وكالة المخابرات الأمريكية لتطوير بعض الاختبارات المفسية المتحررة من التحييز الثقافي. ولقد تم تطبيق هذه الاختبارات على عينة من الأجانب من غير علمهم بأن اختبارهم كان لحسالح المخابرات الأمريكية. وقامت الشركةكذلك بتطوير نظام لتدريب رجال المخابرات في كيفية إجراء ملاحظات سيكولوجية مفيدة بالنسبة للأجانب. ولقد أنشا جتنقر شركة زملاء القياس النفسي لتقديم خدمات نفسية للشركات الأمريكية في الخارج وقام جتنقر شخصيا بافتتاح فرع للشركة في طوكيو، وانتقل ذلك الفرع إلى هونج كونج لخدمة محطات الخابرات الأمريكية في الشرق. وعمل ١٥ متخصصصا في القياس النفسي على إجراء عمليات القياس في بقية انحاء العالم.

ولعبت الخابرات الأمريكية (ماركس، ١٩٧٩) دورا كبيرا في تطوير بعض الأبحاث عبر الثقافية في علم النفس، مثلا أبحاث القدرة على فهم المعاني، والتعبير عن الشاعر، والحساسية الثقافية، وتقنين الاختبارات المنحازة ثقافيا، ودراسات البناء الاجتماعي والاتجاهات داخل وخارج أمريكا. وقد لعبت عملية التطوير هذه دورا أساسيا في تدعيم علم النفس عبر الثقافي خاصة. فهناك الافتراض القائل بعدم صلاحية علم النفس عبر الثقافي خاصة. فهناك عملية تعديل أو تكييف أو تقنين صارمة له في المجتمعات والثقافات غير الغربية. ولقد استوعب جتنقر بأن مقايس وكسلر الفرعية هي منحازة ثقافيا، وقاد ذلك الى عمل نماذج معدلة من منظام الباسء لكي يناسب الأمم المختلفة في العالم. ولقد أظهرت أبحاث القياس النفسي أن هناك علاقة ارتباطية بين النماذج العقلية واختبار رموز الأرقام. واختبار رموز الأرقام احدالاختبارات الفرعية للغياس وكسلر لذكاء الراشدين (وكسلر، ١٩٨٨)، لذلك يقال بأنه من الاختبارات التي تستخدم لاختيار أقلام الخابرات. وقد اشتهر بروفسر اسجود، عالم النفس الأمريكي الشهير ورئيس عندما يستخدمون كلمات أو مغاهيم مختلفة ولإيمات السجود علاقة مباشرة بعمل المخابرات عندما يستخدمون كلمات أو مغاهيم مختلفة. ولإيمات السجود علاقة مباشرة بعمل المخابرات الأميركية ولاسيما مفهوم القدرة على فهم الماني ولقد كتب السجود مباشرة للمخابرات الأميركية طالبا

دعما ماليا لمشروع بحثي لدة خمس سنوات، ولقد ساعده ذلك الدعم للسفر لدول عدة وتوسع ابحاثه عبر الثقافية لكي تفطي ٢٠ ثقافة مختلفة ولقد شكر اسجود رابطة البيئة النفسية على دعمها السخي في تقدم أبحاثه والتي كانت تتوامم مع أهداف المخابرات. بالإضافة لذلك فقد تم تشجيع العلماء السلوكيين للبحث عن شيء يمكن أن يثير الحساسية الثقافية لليابانيين. وقد تم الاقتراح بأنه لا يوجد شيء مخجل للجندي الياباني أكثر من حركة بطنة أثناء السير وتم إنتاج تكنيك لخفض الروح المعنوية للفرد الياباني. ولقد قدمت رابطة البيئة النفسية منحة مالية إلى جامعة استأنبول في تركيا، وذلك لدراسة أثر الختان على الأطفال الآثراك. وأظهرت نتائج الدراسة بئن الأطفال يتم ختانهم بين عمر ٥ – ٧ سنوات، وترتبط عملية الختان في ذهن الأطفال بأثار لنسجاب، وينظر الأطفال لهذه العملية المؤلفة.

ولقد قدمت الرابطة كذلك دعما ماليا إلى عالم النفس الاجتماعي السلم مظفر شريف وزوجته لبحث سلوك العصابات وسط الأطفال من خلال دراسة البناء الاجتماعي، والاتجاهات بالنسبة للعصابة، وكيفية تحويل السلوك اللا – اجتماعي، أو السلوك المعادي للمجتمع لسلوك بناء. ولقد استخدمت نتائج عمليات شريف في عطيات المخابرات السرية. وربما كان الهدف هو كيفية تحويل المهارات والقدرات الفائقة في سلوك العصابة لمهارات اكثر فائدة لأغراض المخابرات. ووجد كارل روجرز – الذي اشتهر بعنهج العلاج الموجه – دعما ماليا كبيرا من جمعية البيئة الإنسانية، ويذكر وبحرز – الذي اشتهر بعنهج العلاج الموجه – دعما ماليا كبيرا من جمعية البيئة الإنسانية، ويذكر واستلم بروفسر كيلمان، استاذ علم النفس بجامعة هارفارد منحة من جمعية البيئة لنشر كتاب يسمى السلوك العالمي عام -١٩٦١. وقدمت الجمعية كذلك منحة مالية إلى ايزنك، عالم النفس للريطاني بجامعة لندن، لمشروع أبحاثه عن الدافعية. واستلم اسكنر دعما ماليا من الجمعية لدعم مشروع كتابه «ما بعد الحرية والكرامة» والذي ترجم للعربية بعنوان «تكنولوجيا السلوك الإنساني»، ولقد قام اسكنر بتدريب الحمام على توجيه القنابل لخدمة الدفاع اثناء الحرب العالمية الثانية. ولم يقتصر دعم الجمعية للبية الإنسانية كانوا يقومون بزيارات منظمة للافراد الدئين استلموا السلوكة، فإن ممثلي رابطة البيئة الإنسانية كانوا يقومون بزيارات منظمة للافراد الذين استلموا السلوكية، فان ممثلي رابطة البيئة الإنسانية كانوا يقومون بزيارات منظمة للافراد الذين استلموا السلوكية، فإن ممثلي رابطة البيئة الإنسانية كانوا يقومون بزيارات منظمة للافراد الذين استلموا السلوكية، فان ممثلي رابطة البيئة الإنسانية كانوا يقومون بزيارات منظمة للافراد الذين استلموا

دعما ماليا من الجمعية. واصبح هؤلاء العلماء المشهورون علماء جواسيس للمخابرات الأمريكية. (ماركس، ١٩٧٩). بالإضافة لذلك فقد تم توجيه دعم المخابرات المادي إلى بعض علماء النفس ويرفقة بعض ضباط المخابرات للقيام بعملية تقييم سيكولوجي سري لبعض القادة الأجانب خارج امريكا (روانق ستون، ١٩٧٤) ويقال إن زيارة جورج بوش للسودان في الأيام الأخيرة لفترة الرئيس نميري كانت مصحوبة بعالم نفس متخصص في سيكولوجية الشخصية لكي يقوم بعملية تحليل شامل لشخصية نميري، وما إذا كان يصلح للاستعرار في الحكم أو لا يصلح، كما يقال إن التقرير السيكولوجية تضمن بعض سمات عدم الاتزان في البناء النفسي لشخصية نميري مما يعوق استمراره في الحكم، وحينها ذهب جعفر نميري مع أدراج الربح.

علم النفس والعلاقات العربية - الإسرائيلة

منذ عام ١٩٢٠ هاجرت مجموعة من علماء التحليل النفسي اليهود من ألمانيا النازية للاستقرار في فلسطين. ومنذ تلك المرحلة المبكرة هناك بعض الأنشطة السيكولوجية، مثلا، فقد عمل ماكس ايتنقون على إنشاء جمعية فلسطين للتحليل النفسي. وتمت أول محاولات لإدخال علم النفس في الجامعة. وكان سيجموند فرويد عضوا في مجلس الجامعة العبرية بالقدس، وتم ترشيح كيرت ليفن لقيادة قسم علم النفس بالجامعة. ويمرور عام ١٩٣٦، تم تأسيس معهد التحليل النفسي بواسطة ايتنقون، وتم تأسيس كرسي فرويد الطب النفسي في الجامعة العبرية بمباركة من أنا أبغة فرويد، وأصبحت القدس حينها مركزا رئيسيا لتقدم التحليل النفسي على المستوى الفكري والبحثي وتم تأسيس أول قسم لعلم النفس عام ١٩٥٧ في القدس، وفي عام ١٩٥٨ تم تأسيس والبحثي على المستوى الفكري أبيب قسم علم النفس في جامعة بار علان، بينما تم تأسيس أقسام علم النفس في جامعة بار علان، بينما تم تأسيس أقسام علم النفس في جامعتي تل أبيب وحيفا عام ١٩٥٠ وكان عدد الاعضاء حينها ٧٠ عضوا. ومنذ عام ١٩٥٠ شارك ١٠٠ من علماء النفس في المؤتمر القومي لعلم النفس، بينما شارك ١٠٠ في المؤتمر العشرين عام ١٩٥٠ (روزنزويج، وعمير، ١٩٥٠). وانضمت الرابطة النفسية الإسرائيلية إلى الاتحاد الدولي للعلوم السيكولوجية منذ عام ١٩٥١ (روزنزويج، ١٩٨٢).

في إسرائيل تجري الأبجاث السبكولوجية في معاهد عدة عامة خارج إطار الجامعات، مثل معهد جتمان للبحث الاجتماعي التطبيقي، ومعهد حداسة للتوجيه المهني، ومعهد دراسات التعليم في الكيبوتز، ومعهد حريتا للبحوث في العلوم السلوكية. وخلال الثمانينيات كانت هناك تطورات كبيرة في أبداك علم النفس منها: تأسيس برامج لعلم النفس الصناعي في معهد حيفا للتقانة، وبرنامج للدراسات العليا في جامعة بن قوريون. وتقدم برامج الماجستير والدكتوراه في كل من جامعة تل ابيب، وجامعة حيفا، وجامعة بار علان، والجامعة العبرية. وتمول كل أبحاث علم النفس في إسرائيل من الميزانية العامة. وتعتبر أقسام علم النفس في إسرائيل من أكبر الأقسام في الجامعات الاسرائيلية، ولا يقبل في هذه الأقسام إلا هؤلاء الذين لهم إنجاز دراسي عال، وقدرات عقلية عالية. ويكون معدل الرفض في بعض أقسام علم النفس ١٤ من ١٥ مرشحاً. وبلغة أخرى، يقبل طالب واحد بين كل ١٥ مرشعاً. إن الحاجة الكبيرة لخدمات علم النفس في المجتمع، والتي تتبعها الحاجة الماسة لدراسة علم النفس، والتي تسمح باختيار الطلاب من ذوى القدرات العالية لبرامج البكالوريوس في الجامعة، والتي يتبعها اختيار الطلاب من ذوى القدرات العالية لبرامج الدراسات العليا، مما ساعد على إنتاج مهنيين أعلى من المتوسط في علم النفس، مما أدى لظهور إنتاج سيكولوجي عال من جانبيه التطبيقي والعلمي، ويعمل كل ذلك على استقرار المستوى الرفيع لعلم النفس في المجتمع، وربما يعمل على زيادته. في الوقت الراهن أصبح علم النفس واحدا من أكثر المهن المرغوبة في إسرائيل. ولفترة طويلة من الزمن كانت تفضل الأم الاسرائيلية أن يكون اللها طبيباً أو على الأقل محامياً، ولكن حاليا انضم علم النفس لهذا النادي الرفيع (بن عرى، وعمين ١٩٨٦)

يعمل علماء النفس الصناعيون في قوات الدفاع الإسرائيلية، وفي المؤسسات الخاصة ببناء معايير للاختيار المهني، وتطوير إجراءات التدريب والتقويم. وهناك وحدتان لعلم النفس في قوات الدفاع الإسرائيلية تهتم إحداهما بعلم النفس الصناعي، وتهتم الأخرى بالصحة النفسية للجنود. ومنذ تأسيس قوات الدفاع هناك تأكيد على الجوانب الخاصة بالحاجة الماسة للخدمات المهنية لعلماء النفس. وكان أول هذه الخدمات هو ترقية نوعية الأقراد، وترقية المؤسسة العسكرية، وذلك نتيجة للقلة العددية للجيوش الإسرائيلية مقارنة بجيوش الجيران (العرب) وتبعا لذلك فقد تم اعتبار الخدمات المهنية والتوجيه النفسي المقدم بواسطة علماء النفس ضرورة، وبرهن على اهميته

كعامل غطير بالنسبة لقوات الدفاع الإسرائيلية. وكانت هذه الخدمات السيكولوجية محط تقدير واحترام من قبل القادة، والتي تم استغلالها القصى حد ممكن وتضعنت وظائف الخدمات السيكولوجية القياس والاختيار العام، والتشخيص المحدد للوحدات الخاصة، وتطوير وتطبيق التقنيات الغريدة للتدريب والتي تضمنت تدريب القادة، وقياس الروح المعنوية، وتقييم المناث العام للمؤسسة العسكرية، وتعاوير تقنيات التدخل في أوقات الأزمات. إن أحد المظاهر الغريدة لقوات الدفاع الإسرائيلية هو توظيف علماء النفس كاختصاصيين وكمستشارين في كل المستويات القيادية. وهناك قسم خاص للابحاث السيكولوجية في قوات الدفاع الإسرائيلية، قام بإجراء أبحاث واسعة عن كثير من الجوانب السيكولوجية للجيش. وتشبه هذه الوحدة في أنشطتها المؤسسات الشبيهة للقوات المسلحة في الولايات المتحدة الأمريكية. ولاسباب واضحة ليس من المحكن توضيح نوعية الابحاث السيكولوجية التي تجرئ في هذه الوحدة (بن عري، وعمير،

الحرب النفسية

ساعدت عوامل عدة على تطور أبحاث علم النفس في إسرائيل، ومن بين ذلك أن الروابط السياسية والتاريخية الوثيقة بين إسرائيل والولايات المتحدة، وكذلك بالنسبة للدول الغربية الأخرى، جعلت إسرائيل من نواح عدة امتداداً للغرب (لونر، ١٩٨٠) وهناك علاقات منداخلة بين علم النفس في إسرائيل، وبين التاريخ السياسي والاجتماعي لليهود. وكانت مجموعة المهاجرين لإسرائيل من المانيا النازية مجموعة مشردة جسديا، وفاقدة للهوية عقليا، وقلقة بإفراط ولم يتبق في قلوبها اعتقاد في الإنسانية، مع قليل من الأمل للمستقبل (عمير، وبن عري، ١٩٨١). في تقديري، هذه الخصائص الجسدية، والعقلية، والعاطفية، والمستقبلية، التي تمت إعاقتها بفعل النازية تتطلب إيجاد نوعية محددة من علم النفس يستجيب لمساعدة هؤلاء الأفراد والجماعات ولقد عمل علم النفس المناسب لهذه الفئة من دون شك على تطور العلم من ناحية نظرية وتطبيقية، يستخدم بفعالية في بناء الذات الشردة، والفاقدة للهوية، والفاقدة للاعتقاد في الإنسانية من جهة، ومن جهة ثانية يستخدم بفعالية في صياغة ادوات مناسبة للبقاء في محيط عدائي. ونتيجة لذلك تعت صياغة الكثير من ادوات الحرب النفسية الفعالة مع الأعداء، والتي تعمل بدورها على تهديم تما توا الأخرين، ومن ناحية سيكولوجية، يمكن القول إن اليهود كانوا ضحية لإسقاط التعذيب البشع

عليهم بفاعلية من قبل النازية الألمانية، وأسقطت إسرائيل عملية البشاعة نفسها في حربها النفسية مع العرب

إذا تحرينا الدقة، بيدو أنه ليس هناك من يستخدم بفعالية الحرب النفسية كما تستخدمها إسرائيل في حربها ضد العرب فهي تشن حربا نفسية ضروسا، لا تبقي ولاتذر، ولأن إسرائيل، كما يقال، إحدى الولايات الأمريكية، فهناك علاقة دافئة بن التطبيقات الأمريكية والتطبيقات الاسرائيلية لعلم النفس. وقد يستحيل أحيانا تحديد ما هو أمريكي وما هو إسرائيلي. يقول فيصل علاف إن الحرب النفسية الإسرائيلية هي الشكل العملي للدعاية الصهيونية الموجهة ضد الشعب العربي والقوات المسلحة العربية، وذلك بغية النيل من الشعب والجيش، وتحطيم إرادة القتال والصمود عند الجيش، لتتمكن إسرائيل بذلك من حسم الصراع لصالحها (نوفل، ١٩٨٦) ويضيف غازى ربابعة إن إسرائيل تولى جهاز الحرب النفسية عناية كبيرة، لاسيما وقت الحرب ضد الجيوش العربية، بقصد التأثير على معنويات هذه الجيوش من خلال مختلف وسائل الإعلام والنشر (نوفل، ١٩٨٦) وقد أدخلت اسرائيل على وسائل الحرب النفسية التي تشنها على العرب الكثير من المنجزات والوسائل الفنية، واعتمدت على معطيات علم النفس للتأثير في عقول الناس ونفسياتهم، وتحطيم معنويات المقاتل العربي من خلال زرع اليأس والقنوط عنده، وتصوير استحالة تمكنه من تحقيق أي تقدم أو نصر على الجندي الإسرائيلي. ومن أجل ذلك دأبت الأوساط الحاكمة في المؤسسة العسكرية الصهيونية على طرح المقولات ونسج الأساطير حول قواتها المسلحة، فجيشها لا يقهر، والعسكري عندها لا يعرف التردد أو التراجع (نوفل، ١٩٨٦) ويعرض نزار عمار مجاولة إسرائيل لاستغلال الخلافات والتناقضات العربية، حيث تسعى الاستخبارات الإسرائيلية للحصول على معلومات بقيقة تساعدها على وضع خطط تعرضية، تهدف إلى تحقيق التجزئة والتفرقة داخل الدول العربية، وشق الصف بين الدول العربية، وذلك بتغذية الأفكار الاقليمية، وتحريض الفئات الإنفصالية، واستثمار التناقضات المتعددة. لذلك فهي تجمع معلومات حول شخصيات الزعماء ورؤساء الحكومات وزعماء المعارضة وقائة العمل السياسي، وكل ما يتعلق بالهيئات والتنظيمات السياسية ونظم الحكم والأحزاب السياسية وتأثيرها، ومدى الدور الذي تلعبه الأقليات (نوفل، ١٩٨٦). وينتقل العنف النفسي للخطاب، وفي رسم صورة العرب في المخيال الغربي، وحتى في المفاوضات، وفي الدبلوماسية. يقول أديان اركند، في خطاب القاه سنة ١٩٣٧ في نيويورك: إنه بواسطة وكالات الأنباء العالمية يغسل اليهود أدمغتكم، ويغرضون عليكم رؤية العالم وأحداثه كما يريدون هم، لاكما هي الحقيقة. ويواسطة الأفلام السينمائية، فخلال ساعتين من الزمن، وهي مدة عرض فيلم سينمائي، يمحو اليهود من عقول شبابنا وإجيالنا الطالعة ما قضى المعلم والمدرسة والبيت والمربي سنة أشبهر في تعليمهم وتثفيفهم وتربيتهم (نوفل ١٩٨٦).

ولقد نشرت الاستخبارات الإسرائيلية عددا من الكتب وجندت عددا من الكتاب الإسرائيليين، وأمدتهم ببعض الروايات والمعلومات حول نشاط الاستخبارات، ليتولوا صياغتها بالاسلوب الذي تهدف إليه، وهو إظهار التفوق العسكري الإسرائيلي ومقدرة وهيمنة جهاز الاستخبارات. ومن هذه الكتب «تحطمت الطائرات عند الفجر»، و«الميراج ضد الميغ»، و«عين تل أبيب»، و«الهيمونية المشرف»، و«حرب الظلال»، و«ايخمان في القدس» وغيرها من الكتب التي تحاول التأثير على المشرف»، و«حرب الظلال»، و«ايخمان في القدس» وغيرها من الكتب التي تحاول التأثير على المتغار القارى، العربي وخداعه بمقدرة الاستخبارات الإسرائيلية وتفوقها، وليس أدل على ذلك من استغلال الاستخبارات الإسرائيلية لنموذج الجاسوس ايلي كوهين. فقد أصدرت الاستخبارات الإسرائيلية المديد من الكتب حول قصته، حتى غدا المواطن العربي يخشى من وجود الزيد من أمثاله في أكثر المراكز الحساسة في أقطاره وقد قامت الاستخبارات الإسرائيلية بتنمية هذا الطوف وتغذيته، وإعادة طبع الكثير من الكتب، واعتبرت قضية كوهين النابالم الفكري، والسلاح السيكولوجي الفعال الإقناع العرب بأن الجواسيس الإسرائيليين منتشرون بينهم ويعرفون أسرار اقطارهم اكثر مما يعرفون هم عنها (نوفل، ١٩٨٦).

يكشف نزار عمار في كتابه «الاستخبارات الإسرائيلية» بأن براسة خاصة كشفت أن الاستخبارات الإسرائيلية تقوم بعمليات خطف لأولاد تتراوح اعمارهم بين ١٣ – ١٥ سنة، وتلحقهم بمراكز خاصة تابعة لها، تشرف عليها مجموعات من الخبراء النفسيين، مهمتها تنمية جميع بمراكز خاصة تابعة لها، تشرف عليها مجموعات أو أهمها الانحراف الخلقي، فتدفعهم إلى تعاطي المخدرات، والإدمان على الخمر والجنس في سن مبكرة، وتشجعهم على الشنوذ، ويتبع ذلك تلقين فكري ومؤثرات نفسية تستهدف دفعهم مستقبلا للانخراط في قواعد الغدائيين، ليكونوا عيون الاستخبارات الإسرائيلية داخل جسم الثورة (نوفل، ١٩٨٦) وربما تستخدم هذه المجموعات المدرية في اعمال التخريب خارج إسرائيل، خصوصا في بعض الدول العربية عندما بدأت مصر

مرحلة جديدة تلت خروج القوات البريطانية من منطقة القنال، والمواجهة المباشرة مع إسرائيل. جند الإسرائيليون الذين كانوا يخشون قيام علاقات حسنة بين عبد الناصر والغرب مجموعات تخريب من اليهود المقيمين بمصر لتهاجم المنشآت البريطانية والأمريكية في القاهرة والاسكندرية، وكان الإسرائيليون يأملون من هذا تحميل المسؤولية لعبد الناصر. ولكن انكشاف هذه العمليات في منتصف العام ١٩٥٤ تسبب في سقوط حكومة شاريت. (بلوش وجيرالد، ١٩٨٧).

ويبدو أن شمة تعاوناً كبيراً بين المفابرات الأمريكية والإسرائيلية في رسم صبورة بشعة للعرب في الخيال الأمريكي. وفي العام ١٩٨٠، استيقظت أمريكا على واحدة من الفضائح الكبيرة، وكانت الفضيحة تحمل اسم «أبسكان». وهذه هي التسمية التي أطلقها مكتب التحقيقات الفيدرالي على العملية التي يدبرها لعدد من أعضاء الكونجرس لإثبات قبولهم رشاوى من أجانب، وكان الأجانب شيوخا نفطيين من العرب، لكنهم كانوا مزيفين، أي أفراد تابعون للمباحث لعبوا على عدد من أعضاء الكونجرس دور شيوخ النفط، وبالفعل وقم بعضهم في الفغ، وخرجت المباحث تهلل لبراعتها، أبسكان هذه في أحد جوانبها، على علاقة وثيقة بالعرب النفسية الأمريكية ضد العرب، وقد تسامل بعض الأمريكيين العرب في بيان أصدروه فقالوا، ماذا كان يمكن أن يكون التأثير لو أن العملية أطلق عليها جوسكان (أي الفضيحة اليهودية بدلا من الخدعةالعربية)؟ عندنذ كانت ستنطلق صرخات مدوية، وتأتمس المبررات الكاملة. إن قصة أبسكان موجز كامل لقصة الحرب النفسية على العرب، فلقد اعتبر المسؤولون عنها أن الاختيار الطبيعي لشخصية الرجل الذي يحاول أن يشتري مسؤولا أمريكيا بالنقود، والذي لابد أن يلقى أبشع رد فعل ممكن من الرأي يحاول أن يشتري مسؤولا أمريكيا بالنقود، والذي لابد أن يلقى أبشع رد فعل ممكن من الرأي يعاملة، سياسية وثقافية واجتماعية ونفسية، تخدم كراهية صورة الإنسان العربي في الولايات المتحدة، (نوفل، ١٩٨٦).

وقد ذكر هيكل أنه ليس هناك انفصال بين الدبلوماسية والقوة المسلحة، لأن الدبلوماسية ليست مباراة على مائدة المفاوضات بين رجال مهذبين، وإنما هي حوار بين مصالح متعارضة تستند كل منها إلى رادع حقيقي يحميها ويفتح طريقها، ولابد من التوفيق بينها، وقد عبر عن ذلك كيسنجر بقوله. هناك زواج بين الدبلوماسية والقوة المسلحة، وليس بينهما طلاق (انظر نوفل، ١٩٨٦). ويطرح هذا تساؤلا، يتمثل في كيف تكون من ناحية سيكولوجية، دبلوماسيا وعسكريا في الوقت

ويكلمات أخرى، كيف تكون ملاكا وإبليسا في الوقت ذاته؟ وكيف يتم التعامل مع دبلوماسية ولقاءات ومفاوضات متأصلة في علم النفس الاستعماري، والامبريالي، والاستخباراتي؟ وكيف يمكن هضم واستيعاب الكيفية التي تتم بها إدارة الحرار؟ وكيف تفهم الطريقة التي تجرى بها للشاهدات المنظمة، والملاحظات الدقيقة؟ إن الملاحظة هي نقطة البداية في علم النفس وقد تكون المقابلات والمفاوضات نوعا من المفازلة العاطفية، تعقبها معركة نفسية حامية الوطيس، تكون الغلبة والانتصار لن يفهم تقنيات واستراتيجيات الحوار والتفاوض، وخلخلة التوازن العقلي والنفسي.

يستخدم علم النفس بصورة تطبيقية، في دراسة العلاقات بين العرب واليهود (بن عري، وعمير، ١٩٨٦) لقد تعرض فؤاد المغربي، (١٩٨١، رفعت سيد أحمد، ١٩٩٠)، للأدبيات التي تعتمد على علم النفس الاجتماعي كأداة أساسية في التحليل ويعد المنهج الذي يعرف باسم تجليل الشخصية القومية مفتاح تلك الأبحاث. وقد تضمنت موضوعاته عدداً كبيرا من المجالات، الإسلام، العقل الإسلامي، العقل العربي، تاريخ العرب، الثقافة، الحضارة، أنماط تنشئة الأطفال، والمواقف إزاء السلطة. والنتيجة التي أسفرت عنها تلك الأبحاث تمثلت في صورة سلبية عن العرب، وقد تأسس على هذا الكم من الأدبيات تشخيصات وتنبؤات وحسابات استراتيجية. ويرصد فؤاد المغربي أنه منذ العام ١٩٧٠ وما تلاه، ظهر في الولايات المتحدة الكثير من الأعمال في مجال علم النفس الاجتماعي ، ويستخدم على نحو مكثف في لقاءات مع عرب وإسرائيليين وتركز هذه الدراسات على التغيير المؤقت والسلوك والفهم، وإساءة الفهم، والإمكانيات الجديدة للحوار. ويذكر المغربي أنه، فيما يتعلق بنظرة الإدارة الأمريكية للنزاع العربي - الإسرائيلي، يمكن للمرء أن يصنف عقد السبعينيات كعقد «علم النفس السياسي». فقد وضع كلا من العرب والإسرائيليين على الأربكة، في محاولة لاكتشاف طريق لإدارة نزاع يبدو عسيرا ويربط الكاتب من ما ظهر في الخطاب السياسي الأمريكي نحو تأكيد الأبعاد السيكولوجية في النزاع كمظهر لتغيير في المواقف مع بدايات العقد، وبروز انفتاح في الوطن العربي للمبادرات الأمريكية الخاصة باعتراف العرب بحق إسرائيل في الوجود، في نطاق حدود عام ١٩٦٧.

لقد أصبحت دراسات «سيكولوجية الشعوب»، كما يقول قدري حفني (١٩٨٨)، سلاحا حربيا مهماً وحاسما، ونعني بالحرب هنا الحرب المسلحة لا ما يطلق عليه – اصطلاحا- الحرب النفسية، ولقد استخدم ضدنا هذا السلاح، وعلى هذا المستوى بالتحديد، في مواجهتنا مح إسرائيل عام ١٩٦٧، وهو استخدام يستحق أن ننعم فيه النظر. ولم يكن ذلك الاستخدام سرا عسكريا استطاعت مخابرات العدو أن تظفر به منا، ولم يكن صاروخا ولا طائرة ولا قنبلة. ولم يكن سوى «سمة سلوكية» يكمن جذرها السيكولوجي في أعمق أعماق تصرفاتنا اليومية البسيطة، أعني سمة التشاؤم والتفاؤل. لقد اعتدنا أن نكره من يأتي إلينا بخبر سبيء، وأن نتحاشاه أعني سمة التشاؤم والتفاؤل. لقد اعتدنا أن نكره أن نحره أن نحمل نحن خبرا وبتجنبه، ونشيح عنه بوجوهنا، ومن الناحية الأخرى، فقد اعتدنا أن نكره أن نحمل نحن خبرا سبيا، وأن يتردد المرء منا كثيرا في أن يكون «نذير شؤم»، وسمة سلوكية أخرى، تبدو أيضنا وكان لا خطر لها، بل لعل البعض قد يعتبرها مدعاة للتفاخر، أعني الخوف المفرط من الوقوع في الخطأ. الخوف من المحاولة، ولكن للننظر إلى قول موردخاي هود قائد الطيران الإسرائيلي وهو يتحدث مفسرا إقدامه على «المغامرة» بإرسال الطائرات الإسرائيلية حكلها تقريبا لمهاجمة الطيران من يملكون حق التصرف من القادة العسكريين في مصر قبل نصف ساعة، وأنه سيمضي نصف من يملكون حق التصرف من القادة العسكريين ماذا سيفعلون، وهذه الساعة كانت كل أمالنا، ساسها تم ترتيب كل توقيتات خططناه لقد أقدم موردخاي على المغامرة، على حسب قول الصديدة.

سيكولوجيا الإرهاب

في السنزات الأخيرة، أصبح الاتهام بـ «الإرهاب» هو المبرر الذي تلجأ إليه الدول الإمبريالية الصناعية الغربية بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، لقمع اي حركة تصرية، وطنية كانت أم الجتماعية، لا تتماشى أهدافها مع الخطط المعقدة والمتشابكة التي تستند إليها الإمبريالية العالمية في استنزافها لثروات وقدرات وطاقات العالم الثالث من أقصاه إلى أقصاه (عفيف الرزاز، في استنزافها لثروات وقدرات وطاقات العالم الثالث من أقصاه إلى أقصاه (١٩٩٧). وفي كتابه عن الإرهاب الدولي الاسطورة والواقع، تناول تشومسكي (١٩٩٠) هذا الموضوع بالعرض والتحليل الرائع مبتدرا دراسته بقصة القرصان والاسكندر الاكبر، والتي تعبر بيقة عن أهداف علم النفس الكبرى والصغرى الخاصة بالتحكم والارهاب الدولي. يحكي القديس اوغسطين قصة قرصان أسره الاسكندر الاكبر، وساله: «كيف تجرؤ على الاعتداء على الناس في البصار؟» فأجاب القرصان: «وكيف تجرؤ على اللائل بسفينة صغيرة

فحسب، فأدعى لصا، أما أنت، ولأنك تقوم بالشيء نفسه بأسطول كبير، فيدعونك امبراطور!!
ويعلق القديس أوغسطين على رد القرصان بأنه «رائع وبقيق». وهذا الرد يرصد بشيء من الدقة
العلاقات الراهنة بين الولايات المتحدة والكثير من القائمين بالأدوار الثانوية على مسرح الإرهاب
الدولي، ويوجه عام، تلقي قصة القديس أوغسطين الضوء على معنى الإرهاب الدولي في
الاستخدام الغربي المعاصر، كما تنفذ إلى لب ثورة الغضب إزاء أحداث إرهاب منتقاة، وهي
الثورة التي يجري توجيهها الآن بمنتهى الخبث كستار للعنف الذي يمارسه الغرب. إن كلمة
«إرهاب» تستخدمها الجيوش الأجنبية في إشارة إلى الأعمال التي توجه ضدهم من جانب
السكان المحلين الذين يرونهم كقوات احتلال تحاول فرض تسوية سياسية كريهة، تستند إلى
الغزر الأجنبي، وهي في هذه الحالة «النظام الجديد» الذي تسعى إسرائيل لفرضه (تشومسكي،

لقد أرضح بنيامين نتانياهو (ببيت، ١٩٨٦)، في مؤتمر دولي للإرهاب عام ١٩٨٦، بأن العامل الميز للإرهاب هو «القتل والتشويه المتعد والمنظم للمدنيين، والذي يستهدف إشاعة الرعب، ويلاحظ تشرمسكي أن هذا المفهوم ينطبق على تونس، وعلى الفظائم الأخرى التي ارتكبتها إسرائيل على مدى اعوام، على الرغم من أنه لا ينطبق على معظم أعمال الإرهاب الدولي، ومن بينها معظم الهجمات الارهابية العنيفة الموجهة ضد إسرائيل (مثل معالوت، ومذبحة ميونخ، وهب وهجوم الطريق الساحلي الذي وقع عام ١٩٧٨، واستغل كذريعة لغزو لبنان) لقد الف نتانياهو وهجوم الطريق الساحلي الذي وقع عام ١٩٧٨، واستغل كذريعة لغزو لبنان) لقد الف نتانياهو جريدة «الشرق الأوسط»، الصادرة في يوم الأحد ٢٧ يوليو ١٩٩٧ في عرضها للكتاب إنه يتخفى جريدة «الشرق الأوسط»، الصادرة في يوم الأحد ٢٧ يوليو ١٩٩٧ في عرضها للكتاب إنه يتخفى الإرهاب والجريمة المنظمة، حيث الإرهاب يحمل في طياته أهدافاً استراتيجية سياسية محضة، بينما لل حجم الفزع والرعب الذي تسببه الجريمة المنظمة ذات الدوافع الفردية مقارنة بالإرهاب يتمنى من يتضامل حجم الفزع والرعب الذي تسببه الجريمة المنظمة ذات الدوافع الفردية مقارنة بالإرهاب لغري يهاية الكتاب وصاياه العشر التي يتمنى من الذي يهدد المجتمع باسره ويطرح نتانياهو في نهاية الكتاب وصاياه العربية موارنه بالإرهاب على المصدرة للتكنولوجيا النووية للدول الإرهابية، وفرض عقوبات دبلوماسية عقوبات دبلوماسية عقوبات دبلوماسية عقوبات دبلوماسية عقوبات دبلوماسية

واقتصادية وعسكرية على الدول الإرهابية نفسها، إبادة البؤر الإرهابية الموجودة في الشرق الأوسط، تجميد المتلكات الخاصة بالدول والمنظمات الإرهابية الموجودة في الغرب، والتعاون في مجال الاستخبارات لمحاصرة الارهاب، وإحداث تغييرات تشريعية بحيث تتبع تعقب المنظمات المحرضة على العنف وشن عمليات اكثر تأثيرا ضدها، وملاحقة فعالة للإرهابين، وعدم إطلاق سراح الإرهابين السجناء، وتدريب قوات خاصة لمكافحة الإرهاب، وتثقيف الجماهير

إن الأعمال البريرية والوحشية التي تقوم بها إسرائيل لا تدخل ضمن مفهوم الإرهاب، بينما الأعمال الدفاعية القليلة التي يقوم بها الأفراد الفلسطينيون تدخل في صميم الإرهاب، وتنطلب رداً انتقاميا من إسرائيل وقد تكون هذه الأعمال الانتقامية في اي مكان في العالم، وفي اي وقت، ولاي مجموعة عربية، ويقصد بذلك سياسة التأديب الجماعي والمعمم والمعزز سيكولوجيا، وفي الوقت ذاته المرعب للجميع بلا حدود. وبينما استخدم علم النفس في الحرب النفسية بين العرب والإسرائيليين، وفقف جزء آخر من علم النفس في عمليات التعذيب، والردع النفسي من خلال التحكم وتغيير الاتجاهات. لقد تم استخدام جزء كبير من التقنيات السيكولوجية بواسطة المخابرات الإسرائيلية في تعذيب السجناء الفلسطينين «فقد استشهد اكثر من عشرين فلسطينيا المخابرات الإسرائيلية منذ ١٩٩٦، وفي يوم الخميس التاسع من مايو ١٩٩٧ دافعت إسرائيل في استخدامها للقوة بالنسبة للإرهابين المشتبه فيهم، وادعت أن هذه المارسة لها ما يبررها من عنر بحهاز الأمن لكي يتعامل مع أعمال التفجير والاختطاف التي يقوم بها الفلسطينيون وفي يوم ٨ مايو ١٩٩٧ وفعت لجنة الأمم المتحدة ضد التعذيب ببحث سجل إسرائيل في تقنيات التعذيب التي مايو ١٩٩٧ وفعن الموسيقي الصاخبة لفترة طويلة، مايو ١٩٩٧ وطلهواء البارد مع ربطهم في أوضاع مؤلة «(وولكر، ١٩٩٧).

إن سيكولوجيا التحكم في الأفكار براسطة الإعلام الأمريكي والإسرائيلي تقنع العالم تماما بأن سيكولوجيا التحكم في الأفكار براسطة الإولى، بينما الإرهابي الإسرائيلي بالجملة هو برى، يدافع عن نفسه. ويقول تشومسكي: تحتدم المناقشة في الأوساط الإعلامية حول ما إذا كان من اللائق السماح للقراصنة واللصوص بالتعبير عن مطالبهم وتصوراتهم، فعلى سبيل المثال تعرضت شبكة «إن بي سي» لانتقادات عنيفة لإجرائها حديثا مع المتهم بالتخطيط لعملية اختطاف السفينة «اكيلي لاورو»، وبالتالي فإنها تكون قد خدمت مصالح الإرهابين، عن طريق السماح لهم السفينة «اكيلي لاورو»، وبالتالي فإنها تكون قد خدمت مصالح الإرهابين، عن طريق السماح لهم

بالتعبير الحردون الرد عليهم، وهو ما يعد خرقا مؤسفا للنظام المطلوب في المجتمع الحر، الذي يعمل بشكل منضبط... إن الرقابة الحرفية لا تكاد توجد في الولايات المتحدة، ومع ذلك فإن صناعة التحكم في الافكار صناعة مزدهرة جدا، بل إنها صناعة لا غنى عنها حقا في مجتمع صناعة التحكم في الافكار صناعة والإقرار أو السلبية للعامة (تشومسكي، ١٩٩٠) وعلم النفس الامريكي به مساحة كبيرة جدا من التفكير السيكولوجي الحر، من حيث المفاهيم والنظريات والادوات والمناهج بالنسبة لعلماء النفس في الغرب، ولكن في الوقت ذاته يتأطر بدرجة كبيرة جدا في التحكم، وفي درجة الحرية السيكولوجية المتاحة للأخرين، وبلغة آخرى، هناك تشكيل للافكار وصياغة للادمغة في ظل حدود الحرية التاحة. وقد تعكس آراء المدرسة السلوكية في علم النفس هذه المقارنة المزدوجة. ويعتبر التحكم في الافكار المطروحة في علم النفس ضمدنيا. فالهندسة السيكولوجية الغربية تعمل بدقة في عملية اختيار وتطوير المفاهيم والافكار وتصديرها للعالم، ومن ضمد ما صدر واختير الطريقة التي تمثل أو ترسم بها صورة الأخر.

فكما ذكرنا سابقا، فإن إسرائيل أشبه بولاية أمريكية، يسيطر اليهود أو الصهيونية العالمية على مجموعة كبيرة من الصناديق القومية، والصحافة، ووسائل الإعلام الأخرى فيها. وعن طبيعة النزاع الإمبريالي ودور الإعلام الغربي في تمثيل الآخر في ظل الحرية السيكولوجية المقيدة، والعلاقات الخفية بين أجهزة الإعلام يروي ادوارد سعيد (١٩٩٧) بأنه قد حدث عام ١٩٨٦، خلال البث والمناقشات اللاحقة لبرنامج وثانقي عنوانه الأفارقة، كانت الد (بي. بي. سي.) أصلا قد كلفت بإعداده، وقدمت معظم تمويك، وقد كتب السلسلة وسردها بصوته باحث متميز واستاذ للعلوم السياسية في جامعة ميتشيغن هو علي مزروعي، وهو كيني ومسلم تسمو كفائته ومصداقيته كجامعي ثقة من الدرجة الأولى على كل مساطة وريبة. وكانت لسلسلة مزروعي ومصداقيته كجامعي ثقة من الدرجة الأولى على كل مساطة وريبة. وكانت لسلسلة مزروعي أفريقيا، يقوم مقدمتان منطقيتان: الأولى، أنه للمرة الأولى في ناريخ تهيمن عليه تمثيلات الغرب الأفريقيا، يقوم مجتمعاته، لبضع مئات من السنين، بنهب أفريقيا، واستعمارها واستعبادها والمقدمة المنطقية الثانية هي أن تاريخ أفريقيا مكون من ثلاثة عناصر، أو بلغة مزروعي ثلاث دوائر متحدة المركز؛ المبريالية، وكرد فعل للبرنامج الوثائقي الدي سحب «الصندوق القومي للإنسانيات» دعمه المالي لبث الذي سحب «الصندوق القومي للإنسانيات» دعمه المالي لبث

هذه السلسلة الوثانقية، رغم أن السلسلة بثت على قناة الـ (بي. بي. سي.) على أي حال. ثم إن الـ (نيويورك تايمز)، وهي الصحيفة الأمريكية الأولى، نشرت مقالات متوالية تهاجم السلسلة (في ١٤ أيلول، وفي ٩ و ٢٦ تشرين الأول، ١٩٨٦) كتبها المراسل التلفازي (يومها) جون كوري، ولقد وصف إدوارد سعيد مقطوعات كرري عبانها حمقاء عديمة الإبراك أو شبه هستيرية». وأغلب ما فعله كوري هو أنه اتهم مزروعي شخصيا بأنه يمارس الإقصاءات والتأكيدات العقائدية مثلا، أنه لم يذكر إسرائيل في أي مكان من عمله (في برنامج عن التاريخ الافريقي قد تكرن إسرائيل بدت لم لزوعي غير ذات علاقة بالموضوع)، وأنه يبالغ مبالغة ضخمة في شرور الاستعمار الغربي، وقد أفرد كوري في هجومه بشكل خاص «إحداثيات مزروعي الاخلاقية والسياسية» في استبداله لبقة أمرحة غريبة تنضمن أن مزروعي ليس إلا دعائيا ميت الضمير.

الجمعيات السيكولوجية

قال إبراهيم إبراهيم إن الصهيونية العالمية قوة ذات نفوذ ضخم، وهبية كبيرة داخل الولايات المتحدة، فصوتها موجود في آروقة الكونجرس والبيت الأبيض، وفي دهاليز مكاتب الحزبين الديمقراطي والجمهوري، وتمكنت الصهيونية من إقحام اهم المؤسسات الأمريكية، والتأثير عليها الديمقراطي والجمهوري، وتمكنت الصهيونية من إقحام اهم المؤسسات الأمريكية، والتأثير عليها العربية – الأمريكية، أو السفارات العربية والفئات الأمريكية المتعاطفة معها. ومن هنا جاست العربية الأمريكية منذ قيام إسرائيل عام ١٩٤٨ حتى اليوم معبرة عن أمال وأحلام الصهونية دون أي اعتبار لوجهات النظر العربية حول قضية فلسطين بشكل خاص (نوفل، ١٩٨٦). ولم ومن بينها عدد كبير من الجمعيات العالمية النائطة في مجال علم النفس، والتي تهتم بالسياسة الداخلية للعلم والسياسة الخارجية له. ولعل الرابطة النفسية الامريكية، والرابطة العالمية لعلم النفس عبر الثقافي من أهم الروابط إذا نظرنا للخارطة السيكولوجية لتوزيع علماء النفس العرب النفس عبر الثقافي من أهم الروابط إذا نظرنا للخارطة السيكولوجية لتوزيع علماء النفس العرب عشرة دولة: مصر (١٧)، السعودية (١٢)، البحرين (٥)، الاردن(٥)، قطر غيريا(٢)، الجزار(٢)، الكويت (٢)، الميرنا(١)، الموريا(٢)، الجزار(٢)، الكويت (٢)، الميرنا(١)، البحرين (١٠)، البحرين (١٠)، المارات العربية (١١)، البحرين (٥)، الاردن(٥)، قطر (٤)، سوريا(٢)، الجزار(٢)، الكويت (٢)، البحرين (١٠)، البحرين (١٠)، الموريا(٢)، الموريا(٢)، الخرية (١٠)، البحرين (١٠)، الموريا(٢)، الكويت (٢)، المعربة (١٠)، الموريا(٢)، الموريا(٢)، الكويت (٢)، المعربة (١٠)، الم

والجدير بالذكر أن عدد الإسرائيليين في الرابطة هو ١٦٦ عضوا أي أن نسبة عضوية علماء النفس العالمي، النفس العالمي، النفس الإسرائيليين هي ٤. ٨٨/ و٦. ٧١/، بالتتالي (علم النفس العالمي، ١٩٩٧). ويمكن أن نلاحظ الفرق الكبير بين عضوية أمة سكانها ٢٥٠ مليون نسمة تقريبا تمثل ربع مشاركة أمة سكانها ٥ ملاين نسمة.

ولقد أتاحت الثورة الجنسية الهائلة في الغرب حرية الاختيار والتفضيل الجنسي بالنسبة للأفراد والجماعات. وظهرت جماعات الضغط من اللواطيين والسجاقيات، واهتم علماء النفس، خصوصاً اللواطيين منهم، بهذه الجماعات وتمتد عضوية الرابطة النفسية الأمريكية إلى مدى واسع من الثقافات والمجموعات المختلفة. ويشكل علماء النفس في الرابطة اقساما جديدة لكي تكون صوتا معبرا بالنسبة لهم، وتتبع هذه الأقسام الفرصة للأعضاء لطرح القضايا الثقافية والاجتماعية بصورة موسعة ومن بين هذه الأقسام القسم رقم ٤٤ والخاص باللواطيين والسحاقيات وثنائي الجنس، والذي تكون عام ١٩٨٥. وعندما قامت رابطة الطب النفسي الأمريكية عام ١٩٧٣ بعدم تصنيف الشذوذ الجنسى «الجنسية المثلية» كمرض عقلي، فإن العلاج النفسى الإيجابي «للوطية» أصبح أكثر سهولة إذ يساعد الأفراد لتقبل حياتهم الجنسية دون تغييرها لذلك كان القسم رقم ٤٤ بمثابة دار بالنسبة إلى اللواطبين والسحاقيات وثنائي الجنس في الرابطة النفسية الامريكية (بيرنت، ١٩٩٧). وقد أعلنت الرابطة النفسية الأمريكية في صحيفتها الشهرية يونيو ١٩٩٧ عن الترشيحات للجنة اللواطيين والسحاقيات، وثنائي الجنس. ويجب أن يكون للمرشح خبرة في التغيرات المجتمعية، السكان، والمؤسسات الاجتماعية. ومن واجبات اللجنة دراسة وتقييم كيفية طرح قضايا عالمات النفس السحاقيات، وعلماء النفس اللواطيين من الذكور وتنائى الجنس، وتشجيع البحث في المجالات المذكورة أعلاه. وللجنة ستة اعضاء، ثلاث نساء وثلاثة رجال. ومن يأنس في نفسه الكفاءة عليه ترشيح نفسه على أن يرسل خطابا يتضمن اهتماماته ومؤهلاته مع سيرته الذاتية إلى لجنة ترشيحات اللواطيين والسحاقيات وثنائي الجنس بالرابطة النفسية الأمريكية (APA monitor 1997)

ولقد ضمنت الرابطة النفسية الأمريكية في دليل سياسة مجلسها كل التصريحات والقرارات والبيانات التي تتعلق بالقضايا العالمية وتهم الرابطة وتعكس هذه السياسة توثيق كل ما يخص موضوع حقوق الإنسان في العالم. ولعبت اللجنة الخاصة بالعلاقات الدولية دوراً كبيرا في تطوير

خلال عشر السنوات بين ١٩٧٠ - ١٩٨٠ ساهم ١٣ من علماء النفس الإسرائيليين في أبحاث عبر ثقافية نشرت في المجلة العالمية لعلم النفس عبر الثقافي، بينما ساهم فقط ٨ من علماء النفس العرب في تلك الفترة نفسها. ولقد تمت دراسة ١٣ مجموعة ثقافية في كل الدول العربية، بينما العرب في تلك الفترة نفسها. ولقد تمت دراسة ١٣ مجموعة عربية. وتؤكد الأدلة المنشورة في الدوريات العالمية إنتاج علماء النفس الإسرائيل منها ١٢ مجموعة هائلة من أبحاث علم النفس عبر الثقافي. وتعتبر إسرائيل الثانية في هذه الأبحاث على مستوى العالم بعد الولايات المتحدة، وذلك من حيث كمية الأبحاث، بينما تعتبر إسرائيل الأولى في هذه الأبحاث من حيث نسبة عدد علماء النفس في كل دولة (لونر، ١٩٨٠). وتعتبر الرابطة العالمية لعلم النفس عبر الثقافي من انشط الروابط في العالم، ولها اهمية بالغة الخطورة بالنسبة لتطور علم النفس عبر الثقافات المختلفة. لقد قسمت هذه الرابطة العالم لماطوري عن العالم العربي المالم العربي

هو إسرائيلي «شلوم شوارتز» من الجامعة العبرية بالقدس. ويرجع السبب في ذلك إلى نشاط الإسرائيلين في مجال الأبحاث عبر الثقافية وقدرتهم على التجمع، وتوجيه المؤتمرات والجمعيات لأهداف الصهيونية بالجملة برؤوس عالية.

وأصبحت إسرائيل مركزا للمؤتمرات العالمية، منها مؤتمرات عن علم النفس الإكلينيكي، وعلم النفس الدرسي، وعلم نفس الطفل، والصحة النفسية، وفي يعض الموضوعات الحددة مثل العلاج، تقنيات العلاج، والتكيف مع الثوتر (بن عرى، وعمير، ١٩٨٦). عقدت الجمعية الدولية لعلماء النفس اجتماعها السنوي عام ١٩٧٥ في تل أبيب (حفني،١٩٩١)، وكان الموضوع الرئيسي لهذا الاجتماع هو الضغوط النفسية، والتوافق النفسي في الحرب والسلام. وكان من بين المتحدثين الرئيسيين في هذا المؤتمر عالم النفس الاجتماعي الشهير لازاراس الذي اختار موضوعا لخطابه إلى المؤتمرين: «سيكولوجية المواقف العصبية ومواجهتها مع إشارة خاصة إلى إسرائيل». وحدد لازاراس موقعه منذ البداية قائلًا: «إنني أخاطبكم اليوم من موقفين. أولا، كواحد من علماء النفس تركزت بحوثه وإسهاماته النظرية في مجال براسة المواقف العصبية والتصرف حيالها وثانيا، كأمريكي بهودي في أواسط العمر يشعر - شأن غالبية أمثاله - بتوجد كامل مع نضال إسرائيل القومي من أجل خلق وتأمين مكان ليهود العالم في مجتمع إنساني متسامح». ثم عرض لازاراس لرؤيته السبكولوجية للإسرائيلين مقررا أن الإسرائيليين كأفراد يواجهون ما يواجهه البشر عامة من أضرار ومخاطر، ولكن الاسر اثبلين - بالإضافة إلى ذلك - بعيشون في ظل توقع القتل أو فقدان الأحبة أو الأصدقاء نتيجة للحرب أو للأعمال الإرهابية. وثمة خطر مستمر لهجوم معاد قد يسبقه نذير وقد يكون مفاجئا.. ويعاني الإسرائيليون أيضا إحساسا مستمرا بالوحدة في عالم كاره أو غير مبال. ولابد أن هذا الإحساس قد تزايد بحدة في الخريف الماضي حين تراجعت إحدى الحكومات عن مواقفها المؤيدة السابقة نتيجة القدرة الحديدة للدول العربية المنتجة للبترول على التحكم في أسعار وكميات تلك المادة الحيوية بالنسبة للعالم الصناعي، هذا بالإضافة إلى ما لاقاه ياسر عرفات من ترحيب حار في الأمم المتحدة، وما تقرر بشأن طرد إسرائيل من اليونسكو، وكلا الأمرين نتيجة لسيطرة العالم الثالث على التصويت في هذه المؤسسات

يعبر المقتطف السابق بدقة متناهية عن طبيعة العلاقة بين منظمات علم النفس الامربكية والمنظمات العالمية والصهيونية أو إسرائيل. لقد اختارت الجمعيات الدولية لعلماء النفس- متعمدة-إسرائيل لطرح أحد الموضوعات التي لها علاقة مباشرة بهذه الدولة ويمكن أن نتأمل أن علماء النفس العرب الذين ينتمون إلى أمة تعدادها ٢٥٠ مليون نسمة تقريبا، وهم لا يؤثرون في قرارات هذه الجمعية، بينما علماء النفس الإسرائيليون ينتمون إلى دولة تعدادها حوالي خمسة ملايين نسمة استطاعوا تحديد مقر انعقاد الجمعية في إسرائيل، وتحديد الموضوع المطروح، وتحديد علماء النفس المدافعين عن القضايا الإسرائيلية. وقد يتساءل الفرد هل حضر احد علماء النفس العرب من أعضاء هذه الجمعية هذا المؤتمر في إسرائيل؟ أو وجهت له الدعوة بالمشاركة؟ أو قدم ورقة من غير مشاركة؟ أو عبر عن رفضه للمشاركة؟ وقد يطرح السؤال بصورة أخرى: هل بالإمكان عقد الجمعية الدولية لعلماء النفس اجتماعها في إحدى الدول العربية؟ يبدو أن ذلك يثير حفيظة علماء النفس الإسرائيليين، ويمكنهم التذرع بصعوبة حضورهم هذا المؤتمر في بيئة عدائية لإسرائيل إن الإسرائيليين، على حد تعبير لازاراس، يعيشون في ظل توقع القتل، وماذا بالنسبة للفلسطينيين؟ قد يكون محيرا أن نجد إجابة لبعض هذه التساؤلات. لن نخطىء إذا قلنا إن لازاراس يوظف بصورة سليمة ابحاثه، وربما بصورة استراتيجية، لخدمة موقفين في الوقت نفسه. موقفه كعالم نفس، وموقفه كيهودي أمريكي. فما هو موقف علماء النفس العرب من توظيف علم التقسر ؟

نخلص في هذا الجزء من الدراسة إلى أنه قد تم تأسيس علم النفس الشعبي بواسطة فونت، وعلم نفس الأعراق بواسطة ثرنديك تزامنا مع وحشية الاستعمار، واستخدم العلمان لفهم عقلية سكان المستعمرات، ودراسة الشعوب البدائية وعملية التحكم فيها. بعدها استطاع بافلوف إدخال الكلب في المعمل دارسا بذلك الاستجابات الشرطية، وطور بذلك نظرية التعلم الكلاسيكي، ونال بعدها جائزة نوبل في الفسيولوجيا، واستطاع اسكنر إدخال الحمامة في صندوقه الشهير ثم درس السلوك الإجرائي في المختبر، واشتهر بذلك كأعظم سلوكي في تاريخ علم النفس، كما استطاع كوهلر إدخال سلطان أذكى أنواع الشمبانزي في القفص، وطور بذلك نظرية الاستبصار، واخذل تولمان الفارة في متاهته الشهيرة، وطور نظرية التعلم الإنساري. وبعد إكمال عملية التعلم والتخريب لم تطق هذه الحيوانات الاتفاص، والمعامل، والغوف، والمتامات المحددة لها فخرجت إلى

رحاب أوسع، وقد يصعب وربما يستحيل إرجاع القرد والكلب والحمامة والفار إلى أقفاصها واصبحت تطبيقات علم النفس من أهم الأسلحة المستخدمة عائيا، فتم تدريب الحمامة لتوجيه القنابل لخدمة أغراض الدفاع في الحرب العالمية الثانية بواسطة اسكنر الذي طالب بعلم تكنولوجيا السلوك كعلم موضوعي تماما كالعلوم البيولوجية والفيزيائية. وقام السوفييت بعملية غسيل الدماغ بكيفية التشريط نفسها التي قام بها بافلوف في تجاربه على الكلاب. كما أجريت تجربة القاتل المبرمج من خلال عملية التنويم، واستخدم مقياس وكسلر بفعالية في اختيار أقلام المخابرات. وإن الدعم المالي والفني والعلمي من جانب المخابرات قد طور علم النفس من دون شك فنال أباطرة علم النفس في مختلف التخصصات دعما سخيا من المخابرات بعلم ومن غير علم فنال أباطرة علم النفس في مختلف التخصصات دعما سخيا من المخابرات بعلم ومن غير علم في المالم.

ولقد لاحظ أحد علماء النفس المتقاعدين من المخابرات الأمريكية أن عاملي المخابرات ليس لديهم معايير وقواعد لمارسة علم النفس، لكنهم يجرون تجاربهم بالجملة على الجانب وليس على الأمريكيين. وقام علماء النفس بإجراء التجارب حول كيفية تأثير العقاقير على الأفراد، وكيف تؤثّر الصدمة الكهربائية الكبيرة على الذاكرة، وكيف يؤثر الحرمان الحسى المطول على اضطراب العقل، وتجارب أبحاث التحكم قد تخطت الكثير من الحدود التقليدية، والنهاية القصوى لهذه التجارب هي الموت. فإذا ما وصلت التجارب المجراة لحد الموت حسب رأى الخبراء الاكاديميين والأطباء عادة ما يتم العمل خارج أمريكا بصورة سرية تامة (ماركس، ١٩٧٩). إن أخلاقيات علم النفس كما نجدها في لوائح الجمعيات والروابط السيكولوجية، وفي كتب علم النفس مثل: الخصوصية، والسرية، وحفظ السجلات، والقياس النفسى، والعلاج النفسى، والعلاقة مع المفحوصين، وأخلاقيات الأبحاث (سبيقال وكوشر، ١٩٨٥) يتم تجاوزها وتجاوز كل الخطوط الحمراء الخاصبة بالإنسان. إن ترك عملية التلاعب والتحكم في العقول للجواسيس هي مسألة خطيرة، وكذلك يجب الا تترك كلية بالنسبة لعلماء السلوك الذين خلقوا سببا للشك فيهم. ولقد تسائل اسكنر نفسه من يستخدم تكنولوجيا السلوك؟ ويذكر بيدرمان وزيمر (١٩٦١) أنه في السنوات الأخيرة تبلورت بعض الاتجاهات في الأدب الأكاديمي العام عن خطورة التطور العلمي الهائل في تكنولوجيا التحكم في سلوك وعقل الإنسان. ويكمن مصدر الخوف في أن تقنيات التحكم قد تطورت بدرجة هائلة تهدد القيم الأساسية للحضارة.

علماء النفس العرب والتحكم بالقطاعي

تؤكد كتب علم النفس في المكتبة العربية أن لعلم النفس ثلاثة أهداف رئيسية هي: الفهم، والتنبؤ، والضبط (احرشاو، ١٩٩٤، جابر، ١٩٧٦، حمزة، ١٩٨٧، راجح، ١٩٩٧، سليمان والمليجي وبديوي، ١٩٩٤، سويف، ١٩٧٨، الطويل وعلي، ١٩٩٩، عبد الخالق، ١٩٩١، عبد الخالق ودويدار، ١٩٩١، عبد الستار، ١٩٨٥، نجاتي، ١٩٩٠، نعيمة أحمد، ١٩٩٢). ويامكان كل عالم نفس أن يراجع الصفحات الأولى من كتب علم النفس الموجودة في أرفف المكتبات العربية: العامة والخاصة منها فيجد ثالوث الفهم، والتنبؤ، والضبط. وسأحاول إيضاح تلك النقطة من خلال عرض وانتقاء بعض الأمثلة.

لقد اهتم الانسان بذاته كثيرا، وهاول جاهدا أن يعرف نفسه، وأن يجد إجابات عن أسئلة كثيرة تتعلق بسلوكه (جابر، ١٩٧٦). وإن بؤرة الاهتمام المركزية لعلم النفس في كلّ من مجالي البحث والتطبيق السيكولوجي هي سلوك وأنشطة الناس (نعيمة أحمد، ١٩٩٢). ويساعد علم النفس بصفة عامة على دراسة وفهم وحل الكثير من الأزمات والشكلات والصعوبات والانحرافات التي يعانيها الإنسان (الطويل وعلى، ١٩٩١). وإن الغرض الأساسي للبحث العلمي (فاخر عاقل، بلا تاريخ) ليس مجرد وصف الظاهرات، بل تخطى ذلك إلى تفسيرها. ولا يقنع العلماء بمجرد تفسيرات الظواهر، بل يريدون أن يتنبؤوا بالطريقة التي يعمل التعميم وفقها في المستقبل. والعالم الحق لا يكتفي بالتفسير والتنبؤ كهدفين للعلم، بل يتجاوزهما إلى محاولة الضبط. وهو التحكم في العوامل الأساسية التي تسبب حادثًا ما لكي تحمله على التمام أو تمنع وقوعه، كما يقول أحمد عبد الخالق (١٩٩١) فإن لعلم النفس أربعة أهداف هي: الوصف، والتفسير، والتنبق، والضبط. فالوصف هو تقرير عن الظواهر القابلة للملاحظة وبيان علاقاتها ببعض، أما فيما يختص بضبط السلوك أو التحكم فيه فإن عالم النفس يروم تعديل السلوك الذي يحتاج إلى تعديل. ولخص حمزة (١٩٨٢) أهداف علم النفس بأنها فهم السلوك وتفسيره، والتنبؤ بما سيكون عليه السلوك، وضبط السلوك والتحكم فيه بتعديله وتحويره وتحسينه. وأعطى مثالين للضبط هما: «هرمان الطفل من عطف الوالدين»، و«استعداد الطالب للدراسة الأدبية وعدم استعداده للدراسة العلمية». بينما أعطى عبد الزهار (١٩٩١) مثالا للتحكم في ظاهرة النجاح في الدراسة على أساس التوجيه التعليمي بالكشف على استعداد الفرد للنجاح في دراسة معينة. ومن أمثلة الضبط عند نجاتي (١٩٨٠) أثر التسميع في الحفظ، وعند عبد الستار (١٩٨٥) دراسة تأثير العين على انقباض العين. ويعني الضبط بالنسبة لسليمان والمليجي ويديوي (١٩٩٤) تحديد الظروف والملابسات التي تحدد وتتحكم في حدوث الظاهرة التي نحن بصدد دراستها، ويمكن على سبيل المثال التحكم في التفوق الرياضي في لعبة معينة عن طريق عمليات التوجيه والاختيار السليم.

إن عالم النفس يروم تعديل السلوك الذي يحتاج إلى تعديل كتعديل سلوك المريض النفسى بعلاجه، وضبط (تعديل) سلوك المراهق الذي يدأب على قضم أظافره (عبد الخالق، ودويدار، ١٩٩٣). وإن فهم الظاهرة ومعرفة أسبابها وخصائصها بعن على التنبؤ بحدوثها وعلى ضبطها والتحكم فيها. وهذان هدفان عمليان من أهداف العلم، كل علم. وإذا عرفنا استعداد فرد لمهنة أو دراسة معينة، وعدم استعداده لمهنة أودراسة أخرى، تسنى لنا أن نجنيه الفشل في إقحامه في مهنة أودراسة ليس مؤهلا لها (راجع، ١٩٨٧). وإذا كانت الروح العلمية للسبكولوجيا الغربية الحالية هي روح تطبيقية بالدرجة الأولى، حيث صار من الضروري توظيف نتائج أبحاثها في شتى الجالات التنموية، وبشكل خاص في مجالات التوجيه التربوي والاختيار المهنى والتشخيص العيادي. فمن حقنا أن نتسامل عن المهام التطبيقية لما يتداول عندنا من أبحاث ودراسات سيكولوجية، ومن واجبنا أيضا أن نتسامل عن الأبعاد التطبيقية لنتائج هذه الأبحاث، وعن احتمالات استثمارها في مجال خدمة القطاعات التنموية الحيوية داخل المجتمع العربي (احرشاو، ١٩٩٨) وفي دراسته الميدانية عن الصورة الشائعة عن علم النفس الحديث، وجد سويف (١٩٧٨) أن بعض أفراد عينة دراسته ذكروا موضوع الإفادة العملية من تطبيقات علم النفس، إلا أنها اقتصرت على ذكر ميدان واحد من ميادين التطبيق وهو ميدان العلاج من الاضطرابات النفسية، وذكر أربعة أشخاص من ٥٠٠ فقط ميدان الصناعة، وأربعة أخرون أشاروا إلى التطبيقات في ميدان الجريمة، وثمانية أوردوا ذكر ميدان التربية.

وسوف نكرر القول بأن كتب علم النفس في المكتبة العربية تتفق على أن هناك ثلاثة أهداف رئيسة لعلم النفس هي الفهم والتنبؤ والضبط. ومن أمثلة الضبط والتحكم المذكورة في الكتابات العربية السابقة الاستعداد الدراسي والمهني، والتحكم في ظاهرة النجاح في الدراسة، وتعديل سلوك المريض، وضبط سلوك المراهق والجانح، والتحكم في التفوق الرياضي، والتحكم في المورية. إن الهدف النهائي للعلم هو هدف تطبيقي. هل نجح علم النفس في تحقيق هذه الأهداف الخاصة بالتحكم المعال؟ ودعنا نتسائل، من غير تهكم، هل هدف علم النفس فقط هو التلميذ المسكن في المدرسة؟ أو المريض المشفق على حاله في العيادة النفسية؟ أو الأصم والأبكم

والكفيف والمتخلف عقليا أو حركيا في معاهد الرعاية الخاصة؟ إنها نظرة تقليصية تجزيئية على أي حال. وقد تكون الكتب العربية التي تعالج علم النفس بهذا المنظور هي مجرد اقتباس، أو ترجمة للكتب الغربية. ولكنها اقتباسة أو ترجمة «مايكروية» تركز على جوانب محددة من علم النفس أي ما أسميه «علم النفس بالقطاعي». هل حتى في حالة التحكم بالقطاعي استطعنا حقيقة وفعلا أن نتحكم في التلميذ والريض والعامل؟ وهل يشعر علماء النفس العرب أن علم النفس الذي يدرسونه في قاعات الجامعات له ارتباط حقيقي بقضايا المجتمع الواقعية؟ أم أن علماء النفس العرب لا يسالون أنفسهم هذه العينة من الأسئلة الحرجة؟ وماذا يحدث لو أغلقت أقسام علم النفس في كل الجامعات العربية؟ وأن جزءا كبيرا من حقيقة علم النفس الغربي، أو الأوروبي، واليورو - أمريكي هي حقيقة استعمارية، وامبريالية، واستخباراتية. ويمثل ذلك الأهداف الكبري لعلم النفس كما وضحنا سلفا. ولكن عندما يستجيب علماء النفس العرب للعلم الستورد، فإنهم يدركون بصورة تجزيئية الأهداف الصغرى لعلم النفس، أو علم النفس بالقطاعي كما أفضل أن أسميه. وريما تكون هناك غفلة في متابعة التطبيقات الكبرى لعلم النفس المكشوف والمستور منها، وغفلة أخرى في مواكبة الإسهامات العائية لعلم النفس من اللاغرب، وكيفية استجابة علماء النفس فيه لفهم آلية التلاعب التحكمي في علم النفس. لقد فرض بعض علماء النفس من اللاغرب رؤاهم في علم النفس العالمي، وتركوا علامات مميزة، أو بصمات بارزة مثلا كجتسباشي من تركيا، واروما من اليابان، وكيم من كوريا، وسنها من الهند، ولا قمى من الطبين، ومقدم من إيران وكان هؤلاء العلماء موضع احترام عام في الغرب، لأنهم استوعبوا جيدا كيف يقرؤون ويعيدون قراءة علم النفس. والسؤال أين علماء النفس العرب من هذا السياق العالم لعلم النفس؟ ولماذا لا يوجد علماء نفس عرب عظام يعبرون عن الحقيقة السيكولوجية في مكانها؟ وكيف يمكن قراءة علم النفس بصورة ذكية؟ والسؤال الأهم لماذا توجد أهداف طموحة لعلم النفس في الكتب العربية لتسلق قمة افرست في التحكم؟ ولكن لماذا يبدو أن محاولة التسلق هذه لم تتجاوز خطوات سلحفاة كسيحة في قاعدة الجبل؟

ويبدر اننا في العالم العربي عندما ندرس نظرية بافلوف الشهيرة نتحدث عنها كفعل منعكس وتشريط ولكن عندما اهتم بها السوفييت والأمريكيون نظروا على أنها أداة غسل الأدمغة، والتحكم في الأخرين بالكيفية ذاتها التي درب بها بافلوف كلايه عندما بحث في كيفية استجاباتها الفسيولوجية. وعندما ندرس نظرية اسكنر العملاقة في التعلم الإجرائي نتحدث عنها كعلاقة بين مثير واستجابة، ولكن عندما اهتم بها الأمريكيون وظفوها في تكنولوجيا السلوك، وتصميم الثقافة، ومحاولة تدريب الحمام لتوجيه القنابل. وعندما ندرس المقابلة كمنهج لجمع المعلومات في علم النفس نهتم بها في إطار القطاعي في مقابلة التلميذ، أو المريض، أو العامل، ولكن عندما تطبق في الغفرب وفي إدارة الصعراع العربي – الإسرائيلي تستخدم بالجملة في الحرب النفسية، والاستجواب، ومقابلة الأسرى، والتعامل مع السجناء، وفي كل المحاولات التي تحتاج لقدرة عالمية من الذكاء الاجتماعي كاللقاءات الدبلوماسية والمفاوضات وعندما ندرس التنويم في اروقة الجامعات ربما نستمتع بمشاهدة الخبير النفسي يتلاعب بالأفراد على خشبة السرح، بينما المجامعات ربما نستمتم بمشاهدة الخبير النفسي يتالاعب بالأفراد على خشبة السرح، بينما مستخدم في الغرب استخداما استراتيجيا في تجارب القائل المبرمج، وفي محاولة خلق انسان منشورياء الذي يقوم بعملية اغتيال في أي ركن في العالم، وعندما تنتهي مهمته لا يعرف من أمره بذلك.

إن النظرة الفاحصة، لا تخطى، إذا قلنا بتنافر علماء النفس العرب، من هم في كليات التربية، ومن هم في كليات التربية، ومن هم في كليات الآداب. ويمكن التساؤل: هل قال علماء النفس في الآداب خلاف ما قاله علماء النفس في التربية؟ أريد أن أسال نفسي وأسال علماء النفس العرب عندما يتحدثون عن التحكم: الففس في التربية؟ أريد أن أسال نفسي وأسال علماء النفس العرب عندما يتحدثون عن التحكم: الما استطعنا إدخال القرد، أو الكلب، أو الحمامة، أو حتى الفارة في المعمل حتى نتحدث عن الفهم، والتفسير، والتنبؤ، والتحكم؛ ربما تكون الإجابة بنعم عند الرجعة، أو العودة أو النكصة أو الارداد. فأمام الانكسار النفسي، كما يقول غليون (١٩٩٠)، يصبح الإيمان بالنصر التاريخي تعويضا عن الهزيمة. يقول بروفسر بدري (١٩٩٩)؛ إن مدربي الصقور من قدماء العرب المكزر يمكن أن نتامل أن العرب قاموا بتدريب الصقور، بينما تدريب الصقور التبعة الصيد، بينما تدريب الحمام لتوجيه بينما قام اسكنر بتدريب الحمام، فكان تدريب الصقور لمنابعة الصيد، بينما تدريب الحمام التجيه المنابل لأغراض الدفاع اثناء الحرب العالمية الثانية. ويمكن أن نعيد النظر مجددا ما بين قصر التفكير في البطن والتفكير في التحكم، ما بين التمكم بالقطاعي، النظر وطول النظر، وما بين التفكير في البطن والتفكير في التحكم، ما بين التمكم بالقطاعي، والتحكم بالجملة. وهذه المقابلة اللعينة قد توضح طبيعة المازق الذي يجابه علم النفس في العالم العربي، ويكلمات أدق المؤرق الذي يجابه علماءالنفس العرب في فهم مغزى قصة علم النفس

إن قصة علم النفس في حقيقتها كحقيقة وجهي العملة، يحكي أحد وجهيها قصة الاستعمار، والامبريالية، والمخابرات، وانها قصة الإرهاب، والقمع، والخضوع، والاستسلام، وأنها قصة الترويم، والهلم، والتمويه، والمراوغة، والخداع، والتعذيب، والقتل، وفوق كل ذلك قصة التحكم بالجملة، بالإضافة إلى ذلك هي القصة الدرامية للعمليات الاستخبارية التي تطبق فيها تقنيات علم النفس بمهارة فائقة في العمليات متعددة المسطلحات كالعمليات في الظلام، والعمليات الوطوعلية، والعمليات المستورة، والعمليات السوية، والعمليات المستورة، والعمليات المستورة، والعمليات المستورة، والعمليات المستورة، والعمليات المستورة، والعمليات المستورة، والعمليات الملتية، وربما العمليات الابليسية. إن أعمال الستر الاكثر شيوعا بالنسبة لعلماء النفس هي أروقة الجامعات، ومختبرات علم النفس، وقاعات المؤتمرات، وانشطة الجمعيات والروابط السيكولوجية. وقصة علم النفس هي قصة وجود أفراد دقيقي الملحظة، أو كما عبر انفلترن بوجود «أشخاص خارقي القدرة في العمل في الظلام». وقصة علم في الوجه الأخر من العملة هي قصة الذكاء، والقدرات، والدواهب، والمهارات، وهي قصة المفامرة، والمخاطرة، والمجازئة، كما هي قصة الحسابات، والمعدلات، والدقة المتناهية، والمأزق الذي يجابه علماء النفس العرب هن كيفية التعامل أو الجمع بين هذه المتقابلات، أو القضادات، أو الطباقات، وهي النفس بهذه الصورة وهي التي تغذي وتنمي علم النفس. وبلغة أخرى كيف يمكن التعامل مع علم النفس بهذه الصورة وهي التعامل مع وجهي العملة: الصورة والكتابة؟ أو أداء الفرائض والنوافل في الوقت نفسه؟

لقد حكينا قصة علم النفس، فكيف تكون الاستجابة المناسبة لها؟ وبوسع المرء أن يطرح بعض التساؤلات عن كيفية التعامل مع قصة علم النفس التي فعلت فعلتها، الحسنة منها والنكراء، والتي خلقها عندما شق قدره بنفسه. أنحكم على علم النفس بأنه علم جاسوس وعميل؟ ام أنه علم كافر أو ملحد كما عبر أحد علماء النفس العرب؟ أيمكن اعتباره من دالريبات والمشككات والمكفرات، حسب تعبير أبو ديب؟ وأن علينا بتره كما تبتر العامة من جسم الإنسان؟ ومن ثم يجب علينا أن نتعقم، ونتوضا، بل نفتسل، ونتبرا منه؟ أم نحال علاجه بقدر الإمكان؟ ونتناول مصلا وأقيا منه في حالة هذه المعالجة؟ هل نحاول التأقلم، أو التعايش، أو التكيف معه كما تقتضي الضرورة التطورية أو النشوئية؟ في تقديري، أن عينة الإحكام المتعسفة السابقة تحتاج لإعادة الملاحظة، والملاحظة هي نقطة البداية في علم النفس. ولكي ما أشبع حب الاستطلاع بالنسبة للقارى»: ما هو المؤقف المناسب من علم النفس من وجهة نظر الباحث؟

ويمكننا أن نعيد طرح التساؤلات السابقة بصورة أكثر إيجابية: كيف يمكن فهمه؟ وهضمه؟ واستيعاب؟ ومن ثم تفجير الروح الخلاقة الكامنة فيه من مفاهيم ونظريات ومناهج وتقانة؟ وكيف يمكن تجاوز النظرة التقليصية المايكروية لعلم النفس إلى نظرة استراتيجية عملاقة وحكيمة؟ كيف يمكن لعلماء النفس تدعيم علم نفس يمكن بواسطته أن يصاغوا به، ويصيغوا به الأخرين في حالة من الكرامة والكبرياء الحقيقية لا الزائفة أو الوهمية؟ وكيف يمكن أن ينطبق على علماء النفس قول جورج أورول بانهم «داخل جوف الحوت وخارجه في أن واحد؟» إن إمكانية الدخول والخروج تعبر بدقة متناهية عن علاقة علم النفس بالحرب الباردة، خاصة بالمؤسسة العسكرية التي رعت هذه الحرب بحثا عن تقنيات لحرب غير تقليدية، أو غير اقتتالية!

المؤسسة العسكرية مؤسسة أساسية في تطور علم النفس، لذلك سوف نجازف بطرح بعض الأسئلة الحساسة، والتي تبلورت من خلال هذه الدراسة، وريما تكون هذه الأسئلة غير مطروحة، ولكنها أسئلة استراتيجية على أي حال وقد يتساءل أحد: كم من علماء النفس العرب في المفايرات العسكرية العربية؟ كم عدد المشتغلين في أقسام الحرب النفسية؟ وكم عدد المشتغلين منهم في الحرب المضادة؟ وكم معملا لعلم النفس الحربي في العالم العربي؟ وماطبيعة الأدوات والتقنيات المستخدمة في هذه المعامل؟ هل هناك مقابيس مناسبة للذكاء والشخصية والقدرات والمهارات؟ وكم متخصصا في القياس النفسي في مجال الاستخبارات؟ أو في التنويم؟ أو في غسيل الدماغ سوامطي الطريقة البافلوفية أو الاسكنارية؟ وكيف يفكر علماء النفس العرب بصورة استراتيجية في علم النفس؟ وكم من علماء النفس يشارك في المفاوضات الدولية التي تخص العالم العربي؟ هل هناك من مؤيدي الحرب من علماء النفس العرب من يتابع تطور علم النفس في إسرائيل أو في أمريكا؟ من يواجه القرارات العالمية التي تخص العالم العربي في أروقة الجمعيات والمنظمات السيكولوجية؟ كيف يتسابل علماء النفس في حالة إحساسهم بفجوة في التفكير السيكولوجي الاستخباراتي في العالم العربي؟ قد لا نجد إجابة صريحة لهذه الأسئلة وذلك لأن طبيعة الموضوع وحساسيته تحول دون ذلك. ومن المناسب أن نتذكر ماقاله ياسيتيفتش عندما رفض إجراء مقابلة مع جون ماركس (١٩٧٩) بخصوص كتابه المثير «البحث عن مرشح منشوريا: ال سبي. أي. اي والتحكم في العقل «ذاكرا» أنا مهنى ولذلك لا أتحدث عن هذه الأشياء. هناك أشياء كثيرة لا تتناسب مع العامة وليس لهذا علاقة بالديمقراطية، إنما لها علاقة بالبديهة العامة». أو كما عبر كل من بن عرى، وعمير (١٩٨٦) عندما أجريا دراسة عن علم النفس في إسرائيل توقفا عن ذكر الأبحاث الواسعة التي يجريها قسم الأبحاث السيكولوجية في قوات الدفاع

الإسرائيلية قائلين: «ولاسباب واضحة، ليس من المكن توضيح نوعية الأبحاث السيكولوجية التي تجرى في هذه الوحدة». ولكن ربما يمكن مجرد التفكير في هذه الاسئلة أو المشابهة لها من قبل علماء النفس، أو من قبل المفكرين الاستراتيجيين في الدول العربية. إن الإجابة عن هذه الاسئلة قد تساعد في شق الطريق لطبيعة علم النفس أو طريقة التفكير الاستخطاطي الذي نحتاج إليه في العالم العربي أهر علم نفس بالجملة على الطريقة الالمانية، والروسية، والبريطانية، والأمريكية، والإسرائيلية؛ أم علم نفس بالقطاعي على حسب الطريقة العربية؛ أيتفق علماء النفس مع سياسة حكوماتهم؟ أم هم من المعارضين لهذه السياسات؟ أم هم مع الاثنين معا؟ أم لا مع هذا ولاذاك، بل

ويبدو أن علماء النفس سيكونون في وضع مماثل للعلماء الألمان المتخصصين في القذائف الموجهة، أولا قد عملوا بإخلاص مع هتلر لتدمير الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة وأخيرا يعتمد الأمر على من القي القبض عليهم، لقد عملوا بإخلاص مع الاتحاد السوفييتي لتدمير الولايات المتحدة، أو عملوا بإخلاص مع الولايات المتحدة لتدمير الاتحاد السوفييتي. وإذا كان علماء النفس مهتمين كلية بتقديم علومهم فيحتمل أن يخدموا أي مجموعة تملك السلطة (روجرز، ١٩٦١) إن علماء النفس مطالبون بالتقدم في ابحاثهم واكتشاف الجديد، وكلما زادت درجة التحكم في نوعية التكنولوجيا المنتجة فإن قرار استخدامها سيكون خارج يد علماء النفس. ومن الصبعب الأن وضع تكنولوجيا التحكم في صندوقها (ماركس، ١٩٧٩) ولقد انتشرت هذه التكنولوجيا في رئاسة ومحطات الاستخبارات في العالم، وفي المؤسسات العسكرية وأقسام الحرب النفسية، وفي البعثات الدبلوماسية، وفي الفرق الإعلامية، وفي السجون والمتقلات، وفي محطات البوليس، وفي المستشفيات العسكرية، خاصة أقسام العلاج النفسي. وفي تقديري، أن السلاح النفسي في الوقت الراهن ريما يكون أهم من السلاح النووي، أو البيولوجي، أو الكيميائي. فقد انهار الاتحاد السوفييتي والمعسكر الشرقي بتكنولوجيا الحرب الباردة، وهي حرب نفسية في للقام الأول. وبانتهاء هذه الحرب الباردة كما يقول ادوارد سعيد (١٩٩٧): «برزت الولايات المتحدة بوصفها أخر القوة العظمي»، وحولت هذه القوة العظمى بفضل الحرب النفسية جزءا كبيرا من العالم من عالم ثان إلى عالم ثالث، وأصبحت السيطرة لاقلية متحكمة بالجملة، وإغلبية ساحقة محكومة لا يسمح لها بالتعبير ولو بالقطاعي، ويمكننا التكهن بأن عملية التخطيط الدقيق ستستمر، والبرمجة المنظمة بصورة استراتيجية لزيادة تقنيات السيطرة في علم النفس ستستمر وفي إطار ما يسمى بالعولمة، خاصة، سوف تكتمل بذلك الحلقة بين علم النفس الذي يستهدف للتحكم، وهدف ما يسمى بالنظام العالمي الجديد في التحكم بالجملة.

وفي تقديري، أنه في ظل الاستخدامات الهائلة، والمرعبة أحيانًا، لعلم النفس من جهة، وفي ظل تجاهل، أو إهمال، أو إغفال الجذور التاريخية، والاستعمارية، والامبريالية، والمخابراتية لعلم النفس، سوف يخضع علماءالنفس العرب أنفسهم لمزيد من التهميش، ومزيد من السيطرة البغيضة من جانب عملية التلاعب التحكمي بعلم النفس نفسه وعبر تطبيقاته بالجملة. ربما يرى أحد أن الحديث عن علم النفس بهذه الصورة المتضخمة نوع من الدعاية لعلم النفس، أو نوع من الهستيريا بالقوى الخفية التي تتحكم في العالم، أو هو نوع من الهوس، وأن من يتحدث عن علم النفس بهذه الكيفية إنما هو انفصامي بالدرجة الأولى لانه يبالغ في تعزيز نوع من جنون العظمة لعلم النفس وتطبيقاته بالجملة أو ريما يرى أخر أن منظاري كالح، أو رؤيتي تشاؤمية للتطبيقات الهامشية لعلم النفس في العالم العربي. ومع كل ذلك يبدو أن هناك أملا بأن القوى التي بيدها السيطرة الحالية لن تكون مسيطرة للأبد، وربما تستمر عملية السيطرة البغيضة لفترة من الزمن، وحتما ستكون هناك إمكانية مفتوحة للانعتاق من هذه السيطرة، ولكن هذه الإمكانية مشروطة بحالة الوعي، واليقظة، والانتباهة، وبوجود علماء للنفس يلاحظون علمهم بالدقة البالغة كدقة المجهر الحساس، وأن تكون ملاحظاتهم لما يجرى حولهم، وعليهم ملاحظة دقيقة بعينين حداقتين. وبمراعاة هذه الدقة المطلوبة نتكهن بأن تكون هناك بداية لتقدم دال في اتجاه جديد. فكيف ستكون الاستجابة المناسبة من قبل علماء النفس، ومن قبل المخططين الاستراتيجيين في تطبيقات علم النفس؟ وعلى أي حال، ومهما تكن نوعية الاستجابة، هناك أهمية بالغة لتعلم بعض الدروس والعبر من تطبيقات علم النفس الهائلة في المجال الاستراتيجي، ريما في باديء الأمر بقصد حماية الذات من مزيد من حالة الغيبوبة، أو من مزيد من حالة الانكسار النفسى أمام الآخرين الذين يطبقون علم النفس بالحملة.

المراجع

أولا: المراجع العربية

- احرشاو، الغالى (١٩٩٤) واقع التجرية السيكولوجية في الوطن العربي بيروت المركز الثقافي العربي
- أحمد، رفعت سيد (١٩٩٠) علماء وجواسيس التفلغل الأمريكي الإسرائيلي في مصر اندن رياض الريس للكتب والنشر
 - أحمد، تعيمة (١٩٩٢) اسس علم النفس الإسكندرية دار الفكر الجامعي
 - اسكتر، ب (۱۹۸۰) تكتولوجيا السلوك الإنساني ترجمة عبد القادر يوسف. الكويت عالم المعرفة
 - ايكلمان، ديل (١٩٩٠) الكتابة الانثروبولوجية عن الشرق الأوسط المستقبل العربي، ٤، ٢٩ ٦١.
 - بركات، عليم (١٩٨٤) للجتمع العربي الماصر بيروت مركز دراسات الوحدة العربية
 - بزاز، عبد الكريم (١٩٩١) علم الاجتماع في كتب التدريس تحليل بقدي السنقبل العربي، ٤، ١٠٢ ١٠٢
- بلوش، جوناثان، وجيرالد، باتريك (۱۹۸۷) الاستخبارات البريطانية وعملياتها السدية في اوروبا وافويفيا والشرق الأوسط ترجمة عفيف الرزاز بيروت مؤسسة الأبحاث العربية
 - بوست، جراهام (۱۹۹۰) تقنية التجسس ترجمة إلياس فرحات بيروت دار الحرف العربي
 - بييت، بيفرلي (١٩٨٦) تقرير عن المؤتمر الدولي بشبان الإرهاب. صحيفة «لوبس أنجيلوبس تايمز»، ٩ أبريل، ١٩٨٦
- تشرومسكي، ماعوم (١٩٩٠) الإرهاب الدولي الأسطورة والواقع ترجمة لبني صبري، وتقديم مصطفى الحسيني القاهرة. سينا للنشر
- جابر، عبد الحميد جابر (١٩٧١) مدخل لدراسة السلوك الإنساني القاهرة دار النهضة العربية
- الممابي، محمد عزيز (١٩٨٧) تعقيب(١) مجموعة مؤلفين التراث وتحديات العصر في الوطن العربي ص ٩٩ ١١٠ بيروت مركز دراسات الوحدة العربية
 - حفني، قدري (۱۹۸۸) الإسرائيليون من هم؟ دراسة نفسية القاهرة. مكتبة مدبولي
 - حمزة، مختار (۱۹۸۲) مبادى، علم النفس جدة دار البيان العربي
 حنفي، حسن (۱۹۸۰) موقفنا العضاري الستقبل العربي، ٦، ١١-٩١٩
- الخليفة، عمر (١٩٩٧) مازق علم النفس في العالم العربي بحث غير منشور قدم بجامعة الطرم والتكتولوجيا بالأردن ضمن سهرجان
 - الفاتزين بجوائز مؤسسة عبد الحميد شومان للباحثين العرب الشبان لعام ١٩٩٦
 - راجح، عزت (۱۹۸۷). أصبول علم النفس. القاهرة دار المعارف
 ربيع، حامد (۱۹۷۶) الحرب النفسية في المنطقة العربية ميروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- الرزّار، عفيف (١٩٨٧) مقدمة المترجم لكتاب الاستضارات البريطانية وعملياتها السرية في أوروبا وأفريقيا والشرق الاوسط لكاتبيه
 - جوناثان بلوش، وباتريك جيراك بيروت مؤسسة الابحاث العربية
 - روكلن، موريس (١٩٨٣). تاريخ علم النفس عقله إلى العربية علي زيعور بيروت. دار الاندلس
 الزغل، عبد القادر (١٩٩١). حرب الخليج والبحث عن السافة الملائمة الستقبل العربي، ١٤٧، ٢٢ ٢٦
 - سعيد، ابوارد(١٩٩١). الاستشراق نقله إلى العربية كمال ابو ديب. مؤسسة الأبحاث العربية
 - سعيد، انوارد (١٩٩٧) الثقافة والامبريالية نقله إلى العربية وقدم له كمال أبوديب بيروت دار الأداب
 - السبعيد، محمد (١٩٥٩). فحمول في علم النفس العسكري الشركة العربية للطباعة والنشر
- سعيد، محمد (١٩٠٤) نظرية التبعية وتفسير تخلف الاقتصاديات العربية. مجموعة مؤلفين التنمية العربية والواقع الراهن والمستقبل
 - (ص ١٣٧ ١٦٥) بيروت. مركز دراسات الوحدة العربية
 - سليمان، على، الليجي، حمدي، وبديوي، أحمد (١٩٩٤) مدخل في علم النفس القافرة: مكتبة عين شمس
 - سويف، مصطفى (١٩٧٨) علم النفس الحديث: معالمه وتعاذج من براساته القاهرة. مكتبة الانجاو الصرية.
 - شرابي، هشام (۱۹۸۱) المثقفون العرب والغرب. عصر النهضة بيروت دار النهار.
 - شرابي، هشام (١٩٩٠). النقد الحضاري للمجتمع العربي في نهاية القرن العشرين بيروت مركر دراسات الوحدة العربية
 - الطويل، عزت، وعلى ، على عبدالسلام (١٩٩١) محاضرات في علم النفس العام الإسكندرية الكتب الجامعي الحديث
 - - عاقل، فاخر (بلا تاريخ) اسس البحث العلمي في العلوم السلوكية. بيروت: دار العلم للملايين.
 - عالم الجواسيس (۱۹۹۱) مجموعة من المؤلفين. بيروت. دار الحسام
 عبدالخالق، احمد (۱۹۹۱). أسس علم النفس. الإسكندرية: دار المرفة الجامعية
 - عبدالخالق، أحمد ، ويويدار، عبدالفتاح (١٩٩٣). علم النفس أصوله ومبادئه الإسكندرية: دار الموقة الجامعية
 - إبراهيم، عبدالستار (١٩٨٥). الإنسان وعلم النفس الكويت: عالم المعرفة.

- عنصر، العياشي (١٩٩٠) أزمة أم غياب علم الاجتماع الستقبل المربي,٣٧،٧٠-٤٨.
 - عيدالزهار، نبيل (١٩٩١) علم النفس العام. القاهرة مكتبة عن شمس
 - غليون، برهان (١٩٩٠) اغتيال العقل الجزائر موقع صياب
- الفاروقي، إسماعيل (١٩٧٩) صياغة العلوم الاجتماعية صياغة اسلامية حجلة المبلم الماهيدية ٥٠٠-٤١
 - فرج، عبداللطيف حسين، وعطية عز الدين (١٩٨٧) علم النفس المسكري جدة دار الشروق.
- فلوجل، ج (١٩٨٨) علم النفس في مائة عام نقله إلى العربية لطفي فطيم. بيروت دار الطليعة
- لكلرك، جيرار (١٩٩٠) الانتروبولوهيا والاستعمار نقله إلى العربية حورج كتورة ديروت المؤسسة الجامعية للمراسات والنشر
 - نتانياهو، بنيامج (١٩٩٧). محارية الإرهاب ترجمة عمر السبد والمن خالد القاهرة. الإزهار
 - ~ نجاتي، محمد عثمان (١٩٨٠) علم النفس في حياتنا اليومية الكريت: دار القلم.
 - نصر، صلاح (١٩٨٨) الحرب النفسية معركة الكلمة والمتقد. الجزء الثاني الوطن العربي
 - النصر، على سيف (١٩٩٣) الصحوة الإسلامية الماصرة والطوم الإنسانية، المستقبل العربير ٤، ١١٦ -١٣٧
 - نوقل، أحمد (١٩٨٦) الحرب النفسية بيننا وبين إسرائيل الكتاب الثالث. إريد دار الفرقان للنشر والتوزيع
 - نوفل، أحمد (١٩٨٩) الحرب النفسية إريد دار الفرقان

ثانيا: المراجع الأحنيية

- -Amer. Y., & Ben-Ari. R. (1981). Psychology and society in Israel. International Journal of Psychology, 16, 239-247.
- -APA Monitor (1997), 28.49.
- -Badri M. (1979). The Dilemma of Muslim Psychologists London Mwh Publisher.
- -Bauer, R. (1962). Some views on Soviet psychology. Westport. Greenwood Press.
- -Ben-Ari, R., & Amir, Y. (1986). Psychology in a developing society. The case of Israel. Annual Review of Psychology. 37.17-41.
- -Benjamin, L et al (1992). Wundt's American doctoral Students. American Psychologist, 47, 123 131
- -Berlyne, D. (1968). American and European psychology. American Psychologist. 23, 447-452
- -Berry, J. (1993). Psychology in and of Canada, In U. Kim & J. Berry (Eds.)
- Indigenous psychologies: Research experience in cultural context. Newbury Park: Sage.
- -Biderman, A., & Zummer, H (1961) The manipulation of human behavior. New York: Wiley.
- -Boring, E. (1957). A history of experimental psychology. New York: Appleton-Century Crofts.
- -Brackbill, Y (1962) Research and clinical work with children, In R. Baner (Ed.),
- Some views on soviet psychology. Westport: Greenwood Press.
- -Bronfenbrenner, U (1962) Soviet studies of personality development and socialization. In R. Bauer (Ed.). Some views on Soviet psychology, Westport: Greenwood Press
- -Burnette, E. (1997) APA's divisions give minorities a voice. The APA Monitor. 28, 20.
- -Byrne, D (1971). The attraction paradigm. New York: Academic Press.
- -Cattell, J.(1894). The American Psychological Association. Psychological Review, 1,214-215.
- -Danziger, K.(1979). The Positivist Repudiation of wundt. Journal of The History of The Behavioral Sciences, 15,295 -
- -Danziger, K. (1983). Origins and basic principles of Wundt's Volkerpsychologie.
- British Journal of Social Psychology, 22,303-313.
- -Deregowski, J. (1980). Illusions, patterns and pictures: A cross cultural perspective London: Academic Press.
- -Dernburg, B.(1912). Cited by p. propst (1996). Psychology and colonialism in Germany:
- Richard Thurnwald. International Psychologist, 37,15-18.
- -Fleishman, E. (1962). Observations on Soviet educational and industrial psychology.
- In R. Bauer (Ed.). Some views on Soviet psychology. Westport: Greenwood Press.
- -Garvey, C. (1929). List of American psychological laboratories. Psychological Bulletin, 26.652-660.

-Gilbert, S. (1928). The stammering century. New York Day.

-Grunder, H (1985) Cited by P. Probst. (1996) Psychology and colonialism in Germany: Richard Thurmwald International Psychologist, 37.15-18.

-Hamilton, L. (1911) Cited by P. Probst (1996). Psychology and colonialism in Germany: Ritchard Thurnwald. International Psychologist. 37 15-18.

-Kandel, D (1978) Similarity in real-life adolescent friendship pairs. Journal of Personality and Social Psychology 31.306-311.

-Kendler, H. (1987). Historical foundations of modern psychology. Philadelphia.

Temple University Press.

-Kim, U., &Berry, J (1993). Indigenous psychologies Research and experience in cultural context. Newbury Park: Sage.

-Khaleefa, O., & Ashria, I (1995). The concept of culture and social sciences. A crosscultural. View. Encounters. 1,3-73.

-Koestler, A. (1967). The Gohost in the machine. London. Hutchinson.

-Lazarus, R. (1975) The psychology of stress and coping, with particular reference to Isnel. Address given at the International Conference on Psychological Stress and Adjustment in Times of War and Peace Tel Aviv, Israel, January, 6-10.
 1975. Unpublished manuscript.

-Lonner, W. (1980) A decade of cross-cultural psychology JCCP.1970 - 1979 Journal of Cross Cultural Psychology, 11, 7-34

-Marks, J (1979) The search for the "Manchunan Candidate". The CIA and The mind control London Penguin Books.

-Mazrui, A. (1974). World culture and the black experience. Seattle and London

University of Washington Press

-Mazrui, A. (1978) Political values and the educated class in Africa. London:

Heineman.

-Moghaddam, F., Taylor, D., &Wnght, S. (1993). Social psychology in cross-cultural perspective. New York: W.H. Free-man and Company

-Moughrabi, F (1981) A political technology in the soul Arab Studies Quarterly, 3.68-88.

-Naimark, H (1997) Psychology International, 8, 1&7

-Probst, p. (1996) Psychology and colonialism in Germany: Ritchard Thurward.

International Psychologist, 37, 15-18.

-Psychology International (1997),8,9.

-Ragatz, L. (1963) The fall of the planter class in the British Caribbean 1763-1833: A Study in social and economic history. New York: Octason.

-Razran, G. (1957) Recent Russian psychology: 1950-1956, Contemporary

Psychology, 2, 93-101.

-Razran, G. (1959). Soviet psychology and psychophysiology. Behavioral Science, 4, 35-48

-Reitman, W. (1962) Some Soviet investigations of thinking, problem solving, and related areas. In R. Bauer (Ed.). Some views on Soviet psychology. Westport. Greenwood Press

-Reitman W., Murphy, G., & Murphy, L. (1962). Soviet life and Soviet psychology

In R Bauer (Ed.) Some views on Soviet psychology Westport, Greenwood Press.

-Rivers, W. (1901). Vision. in "Reports of the Cambridge anthropological expedition to Torres Straits". W.Rivers (Ed) Cambridge: Cambridge University Press

-Rivers, W (1905) Observations on the senses of the Todas British Journal of Psychology, 1,321-396.

-Rosenzweig, M (1982). Trends in development and status of psychology: An international perspective. International Journal of Psychology, 17, 117-140

-Rosenzweig, M. (1994). The diverse origins and the development of psychology in the USA. International Journal of Psychology, 29, 739-756

Sargant, W. (1963). Battle for the mand. London. Pan Book.

Seldes, G. (1928). The stammering century, New York: Day,

-Simon, B (Ed.). (1957). Psychology in the Soviet Union Stanford: Stanford University Press

_ عالمالفکر ___

-Skinner, B. (1974). Beyond freedom and dignity. London Pelican Books

-Sokal, M. (1992) Origins and early years of the American Psychological Association, 1890 - 1906. American psychologist, 47,111-122.

-Spiegel, P., &Koocher, G. (1985). Ethics in psychology. New York: Random House.

-Walker, (1997). Israel claims use of force justified on terror suspects The Times, 65 - 885, Friday, 9th ,1997. P. 15

-Wallerstein, H. (1997). The west and The rest. International Sociological Association (ISA)Bulletin. 72.1.

-Wechsler, D. (1981). WAIS-R Manual Texas: The Psychological Corporation.

Winn, R. (Ed.) (1961a). Soviet psychology New York: Philosophical Library.

-Winn, R. (Ed.) (1961b). Psychotherapy in the Soviet Union. New York: Philosophical Library.

البيان	مجلة عالم الفكر		مجلة الثقافة العالمية سلسلة عالم المعرفة		سلسلة المسرح العالمي			
	د.ك	دولار	۵. ۵	دولار	4.s	eelle	చిప	دولار
لؤسسات داحل الكويت	17	-	14	-	40	-	۲.	-
لأفراد داخل الكويت	7	-	٦	-	10	-	1.	-
لؤسسات في دول الخليج العربي	17	-	17	-	۳۰	-	3.7	- 1
لأفراد في دول الخليج العربي	٨	-	Α	-	17	-	17	-
لؤسسات في الدول العربية الأخرى	-	۲.	- 1	۲.	-	0.	-	0.
لأفراد في الدول العربية الأخرى	-	١.	-	10	-	70	-	40
لؤسسات خارج الوطن العربي	-	٤٠	-	٥٠	-	1	-	1
لأقراد خارج الوطن العربي	-	7.	-	To	-	0 +	-	0.

رغبتكم في: تسجيل اشتراك معديد اشتراك المستراك	الرجاء ملء البيانات في حالة
	الاسم:
	العنوان:
مدة الاشتراك :	اسم المطبوعة:
نقداً / شيك رقم:	المبلغ المرسل:
التاريخ: / / ١٩٩	التــوقيــــع :

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب مع مراعاة سداد عمولة البنك المحول عليه المبلغ في الكويت .

وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ص. ب: ٣٩٩٩٦ _الصفاة _الرمز البريدي 13100 دولة الكويت



سعر النسخة

دينار كويتي.

ثلاثة دولارات أمريكية أو مايعادلها.

الكويت ودول الخليج الدول العربية الأخرى خارج الوطن العربي